

تأليف

محمد كرد علي

الجزء الخامس

الناشر

مكتبة النوري

دمشق

الطبعة الثانية
مصححة بقلم المؤلف
طبعت بإذن من ورثته

الطبعة الثالثة
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

طبع على مطابع :
مؤسسة الاعلمي للمطبوعات - بيروت ص.ب. : ٧١٢٠

التاريخ المدني

الجيش

جيوش الأشوريين والفراعنة والعبرانيين :

لم تُغلب القبائل الأولى التي كانت تسكن الشام على أمرها ، إلا يوم جاءها من أشور جيش منظم في الجملة أغار عليها واستصفى أرضها ، وإذا عرفنا أن الأشوريين عرفوا بسفك الدماء ، وأنهم طالما أسروا شعوباً برمتها ، وأنهم يعتقدون في ملوكهم الخلافة عن الله في الأرض كما كان الروس والعثمانيون يقولون بذلك إلى عهد قريب — ندرك مبلغهم من الطاعة ، وأن الأرواح كانت نهب صاحب الشأن ، يُنهبها كما يشاء ، ويصرفها في السبيل التي يراها . والدولة التي تستطيع أن تأسر أُمة بأسرها ، تجيش جيشاً يستميت في قيام أمرها ، ويطيع قواده طاعة عمياء .

كان الأشوريون أو الكلدان يغزون في فصل الربيع من كل عام ، وسلاحهم الرمح والسيف ، والترس ، والدرع ، والقوس والنشاب ، ولهم من أدوات النقل المركبات والعربات ، واخترعوا آلات لافتتاح المدن والقلاع . يقسمون جيوشهم ثلاث فرق ، فرقة المشاة وهم القواسة ، وفرقة الفرسان وهم الرماحة ، وفرقة راكبي العربات الحربية وهم حاملو السيوف والأتراس . وكانت الأوامر تصدر إلى القواد من الملك مباشرةً ، وتبلغ إلى من يلزم على نظام غريب ، ولم يؤثر أن غُلب الجيش الأشوري في وقعة واحدة .

ومن هذا الجيش ذاقت الشام أيام استيلاء الأشوريين عليها القهر والذل .

وكان الفراعنة الذين امتد سلطانهم على بعض أرجاء القطر زمناً يُجنّدون أحياناً من الشاميين ، ولكننا لا نعرف كيف كانوا يجندون ، وقد ظهرت نماذج من أنظمتهم الحربية عرفناها بما حفظ من آثارهم في المتحف المصري . وكانوا إلى العز أيام تماسك جيوشهم ، وإلى الذل إذا ضعف نظامهم في جنديتهم ، مثل أيام ملوك الرعاة المعروفين بالهيكسوس وهم العرب أو العمالقة .

واشتهر العبرانيون أولاً أنهم أمة حربية ، وكان لكل سبط من أسباطهم حامية أو جيش صغير يدفع به عدوه ، وقد لا يكون من الأسباط الأخرى . ولذلك كان بأسهم بينهم على الأغلب ، فكان العبراني أسداً على نفسه وعلى أبناء جنسه ، ونعامة يوم يوافيه الغريب ، يؤثر أن يرأم للذلة ، على أن يُرخص روحه في الذود عن حماه . وكان بقاء الشعب الإسرائيلي في التيه على عهد موسى الكليم سنين طويلة من الحكم التي قُصد بها انقراض شيوخهم المستضعفين ، وتربية الشبان على الأخلاق الحربية ، فتجدد شباب هذه الأمة بهذه الرحلة الطويلة . ولما جاءت جيوش بُخت نُصر الفارسي وأدريانوس الروماني إلى فلسطين أذاقت أبناء إسرائيل الويلات ولم يغنِ عنهم ما جيّشوه من الجيوش ، ولا ما كتّبوه من كتائب .

جيش اليونان والرومان :

كانت جيوش الأمم القديمة كما هو الحال عند بعض الأمم الحديثة ولا سيما المستعمرة أخلاطاً من الشعوب وأجيالاً من الناس . والأمة التي يكون جيشها من عنصر واحد أو سواده الأعظم منه تكتب لها الغلبة على الأكثر ، ويكون نظامها أتم وتحمسها في النيل من العدو أكثر ، وما نظنّ أن الجيش الذي جاء به الإسكندر المقدوني إلى هذه الديار وهو لا يتجاوز الثلاثين ألف راجل وأربعة آلاف وخمسمائة فارس ، إلا مؤلفاً من عنصر واحد ، وهو الجيش الذي غلب الفرس على كثرة جيوشهم وقضى على دولتهم وسلطانهم وفتح الشرق القريب والأوسط .

وكان جيش الإسكندر أحسن جيش عهد في اليونان ، ويتألف الجحفل اليوناني من ١٦ ألفاً من الرجال مصفوفين أُلوفاً أُلوفاً ستة عشر صفاً يحمل كل واحد منها رمحاً طوله ستة أمتار ، وكان المقدونيون لا يسيرون في ساحة الوغى إلى جهة العدو ، بل يقفون ولا حراك بهم ، ويضربون عدوهم برماحهم من كل جانب ، فيرفع جنود المؤخرة رماحهم من فوق رؤوس الصفوف الأولى ، بحيث كان الجيش يشبه حيواناً عظيماً قد انتصب وعليه الحديد ، والعدو يداهمه فيتحطم ، والجيش مؤلف على الأغلب من خيار فتيان الأشراف .

واشتهرت الجيوش الرومانية بشدّتها وحسن نظامها ، وما نظن رومية إلا أنها كانت تجند من أبناء هذه الديار كثيراً ، لأن الشام أنبغت عدة رجال غدوا أباطرة وقواداً في رومية ، فيستحيل ألاّ يشترك أبناؤها في جنديتها ، وألاّ تكون منهم الكتائب المنظمة والمتطوّعة أو المستأجرة على شروط معينة ، خصوصاً والشام كانت ولاية رومانية . وكان يقضى على كل من يدخل الجيش الروماني أن يكون وطنياً رومانياً وأن يكون له مورد ثروة ليجهز نفسه بالسلاح ويأكل ويلبس ، ويعفى الفقراء من هذه الخدمة . وكان من له حق التجند تبعاً لقائده من سن السابعة عشرة إلى السادسة والأربعين ، وكان كل فرد في رومية كما كان في المدن الرومانية وطنياً وجندياً معاً ، ومتى احتاجت الدولة إلى الجند يصدر القنصل أمره إلى جميع الوطنيين فيأتون ويحلفون يمين الإخلاص والطاعة للقائد ، ويتعاهدون أن يقاتلوا دون أعلامهم ، ويحق للقائد أن يقتل جنديّه أو يبقي عليه ، فلا يستطيع جندي أن يفر من الزحف أو يتزحزح عن محله إلا بأمر قائده ، وسلاحهم الرماح والسيوف ويستعملون الدروع والخوذ والأتراس ويمرنون أبداً جنودهم في إنشاء الطرق والجسور والمجاري ، إذا لم يكن أمامهم عدو يقاتلونه أو متاريس يقيمونها .

الجيش العربي مع الرومي :

فتح الجيش الروماني أعظم مملكة في العصور السالفة ، أيام كانت قوته

تامة ، ورابطته متينة ، وقيادته موحدة ، فلما ضعفت مميزاته ، انحلت المملكة وانقسمت إلى مملكتين : مملكة الروم الشرقية وعاصمتها القسطنطينية ، ومملكة الروم الغربية وعاصمتها رومية . وكان نصيب هذا القطر أن يقع في حصة المملكة الشرقية في القسمة . وهذه المملكة هي التي حاربتها جيوش العرب لما جاءت لفتح الشام .

وكان الجيش الرومي الذي قاتل العرب على اليرموك وفي دمشق وفِحل وأجنادين وقيسارية وبَيسان وقنسرين وإيلياء مؤلفاً من الروم ومن العرب المتنصرة ومن الأرمن ، وجمهرته الروم ، وإذ كان جيشاً مرتجلاً لم يدرب زمناً وكان جيش العرب روحاً واحداً ، كتبت له الغلبة على قلته وكِثْرة عدد أعدائه وعُددهم ، فنال الجيش العربي من الروم ، وإن كانوا لأول أمرهم مشهورين بالطاعة لسادتهم ، ولما جاءتهم العرب كان أمرهم قد انحلّ ، وميزاتهم قد ضعفت ، بل أصبح جيشهم مثال الجيوش المتفسخة ، ووقعتهم على الواقوصة في اليرموك مع العرب من أدهش أمارات الضعف والغفلة .

كان الجيش العربي مشهوراً بنظامه وطاعته لقواده ، ومهارة هؤلاء وحنكتهم ، وكانت للعرب عناية خاصة بالاحتفاظ بخطوط رجعتهم ، ولكن أية رجعة لجيش منه من جاء من مكان قصي يبلغ طوله ألفي كيلومتر ، ومنه من أقل ومنه من أكثر ، وإذا فرضنا أن مدينة الرسول كانت أس الحركات الحربية ، وأن العرب كانوا قد فتحوا الحجاز كله يوم جاءوا لفتح الشام ، فجعلوا معسكرهم في أقصى حدودها الشمالية ، فخط الرجعة على كل حال لا يقل عن بضع مئات من الكيلومترات ، يمر في سباسب وبَوادٍ لا ماء في أكثرها ولا كلأ ، وكيف كان يتأتى الظفر لو لم يكن قلب كل جندي حصناً قائماً بالإيمان ، معموراً بالطاعة للسلطان ؟

كان الجيش الذي فتح الشام مُخفاً مقلاً من كل شيء ، مقلاً من الزاد ، مقلاً من السلاح ، مقلاً من الظهر ، والخيول قليلة فيه والإبل أكثر ، والإبل تصبر على العطش أياماً ، أما الجند العربي فكان يصبر على الجوع والعطش معاً . قال جويدي : تعلمت العرب صناعة الحرب من الفرس والروم وكان ذلك سبباً لدخول ألفاظ رومية وفارسية كثيرة في لغتهم .

ولما فتحت الشام قسمت خمسة أجناد أي خمسة فيالق بحسب مصطلح هذه الأيام . فسمّيت كل ناحية بجند كانوا يقبضون أعطياتهم فيها ، وكان الجنود أولاً من عرب الجزيرة ثم دخل فيهم من دان بالإسلام من جميع الشعوب المغلوبة،وكان اليمانيونأكثرية الجيش الشامي،وعليهم جلّ اعتماد رأس بني أمية في الشام . ذكروا أن سفيان بن عوف كان اتخذ من كل جند من أجناد الشام رجالاً أهل فروسية ونجدة وعفاف وسياسة وحروب وكانوا عدة له قد عرفهم وعرفوا به .

بعض قوانين الجيش العربي :

ومن الجيش ما كان تحت الطلب في كل ساعة ، ومنه ما يجند أي يجمع في أيام قلائل حين الحاجة ، والأعطيات للجنود دارة في كل شهر ، ولهم معظم المغانم في الحروب ، يتقاسمونها مع قوادهم بحسب بلائهم ورتبهم ودرجاتهم ، وللجند مصطلحات معلومة ولهم أمراء وقواد ، يعرّفون عليهم العرفاء وينقّبون عليهم النقباء ، لتعرف من عرفائهم ونقبائهم أحوالهم كما قال الماوردي . ولكل طائفة شعار يتداعون به ليصيروا متميزين وبالاجتماع متظافرين ، وللأمير «أن يتصفح الجيش (أي يستعرضه ويفتشه) ومن فيه ليخرج من كان فيه تخذيل للمجاهدين وإرجاف للمسلمين أو عين لهم للمشركين . وإن احتاج أمير المؤمنين إلى جند وكتب إلى من ولاه ناحية من بلاده بإشخاصهم إليه أو إلى أي ناحية من النواحي أو إلى عدو من أعدائه خالفه أو أراد نقض شيء من سلطانه أن ينفذ أمره ولا يخالفه ولا يقصر في شيء كتب به إليه » .

وأوجبوا على أمير الجيش في سياسته عشرة أشياء : أحدها حراستهم من غرة يظفر بها العدو منهم ، وذلك بأن يتتبع المكامن ويحوّط سوادهم بحرس يأمنون به على نفوسهم ورجالهم ، ليسكنوا في وقت الدّعة ويأمنوا ما وراءهم في وقت المحاربة . والثاني أن يتخيّر لهم موضع نزولهم لمحاربة عدوهم ، وذلك أن يكون أوطأ الأرض مكاناً ، وأكثرها مرعى وماء ، وأحرسها أكنافاً وأطرافاً ليكون أعون لهم على المنازلة ، وأقوى لهم على

المرابطة . والثالث إعداد ما يحتاج الجيش إليه من زاد وعلوفة ، تفرق عليهم في وقت الحاجة حتى تسكن نفوسهم إلى مادة يستغنون عن طلبها ليكونوا على الحرب أوفر ، وعلى منازلة العدو أقدر . والرابع أن يعرف أخبار عدوه حتى يقف عليها ويتصفح أحوالها حتى يخبرها فيسلم من مكره ، ويلتمس الغرة في الهجوم عليه . والخامس ترتيب الجيش في مصاف الحرب والتعويل في كل جهة على من يراه كفؤاً لها ، ويتفقد الصفوف من الخلل فيها ، ويراعي كل جهة يميل العدو إليها بمدد يكون عوناً لها . والسادس أن يقوّي نفوسهم بما يشعرهم من الظفر ، ويخيل لهم من أسباب النصر ، ليقل العدو في أعينهم فيكون عليه أجرأ وبالجرأة يتسهّل الظفر . والسابع أن يعد أهل الصبر والبلاء منهم بثواب الله لو كانوا من أهل الآخرة ، وبالجزاء والنفل من الغنيمة إن كانوا من أهل الدنيا . والثامن أن يشاور ذوي الرأي فيما أعضل ، ويرجع إلى أهل الحزم فيما أشكل ، ليأمنَ الخطأ ويسلم من الزلل . والتاسع أن يأخذ جيشه بما أوجبه الله تعالى من حقوقه ، وأمر به من حدوده ، حتى لا يكون بينهم تجوز في دين ، ولا تحيف في حق . والعاشر أن لا يمكن أحداً من جيشه أن يتشاغل بتجارة أو زراعة ، لصرفه الاهتمام بها من مصابرة العدو وصدق الجهاد .

ولهم في هذا الباب قوانين مهمة لا تقل في حفظ رابطة الجيش عن كثير من قوانين الجندية في الحرب والسلم في هذا العهد الحديث ، منها أنه لا يجوز إذا نقض العدو عهداً أن يُقتل ما في أيدي المسلمين من رهائنهم . فقد نقض الروم عهدهم زمن معاوية وفي يده رهائن فامتنع المسلمون جميعاً من قتلهم وخلوا سبيلهم ، وقالوا : وفاء بغدر ،خير من غدر بغدر . ومنها أنه يجوز لأمير الجيش في حصار العدو أن ينصب عليهم العرادات والمنجنيقات وأن يهدم عليهم منازلهم ، وأن يضع عليهم البيات والتحريق . وإذا رأى في قطع نخلهم وشجرهم صلاحاً يستضعفهم به ليظفر بهم عنوةً أو يدخلوا في السلم صلحاً فعل ، ولا يفعل إن لم يرَ فيه صلاحاً .

وذكر ابن خلدون أن الحرب أول الإسلام كانت زحفاً كلها ، والزحف أن تمشي الفئتان المتقاتلتان كل فئة مشياً رويداً إلى الفئة الأخرى

قبل التداني للضراب ، وهي مزاحف أهل الحرب ، وربما استجنت الرجالة بجثثها ، وتزاحفت من قعود ، إلى أن يعرض لها الضراب أو الطعان . وكان العرب إنما يعرفون الكرّ والفر حملهم على إبداله أمران أول الإسلام ، أحدهما أن أعداءهم كانوا يقاتلون زحفاً فيضطرون إلى مقاتلتهم مثل قتالهم ، الثاني أنهم كانوا مستميتين في جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر ، ولما رسخ فيهم من الإيمان ، والزحف إلى الاستماتة أقرب . وأول من أبطل الصف في الحروب وصار إلى التعبية كراديس مروان بن الحكم ، أبطل الصف فتنوسي قتال الزحف . وزعموا أن امرأة قالت لولدها : إذا رأت العينُ العينَ فدغواً ولا صفاً ، أي ادغروا عليهم أي احملوا ولا تصفوا صفاً .

وكان قواد الجيوش يرسمون الخطط الحربية بحسب قواعد لهم قديمة ، أو يستنبطونها من الحال والموقع ، كما فعل علي بن أبي طالب يوم صِفين فدعا زياد بن النضر وشُريح بن هانئْ فعقد لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس ، وقال : ليس كل واحد منكما منفرداً عن صاحبه ، فإن جمعتكما حرب فأنت يا زياد الأمير ، واعلما أن مقدمة القوم عيونهم ، وعيونَ المقدمة طلائعهم ، فإياكما أن تسأما عن توجيه الطلائع ولا تسيرا بالكتائب والقبائل من لدن مسيركما إلى نزولكما إلا بتعبية وحذر ، وإذا نزلتم بعدو أو نزل بكم فليكن معسكركم في أشرف المواضع ، ليكن ذلك لكم حصناً حصيناً ، وإذا غشيكم الليل فحفوا عسكركم بالرماح والتِرَسَة ، وليَلِهم الرماة ، وما أقمتم فكذلك فكونوا ، لئلا يصاب منكم غِرة ، واحرسا عسكركما بأنفسكما ولا تذوقا نوماً إلا غِراراً ومضمضة ، وليكن عندي خبركما فإني — ولا شيء إلا ما شاء الله — حثيث السير في أثركما ، ولا تقاتلا حتى تبدءا أو يأتيكما أمري إن شاء الله .

ولقد كان للجيش ثكنات لإيواء الجند ، قال ابن حوقل : ليس من مدينة عظيمة إلا وبها دار ينزلها غزاة تلك البلدة ، ويرابطون بها إذا وردوها ، وتكثر لديهم الصلات ، وترد عليهم الأموال والصدقات العظيمة ، إلى ما كان السلاطين يتكلفونه ، وأرباب النعم يعانونه وينفذونه ، متطوعين متبرعين ، ولم يكن في ناحية رئيس ولا نفيس ، إلا وله عليها وقف من

ضيعة ذات مزارع وغلات ، أو مسقف من فنادق اه . ولقد جعل بعض الأغنياء دأبهم إذا اجتازت بهم الجيوش أن يَقْروها ويَبروها . ومن رجال بني أمية من جعل ذلك ديدنه ، وأهل الخير على اختلاف طبقاتهم يتصدقون على الجيش .

واشترط العرب على أهل الذمّة أن يؤووا جندهم ثلاثة أيام على الأغلب ويطعموهم من طعامهم ، عناية من الفاتح بجنوده ، وحتى لا تتبرم الرعية بنزولهم عليهم إن لم يكن لهم حق النزول . وكانوا لأول أمرهم يختارون النزول في الخيام والمضارب ، فإذا كلِب الشتاء ينزلون في المدن والقرى، ويأوون إلى دور الروم الذين رحلوا بقدوم الفاتحين ، وأول من أنزل الجند في بيوت غيرهم الحجاج ، أنزل أهل الشام ببيوت أهل الكوفة .

وكان الأمويون في بعض أدوارهم يجندون الشبان ويجردونهم ليعرفوا عاهاتهم وحالتهم من الصحة . وفي الأغاني أن الحجاج ضرب البعث على المحتلمين ومن أنبت من الصبيان، فكانت المرأة تجيء إلى ابنها وقد جُرِد فتضمه إليها وتقول له: بأبي، جزعاً عليه، فسمي ذلك الجيش جيش بأبي . وقد أُحضر ابن عبدل فوجد أعرج فأعفي عنه فقال بذلك :

لعمري لقد جردتني فوجدتني كثير العيوب سيءَ المتجرَّد
فأعفيتني لما رأيت زمانتي ووفقت مني للقضاء المسدَّد

وكان غرامهم بالخيل المطهمة يدربونها على الطراد ويربونها ويتعهدونها ، ومن ملوكهم من يستكثر منها جداً لتكون معدّة ليوم الشدة . روى ابن السائب الكلبي أن هشام بن عبد الملك قال يوماً لقوامه على خيله : كم أكثر ما ضمّت حلبة من الخيل في الجاهلية والإسلام ، قالوا : ألف فرس وقيل ألفان . فأمر أن يؤذّن بالناس بحلبة تضم أربعة آلاف فرس فقيل له : يا أمير المؤمنين يحطم بعضها بعضاً فلا يتسع لها طريق . قال : نطلقها ونتوكل على الله والله الصانع . فجعل الغاية خمسين ومائتي غلوة والقصب مائة والقوس ستة أسهم ، وقاد إليه الناس من كل أوب ، ثم برز هشام إلى دهناء الرصافة قبيل الحلبة بأيام فأصلح طريقاً واسعاً لا يضيق بها ، فأُرسلت يوم الحلبة بين يديه وهو ينظر إليها تدور حتى ترجع وجعل الناس يتراءونها — نقله ياقوت .

تعبية الجيش العربي :

وذكر بعض العارفين من علماء العرب أن أكثر من وضع شيئاً في تعبية الحروب جعل أعداد أصحاب السلاح ١٦,٣٨٤ وجعل جيش العُزّل نصف هذا العدد ، وجيش الفرسان نصف جيش العُزّل . وذلك أن هذا العدد ينقسم بقسمين إلى أن ينتهي إلى الواحد ، وإذا جعلنا الصّف المتقاطر ستة عشر رجلاً يجب أن يكون في هذا العدد من الصفوف المتقاطرة ألف صف وأربعة وعشرون صفاً . وهذه الصفوف تنقسم إلى أنواع ، فكل ستة عشر تسمى صفاً ، وكل صفين من هذه الصفوف المتقاطرة تسمى عُصبة ، وعدد من فيها من الرجال اثنان وثلاثون رجلاً ، والمقدم عليهم يسمى صاحب العصبة ، وكل أربعة صفوف متقاطرة تسمى مِقنباً ، والذي يرأسه يدعى صاحب المقنب ، وعدد من فيها من الرجال أربعة وستون رجلاً ، وكل مقنبين يسميان كردوساً ، وعدد من فيه من الرجال مائة وثمانية وعشرون رجلاً من الصفوف المتقاطرة ثمانية ، والمقدم عليها يسمى صاحب المائة ويدعى رئيس الكردوس ، وكل كردوسين يسميان جحفلاً ، ويسميان أيضاً فئة ، وعدد من فيها من الصفوف المتقاطرة ستة عشر صفاً ، ومن الرجال مائتان وستة وخمسون رجلاً ،والمقدم عليهم رئيس الفئة أو الجحفل ، وكل جحفل يجمع من هذا العدد خمسة رجال مختارين ومنهم صاحب الراية وصاحب الساقة وصاحب البوق والخادم .

قال : والذي أختاره أن يكون غلمانه خلفه ، يرتبون كترتيب الصفوف المتقاطرة حتى لا يخرجوا عن الصفوف ، وشكل الجحفل مربعاً كرقعة الشطرنج ثمانية في ثمانية ، وهذا ستة عشر طولاً وستة عشر عرضاً . وكل جحفلين يدعيان كوكبة ، وعدد من فيها من الرجال خمسمائة واثنا عشر رجلاً ، ومن الصفوف المتقاطرة اثنان وثلاثون صفاً ، ويسمى المقدم عليهم رئيس الكوكبة ، وكل كوكبتين زمرة ، وعدد من فيها من الرجال ألف وأربعة وعشرون رجلاً ، ومن الصفوف المتقاطرة أربعة وستون صفاً ويسمى صاحبها صاحب الزمرة ، وكل زمرتين طائفة ، وعدد من فيها

من الرجال ألفان وثمانية وأربعون رجلاً ، والمقدم عليهم يسمى رئيس الطائفة . فيها من الصفوف المتقاطرة مائة صف وثمانية وعشرون صفاً ، ومن الناس من يسمي الطائفة الجماعة التامة . ويسمى المتولي عليها رئيس الجماعة التامة ، وكل طائفتين يسميان جيشاً وعدد من فيه من الرجال أربعة آلاف وستة وتسعون رجلاً ، وفيه من الصفوف المتقاطرة مائتا صف وستة وخمسون صفاً ، والمتولي لأمره يدعى رئيس الجيش . وبعض الناس يسميه عسكراً ويسمى المتولي عليها قائد الجيش . وكل جيشين يدعيان خميساً ، وعدد من فيه من الرجال ثمانية آلاف رجل ومائة واثنان وتسعون رجلاً ، ومن الصفوف المتقاطرة خمسمائة صف واثنا عشر صفاً . ومن الجيش طائفة ومنهم من يسميه قافلة ، والمتولي عليه يدعى رئيس القافلة ، وكل خميسين يدعيان العسكر الأعظم ، وفيه من الصفوف المتقاطرة ألف صف وأربعة وعشرون صفاً ، ومن الرجال ستة عشر ألفاً وثلاثمائة وأربعة وثمانون رجلاً وهو العدد الأول ، فيصير مجموع العسكر قافلتين وهما أربعة جيوش والأربعة جيوش اثنان وثلاثون كوكبة وهي أربعة وستون جحفلاً ، وذلك مائة وثمانية وعشرون كردوساً وهي مائتان وستة وخمسون مقنباً وذلك الجمع خمسمائة واثنتا عشرة عصبة وعدد ذلك من الصفوف ما تقدم .

شدة الأمويين ومثال من أوامرهم :

وكان الأمويون من أشد الدول في الشام على جنودهم ، وهم في أحسن جند ، لأن الشاميين عرفوا بطاعة السلطان من عامة أهل البلدان . وبهم يضرب المثل في الطاعة والمشايعة ، وإن لم يخل كل زمن من قوالين بالحق ، ناقمين على القائم بالأمر ، داعين إلى مناقشته . قالوا : وإنما وَريت زناد معاوية بأهل الشام ، لأنه كان في أطوع جند منهم . وكان علي بن أبي طالب في أعصى جند من أهل العراق على الضد . والطاعة أول خطة يسلكها الجندي ، وبفضل هذه الصفة المستحسنة رفعت أعلام الأمويين[١] في الصين من الشرق ،

(١) اول لواء عقده صاحب الرسالة لواء أبيض لعمه حمزة وقال : « خذه يا أسد الله » وأول ما عقدت الرايات في الإسلام يوم حنين ، عقد الرسول راية سوداء من برد عائشة وكانوا قبل ذلك لا يعرفون إلا الألوية وكان اسم رايته العقاب. وكان شعار بني أمية من الألوان البياض=

وفي الأندلس من الغرب وما بينهما من الأقطار والأمصار ، وكان الأمويون إذا عرض لجيوشهم شيء من الضعف يرمونها برجل قوي الشكيمة فيرد جماحها ، ويجمع على الطاعة قلوبها ، كما فعل زياد والحجاج بالعراق ، ولولا شدتهما لخرج ذاك القطر عن طاعة بني أمية .

شكا عبد الملك بن مروان إلى رَوْح بن زِنباع انحلال عسكره ، وأن الناس لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله ، فقال له : إن في شرطتي رجلاً لو قلده أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحل الناس برحيله وأنزلهم بنزوله ، يقال له الحجاج بن يوسف . قال : فإنا قد قلدناه ذلك . فكان لا يقدر أحد أن يتخلف عن الرحيل والنزول إلا أعوان روح بن زنباع ، فوقف عليهم يوماً وقد أرحل الناس وهم على الطعام يأكلون ، فأمر بهم فجلدوا بالسياط وطوّفهم في العسكر ، وأمر بفساطيط روح فأحرقت بالنار . فدخل روح على عبد الملك باكياً ، وشكا مما أتاه الحجاج مع رجاله فقال له

= وشعار بني العباس السواد . ويقال للأمويين المبيضة وللعباسيين المسودة . وكانت راية صلاح الدين صفراء وراية الفاطميين خضراء وراية العثمانيين حمراء وبها هلال ومنها راية مصر اليوم فيها بعض التبديل أشبه بشعار والشعار يختلف أيضاً . وكان شعار الظاهر بيبرس الأسد ويقول ابن طولون الصالحي: إن سنجق الجراكسة كان من حرير أصفر أطلسي بطرز مزركش بشراريب وهلاله من ذهب شبه نعل المصطفى. وقال غيره: وكانت للمماليك راية كبيرة صفراء وهي مطرزة بالذهب وعليها ألقاب السلطان وبعدها راية عظيمة صفراء أيضاً وفي رأسها خصلة من الشعر وهي التي تسمى بالجاليش ويتلو ذلك رايات صفر صغار تسمى الصناجق . وكان اللون الأحمر شعار القيسية واللون الأبيض شعار اليمانية . وجعلوا لون راية دولة الحجاز أيام استقلت عن الترك في الحرب العالمية الأبيض والأحمر والأسود والأخضر جمعوا فيها ألوان دول قديمة أخذوا ذلك فيما قيل من قول الصفي الحلي :

بيض صنائعنا سود وقائعنا خضر مرابعنا حمر مواضينا

وكانت العرب في كل حروبهم يستميتون دون راياتهم فإذا سقطت الراية فكأن الانحلال دب الى الجيش المحارب . ولما أعلن مجلس نواب الشام استقلال سورية في عهد الملك فيصل جعل رايته راية الحجاز بإضافة نجمة في وسطها . ولما احتل الجيش الفرنسي المنطقة الداخلية جعل شعار الدولة السورية أرضاً سماوية اللون وفي وسطها دائرة بيضاء، ثم تبدل ذلك عندما اتحدت حلب بدمشق فجعلت الراية زرقاء وخضراء وبيضاء يعلوها في إحدىناحيتيها العلم المثلث الألوان اي العلم الفرنسي، وجعل علم لبنان أرزة فوقها العلم المثلث . وجعل العلم السوري على الشكل الآتي طوله ضعف عرضه ، ويقسم إلى ثلاثة ألوان متساوية متوازية أعلاها الأخضر فالأبيض فالأسود على أن يحتوي القسم الأبيض منها في خط مستقيم واحد على ثلاثة كواكب حمراء ذات خمسة أشعة .

الخليفة: عليّ به. فلما دخل عليه قال له : ما حملك على ما فعلت . قال : أنا ما فعلت ، قال : ومن فعل ؟ قال : أنت فعلت ، إنما يدي يدك ، وسوطي سوطك ، وما على أمير المؤمنين أن يخلف لروح عوض الفسطاط فسطاطين ، وعوض الغلام غلامين ، فلا يكسرني فيما قدمني له ، فأخلف لروح ما ذهب منه . ولما استقرت البيعة لعبد الملك بن مروان أراد الخروج إلى مصعب بن الزبير فجعل يستنفر أهل الشام فيبطئون عليه فقال له الحجاج ابن يوسف : سلطني عليهم فوالله لأخرجنهم معك . قال له : قد سلطتك عليهم . فكان الحجاج لا يمرّ على باب رجل من أهل الشام قد تخلف عن الخروج إلا أحرق عليه داره ، فلما رأى ذلك أهل الشام خرجوا .

ومن رسالة لعبد الحميد الكاتب على لسان مروان إلى ولي عهده عبد الله ابن مروان حين وجهه لمحاربة الضحاك الخارجي وفيها بعض قواعد الحرب المعروفة عند الأمويين قال: «إذا كنت من عدوك على مسافة دانية وسَنَن لقاء مختصر ، وكان من عسكرك مقترباً ، قد شامت طلائعك مقدمات ضلالته ، وحماة فتنته ، فتأهب أهبة المناجزة ، وأعدّ إعداد الحذر ، وكتّب خيولك ، وعبّ جنودك ، وإياك والمسير إلا مقدمة وميمنة ، وميسرة وساقة ، قد شهروا بالأسلحة ، ونشروا البنود والأعلام ، وعرف جندك مراكزهم سائرين تحت ألويتهم ، قد أخذوا أهبة القتال ، واستعدوا للقاء ، ملحين إلى مواقفهم ، عارفين بمواضعهم من مسيرهم ومعسكرهم ، وليكن ترجلهم وتنزلهم على راياتهم وأعلامهم ومراكزهم ، وعرّف كل قائد وأصحابه موقعهم من الميمنة والميسرة والقلب والساقة والطليعة ، لازمين لها غير مخلين بما استنجدتهم له ، ولا متهاونين بما أهبت بهم إليه ، حتى تكون عساكرهم في كل منهل تصل إليه ، ومسافة تختارها ، كأنه عسكر واحد في اجتماعها على العدة ، وأخذها بالحزم ، ومسيرها على راياتها ، ونزولها على مراكزها ، ومعرفتها بمواضعها ، إن أضلت دابة موضعها عرف أهل العسكر من أي المراكز هي ومن صاحبها ، وفي أي المحل حلوله منها ، فردت إليه هداية ومعرفة ونسبة قيادة صاحبها ، فإن تقدّمك بذلك ، وإحكامك له ، اطراح على جندك مؤونة الطلب ، وعناء المعرفة ، وابتغاء الضالة .

« ثم اجعل على ساقتك أوثق أهل عسكرك في نفسك صرامةً ونفاذاً ، ورضاً في العامة وإنصافاً من نفسه للرعية ، وأخذاً بالحق في المعدلة ، مستشعراً تقوى الله وطاعته ، آخذاً بهديك وأدبك ، واقفاً عند أمرك ونهيك ، معتزماً على مناصحتك وتزيينك ، نظيراً لك في الحال ، وشبيهاً بك في الشرف ، وعديلاً في الموضع ، ومقارباً في الصيت ، ثم أكثف معه الجمع ، وأيده بالقوة ، وقوّه بالظهر ، وأعنه بالأموال ، واغمره بالسلاح ، ومره بالعطف على ذوي الضعف من جندك ، ومن رخفت به دابته ، وأصابته نكبة من مرض . أو رجلة أو آفة . من غير أن تأذن لأحد منهم في التنحي عن عسكره ، أو التخلف بعد ترحيله ، إلا المجهود أو المطروق بآفة . ثم تقدم إليه محذراً ، ومره زاجراً ، وانهه مغلظاً بالشدة على من مرّ به منصرفاً عن معسكرك من جندك بغير جوازك ، شاداً لهم أسراً ، وموقرهم حديداً . ومعاقبهم موجعاً أو موجههم إليك فتنهكهم عقوبة ، وتجعلهم لغيرهم من جندك عظة ...

« إجعل خلف ساقتك رجلاً من وجوه قوادك ، جليداً ماضياً ، عفيفاً صارماً ، شهم الرأي ، شديد الحذر ، شكيم القوة ، غير مداهن في عقوبة ، ولا مهين في قوة . في خمسين فارساً من خيلك ، تحشر إليك جندك ، ويلحق بك من يتخلف عنك،بعد الإبلاغ في عقوبتهم والنّهكلهم والتنكيل بهم ... ليكن رحيلك إبّاناً واحداً ، ووقتاً معلوماً . لتخف المؤنة بذلك على جندك . ويعلموا أوان رحيلهم . فيقوموا فيما يريدون من معالجة أطعمتهم ، وإعلاف دوابهم ، وتسكن أفئدتهم إلى الوقت الذي وقفوا عليه، ويطمئن ذوو الحاجات إبان الرحيل . ومتى يكون رحيلك مختلفاً تعظم المؤنة عليك وعلى جندك ، ويخلوا بمراكزهم ، ولا يزال ذوو السفه والنزق يترحلون بالإرجاف ، وينزلون بالتوهم ، حتى لا ينتفع ذو رأي بنوم ولا طمأنينة .

« إياك أن تنادي برحيل من منزل تكون فيه . حتى يأمر صاحب تعبيتك بالوقوف على معسكرك . آخذاً بفوهة جنبتيه بأسلحتهم ، عدةً لأمر إن حضر . ومفاجأة من طليعة العدو إن أراد نهزة ، أو لمحت عندكم غرة ، ثم مر الناس بالرحيل وخيلك واقفة ، وأهبتك مُعَدّة ، وجُنّتك واقية ،

حتى إذا استقللتم من معسكركم ، وتوجهتم من منزلكم ، سرتم على تعبيتكم بسكون ريح ، وهدو جملة وحسن دعة ...

« إياك أن يكون منزلك إلا في خندق أو حصن تأمن به بيات عدوك ، وتستنيم فيه إلى الحزم من مكيدته ، إذا وضعت الأثقال ، وخططت أبنية أهل العسكر لم يمد خباء ، ولم ينتصب بناء ، حتى يقطع لكل قائد ذرع معلوم من الأرض بقدر أصحابه فيحتفروه عليهم ، ويبنون بعد ذلك خنادق الحسك ، طارحين لها دون أشجار الرماح ، ونصب الترسة . لها بابان قد وكلت بعد بحفظ كل باب منهما رجلاً من قوادك في مائة رجل من أصحابه . فإذا فرغ من الخندق كان ذلك القائدان أهلاً لذلك المركز ... وإياك أن يشهروا سيفاً يتجالدون به ، وتقدم إليهم فلا يكون قتالهم بالليل في تلك المواضع من طرقهم إلا بالرماح مسندين لها إلى صدورهم ، والنشاب راشقين به وجوههم ، قد ألبدوا بالترسة ، واستجنوا بالبيض ، وألقوا عليهم سوابغ الدروع ، وجباب الحشو ، فإن صد العدو عنهم حاملين على ناحية أخرى ، كبّر أهل تلك الناحية الأولى وبقية العسكر سكوت ، والناحية التي صدر عنها العدو لازمة لمراكزها ، فعلت في تقويتهم وإمدادهم بمثل صنيعك بإخوانهم . وإياك أن تخمد نار رواقك ، وإذا وقع العدو في معسكرك فأججها ساعراً لها ، وأوقدها حطباً جزلاً ، يعرف بها أهل العسكر مكانك وموضع رواقك ، ويسكن نافر قلوبهم ، ويقوى واهن قوتهم ، ويشد منخذل ظهورهم ، ولا يرجفون فيك بالظنون ، ويجيلون لك آراء السوء . وذلك من فعلك رد عدوك بغيظه ، ولم يستقل منك بظفر ، ولم يبلغ من نكايتك سروراً إن شاء الله اﻫ » .

هذا وقد كانت الشام على عهد أوائل العباسيين كما كانت في العهد الأموي تخرج جنداً لغزو الصوائف والشواتي أي حروب الصيف والشتاء الموجهة إلى الروم . وإن كانوا في جهادهم على الأكثر لا فرق عندهم في الفصول يصيفون ويشتون ويرتَبِعون ويَخرفون .

ذكر المؤرخون أن المأمون أقطع أخاه أبا إسحاق المعتصم الشام ومصر وفرض على دمشق وحمص والأردن ٤٠٠٠ جندي لغزو الصائفة . وذكر

قدامة أن راتب مغازي الصوائف والشواتي في البر والبحر في السنة على التقريب مائتا ألف دينار . وعلى المبالغة ثلاثمائة ألف دينار . وكان ارتفاع الثغور الشامية — أي طرطوس وأذنة والمصيصة وعين زربة والكنيسة والهارونية وبياس ونقابلس — نحو المائة ألف دينار تنفق في مصالحها وسائر وجوه شأنها وهي المراقب والحرس والفواثير (الكشافة) والركاضة (البريديون) والموكلون بالدروب والمخايض والحصون وغير ذلك من الأمور والأحوال ، ويحتاج إلى شحنتها من الجند والصعاليك أي الجند غير المنظم .

وكان إذا عصا بعض عمالهم أو نجم ناجم من الثوار يبعثون بالجيوش من العراق كما أرسلوا جيشاً لحرب نصر بن شبث ، وجيشاً لقتال القرامطة . وكان الجيش الذي ألفه أحمد بن طولون وأولاده من الأسباب القوية في نزع مصر والشام من حكم العباسيين بالفعل . وقد قيل: إن الجيش الذي نظمه أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون لم يتفق مثله لأعظم الفاتحين ، وكان مؤلفاً من صقالبة أي من أهل صقلية من الطليان والروم وغيرهم من العناصر.

أدوات التدمير والسلاح والمواصلات :

كان جلّ الاعتماد في القتل والتخريب على المنجنيق والنشاب ، الأول لتخريب الحصون ودك الأسوار والثاني لإزهاق النفوس . والمنجنيق (بفتح الميم وكسرها) آلة ترمى بها الحجارة بشد سوار مرتفعة جداً من الخشب ، يوضع عليها ما يراد رميه ثم يضرب بسارية توصله لمكان بعيد جداً . وفي التاج : آلة قديمة وضعت قبل وضع النصارى البارود والمدافع ، وأول من رمى به الرسول (ص) في حصار الطائف ، وأول من رمى به في الجاهلية جذيمة الأبرش وهو من ملوك قضاعة . ويستعملون الدبابات وهي أشبه بدبابات هذه الأيام (التانك) وهي جمع دبابة آلة تتخذ في الحصار يدخل في جوفها الرجال ثم تدفع في أصل الحصن فينقبونه وهم في جوفها . ويتخذون أيضاً الحسك (السلك الحديد) يتحصنون وراءه ويمنعون العدو بعض الشيء من مباغتتهم . واخترع بعض الدمشقيين في حصار المسلمين عكا على عهد

صلاح الدين سائلاً إذا قذف به على الصقالات التي توضع لرمي المنجنيقات تشعلها لحينها ، فكان الصليبيون منها في مصيبة . وأهم سلاح عندهم للمهاجمة السيف والرمح وللدفاع الدرع .

ومما كانوا يتقون به مداهمة العدو أن يضعوا مما يلي البلدان من حد الشرق رجالاً لتحرق زرعها ونباتها ، وهي أراض مخصبة كانت تقوم بكفاية خيل القوم مرعى ، فكانت تحرق إضعافاً لهم ، وإقعاداً لحركاتهم ، إذ كانوا من عادتهم أنهم لا يتكلفون علوفة لخيلهم بل يكلونها إلى ما تنبت الأرض ، فإذا كانت أرضاً مخصبة سلكوها ، وإذا كانت مجدبة تجنبوها ، وكانوا لا يفطنون لتقصد حريقها ثم فطنوا ، فصاروا يربطون عليها الطرق ويمسكون منها بالأطراف ، وكان ينفق في هذه المحرقات في كل سنة من الخزانة بدمشق جُمَل من الأموال ، ويجهز فيها أجلاد الرجال . وكان شأنهم في الإحراق استصحاب الثعالب الوحشية والكلاب المنفرة ، ثم يكمن المجهزون لذلك عند أمناء النصاح في كهوف الجبال وبطون الأودية ، وتمضي الأيام حتى يكون يوم ريحه عاصف ، وهواؤه زعزع ، وتعلق النار موثوقة في أذناب الثعالب والكلاب ، ثم تطلق الثعالب والكلاب في أثرها ، وقد جوّعت فتجدّ الثعالب في الهرب ، والكلاب في الطلب ، فتحرق ما مرت به وتعلو الريح النار منه فيما جاوره . هذا إلى ما كانت تلقيه الرجال بأيديها في الليالي المظلمة ، وعشايا الأيام المعتمة.روى ذلك جميعه ابن فضل الله .

واستعمل الملوك والأمراء النشاب للتسلية وإظهار الشجاعة ومعرفة أساليب الرماية، فإذا رموا أصمَوا، وإذا أفضلوا بالغوا، وقد استعمل الأمين لقتال عساكر أخيه المأمون نصول النشاب من خالص الذهب ونقش عليها هذين البيتين:

ومن جودنا نرمي العداة بأسهم   من الذهب الإبريز صيغت نصولها
يداوي بها المجروح منها جراحه   ويشري بها الأكفان منها قتيلها

واستعمل ذلك كثير من الملوك ومنهم السلطان أحمد بن الملك الناصر ابن محمد بن قلاوون ، وكان يجلس كل يوم بين شراريف قلعة الكرك وهو محصور ويرمي سبعة سهام صيغت نصولها من فضة موشاة بذهب وقد نقش عليها هذان البيتان .

كان اعتماد الملوك في نقل الأخبار على ثلاثة أمور : البريد وأول من وضعه في الإسلام معاوية بن أبي سفيان حين استقرت له الخلافة ، فوضع البريد لتسرع إليه الأخبار من جميع أطراف مملكته ، أمر بإحضار رجال من دهاقين الفرس وأهل أعمال الروم وعرفهم ما يريد فوضعوا له البرد واتخذوا له بغالاً بأُكُف كان عليها سفر البريد . وقيل: إن أول من وضع البريد عمر بن الخطاب وإن معاوية أصلحه في سلطانه . ولم يزل البريد قائماً حتى آن لبناء الدولة المروانية أن ينقض ، ولما أن أغزى المهدي ابنه هارون الرشيد الروم ، وأحب ألا يزال على علم قريب من خبره رتب ما بينه وبين معسكر ابنه برداً ، كانت تأتيه بأخباره ، وتريه متجددات أيامه ،

فلما قفل الرشيد قطع المهدي تلك البرد ، ثم رُتب على عهد الرشيد على ما كان عليه أيام بني أُمية ، وجعل البغال في المراكز ، وكان لا يجهز عليه إلا الخليفة أو صاحب الخبر ، ثم جاءت أدوار فلم يكن بين الملوك وما يريدون معرفته من الأخبار إلا الرسل على الخيل والإبل . فلما أتت الدولة الزنكية أقامت لهذا النّجابة ، وأعدت لها النجب المنتخبة ، ودام هذا إلى سقوط دولة بني أيوب . ولما تولى الملك الظاهر بيبرس كان أحرص ما يحرص عليه مواصلته بالأخبار ، وما يتجدد من أخبار التتّر والفرنج . وقال مرة لكاتب الإنشاء شرف الدين عبد الوهاب : إن قدرت ألاّ تبيتني كل ليلة إلا على خبر ، ولا تصبحني إلا على خبر فافعل ، واتخذ لذلك هو ومن بعده مراكز البريد ، تشترى الخيل بمال السلطان ويقام لها السواس والعلوفات . ثم مما يليها خيل البريد المقررة على عربان ذوي إقطاعات عليها خيول موظفة تحضر في هلال كل شهر إلى كل مركز أصحاب النوبة فيه بالخيل ، فإذا انسلخ الشهر جاء غيرهم ، وهم لهذا يسمون خيل الشهارة ، وعلى الشهارة والٍ من قبل السلطان ، يستعرض في رأس كل شهر خيل أصحاب النوبة فيه ، ويدوغها بالداغ السلطاني . وقد جعلوا لها مراكز ومحطات وبنوا عليها خانات وفنادق ومساجد في كل طرف من أطراف المملكة .

هذا ما كان من أمر البريد وأنشأوا في الموصل حمام الزاجل ، فاقتبسه

خلفاء الفاطميين بمصر والشام ، وبالغوا حتى أفردوا له ديواناً وجرائد بأنساب الحمام . نقله من الموصل نور الدين محمود سنة(٥٦٥)وكانوا في النهار يجعلون جل اعتمادهم عليه في نقل الأخبار ولا سيما زمن الحروب الصليبية ، وله مراكز في هذا القطر من الجنوب إلى الشمال . وحمام الزاجل قديم في الإسلام ولعلّ عهده يُردّ إلى ما قبل الدولة العباسية . ومما ذكره المؤرخون أن أماجور أمير دمشق (٢٥٦) أرسل إلى اليرموك رجلاً وأعطاه طيوراً ، قال له:أرسل الطيور بخبرك طيراً بعد طير . ومن جملة ما يعتمدون عليه في الليل المناور وهي مواضع رفع النار في الليل ، والدخان في النهار ، للإعلام بحركات العدو ، إذا قصدوا البلاد للدخول لحرب أو لإغارة ، ولما يرفع من هذه النيران أو يدخن من هذا الدخان أدلة تعرف فيها اختلاف حالات رؤية العدو والمخبر به . باختلاف حالاتها تارة في العدو وتارة في غير ذلك . وقد أرصد في كل منوّر الديادب والنظّارة لرؤية ما وراءهم وإيراء ما أمامهم . والمناور المذكورة تارة تكون على رؤوس الجبال وتارةً تكون في أبنية عالية ، ومواضعها تعرف بها أكثر السفارة ، وهي من أقصى ثغور الإسلام إلى حضرة السلطان ، حتى إن المتجدد بكرة بالفرات كان يعلم به السلطان عشاء في مصر والمتجدد بها عشاء كان يعلم به بكرة . قال صالح بن يحيى:وفي سنة(٦٩٣)جُعلت لأمراء الغرب في لبنان درك بيروت ليراقبوا البحر وجعلوا فيها رهجية وحمام بطاقة مدرج إلى دمشق وخيل بريد، فكانت النار للحوادث في الليل وحمام البطاقة للحوادث في النهار والبريد لما يتجدد من الأخبار وكل ذلك فعلوه خوفاً من رجوع الإفرنج . إلى أن قال:وذلك لأجل ما يتجدد من الأخبار ومنع الإفرنج عن الاجتماع بأهل كسروان . والزاجل والمناور تغني عن الهليوستا والابجكتيف أو البروجكتور عند أهل زماننا .

الجيش على عهد ملوك الطوائف :

كانت جمهرة الجيوش الإسلامية على عهد صلاح الدين مؤلفة من عرب وأكراد وأتراك . وكان صلاح الدين كمعلمه نور الدين من عظام القواد

يعرف علم التعبية والمصافات ولا يغفل يوماً عن تقوية جسمه بالرياضة البدنية ولا سيما لعب الكرة والجريد والصيد والقنص ليستعين بذلك على القتال . وكان أول اتصال صلاح الدين بنور الدين تفوق صلاح الدين بلعب الكرة . وقد ألف صلاح الدين بين القلوب وجمعها على المقصد الذي أراد حتى لا يشعر المرء في جيشه باختلاف في العادات والمنازع .

وارتقى فن الحرب في الدولتين النورية والصلاحية بين الشاميين . والحرب تُعلم في الحرب . والجيش الذي يقوده قائد كنور الدين بنفسه مستعيناً بمشاهير قواده ثم يقوده صلاح الدين بنفسه ومشاهير قواده مكتوب له الظفر لا محالة . وكان الجند موسعاً عليه كل التوسعة ، وهو على قلة عدده بالنسبة لجيوش الصليبيين منصور في أكثر الوقائع . وكانت نسبته نسبة واحد من المسلمين إلى أربعة من الصليبيين كما كان يوم حطين . والفرنجي يلبس زرد الحديد من فرقه إلى قدمه ، وقد لا يقتل إلا إذا جُدِّل حصانه ، والشاميون مخفون من السلاح . وكان اعتماد الفريقين على النشاب والنبال يقف جمازة في حومة الوغى يأخذ منها من خلت جعابه والسلطان بنفسه يصف الأطلاب ويجهز أبداً جيشه ويعلمه للبيكار والجمازة من آلات المحامل والأطلاب الكتائب والبيكار الحملة أو الحرب . والجندي الغازي موفور الكرامة والقواد عند السلطان كإخوته وأشقائه وأولاده والأموال دارة على الجميع كما قال عبد المنعم الجلياني شاعر صلاح الدين :

إن الملوك الذين امتدَّ أمرهمُ ... لم يخزنوا المال بل مهما حَوَوا بذلوا
كذا السياسة فالأجناد لو علموا ... بخل الملوك وجاءت شدةٌ خذلوا

ذكر ياقوت أن الملك العزيز صاحب حلب كان طول مملكته من الشرق إلى الغرب مسيرة خمسة أيام ومثلها من الجنوب إلى الشمال . وفيها ثمانمائة ونيف وعشرون قرية كانت تقوم برزق خمسة آلاف فارس مُزاحي العلة موسع عليهم ، وفيها من الطواشية المفاريد ما يزيد على ألف فارس ، يحصل للواحد منهم في العام من عشرة آلاف درهم إلى خمسة عشر ألف درهم وفي أعمالها إحدى وعشرون قلعة يقام بذخائرها وأرزاق مستحفظيها .

وكان جيش المماليك (البحرية والبرجية) قوتهم الوحيدة إذا أحسنوا

يوماً فإساءتهم أيام . وطاعتهم وغناؤهم وبلاؤهم تبع للسلطان ، إذا كان على أخلاق ومتانة خضعوا واستكانوا وكانوا آلة خير لقتال الأعداء والخوارج على الملك، وإلا أصبحوا من أعظم أدوات الشر ، وكانوا يتمحضون للخدمة ويعيشون بالإقطاعات العظيمة التي كانت لهم ، وإذا نشبت الحرب راجت سوقهم وكثر الخير عليهم لأنهم يجهزون من الدولة بالأموال والألبسة والسلاح والكراع . وكلما جازوا بلداً أو فتحوا مصراً اعتدوا على السكان والمكان وأخذوا ما استطاعوا أخذه من مال وعروض وناطق وصامت .

الجيوش الصليبية والترية :

رأت الشام من ضروب الجيوش على عهد الحروب الصليبية ثم في عهد الحروب المغولية الترية ما يستغرب منه . فإن جيوش الصليبيين كانت مؤلفة من معظم العناصر الفرنجية التي كانت تدين بدين البابوية في أوربا ، بل كانوا يجندون من أحبّ من الوطنيين ولا سيما الموارنة . وكانت جيوش هولاكو وغازان وتيمورلنك مؤلفة من معظم عناصر آسيا . وجميع هذه الجيوش الغربية والشرقية أضرت بهذه الديار أضراراً فاحشة . لأن النظم الحربية الحديثة لم تكن معروفة إذ ذاك ، فكان القائد بحكم الضرورة يتسامح مع أجناده إذا عرقوا لحم من ينزلون عليهم وكسروه سواء كانوا مسالمين أو محاربين . وطول دور الحروب الصليبية في الشام أورث أهله شجاعة واستهانة بالموت حتى كاد يعد جميع أهله جنداً . الشدائد معلمة الشعوب ، وأي شدة على الشام أعظم من أن تجيش أوربا على هذا القطر الصغير قرنين كاملين . وقد اعترف المسلمون للصليبيين بالشجاعة والإقدام . واعترف هؤلاء للمسلمين بمثل ذلك . ومن أجمل ضروب الإنصاف أن ينصف المرء خصمه ويذكر محاسنه كما يذكر مقابحه .

الجيوش في القرون الوسطى وجمعيات الفتوة :

كانت طوائف الأجناد عدة كثيرة تُنسب كما قال القلقشندي كل طائفة منهم إلى من بقي من بقايا خليفة من الخلفاء الماضين منهم كالحافظية والآمرية

من بقايا الحافظ والآمر أو إلى من بقي من بقايا الوزراء الماضين كالجيوشية والأفضلية من بقايا أمير الجيوش بدر الجمالي وولده الأفضل أو إلى من هي منتسبة إليه كالوزيرية أو غير ذلك من القبائل والأجناس كالأتراك والأكراد والغز والديلم والمصامدة أو من المستضعفين كالروم والفرنج والصقالبة أو من السودان من عبيد الشراء أو العتقاء وغيرهم من الطوائف ولكل طائفة منهم قواد ومقدمون يحكمون عليهم .

وكان الجنود في دولة المماليك يقسمون إلى طبقتين : المماليك السلطانية وهم أعظم الأجناد شأناً وأرفعهم قدراً وأشدهم إلى السلطان قرباً وأوفرهم إقطاعاً ، ومنهم تؤمّر الأمراء رتبة بعد رتبة . وهم في العدة بحسب ما يؤثره السلطان من الكثرة والقلة . وقد كان لهم في زمن الناصر محمد بن قلاوون ثم في أيام الظاهر برقوق العدد الجم والمدد الوافر ، لطول مدة ملكهما واعتنائهما بجلب المماليك ومشتراها . والطبقة الثانية أجناد الحلقة وهم عدد جم وخلق كثير ، وربما دخل عليهم من ليس بصفة الجند من المتعممين وغيرهم بواسطة النزول عن الإقطاعات . وقد جرت عادة ديوان الجيش عدم الجمع على الجند كي لا يحاط بعدته ويطلع إليه هذا ما رواه القلقشندي وروى ابن فضل الله أنه كان لكل أربعين نفساً منهم مقدم ليس له عليهم حكم إلا إذا خرج العسكر كانت مواقفهم معه وترتيبهم في موقفهم إليه . وكان أقوش الأفرم إذا مات لأحد من أجناده فرس يحضر الكفل إلى مطبخه ويأخذ من الديوان ستمائة درهم . وإذا خرج إلى بيكار أي حملة فجميع جنوده إلى أن يعودوا لا يطبخ أحد منهم ولا يشتري تبناً ولا شعيراً . وذكر الأسدي أن عبرة العساكر في الشام في القرن التاسع كانت أربعة وعشرين ألف فارس وأنه كان في كل مدينة الأمراء والأجناد . وذكر الظاهري أن الجيوش كانت تنقسم في القرن التاسع أقساماً وهي أجناد حلقة وبحرية وتركمان وعرب وأكراد وغير ذلك . وأجناد الحلقة بدمشق اثنا عشر ألفاً ، ومماليك كافلها والأمراء بها ثلاثة آلاف . وأجناد الحلقة في حلب ستة آلاف ومماليك كافلها والأمراء بها ألفان . وأجناد الحلقة بطرابلس أربعة آلاف ومماليك كافلها والأمراء بها ألف . وأجناد الحلقة بصفد ألف ومماليك

كافلها والأمراء بها ألف. وأجناد الحلقة بغزة ومماليك كافلها والأمراء بها ألف .

وجيش الحلقة هذا هو الجيش القائم دوماً على السلاح وهو ما يقابل باصطلاح هذه الأيام جيش الحامية وكان لكاتب الجيش جريدة بأسماء الأجناد وإقطاعاتهم . ويحتاج صاحب ديوان الإقطاع أن يكون ماضياً فيما يسأل عنه من أمور الأجناد وأحوالهم ، متفقداً لمن يغيب منهم بغير دستور . وكان إلى صاحب ديوان الجيش عرض الأجناد وخيولهم وذكر صلاحهم وشيات خيولهم ، أي علائمها وأشكالها ، وكان من شرط هذا الديوان عندهم أن لا يثبت لأحد من الأجناد إلا الفرس الجيد من ذكور الخيل وإناثها دون البغال والبراذين، وبين يديه نقباء الأمراء يعرفونه أحوال الأجناد من الحياة والموت والغيبة والحضور وغير ذلك — قاله القلقشندي .

أما أجناس الجيوش في مصر والشام فكانت منوعة أي من الترك والشركس والروم والصقالبة وغير ذلك من الأجناس المضاهية للترك في الزي . وكانت للعرب على ما يظهر كتائب خاصة بقيادة أمرائهم يستدعون حين الحاجة للقتال على أصولهم . وجيوش بني حمدان وبني مرداس وبني كلاب وبني كلب وآل الفضل وغيرهم من الملوك والأمراء عرب صرف لأن صاحب العصبية عربي لا يأمن غيرهم . وأكثرية الجيش شراكسة أو أتراك على الغالب والباقون من الشاميين .

ولقد كان بعض الخلفاء والملوك والأمراء إذا شاهدوا أعراض الضعف في قوتهم يعمدون إلى طرق ظاهرها بسيط وباطنها قوة لهم ليتقووا بهم عند الحاجة . أي يكونون جيشاً يرتجل في الحال ويغني غناءه . كما فعل الناصر لدين الله العباسي سنة أربع وستمائة فتقدم إلى الوزير بجمع رؤوس الأحزاب وأن يكتب في ذلك منشور فدخل الناس من الخاص والعام في الفتوة وسأل ملوك الأطراف الفتوة فنفذ إليهم الرسل وقد ألبسهم سراويلات الفتوة بطريقة الوكالة . فمما كتبه الوزير أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه هو أصل الفتوة ومنبعها ، ومنجم أوصافها الشريفة ومطلعها ، وعنه تروى محاسنها وآدابها ، ومنه تشعبت قبائلها وأحزابها ، وإليه دون غيره ينسب الفتيان . فعل ذلك بمرأى من السلف الصالح ومسمع ، ومشهد

من أخيار الصحابة فلم يسمع أن أحداً من الأمة لامه ، ولا طعن عليه طاعن في حد أقامه . إلى أن قال : إن من قتل له رفيق نفساً نهى الله تعالى عن قتلها وحرّمه ، وسفك دماً حقنه الشرع المطهر وعصمه ، وصار بذلك ممن قال الله تعالى في حقه ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ﴾ أن ينزل عنه في الحال في جمع الفتيان عند تحققه لذلك ومعرفته ، ويبادر إلى تغيير رفقته ، مخرجاً له بذلك عن دائرة الفتوة ، وإن كل فتىً يحوي قاتلاً ويخفيه ، ويساعده على أمره ويؤويه ، ينزل كبيره عنه ، ويغير رفاقته ويتبرأ منه ، وإن من حوى ذا عيب فقد عاب وغوى ، ومن آوى طريد الشرع ضل وهوى ، فإن الفتى متى قتل فتىً من حزبه سقطت فتوته . ووجب أن يؤخذ منه القصاص ، وإن قتل غير فتى عوناً من الأعوان أو متعلقاً بديوان في بلد سيدنا الإمام الناصر لدين الله فقد عيب هذا القاتل في حرم صاحب الحرب بالقتل ، فكأنما عيب على كبيرة فسقطت فتوته بهذا السبب . وسلم إلى كل واحد من رؤوس الأحزاب منشور بهذا المثال فيه شهادة اثنين من العدول ، فألزم الناس إجراء الأمر على ما تضمنه هذا المرسوم قائلين في تعهدهم ومتى جرى ما ينافي المأمور به المحدود فيه ، كان الدرك لازماً لهم على ما يراه صاحب الحرب أي الخليفة . وهؤلاء الفتيان كانوا يغتالون كل من يخالفهم حتى أفتى الفقهاء بعد ذلك العصر بتحريم الفتوة وأنكروا نسبتها إلى علي بن أبي طالب وهي أشبه بجمعية فوضوية يعمد إلى تقويتها أيام الضعف .

الجيوش العثمانية :

لما جاء العثمانيون لفتح الشام كانت جيوشهم من العسكر المعروف بـ(يكي « يني » چري) أي العسكر الجديد ، وقد حرف الشاميون والمصريون هذه التسمية بلفظ الإنكشارية ، وهو الجيش الذي ألفه السلطان أورخان بن عثمان باقتراح الوزير قره خليل جاندارلي على أن يؤلف من أولاد المسيحيين من العثمانيين كالبوشناق والروم والصرب والبلغار والألبان ، يجندون بحسب اللزوم وبموجب قانون التجنيد المعروف عندهم بقانون اللقطاء(دوشرمة)وذلك

من أهل الروم ايلي ومن سكان الأناضول على قلة ، ويعفى من ذلك الأرمن وسكان جزيرتي ساقز ورودس ، يأخذونهم من أهلهم من سن العاشرة إلى الخامسة عشرة ويستثنى من ذلك المتزوجون الفتيان ، ويربونهم تربية إسلامية ثم يجعلونهم في الثكنات في الإستانة ، ومنهم من يخدم في قصور السلاطين في أعمال البستنة وغيرها ، ومنهم من يتعلم سبع سنين اللغة التركية خاصة حتى يصبحوا مسلمين أتراكاً ثم ينقلون إلى العاصمة ، وكثير منهم ارتقوا في مناصب الدولة حتى أصبحوا وزراء وقواداً عظاماً وخدموا العثمانيين خدمة عظيمة ، لأن خلّص الأتراك على الأغلب كانوا يفرون من تعليم أولادهم ، وإن كان الآباء عظماء في السلطنة . فانتقلت الأحكام بالطبيعة إلى أيدي فئة من هؤلاء المتعلمين من الإنكشارية .

ولما أسس أورخان هذا الجيش قصد ذات يوم آماسية وكان فيها رجل من الصلحاء اسمه حاجي بكتاش ، والتمس منه أن يسمي هذا الجيش فسماه الوليّ العسكر الجديد (يكي چري) ودعا له بما معناه : بيض الله وجوههم ، وقوى سواعدهم ، وأرهف سيوفهم ، وأهلك الأعداء بسهامهم ، وكتب لهم الغلبة والتوفيق . قال هوار : ذهب قره خليل جاندارلي في تأليفه هذه الكتائب من المشاة بهذا الفخر ، وكان تأليفها في عصر كانت فيه أوربا في القرون الوسطى ، وليس لها من الجيوش إلا عصابات مسلحة ، بل وقبل تنظيم كتائب الرماة في إنكلترا ، وقبل أن أسس شارل السابع ملك فرنسا جيشاً دائماً تحت الطلب بقرن واحد . وقال ميشو : « كان العثمانيون بادئ بدء الأمة الوحيدة التي كان لها تحت السلاح جيش دائم منظم مما كان للدولة به التفوق على الأمم التي تريد إخضاعها لسلطانها . وأصبح لمعظم ممالك أوربا في القرن السادس عشر جيوش يقاومون بها أعداءهم ، فانتشر النظام والتربية العسكرية بسرعة بين شعوب النصرانية ، وأخذت المدفعية والبحرية كل يوم تزيدان نظاماً ورقياً في الغرب ، على حين كان الأتراك يزهدون في التجارب التي وصلت إليها الجيوش البحرية والبرية ، ولا يستفيدون بتاتاً من العلوم التي انتشرت بين أعدائهم وجيرانهم اه » .

أسس العثمانيون جيش الإنكشارية على غير مثال في التاريخ ، خالفوا

فيه الشريعة الإسلامية التي لا تجيز للملك أن يُكره الذميين على استرقاق أولادهم ، واتبعوا فيه العُرف والمصلحة ، ثم دخل فيه سوء الاستعمال في القرن السادس عشر على رأي موردتمان ، وذلك بأن أخذوا يتساهلون بإدخال أناس من المسلمين واليهود والنوَر ،فأخذ جيش الإنكشارية يشبه جيشاً من الأسرى على الأصول الإفريقية الجديدة ، وكان ذلك من أسباب تسرّب الفساد إليه .

كان عدد جيش الإنكشارية لأول تأسيسهم ستة آلاف جندي وقيل ألف جندي ، ثم جاوزوا المائة ألف وقائدهم العام « آغا » الإنكشارية ، وهم يقسمون إلى كتائب وتتألف كل كتيبة من مائة إلى خمسمائة مقاتل ، يعلّمون في الولايات على الكرّ والفرّ ويستخدم بعضهم في خدمة الولاة أو في مزارع أرباب الإقطاعات أو في حوانيت أرباب الصنائع ، ويعيش أفراد هذا الجيش من مياوميات طفيفة وهي « اقچه » واحدة لكل فرد في اليوم ، وتزيد إذا أثبت المقاتل في الحرب كفاءة ، ويقبضون ذلك مرة كل ثلاثة أشهر بأبهة وطنطنة ، وتوزع الإقطاعات على المبرزين منهم من الضباط وغيرهم يعيشون بها زمن السلم ، ويُقضى عليهم في الحرب أن يُجهزوا أنفسهم على نفقتهم .

وكان أغلب الإنكشارية في الولايات من الفرسان وفي العاصمة من المشاة . وسلاح المشاة الدروع والمغافر والأتراس والخناجر مما يخف حمله ، وسلاح الغارات السيوف والرماح والحراب والمعاول يستعملونها في القرب ، ويستعملون في البعد الرماحَ والبنادق والغدارات . وأسلحة الفرسان سيوف مستطيلة وبنادق بفتيل وبنادق بصوان وغدارات وقفافيز من حديد . وقد استعمل العثمانيون أسلحة نارية تشبه المدافع في وقعة قوصوة المشهورة . وكانت المدافع والمكاحل في عسكر السلطان سليم على مرج دابق من أسباب ظفره بجيش المماليك لأن هؤلاء كانوا خلواً منها .

قال أحمد رفيق : ولقد كان العثمانيون يستعملون من السلاح ما خف محمله حتى إن نعال خيولهم كانت على غاية الدقة وذلك لتسير سيراً سريعاً . وكانوا يبدون مهارة فائقة في التقدم وكشف قوة العدو والإحاطة به وتعجيزه .

ويكمنون له ويعنون من وراء الغاية بتعليم الجند وتدريبهم حتى يبلغوا بمن يأخذونهم من الأولاد مرتبة الكمال . يعلمونهم الألعاب الرياضية واستعمال القوس والنشاب ثم الرماية بالبنادق . ويدربونهم على لعب الجريد والمسايفة ليل نهار . وتتبدل الأسلحة بتبدل الزمن .

وكان لكل كتيبة شعار يرسمه المجندون فيها على خيامهم وعلى أبواب ثكناتهم ويشمونهم أي يستعملون لهم الوشم بأيديهم وأرجلهم . وقد أخذ هذا الجيش يفسد على عهد مراد الثالث لأنه رخص سنة(٩٩٠)بقبول الرقاصين والمصارعين في الدخول فيه . وبعد ذلك أخذ يدخل في سلكه أخلاط من كل صنف من الناس بالشفاعات والرُّشى ليستفيدوا من امتيازات الإنكشارية . وفي ذلك الوقت أخذ بعض سكان الشام يدخلون في هذا الجيش على ما يظهر . وفي سنة(١١٥٣)صدر الأمر بأن تباع العلوفات فضعفت قوة الجندية في الإنكشارية وأصبح من كانوا من الجند حقيقة لا يقبضون من العلوفات ما يكفيهم فيعيشون بالنهب والسرقة . وكلما أتى الزمن على الإنكشارية زاد تدخلهم في سياسة الملك في الإستانة وأخذوا يخيفون السلاطين ويخلعونهم ويقتلونهم ويعزلون الصدور العظام وينصبونهم أو يقتلونهم ويشردونهم . وآخر من قتلوه من سلاطين العثمانيين سليم الثالث .

ولما تربع محمود الثاني في دست الملك ورأى ما تم لعزيز مصر محمد علي من إنشاء جيش له على النمط الغربي صحت عزيمته على أن يعجل في القضاء على الإنكشارية فاستصدر فتوى بقتلهم فقتلهم الأهالي ورجال البحرية وأُلغي نظام الإنكشارية سنة (١٢٤١)وسموا هذه الوقعة في الإستانة بالوقعة الخيرية . وقد قتل فيها في العاصمة والولايات ستة آلاف رجل على رواية المؤرخ أسعد افندي . ومن ذاك الوقت ألفت الدولة جنداً على مثال الجيوش الأوربية . وكان من الإنكشارية في الشام أن خربوا القرى والضواحي ، وكانوا يعتدون على الأعراض والأموال . ولما صدر الأمر بقتلهم قُتل بعضهم هنا ومنهم قسم من الأهالي غير اسمه ورسمه فتغاضت الدولة عنه . هذا هو الجيش الذي بقيت الشام تحت رحمته أكثر من ثلاثمائة سنة ورأت سيئاته وتخريباته .

وكان من جملة الجيش عسكر اسمه (اللوند) وهو العسكر الخفيف الذي كانت مملكة البندقية تستخدمه قديماً، ومنهم عسكر اسمه (السكْبان) – السكبان كلمة فارسية مركبة معناها حارس الكلب – قال البوريني : وهم عبارة عن طائفة كان وصفهم أن الواحد منهم يحمل البندقية على ظهره ويقود الكلب في ساجوره (قيده) ويمشي أمام الأمير والكبير حتى يسير إلى الصيد . قال : ولم يكونوا أولاً شيئاً حتى جاء الشام أمير يقال له أبو سيفين تولى ولاية نابلس فصحب منهم نحو مائة رجل يستعين بهم على رعايا نابلس لأنهم لا يخلون من نوع شراسة ، فاعتاد الأمراء استصحابهم إلى ولاياتهم فكثروا . وقد أُضيف هذا العسكر إلى جوقة الإنكشارية . ومن الجند صنف يقال له (السباهية) وهو من الفرسان كانوا يعطون عشر بعض الأراضي على صورة إقطاع ويقومون مقابل ذلك مدة الحرب بمعاونة الدولة في القتال ، يأتون على خيولهم والدولة تعطيهم الذخائر والمؤن . ومنهم صنف يقال له(جبّه جي)وهو من العسكر المدرع (زرهلي) من جيوش العثمانيين ، ومنهم (القبوقولي) أي الحراس وأصلهم حراس باب السلطان كثروا في آخر القرن الماضي . ومنهم (الدالاتية) أي الأدلاء وأصل الكلمة فارسية من داله بمعنى الدليل . وكانوا يلبسون في رؤوسهم قلنسوة كالطرطور على ما في محيط المحيط، و(الهوارة) وهم صنف من العساكر غير المنظمة . و (التفكجية) مأخوذة من تفنكجي أي صاحب البندقية وهم جند من رماة البنادق وكانوا للمحافظة، و(الشوربجية) وهم ضباط الإنكشارية يعمل لهم الحساء أي الشوربة في قدر خاص ، ورتبة الواحد منهم معادلة لرتبة قائد بعرفنا إلى غير ذلك من صنوف الجنود .

الجيوش الحديثة :

كان بعض الأمراء في هذه الديار لا يخلون من مقاتلة على الدوام يستخدمونهم في قيام أمرهم . ومن أهمهم في هذا الباب أولاد معن أمراء الشوف وما إليها فقد كانوا يستطيعون أن يجندوا أربعين ألفاً . وذكر فولني في القرن الثامن عشر أنه رأى الأمير في دير القمر جند خمسة عشر ألف

جندي في ثلاثة أيام . ومن الجيوش التي رأتها الشام وكانت بالنسبة للجيوش التركية تراعي النظام جيوش مصر مدة حكم إبراهيم باشا ابن محمد علي الكبير فكانت مؤلفة من المصريين والأرناءود والهوارة والهنادي من عرب مصر وكلهم يدربهم ضباط ماهرون وكان في رأس القواد بعض ضباط أجانب من الفرنسيين .

ولما انتشر نظام الجند الجديد ضاقت صدور الناس بالجندية لأنها لم تكن آخذة بأسباب الراحة ولأن الأخلاق الحربية أوشكت أن تزول لطول العهد بها ولا سيما من سكان المدن . على أن سكان البادية كانوا يعفون من هذه الخدمة . والسبب في ذلك أن أمراءهم لم يكونوا من جنسهم فكانت اللغة من جهة والشدة والتقتير عليهم من أخرى من الحوائل دون امتيازهم بالصفات الحربية وإيثارهم التفلت من الجندية إن أمكن .

ولقد أخرجت المدرسة العسكرية في دمشق مدة نصف قرن مئات من الضباط من أبناء الشام خدموا الدولة خدمة صادقة . وكان منهم نبغاء لم يقصروا عن أرقى العناصر العثمانية علماً وذكاء ومضاء. ويقال على الجملة: إن هذه الديار في الدور العثماني كانت بعسكرها والحامية الإنكشارية أولاً ثم الحامية النظامية آخراً أشبه بمعسكرات عظيمة ، يعمل فريق عظيم من الناس لخدمة الجيش . وكانت رواتب الضباط وجرايات الجنود تخف جداً وكذلك علف الدواب فيسدون العجز بطرق مخزية . ومع عدم العناية بمأكل الجند وملبسه كانوا يوم الغارة أسوداً خصوصاً إذا حسنت قيادتهم،لأن الشباب كانوا يتدربون على الصراع والمسايفة والرماية والألعاب الرياضية بجملتها، فإذا كانت الحرب أو اقتضت الحال الغارة على فريق أو دفع صولة صائل استطاعوا أن يستعملوا السلاح ويحسنوا الطعن والضرب أول تجنيدهم .

وكانت أنظمة العثمانيين الأخيرة محتذاة من أنظمة الجيش الألماني والفرنسي ولنا أن نقول بعد هذا: إنه ليس من أوضاعنا ما شابهنا فيه الأوربيين مدة حكم العثمانيين سوى الجيش. جندت الدولة العثمانية في الحرب العامة نحو ربع مليون من الشام أو سبعاً وعشرين قرعة ويمكن أن يقال على الجملة: إنه حارب ربعهم وهلك ربعهم واستخدم ربع في خدم خفيفة وهرب الربع

الآخر . ولما غُلبت الدولة العثمانية في الشام وانهزم جيشها واستسلم أكثره ولم يتمكن من الثبات أمام قوى الحلفاء الجديدة فانحل الجيش بالطبيعة .

وقد رأى هذا القطر مدة الحرب العالمية الأخيرة جيوشاً من الترك والأكراد والألمان والمجر والنمسويين والبوهيميين وغيرهم كما رأى بعد انحلال العثمانية جيوشاً من البريطانيين والكناديين والأوستراليين والهنود والفرنسيين والجزائريين والمراكشيين والهنود الصينيين والسنغاليين والسودانيين . وبالجملة رأى جنوداً من معظم المستعمرات الخاضعة لبريطانيا وفرنسا فأشبه تبلبل الألسنة في الشام تبلبلها فيه على عهد الحروب الصليبية والمغولية .

ولما أُسست الحكومة العربية في المدن الأربع وأعمالها أخذوا يجندون جنوداً عربية مأجورة من أهل هذه الديار ثم شرعوا بالتجنيد الإجباري أشهراً قليلة ريثما دخلت فرقة الجنرالين غوابيه ودي لاموط إلى دمشق وحلب وسقطت المملكة في يد الحكومة الفرنسية المنتدبة وفضّ الجيش العربي وصفي . وكان بضعة أُلوف مسجلة على الورق . ثم أخذت فرنسا بتأليف جيش مختلط من السوريين والفرنسيين أشبه بالدرك وذلك في الأصقاع الواقعة تحت انتدابها وأبقت فرنسا فرقاً من جندها في الولايات التي انتدبت للإشراف عليها ، كما جعلت بريطانيا العظمى في فلسطين اعتمادها على جيشها . وفي الشرق العربي على جيش صغير من الأهلين يعاونه الجيش البريطاني المرابط في فلسطين عند الاقتضاء. وفي ثورة سنة(١٣٤٤)جندت الدولة المنتدبة كتائب من المتطوعة سمتهم الأنصار وكانت جمهرتهم من الشركس والأرمن والإسماعيلية فلقي الأهلون من سوء تربيتهم وقلة نظامهم واعتدائهم على الأبرياء ما أنسى ذكر الإنكشارية . وكانت حجة الحكومة أنها اصطنعت أشقياء لقتال أشقياء . وجعل لبنان كتيبة له من الجند سماها القناصة وهم أشبه بالدرك والشحنة . وربت فرنسا الدرك فأحسنت تربيته وهو من خير أدوات الحكومة في سورية ولبنان ودونه الشرطة المستعملة للهيمنة على الأمن في المدن فإن هذا لم تفلح بتربيته على ما يجب .

الاسطول

بحرية الفينيقيين والعبرانيين والفراعنة :

ليس في الأيدي نص يركن إليه لمعرفة اصطلاح شعوب الشام القدماء في بحريتهم . وسواحل هذه الديار المستطيلة الممتدة من العريش إلى خليج الإسكندرونة تحتاج في اتصالها إلى مراكب للتجارة وغيرها . ولم يعرف أن عظام الأنهار في الشام كالأردن والعاصي كانت تجري فيها سفن إلا الفرات فإنه كان يحمل مغادي وحراقات وجلبات تذهب وتجيء بين الشام والعراق .

وأهم من عرف بمعاناة البحار أهل فينيقية سكان الساحل الأوسط وما كانوا أعظم شعب بحري درج على هذه الأرض فقط ، بل كانوا أعظم الشعوب القديمة في العالم جرأة على الأسفار في البحار ، وكانت أصولهم على الأرجح من شعوب بحارة جاءوا من البحرين في خليج فارس ونزلوا هذا الساحل الجميل فظهرت كفاءتهم في اختراق العباب في سالف الأحقاب . والصناعات في الناس تكون بالإرث أو ابنة البيئة،والفينيقيون استوفوا هذين الشرطين فكانوا بحارة بالفطرة والبيئة، بحارة بالتربية والحاجة .

ومما ساعد الفينيقيين على إجادة صنع السفن كثرة الأخشاب في لبنان ولا سيما شجر الأرز الذي منه كانوا يصنعون مراكبهم الصغيرة والكبيرة . وكانت لهم شؤون ما عرفها غيرهم في السير والإسراء ، والإقلاع والإرساء ، يهتدون بنجمة القطب يستدلون بها على سمت الشمال . ولذلك كانوا يوغلون في البحار ، لا يخشون الأخطار ، حتى لقد اجتازوا البحر المتوسط إلى

بحر الظلمات وبحر الشمال وغيره ، ولم ينازعهم منازع من الشعوب في هذا الباب ، لأنهم كانوا يكتمون سرّ الطرق التي يسلكونها ويتشددون في كتمانها . وربما أغرقوا سفنهم إذا اطلع بعض البحارة من الغرباء عنهم على خطة رحلاتهم ، فضلاً عن إغراق مراكب من يحاول سرقة أسرارهم في طرقهم البحرية . ولم يعرف غير الفينيقيين جزائر الكاسيتريد أو جزائر سورلنج في الشاطئ الغربي من الجزائر البريطانية .

ولم يؤثر عن العبرانيين أن كان لهم أسطول بل قوارب لا تبعد كثيراً عن الساحل على النمط القديم . أما الفراعنة الذين حكموا جزءاً مهماً من جنوب الشام وساحله مدة فكانت بحريتهم وصناعتهم[1] في مصر أولاً ، ثم جعلت في طرابلس وصور وجبيل لقربها من مستودع الأخشاب الصالحة لصنع السفن . ولم تكن ملاحة للفراعنة من السلائل الأولى حتى الدولة السادسة والعشرين لأنهم ليسوا أمة حربية .

بحرية الرومان واليونان :

كانت البحرية في العهد اليوناني في الشام على مثال بحرية تلك الدولة قوية منظمة . وكانت اليونان أمة بحرية من الطراز الأول في القديم . ألفوا اليمّ منذ عرف تاريخهم ، ومعظمهم جزائريون طالما عاركوا البحر وعركهم . وانطبع سكان الساحل الشامي بطابعهم وساروا على أقدامهم في سلوك سبل البحار . ومثل ذلك يقال في الرومان الذين طال عهدهم في الشام ، فإن أساطيلهم كانت تحمل من شواطئ إيطاليا وإليها تجارات الأمم التي خضعت لسلطانهم . وصعب أن يحكم على بحرية الشام في الدور الروماني ولعلها لم تخرج في كل حال عن طور اليونان، ولا شك أن بعض الموانى الشامية كان لها صناعات كما كان لها في كل دور . ويمكن أن يقال على الجملة: إن الشام لم يعرف له منذ عرف تاريخه إلى الفتح الإسلامي بحرية خاصة وافية بالغرض

(١) الصناعة في العرف اسم المكان المعد لإنشاء المراكب والسفن نقلت الى لغات الغرب فصارت ارسنال (Arsenal) وعادت الى العرب من طريق الترك باسم « ترسانة » .

بالنسبة لتلك الأعصر إلا في عهد الفينيقيين وكان في سائر أدواره مندمجاً في الأمم القوية التي امتد سلطانها عليه .

العرب والبحار :

كان العرب لا يحبون البحار لبعدهم عنها ولما كان يبلغهم من أخطارها . وقد اتفق في أوائل الفتوح أن العلاء ابن الحضرمي عمل أسطولاً واجتاز من البحرين إلى فارس ووصل إلى إصطخر ، ودمر الأعداء بأسطوله فقتل كثير من رجاله ، فغضب عمر بن الخطاب لأن هذا العمل لم يكن عن مشورته . ولما كان معاوية على جند دمشق والأردن ألحّ على عمر في غزو البحر ، فكتب الخليفة إلى عامله في مصر عمرو بن العاص يريده على أن يصف له البحر فكتب إليه «يا أمير المؤمنين إني رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء ، إن ركد خرق القلوب ، وإن تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا برق» . فكتب عمر إلى معاوية «لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً ... وتالله لمسلم واحد أحب إليّ مما حوت الروم . فإياك أن تعرض لي ، وقد علمت ما لقي العلاء مني ولم أتقدم إليه في مثل ذلك» .

وقد علل ابن خلدون امتناع المسلمين عن ركوب البحر بأن العرب لبداوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة في ثقافته وركوبه . والروم والفرنج لممارستهم أحواله ، ومرباهم في التقلب على أعواده ، مرنوا عليه وأحكموا الدربة بثقافته . فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم ، وصارت أُمم العجم خولاً لهم وتحت أيديهم ، وتقرب كل ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته ، واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية أمماً ، وتكررت ممارستهم البحر وثقافته ، تاقت أنفسهم إلى الجهاد فيه وإنشاء السفن والشواني ، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح ، وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر . واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب إلى هذا البحر وعلى ضفته مثل الشام وغيرها .

نعم كان العرب باديءَ بدء يتخوفون ركوب البحر فقد استعمل الوليد ابن يزيد الأسودَ بن بلال المحاربي على بحر الشام فقدم عليه أعرابي من قومه ففرض له وأغزاه البحر فلما أصابت البدوي تلك الأهوال قال شعراً منه :

فلله رأيٌ قادني لسفينة	وأخضرَ موّار السرار يمور
ترى متنه سهلاً إذا الريح أقلعت	وإن عصفت فالسهل منه وعور
فيا ابن بلال للضـلال دعوتني	وما كان مثلي في الضلال يسير
لئن وقعت رجلاي في الأرض مرةً	وحان لأصحاب السفين وكور
وسلمت من موجٍ كأن متونه	حرارٌ بدت أركانه وثبـير
لتعترضنّ اسمي لدى العرض حلقة	وذلك إن كان الإياب يسير
وقد كان في حول الشرية مقعدٌ	لذيذٌ وعيشٌ بالحديث غرير

أول خليفة غزا في البحر الشامي والبحرية الأموية :

منع عمر عماله من غزو البحر بعد إخفاق العلاء في غزوته البحرية . ولما قلد عمر عبد الله بن قيس النظر في ثغور الشام جميعها كتب إليه عمر إني لا أحمل المسلمين على أعواد نجرها نجار وجلفطها الجلفاط (والجلفاط الذي يشد ألواح السفينة) وما زال به معاوية حتى أقنعه . وفي بيروت عمر معاوية المراكب وجهز الجيش إلى قبرس ومعهم أم حرام واسمها الرميصاء بنت ملحان زوجة عبادة بن الصامت فلما رجعت رابطت في بيروت وماتت فيها. ويقول المقريزي: إن الناسَ كانوا يغزون بنسائهم في المراكب . وشتا المسلمون بأرض الروم سنة اثنتين وأربعين وهو أول مشتى شتوه بها فاستعمل معاوية على أهل المدينة عبد الملك بن مروان وهو يومئذ ابن ست عشرة سنة فركب عبد الملك بالناس البحر . فلما ولي عثمان بن عفان طلب إليه معاوية أن يغزو البحر فوافقه على ذلك، على أن ينتخب من يحملهم في المراكب ولا يقترع بينهم ، فمن اختار الغزو طائعاً يحمله ويعينه ففعل . وغزا معاوية الغزوة الأولى فكان أول مسلم غزا في البحر ، واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الحاسي خليفة بني فزارة فغزا خمسين غزوة من بين شاتية وصائفة في البر والبحر ولم يغرق فيه أحد . وأغزى معاوية عقبة بن عامر

الجُهَني في البحر وأمره أنْ يتوجه إلى أرواد . وفتح هذه الجزيرة جُنادة بن أبي أُمية فنزلها المسلمون واتخذوا بها أموالاً ومواشي يرعونها حولها ، فإذا أمسوا أدخلوها الحصن . ولهم ناطور يحذرهم ما في البحر ممن يريدهم بكيد ، فكانوا على حذر منهم ، وكانوا أشد شيء على الروم يعترضونهم في البحر فيقطعون سفنهم . وكان معاوية يدرّ لهم الأرزاق والعطاء ، والعدو يخافهم . فلما مات معاوية أقفلهم يزيد بن معاوية . وجُنادة بن أبي أُمية الأزدي من صحابة الشام كان على غزو الروم في البحر لمعاوية زمن عثمان إلى أيام يزيد إلا ما كان من أيام الفتنة فتنة علي ومعاوية وشتى في البحر سنة(٥٩).

وبذلك عرفنا أن معاوية أدرك بصائب رأيه أن سواحل الشام بل الشام لا ينجيها من غزوات الروم إلا إيجاد أسطول عربي يغزو سواحلهم الحين بعد الحين . وإلا تعذرت المحافظة على السواحل وبطلت التجارات . وكان المسلمون قبل ذلك على خطر أبداً يتخطفهم أعداؤهم من عُقر دارهم ، ويطردونهم حتى في أرضهم ويحملونهم أسرى يبيعونهم بيع الإماء والرقيق . أي أن الروم يغزون الشام إذا لم يغزهم أهله فحاول معاوية أن يقنع الخليفة الثاني فتحامى هذا الإذن بركوب البحر خوفاً على المسلمين ، متأثراً مما أصابهم يوم غزوة البحرين ، ولأنه لم ير ما رآه عامله في الشام من الخطر الذي يدهم القطر إن لم تتواز قوته البحريه بقوته البرية .

قال محبوب المنبجي : وفي السنة الثالثة لعثمان ركب معاوية البحر وصار إلى قبرس فافتتحها وكان معه ألف وسبعمائة سفينة مملوءة سلاحاً وأموالاً فسبى منها ومن الجزائر المطيفة بها خلقاً من الناس ، ونزل على جزيرة أرواد (رودس) ولم يصل إليها، وفي الربيع رجع في جيوش أعظم وأكثر من الأولى فنزل عليها وضيق عليهم جداً ، فلما رأى أهل أرواد الشدة التي هم فيها والعساكر التي أظلتهم طلبوا الأمان على أن يخرجوا إلى سورية ويسكنوا حيث شاءوا ووفى لهم معاوية بن أبي سفيان وخرجوا منها فأمر بهدم سورها فهدم وأُحرق .

وذكر المنبجي أيضاً أنه في السنة الرابعة عشرة لمعاوية غزت العرب الروم في لوقية، فلما توسطوا البحر لحقهم بعض الروم في سفينة فألقى النار في السفن

فاحترقت كلها وهم أي الروم أول من أخرج النار وصارت لهم عادة . وقد كان المسلمون في خطب جلل من هذه النار في البحار وهي الصواريخ وكانت إذا أصابت المراكب لا تطفأ بالماء بل تطفأ بالتراب الندي أو الرمل ومخترعها كالينكوس من أهل بعلبك لجأ إلى الروم سنة (٦٧٣م) فعلمهم هذا التركيب الذي كان له في الحروب البحرية أهاويل .

وممن غزا في أيام معاوية في البحر بُسر بن أبي أرطاة وفُضالة بن عبيد الأنصاري . وفي سنة (٤٩) كانت غزوة يزيد بن شجرة الرّهاوي في البحر فشتى بأهل الشام . وغزا في البحر أيضاً عمرو بن يزيد الجهني (٥٨) . وروى المنبجي أن معاوية بن أبي سفيان استعد لقصد القسطنطينية في السنة التاسعة لعثمان والرابعة والثلاثين للعرب ، وأعدّ سفناً كثيرة في مدينة طرابلس على ساحل البحر ، وحمل من السلاح أمراً عظيماً ، وأن الروم أحرقوا سفن العرب فبعث معاوية بجيش من البر ففتح قسماً من ديارهم وسبى من أهلها مئة ألف نفس . ثم جاء ملك الروم في سفن كثيرة من البحر فلما التقى الجمعان كانت الهزيمة على الروم ، وكاد ملكهم أن يغرق ، وتخلص بعد أن قتل من الروم خلق كثير حتى صار البحر دماً ، ورجع العرب بغلبة كبيرة .

وفي هذا برهان جلي على العظمة التي بلغها الأسطول العربي بسرعة ، وما أُحرق منه في طرابلس لم يؤثر فيه لأن الصناعة كانت أيضاً في عكا وصور وربما في غيرهما من ساحل الشام ، ومن عكا ركب معاوية البحر لغزو قبرس ، وبعد أن أحرق الروميان اللذان كانا في خدمة الأسطول في طرابلس أسطول هذه الفرضة البحرية بأجمعه ، أصبح من المتعذر على معاوية أن يأمن على أساطيله من كان ائتمنهم ، وهل أنباط النصارى في رأي بعضهم ، ممن جعلتهم العرب ربابنة سفنهم ونواتيهم في مراكبهم الحربية ، والغالب أن العرب تعلموا ثقافة البحر من سكان ساحل الشام ثم اعتمدوا على أنفسهم شأنهم في كثير من مقومات مدنيتهم .

ومع هذا كان أكثر البحرية والذين يتكفلون بغزو الروم من أهل الإسلام وكان الروم معهم ولا سيما في القرون الثلاثة الأولى للهجرة في أمر مريج .

قال المسعودي : أخبرني بعض الروم ممن كان قد أسلم وحسن إسلامه أن الروم صوّرت عشرة أنفس في بعض كنائسها من أهل البأس والنجدة والمكايد في النصرانية والحيلة من المسلمين ، منهم الرجل الذي بعث به معاوية حين احتال على البطريق فأسره من القسطنطينية ، فأقاد منه بالضرب ورده إلى القسطنطينية ، وعبد الله البطال وعمرو بن عبيد الله وعلي بن يحيى الأرمني والعريل بن بكار وأحمد بن أبي قطيفة وقرنياس البيلقاني صاحب مدينة ابريق (ازنيق ؟) وحرس خادس أخت قرنياس ويازمان الخادم في موكبه ، والرجال حوله وأبو القاسم بن عبد الباقي . ومن رجال البحر الذين طالما تبرم بهم الروم ليون الطرابلسي ومعيوف بن يحيى الحجوري من أهل دمشق والمغيرة بن عبيد الأزدي الخراساني ولي غازية البحر في أيام يزيد بن عبد الملك .

وصف أسطول شامي :

وللبحتري قصيدة في مدح أحمد بن دينار يصف فيها مركباً كان اتخذه وهو والي البحر وغزا فيه بلاد الروم . قال العسكري في ديوان المعاني : لم يصف أحد من المتقدمين والمتأخرين القتال في المراكب إلا البحتري ، وعدوا قصيدته هذه من عيون قصائده وفضلوها على كثير من الشعر وهي التي يقول من جملتها :

ولما خطونا دجلةَ انصرم الهوى ... فلم يَبْقَ إلا لفتةُ المتذكر
وخاطرُ شوقٍ ما يزال يهيجنا ... لبادين من أهل الشآم وحُضَّر .

إلى أن قال :

ولما تولى البحر والجود صِنوه ... غدا البحرُ من أخلاقه بين أبحرِ
أضاف إلى التدبير فضلَ شجاعة ... ولا عزم إلا للشجاع المدبِّر
إذا شجروه[1] بالرماح تكسرت ... عواملها[2] في صدر ليث غضنفر[3]
غدوت على «الميمون[4]» صبحاً وإنما ... غدا المركب الميمون تحت المظفر

(١) شجره بالرمح : طعنه .
(٢) عامل الرمح وعاملته : صدره دون السنان والجمع العوامل .
(٣) الأسد الغضنفر كسفرجل : الغليظ الخلق المتغضن .
(٤) الميمون : اسم المركب ، والمظفر : الممدوح .

أطلّ بعطفيه ومرّ كأنما تشرف(١) من هادي حصان مشهر(٢)
إذا زمجر النوتي فوق علاتـه(٣) رأيت خطيباً في ذؤابة منـبر
يغضون دون الإشتيام(٤) عيونهم وفوقَ السماط(٥) للعظيم المؤمّر
إذا عصفت فيه الجنوب اعتلى لها جناحا عُقاب في السماء مُهجّر
إذا ما انكفا في هبوة(٦) الماء خلته تلفع في أثناء(٧) بُرد محبّر
وحولك ركابون للهول عاقروا كؤوس الردى من دارعين وحسّر
تميل المنايا حيث مالت أكفهم إذا أصلتوا حدّ الحديد المذكّر
إذا رشقوا بالنار لم يك رشقهم ليُقلع إلا عن شواءٍ مقتّر(٨)
صدمت بهم صهب العثانين(٩) دونهم ضرابٌ كإيقاد اللظى المتسعر
يسوقون أسطولاً كأن سفينه سحائب صيف من جهام وممطر
كأن ضجيج البحر بين رماحهم إذا اختلفت ترجيع عَوْد مجرجر(١٠)
تقارب من زَحفَيْهمُ فكأنما تؤلف من أعناق وحش منفر
فمارمتَ(١١) حتى أجلت الحرب عن طُلىً مقطعة فيهم وهامٍ مُطيّر
على حين لا نقعٌ، تطوّحه الصَّبا ولا أرض تُلفى للصريع المقطّر

(١) يقال: أشرف المربأ: علاه كتشرفه وشارفه ومثله تشوف من السطح: تطاول ونظر وأشرف. والهادي المتقدم من كل شيء أو العنق ويقصد به مقدم السفينة.

(٢) المشهر: فرس المهلهل بن ربيعة التغلبي ولعله يريد بالمشهر كل فرس كريم.

(٣) العلاة: السندان حجراً كان أو حديداً. ولعل مراده بالعلاة هنا برج السفينة وقد علاه الربان.

(٤) الإشتيام (الاستينام) رئيس المراكب البحرية الحربية.

(٥) السماط بكسر السين يقال: قام بين السماطين ويقال قام القوم حوله سماطين أي صفين.

(٦) انكفأ القوم: رجعوا وتبددوا وانكفأ إلى كذا: مال إليه. الهبوة: الغبرة ويعني بها رشاش الماء.

(٧) أثناء: طيات.

(٨) المقتر: ذو القتار بالضم وهو الدخان من المطبوخ والشواء.

(٩) الأصهب والجمع صهب: هو الذي يخالط بياض شعره حمرة، والعثانين: جمع عثنون وهي اللحية يعني بذلك الروم لأنهم شقر اللحى.

(١٠) مجرجر: من جرجر البعير ردد صوته في حنجرته، والعود: المسن من الإبل والشاء.

(١١) فما رمت: ما برحت مكانك.

وكنت ابن كسرى قبل ذاك وبعده مليئاً[1] بأن توهي صفاةَ ابن قيصر
جدحت له الموتَ الزعافَ فعافه وطار على ألواح شطْب[2] مُسَمَّر
مضى وهو مولى الريح يشكر فضلها عليه ومن يولَ الصنيعة يشكر
إذا الموج لم يُبلغه إدراكَ عينه ثنى في انحدار الموج لحظة أخزر
تعلق بالأرض الكبيرة بعدما تقنَّصه جري الردى المتمطر[3]

سواحل الشام ونفقات الأسطول والمناور والرباطات والفداء :

كانت سواحل أجناد الشام كثيرة ، ولكن الصناعة صناعة المراكب كانت في صور وعكا وطرابلس على الأكثر . وسواحل جند حمص في الإسلام انطرطوس وبانياس واللاذقية وجبلة ، وسواحل جند دمشق عرقة وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وحصن الصرفند وعدلون ، وسواحل جند الأردن صور وعكا ، وسواحل جند فلسطين قيسارية وأرسوف ويافا وعسقلان وغزة ، وسواحل جند قنسرين الإسكندرونة والسويدية . وعلى امتداد سواحل الشام لم يحدثنا التاريخ أنه أُغير عليها إلا من البر ، وما جاءها من الحملات البحرية في عدة أدوار ولا سيما على عهد الإسكندر والرومان والصليبيين والأتراك أو الأسطول الإنكليزي سنة (١٧٩٩م) والأسطول الدولي سنة (١٨٤١) وأسطول الحلفاء سنة (١٩١٨) لم يكن في الحقيقة إلا ثانوياً أُريد به دك بعض المواقع الحربية بنيران السفن أو ضمان جلب الذخيرة أو عدم قطع خط الرجعة من البر .

وذكر قدامة أنه كان يجتمع إلى مراكب الشام التي كانت تغزو من الثغور الشامية مراكب الشام ومصر من الثمانين إلى المائة، وإذا عزموا على الغزاة في البحر كوتب أصحاب مصر والشام في العمل على ذلك والتأهب له ليجتمع بجزيرة قبرس ، ويسمى ما يجتمع منها « الأسطول » كما يسمى ما يجتمع من الجيش في البر « المعسكر » ، والمدبر لجميع أمور المراكب الشامية

---

(١) المليء بالأمر : المضطلع به القدير عليه .
(٢) الشطب : الطويل الحسن الخلق وقد أراد به المركب .
(٣) المتمطر : الفرس السريع . والأرض الكبيرة هي اليابسة التي نطلق عليها اليوم اسم القارة

والمصرية صاحب الثغور الشامية، ومقدار النفقة على المراكب إذا غزت من مصر والشام نحو مائة ألف دينار .

وذكر المقريزي أن أول ما أُنشئ الأسطول بمصر في أيام المعتصم سنة (٢٣٨) فأنشئت الشواني برسم الأسطول وجعلت الأرزاق لغُزاة البحر كما هي لغزاة البر ، واجتهد الناس في تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو ، وكان لا ينزل في رجال الأسطول جاهل بأمور الحرب ، وقد قويت العناية بالأسطول على عهد المعز الفاطمي ، فكانت المراكب تنشأ بمدينة مصر وإسكندرية ودمياط من الشواني الحربية والشلنديات والمسطحات وتسير إلى الساحل مثل صور وعكا وعسقلان . وكانت جريدة قواد الأسطول في آخر أمرهم تزيد على خمسة آلاف مدونة ، منهم عشرة أعيان يقال لهم القواد ولهم رواتب دارة ، وكانت عدة المراكب السائرة في أيام المعز لدين الله تزيد على ستمائة قطعة وآخر ما صارت إليه في آخر الدولة نحو مائة قطعة .

ولقد اتخذ المسلمون المناور البحرية لهداية السفن على الشواطئ الشامية ، وكانت في معظم السواحل رباطات للنَيْل من الأعداء إن قدموا بحراً ، فأهل دمشق يرابطون في بيروت ، وأهل القدس في الرملة أو يافا ، وأهل حمص في طرابلس ، وكان لقرية كفر سلاّم من قرى قيسارية في فلسطين رباطات على البحر يقع فيها النفير ، وتقلع إليها شلنديات الروم وشوانيهم معهم أسارى المسلمين للبيع كل ثلاثة بمائة دينار ، وفي كل رباط قوم يذهبون في الرسالات ، ويحمل إليهم أصناف الأطعمة ويضج بالنفير لما تتراءى مراكبهم، فإن كان الوقت ليلاً أُوقدت منارة ذلك الرباط ، وإن كان نهاراً دخنوا ، ومن كل رباط إلى القصبة عدة منائر شاهقة ، قد رتب فيها أقوام فتوقد المنارة التي للرباط ثم إلى التي تليها ثم الأخرى ، فلا يكون ساعة إلا وقد أُنفر بالقصبة ، وضرب الطبل على المنارة ، ونودي إلى ذلك الرباط وخرج الناس بالسلاح والقوة واجتمع أحداث الرساتيق ثم يكون الفداء رجل يشتري رجلاً وآخر يطرح درهماً أو خاتماً حتى يشتري ما معهم . ورباطات هذه الكورة التي يقع بهن الفداء غزة ، ميماس ، عسقلان ،

ماحوز ، أسدود ، ماحوز يبنا ، يافا ، أرسوف – قاله المقدسي . والماحوز هو المكان الذي بينهم وبين العدو ، وفيه أساميهم بلغة الشام ، ومنه الحديث فلم نزل مفطرين حتى بلغنا ماحوزنا . وكانت حيفا تشارك هذه الموانى في صنع المراكب وتسمى الأبنية الخاصة بالملاحة البحرية بالجودي إشارة إلى سفينة نوح التي استوت على الجودي في الجزيرة .

وكانت الحروب سجالاً بين المسلمين والروم ، ينال المسلمون من العدو وينال العدو منهم ، ويأسر بعضهم بعضاً لكثرة هجوم أساطيل الإسلام على موانى العدو ، وكان أول فداء وقع في الإسلام أيام بني العباس ، ولم يقع في أيام بني أمية فداء مشهور ، وإنما كان يفادى بالنفر بعد النفر في سواحل الشام ومصر وغيرها ، إلى أن كانت خلافة الرشيد فوقع الفداء الأول باللامس من سواحل البحر الرومي قريباً من طرسوس في سنة تسع وثمانين ومائة على يد القاسم بن الرشيد وهو معسكر بمرج دابق من قنسرين ، ففودي بكل أسير كان بالروم من ذكر وأنثى ، وحضر هذا الفداء من أهل الثغور وغيرهم من أهل الأمصار نحو من خمسمائة ألف إنسان بأحسن ما يكون من العدد والخيل والسلاح والقوة وقد أخذوا السهل والجبل وضاق بهم الفضاء ، وحضرت مراكب الروم الحربية بأحسن ما يكون من الزيّ معهم أسارى المسلمين ، فكان عدة من فوديَ به من المسلمين في اثني عشر يوماً ثلاثة آلاف وسبعمائة أسير ، وجرى الفداء في أدوار مختلفة . ذكر هذا المقريزي ثم عدد ما وقع من الفداء في أوقات مختلفة إلى القرن الرابع وكان أكثر عدد من فودي به في خلافة الواثق ٤٣٦٢ من ذكر وأنثى .

الأساطيل في القرون الوسطى :

ومعلوم ما كان من أسطول الفاطميين من المنافع في زمن الحروب الصليبية فكان ينجد المسلمين في عسقلان ويافا وصور وبيروت وطرابلس وجبلة واللاذقية . وكانت أساطيل الفاطميين في الساحل مرتبة في عسقلان وعكا وصور وغيرها وذلك قبل أن يغلبهم الصليبيون على الساحل . وكان الأسطول من جملة العوامل في بقاء الأمل باسترجاع ما جرى احتلاله من الأرض

وكان الظفر حليف الجيوش البحرية لكثرة ما لها من الامتيازات ، وفي العادة أن الأسطول إذا غنم ما عساه أن يغنم لا يتعرض السلطان منه إلى شيء البتة ، إلا ما كان من الأسرى والسلاح فإنه للسلطان ، وما عداهما من المال والثياب ونحوهما فإنه لغزاة الأسطول لا يشاركهم فيه أحد .

ولم يقصر صلاح الدين ثم الدولة الأيوبية ثم دولة المماليك البحرية ودولة المماليك البرجية في إنشاء السفن الحربية والتجارية ، وإن كانت عنايتهم بجيوشهم البرية أكثر ، وما كان الصليبيون ينالون من المسلمين في الساحل إلا يوم تصل سفنهم من مواني الغرب ويكثر عددها ، حتى إذا أقلعت وخلا الساحل تغزوه مراكب الدولة مقلعة من الثغور ، أو يمد من يجب إمداده من المسلمين في الساحل الشامي ، وعلى الرغم من المعاهدات التي عقدت بين أصحاب مصر والشام وبين أمراء ايطاليا واسبانيا والبرتقال ، بعد القضاء على الصليبيين في الساحل ، فإن بعض الفرنج والروم عادوا إلى طريقتهم القديمة من غزو البحر فغزوا صيدا وبيروت وطرابلس ، ولما غزوا إسكندرية سنة (٧٦٧ هـ) ارتأى رجال الدولة في مصر أن يعمروا من غابة بيروت مراكب كثيرة ، حمالات وشواني ، للدخول إلى قبرص ، فأحضروا الصناع من جميع المماليك ، وعمروا مسطبة بظاهر بيروت ، وكانت المراكب تعمل بها على بعد من البحر وأحضر الجند من دمشق فأنزل بين البحر والمراكب حذراً من مراكب صاحب قبرس لئلا يحضر العدو على حين غفلة فيحرق ما يعمل من المراكب ، وعملت حمالتان كبيرتان الواحدة باسم (سنقر) والثانية باسم (قراجا) وهما أميران من أمراء ذلك الوقت ، ثم أهمل الأسطول إلى أن جاء الجنوية (٧٨٤ هـ ١٣٨٢ م) إلى صيدا وأخذوها ثم جلوا منها ، ثم عادوا فغزوا بيروت ورمى الفرنج المسلمين بالجروخ[1] والمدافع .— روى ذلك صالح بن يحيى .

وكانت جزيرة قبرس مما يرغب الفاتحون بالاستيلاء عليه لأنها مفتاح الشام ، وهي تعد من بحره وقطره ، ولذلك كان إذا استولى عليها صاحبها من الروم وقوي سلطانه صانعه صاحب مصر والشام ، وإذا استضعفوه أسروه

(١) الجروخ جمع جرخ فارسية معناها الدولاب وهي آلة ترمى بها الحجارة والنفط وغيرهما .

وحملوه إلى العاصمة فأهانوه وأذاوه . وكان ملك إنكلترا ، أو ملك الانكتار كما يقول مؤرخنا في الحروب الصليبية استعان بهذه الجزيرة ، وقد جعلها ريشاردس قلب الأسد لما جاء بأسطوله العظيم لفض الحرب مع صلاح الدين قاعدة أعماله الحربية البحرية . فانظر كيف يعيد التاريخ نفسه ، وكيف يتسلسل الفكر في الغرب وينقطع في الشرق بانقطاع من يبتدعه ويؤسسه .

وكان الجنوية والبياسنة و البنادقة من سكان سواحل إيطاليا قد استولوا على البحار في تلك العصور كما استولت عليها بريطانيا العظمى في العصرين الأخيرين ، وكانوا احتلوا بعض جزر البحر المتوسط يأتون بعض السواحل الشامية يغزونها ، فكانت حكومات الشام تعنى بالمراكب أشد العناية والاعتماد في نقل الجيوش من مصر والشام على طريق البر لأنه أسلم ، اللهم إلا في أوقات مخصوصة من السنة وعندما يُصافي ملوك الفرنجة والروم وصاحب قبرس . وظلت العناية بالأساطيل على عهد حكومات المماليك تختلف باختلاف عقل السلطان المتغلب ، وتفرّغ ذهنه لصيانة مملكته من الطوارئ الخارجية . أما السفن التجارية فزادت العناية بها خصوصاً وأهل الشام ما برحوا منذ الزمن الأطول أمة تمارس الأسفار البحرية ، وتعرف من أين تؤكل الكتف في المتاجر ، وقد شوهدت آثار تجارتها حتى في جزائر بريطانيا وبلاد النروج وفنلندة ومعظم سواحل البحر المتوسط .

وكانت الحروب الصليبية معلمة لأهل أوربا على طريق البحار إلى الشرق ، ومعلمة لأهل الشام على اختراق العباب إلى أوربا ، وكل ذلك على سفن ومراكب حفظت أمثلة منها في المتاحف البحرية في الغرب ولا سيما في إيطاليا وفرنسا وإسبانيا . وكانت السفن الحربية تسمى بأسماء كثيرة منها الأغربة والبُسطات والأعواديات والبركوشات والشلنديات والمسطحات والحراريق (الحراقات) واليخوت والشواني والقراقير . ولكثرة اختلاط النواتية والملاحين من أهل الشام وغيرهم من السواحل الإسلامية بأبناء حرفتهم النازلين على الشاطئ المقابل للشاطئ الإفريقي والشامي ، أخذ الفرنج كثيراً من المصطلحات البحرية عن العرب ، ونقلوها إلى لغاتهم محرفة مرخمة ، ولا تزال إلى اليوم تقرؤها في معاجم اللغات اللاتينية خاصة ، ومنها « أمير الماء » فحرف

منها الفرنج وصاغوا لفظ « اميرال » والأصل فيها أمير الماء أي الربان الأعظم وقائد الأسطول ، وقد أخذ الفرنج من العرب استعمال إبرة السفينة (الحك أو الحقة) وكان العرب أخذوها عن الصينيين فيما قيل وأخذها الفرنج عنهم في الحروب الصليبية .

ولما فتح العثمانيون الشام ومصر كان الأسطول العثماني في إبان قوته ، وكانت بعض سفنهم تقلع من مواني الروم وتأتي ساحل الشام ، وبعضها يقف بالمرصاد لقرصان البحر ، وإذا حدثت فتنة داخلية كانوا يجهزون بعض مراكبهم لتساحل الشام وتشاطئ الأرض التي نجم فيها الشر ، حتى إذا ضعفت بحرية العثمانيين بضعف الدولة — ولا سيما بعد أن أحرق أسطولها والأسطول المصري في نافارين يوم الفتنة اليونانية سنة (١٨٢٧) أصبحت السفن التي يتمتع سكان السواحل بمرآها للأمم الحديثة ، ولا سيما الروسيون والجنويون والبنادقة والفرنسيون والإنكليز ، وقلّت سفن البرتقاليين والإسبانيين لأن طرق مستعمرات هاتين الدولتين وتجاراتهما لم تكن على بحرنا ، وسفنهم تمخر العباب إلى وجهات أُخرى في أميركا وآسيا . والغالب أن الصناعة أي صنع المراكب كان خاصاً بالإستانة ولم يعهد في دور العثمانيين أن أنشأوا سفناً في صناعات الشام . وكان للعثمانيين مراكب في الفرات يستخدمونها لنقل جيوشهم من الشام إلى العراق ، ولا سيما في زمن الثورات والأزمات ، على ما يفهم من كتاب أسفار البحار لكاتب جلبي .

وانحلت بحرية الترك في أواخر أيامهم حتى صرت لا تشاهد في ساحل الشام إلا على الندر مراكب عثمانية ، وهي إذا قيست إلى غيرها تبين الفرق العظيم بين بحرية الأمم المتحركة المتجددة وبحرية الأمة الجامدة الخامدة . وكانت الدولة إن صحت عزيمتها في أواخر أيامها أن تنشئ لها طراداً أو رعاداً أو غواصة أو دارعة أو يختاً ، توصي عليه في صناعات إيطاليا أو فرنسا أو إنكلترا ، لأن العلم بذلك فُقد من بنيها ، ولم تسر مع العصر في الرقي البحري ، كما سارت مع العصر في الجيش البري ، بمعنى أن الدولة العثمانية أصبحت قبيل انقراضها دولة برية فقط ، وكانت تجمع المزيتين

البرية والبحرية أيام كانت ترتعد الفرائص منها في الغرب ، ويتمنى عظماء ملوكها أن يخطبوا ودها كل ساعة لقوة أساطيلها وجيوشها .

وقد ظهر في حرب جناق قلعة الأخيرة مثال من ترقي بحرية الحلفاء ، ونموذج من ترقي جيش العثمانيين، ، واستبسال قوادهم وضباطهم وأفرادهم . وفي مغادرة الحلفاء ذاك الشاطئ بعد أن أضاعوا زهاء مئة ألف من جنودهم مدة حربهم عليه سنة وزيادة اعتراف ضمني للعثمانيين بتفوقهم بجيوشهم البرية ، وأن العسكري التركي من خير جنود الأرض صبراً وإقداماً على الموت .

قصورنا في البر والبحر :

ومن الغريب أن أهل الساحل ، ومنهم قسم يفتخر بأنه من نسل الفينيقيين سادة البحار ، لم تتعلق هممهم على كثرة ما بلغه الشامي من درجات الغنى والتمدن في مهاجره ، أن ينشئوا لهم أسطولاً تجارياً صغيراً على النحو الذي تفعل أضعف الشعوب لتغدو وتروح على الأقل بين سواحل البحر المتوسط والبحر الأحمر والبحر الأسود ، يحملون عليها متاجرهم وينقلون قاصديهم وأبناءهم ، ويعتمدون عليها في نقل صادرات القطر ووارداته ، على الصورة التي كانت لليونان قبل أن ينادوا باستقلال بلادهم منذ نحو مئة سنة ، فكان لهم أسطول تجاري قلبوه أسطولاً حربياً يوم استقلوا . وأغرب من هذا أن يقال للقطر الشامي إنه مستقل ، وما شوهدت قط في قديم ولا حديث ، أمة مستقلة لا أسطول لها ولا معسكر . وهذا من أغرب ما يدونه المدونون ، من أخبار هذه القرون . ولا سبب لذلك إلا أن بعض أهل الساحل يفضلون أن يعيشوا عبيداً على أن يعيشوا سادة مستقلين ، وكانوا يرون أن فرنسا حاميتهم والمحمي أبداً مقطور في ذنب حاميه .

الجباية والخراج

جبايات القدماء :

عزّ علينا الظفر بنص صريح في أصول الجباية عند الأمم القديمة التي انبسط سلطانها على هذا القطر ، وغاية ما عرفنا عن الرومان وهي الأمة الأعرق في المدنية من غيرها والتي طال عهدها سبعمائة سنة ، أنه كان يقضى على الشعب الشامي أن يؤدي الجزية وعشر غلاته ، وإتاوة من المال ، ورسماً على كل رأس . وللشعب الروماني مواد مهمة من الجمارك والمناجم والضرائب والحقول الصالحة لزرع الحنطة والمراعي يؤجرونها من شركات متعهدين يسمونهم العشارين ، يبتاعون من الحكومة حق جباية الخراج . وفي كل ولاية عدة شركات من العشارين ولكل شركة مستخدمون من الكتاب والجباة يظهرون في مظهر السادة ، ويتناولون أكثر مما يجب لهم أخذه ، ويسلبون نعمة الأهلين ، وكثيراً ما يبيعونهم كما يباع الرقيق . ولما كان الرومان قد جمعوا ثروة الأمم المغلوبة أصبحت الدراهم كثيرة جداً في رومية ، ونادرة جداً في الولايات ، فكان يتيسر في رومية الاقتراض بفائدة أربعة أو خمسة في المائة، أما في الولايات فلا يقل عن اثني عشر في المائة . وإذا لم يستطع المدين أن يوفي رأس المال ورباه يعمد الصيارف في تقاضي أموالهم إلى الطرق التي يستعملها العشارون . أوجز أحدهم السياسة الامبراطورية في الرومان بقوله : « الراعي الصالح يجزّ صوف غنمه ولا ينتفه » فمضى قرنان وأباطرة الرومان يكتفون بجز سكان مملكتهم ، يسلبون منهم كثيراً من الأموال ولكنهم يحمونهم من العدو الخارجي .

ويقول لامنس: إن الرومان ضربوا الجزية على أهالي الشام، على الذكور من سن الرابعة عشرة وعلى الإناث من الثانية عشرة إلى سن ٦٥ من عمرهم جميعاً وفرضوا عليهم خراجاً جبوه من الأملاك يبلغ في المئة واحداً ورسموا أيضاً ضرائب ومكوساً على الواردات والصادرات من السلع إلا أن هذه الرسوم مع ثقلها كانت أخف على عاتق الشاميين من المغارم والسخر التي حملهم إياهاملوكهم سابقاً، وكانوا يتقاضونها دون نظام معلوم وفي أي آن شاءوا. اه .

وفي قاموس الكتاب المقدس أن العشار ملتزم الأعشار والضرائب عند الرومانيين وكانوا مشهورين بالظلم والصرامة ، وأن التعشير جرى قبل أيام موسى بكثير بين الأمم القديمة ولا سيما الآسيوية وأدخلها موسى بإلهام إلهي في شريعته وأعطيت العشور للاويين الذين لم يكن لهم نصيب من الأرض فالتزموا أن يأخذوا معاشهم من إخوتهم، وكانوا يعشرون البقر وبقية المواشي ولم يكن عشر الأعشاب مطلوباً إلا أن الفريسيين كانوا يعشرون النعنع والشبث والكمون . أما الجزية على ما يؤخذ من روايات التوراة فقد علم أن الشريعة الموسوية كانت تفرض على كل معدود نصف شاقل ينفق في سبيل خيمة الاجتماع ، وفي الأيام الأولى من تاريخ العبرانيين إلى أيام الملوك لم تكن للخدمة المدنية والعسكرية وإنما قدم الشعب من عمله ومقتنياته تبرعاً حتى جعل الملوك جزية أو خراجاً على الأرض وأكمل ذلك سليمان إلى درجة ثقيلة جداً على الشعب .

الجباية في الإسلام :

اعتمدت العرب أول الفتح في تنظيم دواوين أموالها على الروم في الشام ، ينظرون لهم في مسائل الدخل والخرج ، ووضع التوازن بحسب عرف تلك الأيام ، وذلك لأن العرب كانوا لأول أمرهم نصف أميين أو نصف متحضرين وأهل الشام أعرق منهم في الحضارة وما ينبغي لها ، حتى كان زياد يقول : ينبغي أن يكون كتاب الخراج من رؤساء الأعاجم العالمين بامور الخراج .

ولقد كان الإسراف يبدو في الأموال أيام الترف والنعيم ، ويتجلى الاقتصاد فيها على عهد الجد والإصلاح ، وذلك يرجع على الأغلب إلى من يتولى

أمر الأمة من خليفة أو سلطان أو ملك أو أمير ، فإذا صلح الرأس صلح الجسد كله . وإذ كانت دواعي الإنفاق محصورة في الداخل ، وكان النقد أقل من هذه الأيام بالطبع ، والتفنن في ضبط الشؤون الاقتصادية لم يبلغ مبلغه في القرون الأخيرة ، وحركة المعاملات والمقايضات محدودة ، وأضعف من العصور الحديثة — كانت المسائل المالية لعهد العرب إلى السذاجة لأول الأمر شأنهم في عامة أمورهم .

والجباية أول الدولة كما قال ابن خلدون تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة ، وآخر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة ، فإن كانت الدولة على سنن الدين فليست إلا المغارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية ، وهي قليلة الوزائع ، لأن مقدار الزكاة من المال قليل ، وكذا زكاة الحبوب والماشية ، وكذا الجزية والخراج وجميع المغارم الشرعية وهي حدود لا تتعدى ، وإن كانت على سنن التغلب والعصبية فلا بد من البداوة في أولها ، والبداوة تقتضي المسامحة والمكارمة وخفض الجناح ، والتجافي عن أموال الناس والغفلة عن تحصيل ذلك إلا في النادر . قال : والدولة تكون في أولها قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائده ، فيكون خرجها وإنفاقها قليلاً ، ويكون في الجباية حينئذ وفاء بأزيد منها ، بل يفضل منها كثير عن حاجاتهم ، ثم لا تلبث أن تأخذ بدين الحضارة في الترف ، فيكثر لذلك خراج أهل الدولة ، ويكثر خراج السلطان خصوصاً كثرة بالغة ، فيزيد في مقدار الوظائف والوزائع ، ويستحدث أنواعاً من الجباية يضربها على البياعات ، ويفرض لها قدراً معلوماً على الأثمان في الأسواق ، وعلى أعيان السلع في المدينة .

ضروب الجباية :

كانت الجباية في الصدر الأول تجمع من الخراج والعشور والصدقات والجوالي[1] أي إن لها أربعة موارد رئيسة . ثم صارت أصول جهات

---

(١) « الفيء » ما يؤخذ من أرض العنوة « الخراج » ما يؤخذ من أرض الصلح « العشر » ما يؤخذ من زكاة الارض التي أسلم اهلها عليها والتي أحياها المسلمون من الأرضين أو القطائع=

الأموال السلطانية عشرة: الجزية والخراج والعشور والأجور والزكوات وأثمان المبيعات والمقاسمات والغنيمة والفيء والمعادن . وزادت أنواع الجباية على عهد الانحطاط ونسي المتغلبون أو الفاتحون « أن تكثير المالك ماله بأموال رعيته بمنزلة من يحصن سطوحه بما يقتلعه من قواعد بنيانه » .

قال الظاهري : إن كثرة الأموال وقلتها بقدر المعرفة باجتلابها من جزًى مقررة ، ومتاجر معشرة ، وأخرجة محضرة ، وعشور محررة ، وقسم مقدرة ، وغنائم موفرة ، وفيء من جهات غير منحصرة ، هذا إلى زكوات واجبة ، وأُجور لازمة ، وديات دماء ذاهبة ، ومحرر مباحات راتبة ، ومستخرج معادن غير ناهبة ، وعداد نَعَم سائمة لا سائبة ، ووظائف على أكرة عاملة ناصبة ، إلى غير ذلك من تربيع مزارع ، وتوزيع قطائع ، وتوسيع مراتع ، وتفريع مواضع ، وترجيع طوالع . فهذه جهات أموال جعل الشرع بيد السلطنة زمام استخراجها ، ومكن من استيفائها بسلوك طريقها ومنهاجها ، وفوض فيها حقوقاً تجب رعايتها ، عند صرفها وإخراجها اه

وقال الغزالي : وكل ما يحمل للسلطان سوى الأحياء وما يشترك فيه

= « صدقات الماشية » وهي زكاة السوائم من الإبل والبقر والغنم دون العوامل والمعلوفة «الكراع» هي الدواب لا غير « الحشري » هو ميراث من لا وارث له « الركاز » دفين الجاهلية « سيب البحر » هو عطاء البحر كاللؤلؤ والمرجان والعنبر ونحوه . ومن أبواب المال أخماس المعادن وأخماس الغنائم وجزاء رؤوس أهل الذمة جمع جزية وهو معرب كزيت وهو الخراج بالفارسية « مال الجوالي » جمع جالية وهم الذين جلوا عن أوطانهم ويسمى في بعض البلدان مال الجماجم وهي جمع جمجمة وهي الرأس « المكس » ضريبة تؤخذ من التجار في المراصد « الطسق » الوظيفة توضع على أصناف الزروع لكل جريب وهو بالفارسية تشك وهو الأجرة « الاستان » المقاسمة « الإقطاع » أن يقطع السلطان رجلا أرضاً فتصير له رقبتها وتسمى تلك الأرضون قطائع واحدتها قطيعة « الطعمة هي أن تدفع الضيعة الى رجل ليعمرها ويؤدي عشرها وتكون له مدة حياته فإذا مات ارتجعت من ورثته والقطيعة تكون لعقبه من بعده «الإيغار» هو الحماية وذلك أن تحمى الضيعة او القرية فلا يدخلها عامل ويوضع عليها شيء يؤدى في السنة لبيت المال في الحضرة أو في بعض النواحي . « التسويغ » أن يسوغ الرجل شيئاً من خراجه في السنة وكذلك الحطيطة والتريكة « العبرة » ثبت الصدقات لكورة وعبرة سائر الارتفاعات هو أن يعتبر مثلا ارتفاع السنة التي هي أقل ريعاً والسنة التي هي أكثر ريعاً ويجمعان ويؤخذ نصفهما فتلك العبرة بعد أن تعتبر الأسعار وسائر العوارض الواقعة « التلجئة » أن يلجئ الضعيف ضيعته الى قوي ليحامي عليها وجمعها الملاجئ والتلاجئ وقد يلجئ القوي الضيعة وقد ألجأها صاحبها اليه . (مفاتيح العلوم) .

الرعية قسمان : قسم مأخوذ من الأعداء وهو الغنيمة المأخوذة بالقهر . والفيء وهو الذي حصل من مالهم في يده من غير قتال . والجزية وأموال المصالحة وهي التي تؤخذ بالشروط والمعاقدة . والقسم الثاني المأخوذ من المسلمين فلا يحل منه إلا قسمان . المواريث وسائر الأموال الضائعة التي لا يتعين لها مالك . والأوقاف التي لا متولي لها . أما الصدقات فليست توجد في هذا الزمان – أي في القرن الخامس – وما عدا ذلك من الخراج المضروب على المسلمين والمصادرات وأنواع الرشوة كلها حرام . وقال أيضاً : إن أموال السلاطين في عصرنا حرام كلها أو أكثرها وكيف لا والحلال هو الصدقات والفيء والغنيمة لا وجود لها ، وليس يدخل منها شيء في يد السلطان ولم يبق إلا الجزية وإنما تؤخذ بأنواع من الظلم لا يحل أخذها به . فإنهم يجاوزون حدود الشرع في المأخوذ والمأخوذ منه ، والوفاء له بالشرط . ثم إذا نسبت ذلك إلى ما ينصبّ إليهم من الخراج المضروب على المسلمين ، ومن المصادرات والرُّشى وصنوف الظلم لم يبلغ عشر معشار عشيرة .

أول ما فرض من الجباية :

عرف أول شيء من المال فرض على أهل دومة الجندل من الكتاب الذي أرسله النبي مع حارثة بن قطن الكلبي من أهل دومة الجندل يقول فيه : هذا كتاب من محمد رسول الله إلى أهل دومة الجندل وما يليها من طوائف كلب لنا الناجية من النخل ولكم الصامتة من النخل ، على الجارية العشر وعلى الغايرة نصف العشر ، لا تمنع سارحتكم ، ولا تعد فاردتكم[1] ، تقيمون الصلاة لوقتها ، وتؤتون الزكاة بحقها ، لا يحظر عليكم النبات ، ولا يؤخذ منكم عشر النبات ، لكم بذلك عهد الله والميثاق ، ولنا عليكم النصح والوفاء وذمة الله ورسوله . شهد الله ومن حضر من المسلمين اه .

واختلف مقدار الجبايات باختلاف العصور . وكان لأول الفتح ضرب الخراج على الأرض والجزية على الرقاب ، وراعى الخليفة الثاني حال الشام فعمل في نواحيها غير ما عمل في غيرها من الأرضين التي فتحت في عهده ،

(١) الفاردة : الزائدة عن الفريضة أي لا تضم الى غيرها فتعد معها وتحسب . السارحة الماشية .

راعى كل أرض ما تحتمله وكانت الجزية في بدء الأمر ديناراً في كل حول على كل جمجمة ثم وضعها عمر بن الخطاب على الذهب أربعة دنانير ، وعلى الورق أربعين درهماً ، وجعلهم طبقات لغنى الغني ، وإقلال المقلّ ، وتوسط المتوسط ، وقيل: جعل على كل رأس موسر ثمانية وأربعين درهماً ومن الوسط أربعة وعشرين درهماً ومن الفقير اثني عشر درهماً . والجزية تؤخذ من غير المسلمين . والخراج يشترك فيه كل من يملك أرضاً .

وصالح أبو عبيدة بن الجراح نصارى الشام حين دخلها على أن تترك لهم كنائسهم وبيعهم ، وعليهم إرشاد الضال ، وبناء القناطر على الأنهار من أموالهم ، وأن يضيفوا من مرّ بهم من المسلمين ثلاثة أيام . وصالحهم عمر على ضيافة من مرّ بهم من المسلمين ثلاثة أيام مما يأكلون ولا يكلفهم ذبح شاة أو دجاجة ، وتبييت دوابهم على غير شعير وجعل ذلك على أهل السواد دون المدن .

ولما مسح عمر السواد وضع على كل جريب[١] عامر أو غامر يناله الماء بدلوٍ أو بغيره زُرع أو عُطل درهماً وقفيزاً[٢] واحداً . وألغى عمر النخل عوناً لأهل السواد . وأخذ من جريب الكرم عشرة دراهم ، ومن جريب السمسم خمسة دراهم ، ومن الخضر من غلة الصيف من كل جريب ثلاثة دراهم ، ومن جريب القطن خمسة دراهم ، ثم حمل الأموال على قدر قربها وبعدها فجعل على كل مائة جريب زرع مما قرب ديناراً ، وعلى كل مائتي جريب مما بعد ديناراً ، وعلى كل ألف أصل كرم مما قرب ديناراً ، وعلى كل ألفي أصل كرم مما بعد ديناراً ، وعلى الزيتون على كل مائة

(١) الجريب: عشر قصبات في عشر قصبات، والقفيز: عشر قصبات في قصبة، والعشير: قصبة في قصبة ، والقصبة ستة أذرع ، فيكون الجريب ثلاثة آلاف وستمائة ذراع مكسرة ، وأما الذراع فسبعة أصناف وهو يختلف باصطلاح كل بلد وقطر .

(٢) القفيز : مكيال ثمانية مكاكيك جمع مكوك. وفي القاموس : المكوك مكيال يسع صاعاً ونصفاً أو نصف رطل إلى ثمان أواقي أو نصف الويبة والويبة اثنان وعشرون أو أربعة وعشرون مداً بمد النبي(ص) او ثلاث كيلجات. والكيلجة تسع منا وسبعة أثمان منا والمنا رطلان ، والرطل اثنتا عشرة أوقية والأوقية إستار وثلثا استار والإستار أربعة مثاقيل، ونصف المثقال درهم وثلاثة أسباع درهم والدرهم ستة دوانق، والدانق قيراطان والقيراط طسوجان ، والطسوج حبتان ، والحبة سدس ثمن درهم وهو جزء من ثمانية وأربعين جزءاً من درهم .

شجرة مما قرب ديناراً ، وعلى كل مائتي شجرة مما بعد ديناراً ، وكان غاية البعد عنده مسيرة اليوم أو اليومين وأكثر من ذلك . وما دون اليوم فهو في القرب ، وحملت الشام على مثل ذلك . وقد ذُكر عن بعض أهل المدينة وأهل الشام أنه تخرج زكاة الخضر من أثمانها على حساب مائتي درهم خمسة دراهم . أما المكوس على البضائع فكانت تختلف باختلاف الأعصار وكانت قليلة في العهد الأول . كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري أن خذ من تجار المسلمين من كل مائتين خمسة دراهم ، وما زاد على المائتين فمن كل أربعين درهماً درهم ، ومن تجار أهل الخراج نصف العشر ومن تجار المشركين ممن لا يؤدي الخراج العشر أي من أهل الحرب .

أول من وضع العشور عمر لقوله عليه الصلاة والسلام : ليس على المسلمين عشر وإنما العشور على اليهود والنصارى وقال : يا معشر العرب احمدوا الله الذي وضع عنكم العشور . ولا تؤخذ الصدقات إلا مرة في السنة إلا أن يجد الإمام فضلاً . وكانوا يسمون ما يجمعون من الغنائم الأقباض ويقسمونها بين الفاتحين . وأمر عمر عثمان بن حنيف لما أرسله لمسح السواد أن لا يمسح تلاً ولا أجمةً ولا مستنقع ماء ولا ما لا يبلغه الماء . ولما فرض على الرقاب وجعل على من لا يجد أي الفقير اثني عشر درهماً في السنة قال : درهم في الشهر لا يعوز رجلاً . وكان يأخذ الجزية من أهل كل صناعة من صناعتهم بقيمة ما يجب عليهم وكذلك فعل علي .

ذكروا في الفيء والخراج أن من صولحوا إذا عجزوا يخفف عنهم . وإن احتملوا أكثر من ذلك فلا يزاد عليهم ، وإن تظالموا فيما بينهم حملهم إمام المسلمين على العدل ، ووضع ذلك الصلح عليهم جميعاً بقدر ما يطيقون في أموالهم وأراضيهم ، ولا يطرح عنهم شيء لموت من مات ولا لإسلام من أسلم منهم ، ويؤخذ بذلك كل من بقي منهم ما كانوا يطيقونه ويحتملونه . كتب عمر إلى سعد حين افتتح العراق : أما بعد فقد بلغني كتابك تذكر أن الناس سألوك أن تقسم بينهم مغانمهم وما أفاء الله عليهم ، فإذا أتاك كتابي هذا فانظر ما أجلب الناس به إلى العسكر من كُراع أو مال فاقسمه بين من حضر من المسلمين ، واترك الأرضين والأنهار لعمالها ليكون ذلك في

أعطيات المسلمين ، فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بقي بعدهم شيء، وقد كنت أمرتك أن تدعو الناس إلى الإسلام فمن أسلم واستجاب لك قبل القتال فهو رجل من المسلمين له ما لهم وله سهم في الإسلام ، ومن استجاب لك بعد القتال وبعد الهزيمة فهو رجل من المسلمين وماله لأهل الإسلام لأنهم قد أحرزوه قبل الإسلام اه .

ولما طُعن عمر قال : أُوصي الخليفة من بعدي بأهل الأمصار خيراً ، فإنهم جباة المال . وغيظ العدو . وردء المسلمين . وأن يقسم بينهم فيئهم بالعدل . وأن لا يحمل من عندهم فضل إلا بطيب أنفسهم . وأوصى الخليفة من بعده بأهل الذمة وأن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم . وكان كثيراً ما يصادر عماله ويجعل أموالهم في بيت المال . ولما ولى سعيد بن عامر بن حذيم حمص وما يليها أمره بوضع الخراج والرفق بالرعية

وقد ارتفع خراج الشام على عهد عمر بن الخطاب خمسمائة ألف دينار . فلما أفضى الأمر إلى معاوية قطع الوظائف على أهل المدن فوظف على أهل قنسرين أربعمائة وخمسين ألف دينار على الجماجم من ذلك الثلثان . وعلى أهل دمشق أربعمائة وخمسين ألف دينار على الجماجم من ذلك الثلثان . وعلى الأردن مائة وثمانين ألف دينار على الجماجم من ذلك الثلثان . وعلى فلسطين مثل ذلك . ثم جعل بعد ذلك يصطفي الأرض الجيدة ويدفعها إلى الرجل بخراجها وعلوجها والخراج على أصله لا ينقص منه شيء .

عهد الأمويين :

والإقطاع إقطاعان: إقطاع تمليك وهو موات وعامر ومعادن . وإقطاع استغلال وهو عشر وخراج . واللقاح البلد الذي لا يؤدي إلى الملوك الأربان والأربان هو الخراج وهو الإتاوة . قال مكحول : كل عشري بالشام فهو مما جلا عنه أهله فأقطعه المسلمون فأحيوه وكان مواتاً لا حق فيه لأحد فأحيوه بإذن الولاة . وأول من أقطع الأرضين وباعها عثمان ولم يقطعها أبو بكر ولا عمر ولا علي .

وكانت الجباية تقل عندما ينكسر الخراج فلا يحمل شيء كثير منه لقحط أو زلزال أو وباء . وكان عمال معاوية يحملون إليه هدايا النيروز والمهرجان فيحمل إليه في النيروز وغيره وفي المهرجان عشرة آلاف ألف . وهدايا النيروز والمهرجان مما رده عمر بن عبد العزيز كما رد السخرة والعطاء وورّث العيالات على ما جرت به السنة . غير أنه أقر القطائع التي أقطعها أهل بيته ، والعطاء في الشرف لم ينقصه ولم يزد فيه ، وزاد أهل الشام في أعطياتهم عشرة دنانير ثم رأى أن ينكثها وسماها مظالم . وكتب إلى عماله عامة : « أما بعد فإن الناس قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام الله وسنن سيئة سنتها عليهم عمال السوء قلما قصدوا قصد الحق والرفق والإحسان ». وبقي العطاء (الرواتب) على حاله حتى نقص يزيد بن الوليد الناسَ من عطائهم فسمي يزيد الناقص .

وبينما كان عمر بن عبد العزيز يقول لأسامة بن زيد التنوخي وكان على ديوان الجند بدمشق لما بعثه سليمان بن عبد الملك على مصر يتولى خراجها : ويحك يا أسامة إنك تأتي قوماً قد ألحّ عليهم البلاء منذ دهر طويل فإن قدرت أن تنعشهم فأنعشهم . كان سليمان يقول لعامله أسامة : احلب حتى ينفيك الدم . فإذا نفاك فاحلب حتى ينفيك القيح ، لا تبقها لأحد بعدي . فعمل أسامة في مصر أعمالاً جائرة حتى استخرج من أهلها اثني عشر ألف ألف دينار .

ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة جعل لا يدع شيئاً مما كان في أيدي أهل بيته من المظالم إلا ردها مظلمة مظلمة . خطب على المنبر ذات يوم فقال : أما بعد فان هؤلاء يعني خلفاء بني أمية قد كانوا أعطونا عطايا ما كان ينبغي لنا أن نأخذها منهم وما كان ينبغي لهم أن يعطونا إياها ، وإني قد رأيت الآن أنه ليس عليّ في ذلك دون الله حسيب ، وقد بدأت بنفسي والأقربين من أهل بيتي . اقرأ يا مزاحم ، فجعل مزاحم يقرأ كتاباً كتاباً فيه الإقطاعات بالضياع والنواحي ثم يأخذه عمر بيده فيقصه بالجلم أي المقراض .

ولقد اجتمع إليه بنو أمية لما عزم عمر بن عبد العزيز على أخذ ما في

أيديهم من حقوق الناس ورده على أهله وكلموه فقال : إنكم أُعطيتم في هذه الدنيا حظاً فلا تنسوا حظكم من الله ، وإني لأحسب شطر أموال بني الدنيا وأُمة محمد في أيديكم ظلماً ، والله لا تركت في يد أحد منكم حقاً لمسلم ولا معاهد إلا رددته . وقال لبني مروان : أدوا ما في أيديكم من حقوق الناس ولا تُلجئوني إلى ما أكره فأحملكم على ما تكرهون فلم يجبه أحد منهم . فقال : أجيبوني فقال رجل منهم : والله لا نخرج من أموالنا التي صارت إلينا من آبائنا فنفقر أبناءنا ، ونكفر آباءنا ، حتى نزايل رؤوسنا فقال عمر : أما والله لولا أن تستعينوا عليّ بمن اطلب الحق لهم لأضرعت خدودكم عاجلاً ، ولكنني أخاف الفتنة ، ولئن أبقاني الله لأردن إلى كل ذي حق حقه إن شاء الله . وكان عمر إذا نظر إلى بعض بني أُمية فيما روي قال : إني أرى رقاباً سترد إلى أربابها .

وضع عمر بن عبد العزيز المكس عن كل أرض ، ووضع الجزية عن كل مسلم ، وأباح الأحماء كلها إلا النقيع . وفرض للناس إلا للتاجر لأن التاجر مشغول بتجارته عما يصلح المسلمين وسوّى بين الناس في طعام الجار . وكان أكثر ما يكون طعام الجار أربعة أرادب ونصف لكل إنسان . وكتب إلى أحد عماله أن استبرئ الدواوين فانظر إلى كل جور جاره من قبلي من حق مسلم أو معاهد فردها عليه ، فإن كان أهل تلك المظلمة قد ماتوا فادفعه إلى ورثتهم . وما زال يرد المظالم من لدن معاوية إلى أن استخلف وقد أخرج من أيدي ورثة معاوية ويزيد بن معاوية حقوقاً .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة ومن قبله من المسلمين والمؤمنين : أما بعد فانظر أهل الذمة فارفق بهم وإذا كبر الرجل منهم وليس له مال فأنفق عليه فإن كان له حميم فمر حميمه ينفق عليه ، وقاصه من خراجه كما لو كان لك عبد فكبرت سنه لم يكن لك بدٌّ من أن تنفق عليه حتى يموت أو يعتق . وكتب إليه : ضع عن الناس المائدة والنوبة والمكس ، ولعمري ما هو المكس ولكنه البخس الذي قال فيه الله ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ . فمن أدى زكاة ماله فاقبل منه ومن لم يؤد فالله حسيبه . وحرم عمر بن عبد العزيز الكلأ في كل أرض .

ولم يزل رأيه والذي يشير به على من ولي هذا الأمر من أهل بيته توفير هذا الخمس على أهله فكانوا لا يفعلون ذلك ، فلما ولي الخلافة نظر فيه فوضعه مواضعه الخمسة ، وآثر به أهل الحاجة من الأخماس حيث كانوا ، فإن كانت الحاجة سواء وسع في ذلك بقدر ما يبلغ الخمس ، وإنه ربما أعطى المال من يستألف على الإسلام وإنه أعطى بطريقاً ألف دينار استألفه على الإسلام . وأمر أن لا يؤخذ من المعادن الخمس ، وتؤخذ منها الصدقة ، وأنكر التسخير في سلطانه ، وضرب أحدهم أربعين سوطاً لأنه سخر دواب النبط . ومما كتبه إلى أحد عماله : أما بعد فخل بين أهل الأرض وبين مبيع ما في أيديهم من أرض الخراج ، فإنهم إنما يبيعون فيء المسلمين والجزية الراتبة. وكتب بإباحة الجزائر وقال: إنما هو شيء أنبته الله فليس أحد أحق به من أحد .

دخل عامل لعمر بن عبد العزيز عليه فقال : كم جمعت من الصدقة فقال: كذا وكذا قال: فكم جمع الذي كان قبلك قال كذا وكذا فسمى شيئاً كثيراً من ذلك فقال عمر : من أين ذاك قال : يا أمير المؤمنين إنه كان يؤخذ من الفرس دينار ومن الخادم دينار ومن الفدان خمسة دراهم وإنك طرحت ذلك كله قال : لا والله ما ألقيته ولكن الله ألقاه . وكتب : إني ظننت أن جُعل العمال على الجسور والمعابر أن يأخذوا الصدقة على وجهها فتعدى عمال السوء ما أُمروا به . وقد رأيت ان أجعل في كل مدينة رجلاً يأخذ الزكاة من أهلها فخلوا سبيل الناس في الجسور والمعابر . وكتب إلى عامله أن لا تقاتلن حصناً من حصون الروم ولا جماعة من جماعاتهم حتى تدعوهم إلى الإسلام ، فإن قبلوا فاكفف عنهم ، وإن أبوا فالجزية فإن أبوا فانبذ إليهم على سواء .

وفي عهد عمر بن عبد العزيز وقد أصبحت عادة للخلفاء « إذا جاءتهم جبايات الأمصار والآفاق يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادها فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذي لا إله إلا هو ما فيها دينار ولا درهم إلا أُخذ بحقه ، وأنه فضل أعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية ، بعد أن أخذ كل ذي حق حقه »

أي فضل أعطيات الأجناد وفرائض الناس. أما من جاءوا من قبل ومن بعد من بني أمية فكانوا أشكالاً ومشارب منهم الجمّاعة ومنهم المبدد . فقد كان في بيت مال الوليد يوم قتل سنة (١٢٦هـ) سبعة وسبعون ألف ألف دينار ففرقها يزيد عن آخرها . وذكر المؤرخون أن الوليد بن عبد الملك بن مروان أقطع جند أنطاكية أرض سلوقية عند الساحل وصير إليهم الفلَثْر بدينار ومُدْيّ قمح فعمّروها وأجرى ذلك لهم وبنى حصن سلوقية . والفلثر مقدار من الأرض معلوم كما يقول غيرهم الفدّان والجريب .

عهد العباسيين ومساحة الشام :

وعدّل أبو جعفر المنصور أرض الغوطة غوطة دمشق فجعل كل ثلاثين مدأً بدينار بالقاسمي وكان أداء الناس على ذلك . وكان الخلفاء من بني العباس يعمدون إلى إبطال الرسوم عندما يتجلى لهم ضررها ولا يقطعون أمراً بدون أخذ آراء جلة الفقهاء في عصرهم. فقد أمر المعتضد سنة (٢٨٣) بالكتابة إلى جميع البلدان أن يرد الفاضل من سهام المواريث إلى ذوي الأرحام وأبطل ديوان المواريث . وخلف المعتضد هذا في بيوت الأموال تسعة آلاف ألف دينار ومن الورق ألف ألف درهم . وقد كنت ترى في أيام العباسيين عدلاً شاملاً لا مثيل له حيناً وتجد ظلماً شائناً في دور آخر ، فعهد الرشيد والمأمون والمهدي والظاهر كان عجباً في العدل وانتظام الجباية . فقد كتب المأمون سنة(٢١٨) إلى إسحاق بن يحيى بن معاذ عامله على جند دمشق في التقدم إلى عماله في حسن السيرة وتخفيف المؤونة وكف الأذى عن أهل عمله قائلاً : فتقدم إلى عمالك في ذلك أشد التقدمة، واكتب إلى عمال الخراج مثل ذلك . وكتب إلى جميع عماله في أجناد الشام جند حمص والأردن وفلسطين بمثل هذا .

والمهدي افتتح أمره بالنظر في المظالم وبسط يده في العطاء فأذهب جميع ما خلفه المنصور وهو ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار سوى ما جباه في أيامه . والمأمون أقام سنة بدمشق (٢١٤) لمساحة أرض الشام واجتلب لتعديله مساح العراق والأهواز والري وكان جده أبو جعفر

المنصور تشبث بذلك فلم يتم له فبعث بقية بن الوليد ليمسح أراض دمشق كما كان بعث إسماعيل بن عياش إلى دمشق فعدل أرضها الخراجية وعدّل أحمد بن محمد أرض دمشق والأردن وكان على ديوان الخراج سنة (٢٤٠) وحمل كل أرض ما تستحقه . وقال المسعودي : احتال كتاب الدواوين على المتوكل لخوفهم منه وقالوا : إن البلد يحتاج أن يعدل ولا يقوم بالتعديل إلا من ولي ديوان الخراج فتوجه سنة (٢٤٠) يعدل دمشق والأردن .

قال الرشيد للحسن بن عمران يوم أدخل عليه في الحديد : وليتك دمشق وهي جنة تحيط بها غُدُر ، تتكفأ أمواجها على رياض كالزرابي ، واردة منها كفايات المؤن إلى بيوت أموالي ، فما برح بك التعدي لإرفاقهم فيما أمرتك حتى جعلتها أجرد من الصخر وأوحش من القفر . قال : والله يا أمير المؤمنين ما قصدت لغير التوفير من جهته ، ولكن وليت أقواماً ثقل على أعناقهم الحق فتفرقوا في ميدان التعدي ، ورأوا المراغمة بترك العمارة أوقع بإضرار الملك وأنوه بالشنعة على الولاة ، فلا جرم أن أمير المؤمنين قد أخذ لهم بالحظ الأوفر من مساءتي اه . وفي أيام الرشيد رفضت ضياع في فلسطين وتركها أهلها فوجه الرشيد هرثمة بن أعين لعمارتها فدعا قوماً من مزارعيها وأكرتها إلى الرجوع إليها على أن يخفف عنهم من خراجهم وتلين معاملتهم فرجعوا فأولئك أصحاب التخافيف ، وجاء قوم منهم بعد فردّت عليهم أرضوهم على مثل ما كانوا عليه ، فهم أصحاب الردود .

والمهدي أول من نقل الخراج إلى المقاسمة وكان السلطان يأخذ عن الغلات خراجاً مقرراً ولا يقاسم وجعل الخراج على النخل والشجر . وأعاد الظاهر من الأموال المغصوبة في أيام أبيه شيئاً كثيراً وأطلق المكوس في البلاد جميعها وأمر باعادة الخراج القديم وأن يسقط جميع ما جدده أبوه ، وكان كثيراً لا يحصى ، وفي أيام أبيه خربت العراق وتفرق أهلـه .

خربت العراق وما إليها من الأمصار والأقطار للشدة في تقاضي الجباية والتفنن في الضرائب وعدم إطرادها على وتيرة واحدة .

وكثيراً ما كان الناس يعذّبون في الخراج ، وقد وقع ذلك في أوائل

دولة الأمويين بالشام ، فأخذ جباة الجزية يعذبون بعض أهل الذمة، ويجعلونهم في الشمس ساعات عقوبة لهم ، فنهى عن ذلك الفقهاء وبطل تعذيب المكلفين من ذاك اليوم . ونص الفقهاء أنه لا يؤخذ شيء من نصراني اتجر في بلاده من أعلاها إلى أسفلها ولم يخرج منها ، وإذا خرج من بلاده إلى غيرها من بلاد المسلمين تاجراً لم يؤخذ منه مما حمل قليل ولا كثير حتى يبيع . وقال مالك في النصراني يكري إبله من الشام إلى المدينة : أيؤخذ منه في كرائهم العشر بالمدينة قال : لا . فإن أكرى من المدينة إلى الشام راجعاً يؤخذ منه . ويؤخذ من أهل الحرب ما صالحوا عليه في سلعهم ويؤخذ من عبيدهم كما يؤخذ من ساداتهم . ذكروا أن عمر بن الخطاب قال لأهل الذمة الذين كانوا يتجرون إلى المدينة : إن اتجرتم في بلادكم فليس عليكم في أموالكم زكاة وليس عليكم إلا جزيتكم التي فرضنا عليكم، وإن خرجتم وضربتم في البلاد وأدررتم أموالكم أخذنا منكم وفرضنا عليكم كما فرضنا جزيتكم، فكان يأخذ منهم من كل عشرين نصف العشر كلما قدموا من مرة ولا يكتب لهم براءة مما أخذ منهم كما تكتب للمسلمين إلى الحول فيأخذ منهم كلما جاءوا ، وإن جاءوا في السنة مائة مرة ولا يكتب لهم براءة بما أخذ منهم .

وفعل معاوية بالشام والجزيرة واليمن مثل ما فعل بالعراق من استصفاء ما كان للملوك من الضياع وتصييرها لنفسه خالصة وأقطعها أهل بيته وخاصته وهو أول من كانت له الصوافي في جميع البلاد . قال البلاذري : وكانت وظيفة الأردن التي أقطعها معاوية مائة ألف وثمانين ألف دينار ، ووظيفة فلسطين ثلاثمائة ألف وخمسين ألف دينار ، ووظيفة دمشق أربعمائة ألف دينار ، ووظيفة حمص مع قنسرين والكور التي كانت تدعى بالعواصم ثمانمائة ألف دينار ويقال سبعمائة ألف دينار. وكان ارتفاع الشام سنة(٢٠٤ ﻫ) وهي أول سنة وجد حسابها بالدواوين بالحضرة ثلاثمائة ألف وستين ألف دينار ، وارتفاع قنسرين والعواصم وارتفاع جند حمص مائتي ألف وثمانية عشر ألف دينار وارتفاع جند دمشق مائة ألف وعشرة آلاف دينار ، وارتفاع جند الأردن مائة ألف وتسعة آلاف دينار ، وارتفاع جند فلسطين مائتي ألف وتسعة وخمسين ألف دينار .

قال اليعقوبي : إن خراج دمشق سوى الضياع يبلغ ثلاثمائة ألف دينار ، وخراج جند الأردن يبلغ سوى الضياع مائة ألف دينار ، ويبلغ خراج جند فلسطين مع ما صار في الضياع ثلاثمائة ألف دينار ، وخراج حمص سوى الضياع أيضاً مائتي ألف وعشرين ألف دينار . وكان خراج الأردن زمن عبد الملك بن مروان مائة وثمانين ألف دينار ، وكان خراج قنسرين على عهد المأمون أربعمائة ألف دينار ، ومن الزيت ألف حمل ، وخراج دمشق أربعمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار ، وخراج الأردن سبعة وتسعين ألف دينار ، وخراج فلسطين ثلاثمائة ألف دينار وعشرة آلاف دينار ، ومن الزيت ثلاثمائة ألف رطل .

قال المقدسي : كانت الضرائب ثقيلة على قنسرين والعواصم زمن سيف الدولة بن حمدان فكان خراج هذا الإقليم ثلاثمائة ألف وستين ألف دينار ، وعلى الأردن مائة ألف وسبعون ألف دينار ، وعلى فلسطين مائة ألف وتسعة وخمسون ألف دينار ، وعلى دمشق أربعمائة ألف ونيف . وأنت ترى أن الجباية في الشام كانت تختلف باختلاف العصور والأدوار والتقلبات الجوية . ومن الأراضي الخراجية والعشرية التي تدفع العشر لأنها مما فتحه المسلمون عَنوة قال أبو يوسف : كل أرض اقتطعها الإمام مما فتحت عنوة ففيها الخراج ، إلا أن يصيرها الإمام عشرية ، والشام في ذلك كمصر والعراق ، ولأنها كلها فتحت عنوة .

قال الغزالي : إن الأموال المنصبة إلى الخزائن المعمورة أربعة أصناف : الصنف الأول ارتفاع المستغلات وهي مأخوذة من أموال موروثة له . والصنف الثاني أموال الجزية . والصنف الثالث أموال التركات . والصنف الرابع أموال الخراج . فهذه هي الأموال المأخوذة وأخذها جائز ويبقى النظر في مصارفها وهي مع اختلاف جهاتها تحويها أربع جهات وفيها تنحصر مصالح الإسلام والمسلمين . الجهة الأولى المرتزقة من جند الإسلام . الجهة الثانية علماء الدين وفقهاء المسلمين القائمون بعلوم الشريعة فإنهم حراس الدين بالدليل والبرهان ، كما أن الجنود حراسه بالسيف والسنان . والجهة الثالثة محاويج الخلق الذين قصرت بهم ضرورة الحال وطوارق الزمان عن اكتساب قدر

الكفاية . الجهة الرابعة المصالح العامة من عمارة الرباطات والقناطر والمساجد والمدارس . وهذا وجه الدخل والخرج .

وكانت عادة الخلفاء من بني أمية وبني العباس والفاطميين من لدن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن تجبى أموال الخراج ثم تفرق من الديوان في الأمراء والعمال والأجناد على قدر رتبهم وبحسب مقاديرهم . وكان يقال لذلك في صدر الإسلام العطاء ، وما زال الأمر على ذلك إلى أن كانت دولة العجم ، فغير هذا الرسم ، وفرقت الأرضون إقطاعات على الجند ، وأول من عرف أنه فرق الإقطاعات على الجند نظام الملك وزير السلجوقيين ، وذلك أن مملكته اتسعت فرأى أن يسلم إلى كل مقطع قرية أو أكثر أو أقل على قدر إقطاعه ، فعمرت البلاد وكثرت الغلات ، واقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك من أعوام بضع وثمانين وأربعمائة إلى أوائل القرن التاسع — قاله المقريزي .

وما عدا الأرض التي كان الملوك يوغرونها أي التي يدفع عنها أربابها قدراً من المال مرة واحدة فتعفى من الخراج ، وما خلا الإقطاعات التي يستأثر بها أصحابها من أرباب الدولة ولا يؤدون عنها خراجاً وعدا ضياع كثيرة تعفى من الضرائب وعدا الصوافي ، واحدها صافية ، وهو ما يستخلصه السلطان لخاصته أو هي الأملاك والأرضون التي جلا عنها أهلها أو ماتوا ولا وارث لها—ما عدا هذا كان هناك نوع من الأرضين يسمى إلجاء أي يلجأ صاحب الأرض إلى بعض الكبراء فيسجل ضيعته باسمه، تعززاً به من عمال الخراج حتى لا يجوروا عليه ، فتصبح الضيعة مع الزمن ملكاً لذاك الكبير.

وكان العادلون من الملوك يعاقبون الملجئين والملجأ إليهم ، ولكن الناس يلجئون أملاكهم عند أرباب الصولة . وكم من مرة خربت الشام أو صقع كبير من أصقاعها بظلم ظالم من عمالها . ذكروا أن الخليفة الحاكم أعفى ولاية حلب من الخراج سنة (٤٠٧) لأنها كانت ضعفت بالفتن المتواصلة ، وأن ألب أرسلان لما ولي إمرة حلب رفع عن أهلها الكلف التي كانت مجددة عليهم وأن ابن ارتق (٥١٤) رفع المكوس عن أهل حلب والمؤن والكلف وأبطل ما جدده الظلمة من الجور والرسوم المكروهة .

تحري العدل في الدولتين النورية والصلاحية :

والغالب أن المكوس والضرائب كثرت أواخر حكم العباسيين والعبيديين في الشام . وبقيت رسوم كثيرة أبطلها نور الدين، وأبطل أبق الصوفي الأقساط في دمشق وما كان يؤخذ في الكور من الباعة جملة . قال ابن أبي طي : إن الذي أسقطه السلطان صلاح الدين والذي سامح به لعدة سنين آخرها سنة أربع وستين وخمسمائة مبلغه عن نيف ألف ألف دينار وألفي ألف اردب ، سامح بذلك وأبطله من الدواوين وأسقطه من المعاملين ، وكذلك فعل أخوه أبو بكر بن أيوب فإنه أبطل كثيراً من المظالم والمكوس وطهر بلاده من الفواحش والخمور والقمار ، وكان الحاصل من ذلك بدمشق خصوصاً مائة ألف دينار، ولما دخل صلاح الدين دمشق سنة (٥٧٠) أزال المكوس واقتصر في جميع الأقاليم على الرسوم التي يبيحها الشرع وهي الخراج والأجور والزرع ، وكذلك كانت من قبل سيرة نور الدين محمود بن زنكي فإنه منع ما كان يؤخذ من دمشق من المغارم بدار البطيخ وسوق الغنم والكيالة وغيرها .

ومع كثرة احتياج الدولة للمال زمن نور الدين وصلاح الدين كانت الجباية إلى الرفق في الجملة ، فأطلق نور الدين المكوس والضرائب واكتفى بالخراج والجزية . وأسقط صلاح الدين فريضة الأتبان المقسطة على أعمال دمشق وضياع الغوطة والمرج وجبل سنير وقصر حجاج والشاغور والعقيبة ومزارعها ، ولما فتح حلب أطلق المكوس والضرائب وسامح بأموال عظيمة ومنها ما هو على الأثواب المجلوبة ، ومنها ما هو على الدواب المركوبة ، ومنها ما هو في المعايش المطلوبة » ومما كتب عنه من منشور « إن أشقى الأمراء من سمن كيسه وأهزل الخلق، وأبعدهم من الحق من أخذ الباطل من الناس وسماه الحق » .

قال ابن أبي طي : حدثني كريم الدولة بن شرارة النصراني وكان مستوفي دار حلب يومئذ أنه عمل ارتفاع سنة تسع وستمائة في الأيام الظاهرية ، دون البلاد الخارجية عنها والضياع والأعمال . فبلغ ستة آلاف وتسعمائة ألف وأربعة وثمانين ألفاً وخمسمائة درهم قال : ومما أحطت به علماً في

أيام الملك الناصر أن ارتفاعها على القاعدة في الارتفاع في آخر دولته ستة وأربعين صنفاً وسطر المجموع بـ ٧,٣٠٥,٠٠٠ درهم ، وكان مسافة ما بيد مالك حلب في أيامه وهو الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي من المشرق إلى المغرب مسيرة خمسة أيام ومن الجنوب إلى الشمال مثل ذلك وفيها ثمانمائة ونيف وعشرون قرية ملك لأهلها ليس للسلطان فيها إلا مقاطعات يسيرة ونحو مائتي قرية ونيف مشتركة بين الرعية والسلطان . وهو جملة أخرى كثيرة ثم يرتفع بعد ذلك كلهمن فضلات الإقطاعات الخاصة بالسلطان من سائر الجبايات إلى قلعتها عنباً وحبوباً ما يقارب في كل يوم عشرة آلاف درهم، وقد ارتفع في سنة (٦٢٥) من جهة واحدة وهي دار الزكاة التي تجبى فيها العشور من الفرنج والزكاة من المسلمين وحق البيع سبعمائة ألف درهم .

الضرائب زمن الأتراك والشراكسة :

لما قبض الأتراك والشراكسة على زمام الأحكام في الشام في القرن السابع والثامن والتاسع كانت المكوس كثيرة جداً وزادوها هم وتفننوا في ضروبها حتى صعب إحصاؤها وحفظها، ومنهم من أبطلوها وأحسنوا لأنفسهم ولرعاياهم وأبطل الملك الظاهر بيبرس سنة (٦٦٥) ضمان الحشيشة وأمر بإحراقها. وقد أبطل الظاهر برقوق في جملة ما أبطل من المظالم والمكوس في الشام ضمان المغاني أي المغنين والمغنيات في الكرك والشوبك . وضمان المغاني كان معروفاً في مصر فأبطل سنة (٧٧٨) زمن الأشرف قلاوون أبطله من جميع أعمال مملكته وكان عبارة عن مال كثير مقرر على المغاني من رجال ونساء يؤدونه كل سنة إلى الخزانة . وأبطل الناصر قلاوون ضمان المغاني أيضاً وهو عبارة عن أخذ مال من النساء البغايا ، وكان يتحصل من ذلك جملة كثيرة من المال . وكانت مراسيم المماليك تصدر الحين بعد الآخر بإبطال بعض الرسوم والضرائب ، ولكن مع هذا تجد من الأمراء من كانوا يصادرون على ملايين من الدنانير ، دع سائر أسباب الثروة من ناطق وصامت . وقد كان الملك المؤيد شيخ كثير المصادرات للرعية ، وهو الذي قطع دابر النواب العصاة الذين أخربوا غالب الديار الشامية ، وأحدث في أيامه أشياء كثيرة من أبواب

المظالم لما كان يخرج إلى التجاريد . والخروج إلى التجاريد أو الحملات كان من جملة الأسباب التي تتهيأ لملوك الشراكسة ليسلبوا الناس أموالهم ولا تكلف التجريدة أقل من نصف مليون دينار . فاذا جرد السلطان في حياته عشرين تجريدة كان المصروف من ذلك في هذه السبيل عشرة ملايين تصل إلى خزانة السلطان حتى يجبى مثلها من الرعايا المساكين .

وفي سنة سبعمائة استخرجت الحكومة مالاً عظيماً من جليع الأملاك والأوقاف بدمشق وظاهرها وأخذوا من الغوطة من كل قرية تكثر أموالها ثلث ضمانها وأخذوا من القرى التي لزراعة القمح والشعير والقطن والحبوب على نسبة مغل سنة ثمان وتسعين وستمائة ، فعظم ذلك على الناس وهرب خلق كثير واستخفى جماعة ، والذين وقعوا بأيديهم قطعوا أشجار الباقين وأباعوها حطباً بحيث أباعوا القنطار الدمشقي بثلاثة دراهم . فكان خراب الغوطة بهذا السبب ، ومن شدة الطلب وكثرة الظلم والجور .

في سنة ٧٠٢ سامح الناصر قلاوون بالبواقي في ذمم الجند والرعايا بالشام وصدر بذلك منشور بخط العلامة كمال الدين محمد الزملكاني من انشائه وقريء على المنبر بالجامع الأموي وجملة ذلك من الدراهم ألف ألف وسبعمائة ألف وسبعة وأربعون ألفاً ومائة وخمسون درهماً ومن الغلال المنوعة تسعة آلاف وأربعمائة واثنتان وأربعون غرارة ومن الحبوب مائتان وثمان وعشرون غرارة ومن الغنم خمسمائة رأس ومن الفولاذ ستمائة وثمانية أرطال ومن الزيت ألفان وثلاثمائة رطل ومن حب الرمان ألف وستمائة رطل . وفي سنة ٧١٧ سومح بمكوس على جهات مستحقة من المحاكم الطرابلسية وابطال المنكرات ومنها بيع الخمور جهاراً .

وفي سنة ٧١٤ أمر الملك المؤيد صاحب حماة جميع نوابه أن لا يقبل أحد حماية لأحد ، بل الكل متساوون في الحقوق ودفع ما عليهم ، وذلك لأن الاسماعيليين كانوا في مصياف لا يدفعون لسلفه أموالاً بدعوى الحماية فأخذت الأموال من الجميع . وفي سنة ٧٢٤ برزت المراسيم الشريفة إلى نائب حلب بأن يروك البلاد الحلبية أي يمسحها ويعين عليها مالاً كما فعل

في الأقاليم الشامية فراكوا جميع الديار الحلبية والشامية وأُبطل في هذه السنة مكوس الغلة ، وكان مبلغاً عظيماً يؤخذ من ثمن الغرارة ثلاثة دراهم ونصف .

ومن جملة ما أبطلوه في أدوار مختلفة من الرسوم ، وهو ما نورده مثالاً من حالة تلك الأيام ، ما أبطله برقوق مما كان متقرراً على البردارية في كل شهر من المال ، وما كان يأخذه السماسرة على الغلال والكيالة ، وما كان مقرراً لنائب طرابلس عندما يتولى على كل قاض من قضاة البر والولاة بغلة أو ثمنها خمسمائة درهم . وأبطل المنصور قلاوون من جملة ما أبطل من المظالم وظيفة ناظر الزكاة ، وهو أن يؤخذ ممن عنده مال زكاته ، فإن مات الرجل صاحب المال أو عدم ماله يبقى ذلك القدر المقرر عليه في الدفاتر، يؤخذ من أولاده أو من ورثته أو من أقاربه ولو بقي منهم واحد . وفي سنة ٧٦٥ صدر مرسوم عن نائب المملكة الطرابلسية إلى نائب حصن الأكراد بإبطال ما أحدث في الحصن من الخمارة والفواحش وإلزام أهل الذمة بما أجرى عليه أحكامه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. وفي سنة(٧٩٦) أبطل نائب السلطنة بالقدس المكوس والمظالم والرسوم التي أحدثها قبله النواب ، ونقش بذلك رخامة أُلصقت على باب الصخرة ، وأبطل الأشرف صلاح الدين ما كان يؤخذ على كل حمل يدخل باب الجابية بدمشق من القمح خمسة دراهم من المكس ، وأبطل المكوس والضرائب عن سائر أصناف الغلة بجميع الشام .

وتجد إلى اليوم على السواري الأربع القائمة في مدخل جامع بني أُمية بدمشق من الغرب أربع وثائق في إبطال المكوس كتبت كل وثيقة على سارية . تاريخ الأولى سنة (٨٦٣)على عهد قايتباي الحمزاوي كافل الممالك الشامية أبطل بها الرسم المقرر على الأسواق والطواحين وغيرها من المكوس بدمشق . والثانية كتبت سنة(٨١٥) وهي مما أمر به الظاهر جقمق بإبطال المكوس على الأقمشة الحمصية وفرع الأردية وفرع القطن وغيرها . والثالثة بتاريخ سنة(٨٥٢)تقول بإنه ورد مرسوم الظاهر جقمق بإبطال بعض المكوس ومنها التمر والعفص والسمك البوري والحنا والقماش المصري والرابعة فيها ذكر القلي والخروع والقلقاس وجلود الجاموس والماعز .

وكانت العادة أن تنقش على الرخام صورة الأمر الصادر من الملك في رفع مثل هذه المظالم ، فقد نقش الظاهر ططر رخامة وألصقها على باب الجامع الأموي بدمشق بإبطال ما كان لنائب الشام على المحتسب في كل سنة ، وكذلك أبطل في القدس ما كان يجبى لنائب القدس في كل سنة من المال ، ونقش ذلك على رخامة وألصقها بباب الجامع الأقصى . وفي سنة (٧٤٦) كتب على باب قلعة حلب وغيرها من القلاع ما مضمونه : مسامحة الجند بما كان يؤخذ منهم لبيت المال بعد وفاة الجندي وذلك أحد عشر يوماً وبعض يوم في كل سنة ، وهذه مسامحة بمال عظيم ، وكتب بالمسامحة بمثل ذلك على حائط قلعة طرابلس ، وهذا التفاوت أيام الدوران ما بين السنين الشمسية والقمرية .

وكثيراً ما كان يصدر الأمر في زمن الشراكسة بجمع الذهب إذا قلّ أو الفضة وتسليمها إلى الملك ليضرب بها سكة ونقوداً ، وكثر في أيامهم غش الفضة حتى كان سعر الدرهم ينزل كثيراً ، ويصاب الناس في الشام ومصر بخسائر فادحة ، وكثيراً ما كانوا يخسرون ثلث أموالهم لأن بعض ملوكهم كانوا يغشون الفضة وينزلون عيار الذهب ، فكانت المصيبة بالفضة والذهب لعهدهم كالمصيبة بالأوراق النقدية لعهدنا ، كل يوم في ارتفاع وانخفاض .

كانت أيام الشراكسة فريدة بثروة عمالها ، والغالب أن الواحد منهم كان يأخذ رزق ألوف ولكن الثروة كانت شيئاً كثيراً في تلك الأيام محصورة في الأفراد .

وكانت المكوس على البضائع الصادرة والواردة تؤخذ في الحدود بين الشام والروم ، وكثيراً ما كان الروم إذا قويت شوكتهم في الشام يقيمون في حلب رجلاً منهم لأخذ مكس البضائع كما جرى في القرن الرابع . وكان للصليبيين في الحروب الصليبية على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم ، وتجار النصارى يؤدون في أرض المسلمين على سلعهم ، وكانت تؤخذ ضرائب الصادرات والواردات ببيروت ، وهي جملة مستكثرة ، وكان على باب الميناء دواوين وعامل وناظر ومشارف وشادّ ، يوليهم نائب دمشق والمتوفر

عن المرتبات يحمل إليها ، ولم يذكر المؤرخون مقدار هذه الضرائب .

في سنة(٨٢٤) أمر الناصر بإبطال مكس القمح ببلاد الشام كلها وكان يؤخذ على كل إردب ثلاثة دراهم وكان المتحصل عن ذلك في كل سنة ألف ألف ومائتي ألف درهم نُقرة وأزيد. ونودي في المحرم سنة(٨٣٧) بمرسوم السلطان بأن يبطل طرح السكر وأن ينقش ذلك في الجامع الأموي والقلعة ودار السعادة قال الأسدي : فنقش ذلك وعلى الظن الغالب أنهم لا يفون بذلك لما علم من عادة السلطان . وترى إلى اليوم في جامع حلب الكبير عدة سوارٍ في إلغاء الرسوم فالسارية الأولى كتب عليها إن الملك دمرداش أبطل سنة(٨١١)مكس البيض من المملكة الحلبية . الثانية أبطل فيها الملك جقمق سنة(٨٥٢)ما كان يؤخذ ظلماً من الدلالين في سوق الحراج . الثالثة في سنة(٨٤٦)بإبطال الظاهر جقمق مكس الكتان . الرابعة سنة(٨٤٦)بإبطال ما كان يؤخذ من أهل سرمين . الخامسة بتاريخ سنة(٨٥٧)بإبطال مكس الزيتون من قرى عزاز . السادسة سنة(٨٦٤) بإبطال ما تجدد على المصبغة بقلعة القصير عن كل خابية عشرة دراهم ، وأن لا يؤخذ سوى درهم واحد عن كل خابية . وغيرها بإبطال مكس السلاح في سوق السلاح ، ومنها ما كتب سنة (٨٨٢)بإبطال مكس الملح الداخل مدينة حلب ، ومنها بإبطال ما على الدباغين بدير كوش من المكس ، ومنها ما صدر سنة(٨٩٣)بإبطال ما كان يأخذ ناظر الحنة من سوق الحناوية، ومنها ما صدر سنة (٩٠٢) بإبطال ما كان يؤخذ من مكس القطن ، ومنها ما صدر سنة(٩٠٢)بإبطال مكس المسك والزعفران ومنها بإبطال مكس السماق ، ومنها إبطال ما هو معين عن ختم القماش العراقي والدمشقي والقدسي . ومعظم هذه الأوامر مسطورة على الأعمدة مشفوعة بجملة ملعون بن ملعون من جددها أو أعادها إلى غير ذلك ، ومنها كان الله ورسوله خصمه يوم القيامة .

والظاهر أن الرسوم في طرابلس لا يجبى مثلها في حمص ، وما كان في القدس لا عهد لحلب به ، وما في دمشق لا مثيل له في المدن الأخرى . ففي مدخل جامع طرابلس أمر بإبطال المظالم المحدثات على أهل طرابلس من التحجير على قوت العباد من القمح واللحم والخبز والفراخ وغير ذلك ،

وذلك في أيام أبي النصر شيخ سنة(٨١٧)وفي مدخل هذا الجامع أمر من صاحب طرابلس بإبطال منع استيفاء رسم الدخان ، وما يستأديه من يكون متكلماً في ديوان الحجوبية الكبرى وأستاددارية الديوان الشريف من سكر وخل وغير ذلك ، ومن طرح الصابون والزيت والبلس (البوتاس) ومن جميع ما يحدث من ديوان النيابة والديوان الشريف وغيرها ومن جميع الكلف والمخادم الجارية بها العادة قديماً والحادثة مستقبلاً ، وعلى حائط مدرسة الشمسية أمر كتب سنة(٨٢٦) بإبطال الأشرف برسباي ما على البلاد الطرابلسية من الخيل بالبريد ورسم الأشرف بإبطال التحكير بالخانات والمكوس على الحطب والتبن وغيره وجهر بالنداء بذلك بدمشق بالجامع الأموي ونقش به رخامة . وأبطل المقر السيفي نائب السلطنة بحمص سنة(٨٤٤)جميع ما أُحدث في حمص من ظلامات الحرير والصوف والبر والخبز والزيت وكتب على باب جامع سيدنا خالد بن الوليد وصية بذلك وفيها اسم السلطان جقمق .

وفي سنة(٨٤٦) سومح عوام القدموس بما على أنوال الحياكة وخراج الكروم مسامحة مستمرة على الدوام ونقش رخامة على حائط الجامع الكبير . وفي سنة(٨٥١) أُبطل ما تجدد على عوام القدموس والكهف والمينقة والعليقة والخوابي من الثياب الخام ودورة الأستاددار . وفي سنة(٨٥١)أبطل الظاهر المظالم من القدس ونقش بذلك بلاطة وأُلصقت بحائط المسجد الغربي عند باب السلسلة وأبطل الظاهر خشقدم المظالم من القدس ونقش بذلك رخامتين وجهزهما إلى القدس وأُلصقتا بحائط المسجد الأقصى (توفي سنة ٨٧٢) .

وفي مدرسة طرابلس رسم بإبطال ما على النحيرة (المسلخ) بطرابلس من الموجب لديوان النيابة وقدره في كل يوم ثمانون درهماً ، وبإبطال معلوم كتابة السر أحد وعشرون درهماً ، ومعلوم الحجوبية ثلاثة عشر درهماً وفي حائط تلك المدرسة أيضاً كتابة بتاريخ(٨٨٨) بإبطال المظالم وهي الطروحات التي كانت تطرح على التجار والمتسببين بمدينة طرابلس وذلك عن الصابون والكرم والزيت وغير ذلك . وفي سنة(٨٨٨) أُبطل مكس الدواليب والحرير والقصابة بالكهف والقدموس وأبطل مكس نحيرة البقر والجاموس وقطع الضأن وقرم الأساكفة بالقدموس والخوابي وعلى ذلك الحائط كتب سنة

(٩٠٩) بإبطال المظالم والحوادث عن فلاحي الوقف وأن لا يكرّبوا فلاحي الوقف إلا الجزية الشرعية والمال المقرر وفي سنة (٨٢١) أبطل ضمان المكس بسوق العطارين بطرابلس وكتب على حائط مدرسة الرفاعية سنة (٨٧٠) أن لا يؤخذ من تجار حماة وغيرها من السمسرة والترجمة إلا ما جرت به العادة القديمة وهي على الألف عشرة دراهم لا غير وأن لا يتناول الأجرة إلا من باشر العمل بنفسه من أبناء السبيل ، ومنع النصارى من الترجمة والسمسرة ، وأن لا يؤخذ شيء ممن باع سلعته بغير دلال . وألغى الغوري المكس عن حاكة حمص .

تفنن الشراكسة في اقتضاء الأموال :

وبذلك رأينا أن إلغاء المظالم والمغارم كان على أشده في آخر أيام الشراكسة وكان من أسوإ ملوكهم شعبان، قال المؤرخون فيه: إنه كان متطلعاً إلى جمع المال وفتح باب قبول البدل في الإقطاعات والوظائف وجعل لذلك ديواناً قائماً بالذات وكان يعين البدل في المناشير وهو مبلغ ثلاثمائة درهم فما فوقها . والخلاصة فإن الشراكسة تفننوا في طرح المكوس . ومن غريبها في أيامهم مكس القرعان وذلك أن شخصاً من المماليك الشراكسة كشف رأسه في سنة (٨٣٠) بين يدي السلطان فإذا هو أقرع فضحك منه السلطان فقال ذلك المملوك : اجعلني والي القرعان يا مولانا السلطان ، فأجابه السلطان إلى ذلك وأخرج له مرسوم سلطاني له وأن يكون شيخ القرعان وخلع عليه خلعة فصار يدور في الأسواق والحارات ويكشف رؤوس الناس ، فمن وجده أقرع يأخذ منه ديناراً حتى أعيان الناس فضج الناس منه وشكوه للسلطان فضحك ونادى بالأمان للقرعان وأن كل شيء على حاله، وكسب ذلك الرجل في هذه الحركة مالاً عظيماً .

قال الأسدي: ويكشف في كل سنة مقدار الارتفاع ومقدار المصروف ومهما توفر بعد ذلك رفع علمه للمسامع الشريفة فيرفع منه ما يرفع محمولاً للخزائن الشريفة بالديار المصرية ، ويرفع منه ما يدخر في القلاع الحصينة لما يحتاج إليه عند حوادث الزمان . وكان يتحصل من كل مملكة من المال

(أي من ممالك الشام) ما يوفي بمصروف ذلك العمل ، ويبقى من بعد ذلك ما يرفع للمصالح عند الاحتياج إليها .

الأموال أوائل العهد العثماني :

وأمّلت الأمة بدخولها في حوزة الترك العثمانيين ، أن ترى أيام رغد وسعادة ، لأنها دولة جديدة تتحامى ما أمكن الأغلاط التي وقعت فيها الحكومة قبلها ، ولكن جاء الأمر على العكس من ذلك على ما تراه . لما فتح سليم العثماني الشام ومصر قال وقد ملأ خزائنه من أموال الشراكسة بعد أن كان في ضائقة شديدة اضطر معها إلى الاستدانة من بعض التجار : إني ملأت الأنابير بالذهب ، وكل من يستطيع من أخلافي أن يملأها دراهم فليختم عليها بطابعه ، وإلا فتبقى الخزينة السلطانية مختومة بطابعي .

وجعل السلطان سليم على دمشق مالاً معيناً قال ابن طولون: قيل قدره مائتا ألف دينار وثلاثون ألف دينار . وذكر النجم الغزي أن هذا السلطان تفنن في ضرب المكوس ومن جملتها المكس على المومسات فتأسف العقلاء وأكبر الأمر أهل الدين والورع . وكان خراج إيالة الشام كله يعطى للمرأة السابعة من نساء السلطان إبراهيم وكان الجابي يأتي دمشق فيجبيها بنفسه ، لأن نساء القصر لم يكنّ يأمنّ أحداً من الولاة والمتصرفين على جبايتها من الأمة . فتأمل إيالة بل مملكة كهذه تعطى جبايتها لامرأة واحدة من نساء القصر تنفقها على زينتها وأزيائها .

الخراج والعثمانيين :

وذكر مؤلفو الترك أن إقطاع الشام كله كان مسانهة مليون اقجة[1]

---

(١) كل ثلاث اقجات بارة وكل ٤٠ بارة قرش والكيس خمسمائة قرش ذهباً أو فضة . وذكر لا منس أن القرش كان يساوي في القرن الثامن عشر في الشام نحو خمسة فرنكات وفي منتخبات الجوائب أن نقود الدولة العثمانية كانت قبل القرن الحادي عشر للهجرة من صنف الدوكات المنسوبة إلى البندقية التي كانت مملكة عظيمة مستقلة وكان وزن كل مائة دوكات ذهباً ١١٠ دراهم أما نقود الفضة فكانت من صنف الزيال الجرماني الذي كان يجلب من المانيا وكان وزنه تسعة دراهم وقيمته ٨٠ اقجة . وأول من استعمل الاقجة السلطان بايزيد الأول وذلك =

ولأمير لوائها من مئتين إلى ثلاثمائة ألف اقجه وفيها ١٢٨ زعامة و ٨٦٦ إقطاعاً وعدد جندها ٢٦٠٠ من الفرسان . وكانت إيالة طرابلس وارتفاعها السنوي خمسة يوكات[1] ولديوان الخاص من ٢١٠ إلى ٣٩٠ ألف اقجه وحاميتها من الفرسان ١٤٠٠ وإيالة حلب وخراجها ثمانمائة وسبعة عشر ألف اقجه وديوانها الخاص يرتفع من ٢٠٠ إلى ٥٠٠ ألف اقجه وفي هذه الإيالة ١٠٤ زعامات و ٧٩٩ إقطاعاً وحاميتها ٢٥٠٠ فارس يخرج منها عشرة يوكات كان يدفعها أولاد رمضان حكام أذنة . وكانت الدولة تستوفي نصف إيراد الشام على عهد سليمان الأول أعني في سنة (٩٩٩ هـ ١٥٥٣ م) ٢٠٠,٠٠٠ دوكا والدوكا عشر اقجات والبارة ثلاث اقجات وتصرف الباقي على محافظة البلاد .

وما برحت الحال المالية في هذه الديار في إدبار ، وهي تبع للوالي الذي يتولى زمام الحكم . فقد ذكروا أن والي الشام رفع في سنة (٩٩٤) المظالم وأبطل المكوس الزائدة ، فأبطل مكس الحمارات ، وكان هذا المكس لكل من كان حاكماً على الشام، ثم أبطل اليسق من باب صاحب الشحنة . واليسق كبير الإنكشارية يلتزم هذه الوظيفة بمال كبير يدفعه للآغا وللباشا ويكون في باب صاحب الشحنة ، يقطع الجرائم ، ويدفع المال عن أربابه ، يربح ديناراً عثمانياً كل يوم ، فإذا كانت الجريمة خمسين ديناراً مثلاً دفعها عمن ألزم بها ، وله ربحها في كل يوم خمسون عثمانياً ، فإذا بقيت عليه أياماً حتى يسعى في تحصيلها تضاعفت عليه، حتى لا يقدر على الوفاء والتخلص منها ، فإن كان له أسباب أو عقار أو وقف أو غير ذلك باعها أو ملّكها لذلك اليسق كيفما أراد ، فأدى ذلك إلى تمول الإنكشارية وتملكهم كثيراً من الأملاك ، وأبطل اليسق من باب القاضي ، ورتبت الإنكشارية مالاً على البضائع المجلوبة ، وأبطلت المكوس التي كانت تؤخذ على اللبن الداخل إلى دمشق وعلى الموازين .

= في سنة (٧٩٢ هـ ١٣٩٠ م) أما استعمال البارة فاشتهر في سنة (١٠٦٦ هـ) وفي سنة (١٠٩١) قر الرأي أن كل ٤٠ بارة تحسب قرشاً وكانت البارة تساوي ثلاث اقجات .

(٢) اليوك : مبلغ خمسمائة ألف قرش .

وفي سنة(١٠٠٤)طالبت الحكومة الرعايا بعوارض سنتين جديدة وعتيقة ، وطالبوا الإسرائيليين بمال عظيم . وكثيراً ما كانت الحكومة تطلب المال قبل استحقاقه ، وتسلب أموال الصيارف والمرابين ، بحجة الاستدانة منهم ، وحدث أن بعض الأمراء والملوك صادروا النصارى واليهود خاصة كما فعل الملك الأشرف قايتباي فصادرهم مرتين في أيامه . وغرّم أحمد حافظ باشا سنة(١٠١٨) كافل الشام أموالاً طائلة ، وصادر جماعات في دمشق وأخذ أموالاً منهم بغير حق ، وكانت المصادرة عامة تتناول من كان في صندوقه مال أياً كان مذهبه .

وفي سنة(١٠٠٨)تولى محمد باشا ولاية دمشق وأمر بتغيير المعاملة فيها ، وجعل كل سلطاني بثمانين قطعة جديدة ، زنة كل قطعة قيراطان ونصف قيراط ، وهبطت الأسعار وحصل الرخاء وكان الأمير بشير الشهابي في لبنان كالأمير فخر الدين المعني يحب البذخ ، وقد ضاعف خراج لبنان أربعة أضعاف .

وفي كتاب صادر عن أحمد بن محمد المولى بنابلس سنة(١٠٣٠) أن يتصرف المستحفظ بمدينة نابلس ولوائها في جميع متحصلات القرى والحرب الكائنة بالجبل القبلي والشامي وبني صعب والقرى والحرب المقاطع عليه سابقاً ، من شتوي وصيفي وزيتون وخرنوب وعداد ورجالية وخراج وأعشار وأغفار وسائر المتحصلات الشرعية والعرفية العائد جميع ذلك للخزينة العامرة بدمشق الشام على الأمانة وأن يتحضر للخزينة العامرة سبعة آلاف سلطانياً ذهباً .

وفي سنة (١٠٣٥)طلب المال من الأمير يونس الحرفوشي أمين بعلبك عن سنة(١٠٣٣ و ١٠٣٤)فقال : إن المطلوب من مقاطعة بعلبك عشرة آلاف سكة حسنة ، وأنه لا يستطيع ضمانها إلا بعشرة آلاف قرش فبالنظر لأداء نفقات الحج الشريف ومال العلوفة أعطيت له المقاطعة بعشرة آلاف قرش عن سنة ٣٤ ولكن لم يتحصل منها سوى سبعة آلاف قرش . أما سنة ٣٣ فلا يمكن تحصيل شيء منها لأن ابن معن خرب تلك الولاية كما يؤخذ من السجلات الرسمية في تلك الأيام .

تفنن الجزار في أخذ المال وطريقة العثمانيين :

وهكذا انقضى القرن الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر في سلسلة مغارم ومظالم ، فقد تولى أحمد باشا الجزار دمشق سنة (١٢٠٠) ولم يرتح شهراً واحداً من طلب المال ظلماً ، ومن طرح النقود وطرح البضائع المتنوعة ، ينهبها من جهات ويطرحها على أُخرى بأسعار زائدة . ومن مظالمه أنه إذا وجد قتيل في أحد الأنهار يلحقون جميع القرى التي تشرب من ذاك النهر ، ويأخذون منهم مالاً غزيراً ، وكان لا عمل له إلا القبض على الأغنياء ومصادرتهم على أبشع صورة فصدق فيه قول الشاعر ـ :

قد بُلينا بأميرٍ ظلم الناس وسبّحْ
فهو كالجزار فيهم يذكر الله ويذبحْ

قال ابن آق بيق في حوادث سنة : (١٢١٧) شغل الشام بالظلم وإكرامية الباشا ، واشتغل حسن آغا بالظلم في دمشق وإرهاق القرى بالطروحة والإكراميات وإقراض الذخائر ومعاونة الجردة وغير ذلك من المظالم التي لم يسمع لها أثر في السابق .

وقال ابن عابدين : إن غالب الغرامات الواردة على القرى في هذا الزمان (أي في أوائل القرن الثالث عشر) ليس لحفظ أملاك ، ولا لحفظ أبدان ، وإنما هي مجرد ظلم وعدوان ، فإن غالب مصارف الوالي وأتباعه ، وعمارات منزله ومنزل عساكره ، وما يدفعه إلى رسل السلطان الواردين بأوامر ونواه وأمثال ذلك كله يأخذه من القرى ويسمون ذلك بالذخيرة ، تؤخذ في بلادنا في السنة مرتين ، ويزيد فيها دراهم كثيرة رشوة لأعوانه وحواشيه من أعيان البلدة ، وقد جرت العادة بقسمة ذلك كله على عدد فُدُن القرية ، وتارة يقسمونه على مقدار حق الشرب بالساعات الرملية ، فمن كان له فدان مثلاً يؤخذ منه ما يخصه أو من له ساعة يؤخذ منه ما يخصه سواء كان رجلاً أو امرأة أو صبياً ، وكذا يجعلون منها على رقاب الرجال الساكنين في القرية الذين لا ملك لهم فيها .

ومما اخترعه العثمانيون « الزعامة » وهي عبارة عن قرى يقطعها من

يعطاها وتخمن على الأقل بعشرين ألف درهم عثماني كل سنة ، واخترعوا «العوارض»وهي مظلمة سلطانية تؤخذ من البيوت في الشام في كل سنة . ويقال: إنها من محدثات الظاهر بيبرس أشار إليها الأكرمي بقوله :

لحـا الله أيام العوارض إنها هموم لرؤياها تشيب العوارض
يضيق لها صدري وإني لشاعر ضليع وبيتي ما عليه عوارض

قلنا: وهذا من جملة الدواعي التي انتقلت بها في القرن الماضي قرى ومزارع كثيرة في سهول الشام وجباله إلى أرباب النفوذ ، فخرج أهلها عن ملكها ، ورضوا بالاستعباد على أن يكونوا أحراراً مالكين . وذلك فراراً من ظلم الحكومة وتخلصاً من الضرائب الثقيلة التي لا تتحملها نفس بشرية . ولطالما قص الشيوخ علينا قصة الطبلة يوم تدق في قريتهم ، ويجيء أعوان الظلمة لأخذ المظالم من أهلها ، وكان الأمراء إذا خرجت لأخذ الصدقة تضرب الطبول عادة لهم قديمة .

الجباية على عهد المصريين والمقابلة بين طريقتهم وطريقة العثمانيين :

كان الأجنبي في حكم إبراهيم باشا المصري يعطي رسوم جمارك وضرائب أقل مما يدفع الوطني . ولذلك اضطر بعض التجار إلى ابتياع حماية الأجانب حتى يستطيعوا أن يتجروا، كتب اللورد دوفرين إلى حكومته سنة(١٨٦٠) يقول : في مقدمة أسباب ضعف الإدارة العثمانية في الشام ، أن الباب العالي كان يعتبر هذه الولاية منذ بضع سنوات كإيالة أجنبية يقتضي الانتفاع منها ما أمكن ، ولذلك طرح منصبها في المزاد ولم يول عليها إلا الزائد الأخير . ومن الطبيعي أن كل وال جديد لم يكن يفكر إلا في تعويض ما دفعه من المال ، وبجمع الثروة فيسلب أهالي ولايته لدن وصوله ، مبتزاً منهم الأموال ومثقلاً كاهلهم بالضرائب الجديدة . وبعد أن ذكر كيف كان الوالي يرشي جماعة الإستانة لتستقيم له الولاية مدة ، يواصل فيها استنزاف الأموال وإملاء جيوبهم بها قال : فنشأ عن ذلك مظالم لا تطاق ، وابتزاز أموال لا تحصى ، وتعاقب على الإيالة ولاة غير أكفاء للمنصب ، جائرون مرتشون طماعون في جمع المال ، لا تشبع بطونهم ، خالون من أدنى اهتمام بالمصلحة العامة اهـ .

تبدلت الأوضاع الإدارية في هذا القطر مرات على عهد العثمانيين وفي سنة(١٢٧٢هـ) كانت تقسم إلى إيالتين إيالة دمشق وإيالة صيدا ، ودَخْل الأولى التي هي عبارة عن دمشق ومرج الغوطة ووادي العجم ووادي بردى وجبل قلمون وحماة وحمص وبعلبك ومعرة النعمان وعجلون والبقاع وحاصبيا وراشيا وحوران وجبل الدروز وحصن الأكراد والقنيطرة وايكي قبولي ، من الخراج والأعشار والبدل العسكري والرسوم المختلفة ٤١,٨٠٥ أكياس يضاف إليها ٩٠٠ كيس كانت تدفعها الخزينة إلى الأوقاف وذلك عدا ما كان يؤخذ من حماة وحوران وحمص وجبل الدروز وحصن الأكراد ومعرة النعمان وعجلون عيناً من الأعشار والرسوم، وهو ١٨,٧٥٩ إردباً من القمح و ٢٥,٨٨٤ إردباً من الشعير و٩٥١ من الذرة ١٣,٣٩٣ اوقة سمن و ٣٢٠ اوقة حرير و ١٣٠٠ رأس غنم . وكان دخل إيالة صيدا وقائم مقاميتي لبنان الدرزية والمسيحية ويدخل فيها بيروت وطرابلس واللاذقية ونابلس وعكا وحيفا وساحل عتليت والأقضية الشمسية ٣١,١٥٤ كيساً ما عدا المستوفى عيناً من القمح والشعير والذرة والكرسنة والسمسم والعدس والسمن والزيت والفيالج والقطن . وكان مجموع دخل إيالة دمشق ١٨٥ ألف ليرة على ذاك العهد وإيالة صيدا ٥٠ ألفاً وكان لبنان يؤدي للدولة سنوياً ٣٥٠٠ كيس جزية وخراجاً .

رأي إنكليزي في إعنات البلاد بالضرائب :

كتب المستر برانت قنصل إنكلترا في دمشق إلى سفير دولته في الإستانة عن حالة إيالة دمشق في ١٤ حزيران(١٨٥٨)من كتاب ما يأتي: « إن الضرائب كانت باهظة على عهد الحكومة المصرية ، على أن استتباب الأمن وعدم بخل الحكومة على الشعب كانا يكفيان لإقناعه أن في وسعه تحمل وقرها دون أن يرزح تحتها ، وكان الدخل يدار بنزاهة واقتصاد ولدى الحكومة المصرية جيش وافر العدد وتقوم بكل نفقات إدارة الإيالة المتوقع ازديادها تدريجاً ، أما حالة اليوم (أي على عهد الحكم التركي) فهي على عكس ما تقدم من

جميع الوجوه فالضرائب عبء ثقيل لا يطاق[١] مع أنها أقل من قبل والأمن مفقود ، والدخل يقلّ كل يوم لإهمال القرويين حراثة الأرضين ، وكل ما يتم جمعه ينفقه بإسراف أو يسرقه الموظفون ، والأموال اللازمة لإدارة الحكومة تطلب من الإستانة ، وصار من الجلي أن المالية تزداد اختلالاً وفساد الإدارة مستمر .

« كانت حكومة محمد علي فرضت على كل ذكر ساكن في المدينة ضريبة جديدة تدعى ضريبة الفردة تختلف بين ١٥ قرشاً إلى ٥٠٠ قرش ، حسب حالة كل إنسان ، وكان مجموعها يبلغ عشرين ألف ليرة إنكليزية . ولما عاد الأتراك إلى البلاد لقوا مقاومة شديدة في جبايتها ، فأبدلوها بضريبة على البيوت تستوفى دون حدوث اضطراب كبير أو قتال ، على أن مجموعها لا يتجاوز العشرة آلاف ليرة إنكليزية ، وقد جرت بعض احتكارات ، وفرضت ضرائب جديدة على البنايات المحدثة ، للاستعاضة عن الدخل الذي أسرفوا به ، وكانت الحكومة المصرية تستوفي نحو ٥٥ ألف كيس ولا يتأخر لها بارة ، وهذا المبلغ يساوي ٢٧٥ ألف جنيه فهبط الدخل اليوم إلى ٣٥ ألف كيس قيمتها ١٤٣ ألفاً وخمسمائة جنيه ، يجبى منها عشرة آلاف كيس ويبقى زهاء ٤١ ألف جنيه في ذمة الأهالي ، وهذه يتعذر جباية قسم منها .

رأي مدحت باشا في مظالمهم :

وأصرح من هذا ما كتبه مدحت باشا أيام كان والياً على الشام بتاريخ ١٧ آذار (١٢٩٥) شرقية من لائحة في سياسة الشام وأموالها ومما قاله : إن الأوامر التي تصدر من الإستانة إلى الشام محصورة في طلب المال والجند فقط ، وبذلك بطل العمل بالقانون والأصول المرعية ، وفتحت أبواب سوء الاستعمال وما عدا بعض الرجال من الموظفين أصبح كبار العمال وصغارهم لا يلتفتون

---

(١) قال بيريه : إن الضرائب التي وضعها إبراهيم باشا المصري على الشاميين كانت شديدة وما كان القوم يتحملونها لو لم يكونوا من عناصر وأديان مختلفة . قلنا : ومن حسنات إبراهيم باشا أنه أبطل الرشي والاصطناع وأبطل المصادرات وقرر حق التملك .

إلى غير مصالحهم ، فطرأ على المعاملات خلل ، وبسوء تأثير ذلك فسدت أخلاق الناس ، وكثر القتل والنهب والغارة على الأموال والعروض في كل مكان ، واختل الأمن كل الاختلال . قال: وإذا ألقينا نظرة على واردات الدولة نرى الخراج والأموال قد نزل ارتفاعها إلى النصف ، وخرب القطر بالأعشار ، وقلّ البدل العسكري ، وحدّث ما شئت عن بلية « القائمة[1] » فمن أجل سقوط أسعارها نزلت الواردات في العام الماضي إلى النصف ، وبقي النصف الآخر في باب النفقات بدون تسديد .

وكلام مدحت باشا يشمل ولايتي سورية وبيروت لأن الولايتين في عهده كانتا ولاية واحدة فكلامه يتناول معظم سورية وفلسطين ، وبالطبع كانت فلسطين أقصى الجنوب وحلب في أقصى الشمال على هذه الصورة أو أشد ، لأن روح المملكة كان واحداً ، وهي « المركزية » الشديدة ، وكانت في الدور الذي سلف « لامركزية » ولكنها أشبه بالفوضى . ولم تتغير الحالة المالية عن عهد مدحت باشا بل ظلت تعسة إلى رحيل الأتراك عن الشام ، وإن كانت الارتفاعات زادت في العقود الأربعة الأخيرة ، لانتشار الأمن في الجملة ، بتأسيس المحاكم النظامية التي قضت على الأشقياء بعض الشيء ، وكفت البادية عن العيث . بعد أن كانت تأتي لأخذ الخُوّة من القرى القريبة من الحواضر ، ولزيادة النفوس بقلة الأوبئة وسد العجز المالي ، ولا سيما في الساحل بما أدخله المهاجرون إلى أميركا وغيرها من الشاميين ، فكانوا وما زالوا يحملون إلى هذه الديار أموالاً تدخل في تحسين الزراعة والصناعة وتزاد بها الحركة التجارية . وكانت الدولة العثمانية كلما سلخت عنها الولايات النائية تزيد في مقدار الجباية والمظالم ، فالدخل ينقص على الدوام بسلخ الممالك من جسمها ، والخرج يزيد لأن أهل الإستانة عالة على أهل الولايات ، يشقى هؤلاء لينعم أولئك ، ويبنوا القصور ويتمتعوا بالحور والولدان .

الاشتطاط في الأعشار والقسط في الجباية :

ولم يكف الحكومة العثمانية زيادتها في العشور حتى بلغت ثلاثة عشر إلا

(١) الورق النقدي الذي أصدرته الدولة في حرب روسيا وكان سبب ابتزاز قسم عظيم من ثروة الأمة .

ربعاً في المئة ، تؤخذ من الحاصل والمحصول عدا ما يلحقها من ظلم الملتزمين والعشارين ، وهو قد يبلغ عشرين في المئة أو أكثر من ذلك في بعض الأنحاء ، ولم يكفها زيادة الأموال والضرائب الأخرى إلى ضعفين بل إلى أضعاف ما كانت قبل عشرين سنة ، بل زادت في العشر والخراج زيادة مهمة مدة الحرب العامة ، دع ما أحدثته من التكاليف الحربية واستلبته من أموال الفلاحين وعروضهم ومواشيهم ، ولولا ارتفاع الأسعار ودخول ملايين من الليرات التي اقترضتها الدولة من ألمانيا لتنفقها على الجيش الذي جمعته وجلبته من القاصية ، لولا ذلك لبقي عشرة في المئة فقط من قرى هذا القطر عامراً ، ولآضت الحال أتعس مما كانت قبل ستين أو سبعين سنة ، أيام كان الفلاحون لا يستطيعون زراعة أراضيهم لقلة الأيدي العاملة ، فيجلبون أناساً من العبيد يستخدمونهم في الحرث والكرث .

وبعد الحرب كثرت الجباية والمغارم خصوصاً لقلة الذهب في الأيدي والاستعاضة عنه بالورق النقدي ، فزادت الجباية في بعض المحال أربعة أضعاف ، فعلت الشكوى ، وأخذت أسعار البياعات تعلو وتسفل في المدة القليلة ، والمقرر على الرعايا ينزل ويرتفع على تلك النسبة ، فتضرر الناس من هذا ، وكان البلاء في ذلك عاماً في كل بلد لم يستقر سعر ورقه المالي على وتيرة واحدة ، أو لم توازِ قيمته قيمة الذهب ، واضطرت حكومات الشام إلى الإنفاق أكثر من قبل على صغار عمالها وكبارهم ، لئلا تترك لهم مجالاً إلى الرُّشى والتلاعب بحقوق المساكين والضعفاء ، وأن تقوم ببعض الأعمال اللازمة في الحكومات المتمدنة ، فانفرجت مسافة الخلف بين الدخل والخرج ثم تعادلا وأخذت الحكومة تفكر في إلغاء طريقة الأعشار والاستعاضة عنها بمال مقطوع وزادت الضرائب على العقارات بنسبة أجورها .

خراج الأرض والعقارات(*) :

هذه الضريبة من التكاليف غير الشرعية التي أحدثت أواخر أيام سلطنة بايزيد الثاني ، وكانت المرتبات التي تقطع على كل بلدة من البلدان توزع بمعرفة

(*) كتب هذا الفصل السيد رفيق الحسامي .

لجنة مؤلفة من الوالي أو المتصرف أو المتسلم ورجال الشرع ووجوه البلدة وأعيانها يُراعى فيها عدد النفوس الذكور ، أو الدور الموجودة في كل بلدة . وكان هذا التوزيع يسجل في المحاكم الشرعية . وكان كل فرد يخضع لذلك التوزيع ، ويدفع ما يصيبه مرتاحاً بحيث لا يبقى منه شيء في ذمم المكلفين . وقد دام الحال على هذا المنوال مدة أربعة أو خمسة عصور .

ولما تسرب الخلل إلى القوانين الموضوعة وأُعلنت التنظيمات الخيرية ، كان من جملة الإصلاحات التي تذرع بها السلطان محمود وأقرها السلطان عبد المجيد تسجيل الأرضين والعقارات كافة في البلدان والقرى ، وذلك بتقدير قيم لها ، واستيفاء الضريبة على نسبة قيمتها . وكانت هذه الضريبة تجبى بمعرفة المختار في المدن والقرى (شيوخ الصلح أو شيوخ القرية) . وهذا بموجب تذكرة إجمالية « طوب سركي » تدفع إلى المختار فيجبي ما يصيب كل شخص من المكلفين ، ويدفع المجبيّ في كل أسبوع أو خمسة عشر يوماً أو شهر بحسب مقدار ما يجبى أو بحسب تعقيب الحكومة أو إهمالها .

ولما رأت الحكومة بأَخَرَة أن بعض المختارين يتلاعبون بهذه الأموال ، وكثيراً ما كانوا يفرضون على الأهلين فرائض تربو على ما يصيبهم من التكاليف بدعوى النقص في الأموال حتى آضت الحال إلى تعذر الجبايات — منعت المختارين من معاملة الجباية وألفت لجاناً خاصة ، وأنشأت ترسل لكل مكلف تذكرة باسمه يذكر فيها مقدار ما أصابه من الضريبة في كل سنة . وبها يجبي جاني الفرع المقيم به المكلف والذي يتأخر عن دفع دينه نجوماً (تقاسيط) معينة تنذره رسمياً حتى إذا لم يبادر في عشرة أيام من تاريخ تبليغه الإنذار إلى دفع ذمته، تحجز أمواله المنقولة أو غير المنقولة فيما إذا لم يكن له أموال منقولة وإذا كان ممن لا يملك شيئاً غيرها يحبس أحداً وتسعين يوماً ، إذا ثبت اقتداره على الوفاء .

وفي سنة (١٩٢٥) أصدرت الدولة قانوناً للجباية لم يخرج بجوهره عن النظام السابق إلا ما كان من الاكتفاء بحبس المدين شهراً واحداً بدلاً من أحد وتسعين يوماً على ما كان في النظام السابق إلى غير ذلك من العقود الشرعية التي لا علاقة لها بجوهر هذا النظام القديم ولا يزال التعامل جارياً على هذا النمط .

رسم المواشي :

هذا الرسم من الأوضاع الشرعية وكان يتقاضى أوائل عهد الحكومة العثمانية عيناً وهو غنمة واحدة من كل عشرة أغنام ولا يُتقاضى شيء من بقية الحيوانات ، ثم طبق هذا القانون على أصول التلزيم. وفي سنة(١٠٤٠) أُلغي التلزيم وأخذوا يستوفون الرسم بتقدير قيمة للمواشي واستيفاء بارة عن كل قرش من قيمتها . وفي سنة(١٢٤١) أُعيد استيفاؤها عيناً . وفي سنة (١٢٥٥) عندما أُعلنت التنظيمات الخيرية كان يقدر نتاج كل دابة ، وأخذت الرسوم تستوفى على نسبة عشرة في المئة من ذلك النتاج بحيث صار يستوفى عن كل رأس من الغنم والماعز أربعة قروش ، وعن الجاموس والإبل عشرة قروش . وبدأت تترقى هذه الرسوم بنسبة أسعار المنتوجات إلى أن أصبحت ثمانية قروش عن كل رأس من الضأن والماعز ، وعشرين قرشاً عن كل رأس من الإبل . وهذه الرسوم على قسمين كان قسم منها يستوفى عند العد وقسم بعد ذلك . أما القسم الذي يستوفى عند العد فهو ما كان للتجار وعابري السبيل ممن لا تعرف أماكن سكناهم . وأما القسم الثاني فهو ما كان يُستوفى من التناء سكان القرى والعربان .

الأعشار :

العشر من التكاليف الشرعية القديمة وكان يُنفق على عهد الإقطاع في تموين الجنود وزعمائهم . وقد أصبح في سنة(١١٠٠)يحال لسنة واحدة أو سنين متعددة على بعض الصيارف المتمولين . وفي سنة(١٢٥٦)أخذوا على عهد إعلان التنظيمات الخيرية يستوفون الأعشار عن طريق الأمانة أي على ذمة الحكومة بمعرفة جباة يرصدون لذلك، وفي سنة(١٢٥٨)أُعيدت أصول التلزيم وشرع ببيع عشر كل قضاء عن سنتين من الملتزمين . وفي سنة(١٢٦٣)تقرر إجراء معاملة الإحالة لرجال السلطنة وخدامها وبعض ذوي اليسار والسعة من التبعة العثمانية منفردين ومجتمعين لخمس سنين ، وذلك بأخذ متوسط بدلات الثلاث السنين التي تقدمت السنة المذكورة ، على أن يضاف على البدل

المتوسط المنوه به في السنة الثانية التي تتلو سنة التلزيم واحد بالمئة وثلاثة بالمئة ، على بدل كل من السنة الثالثة والرابعة والخامسة ، بحيث تصبح الإضافة عن السنة الخامسة عشرة بالمئة .

ولما نشبت حرب القريم في سنة(١٢٦٩)أعيدت أصول الأمانة لضمان تموين الجيش،وظل الحال علىهذا المنوال إلى سنة(١٢٧١) . وفي سنة(١٢٧٢) رجعوا إلى التلزيم أيضاً فأخذت تباع أعشار القرى في مجالس الأقضية قرية قريةً،وفي مجالس الألوية والولايات قضاء قضاءً على أن لا تحال أعشار لوائين لأحد الملتزمين مجتمعين . ولما أعلن القانون الأساسي في سنة(١٢٩٣)أعيدت أصول الأمانة . وفي سنة(١٢٩٧) وضع نظام التخميس وذلك بحساب بدلات كل من سنة ١٢٨٩ و ١٢٩٠ و ١٢٩١ و ١٢٩٢ و ١٢٩٣ وأخذ متوسطها على أن يوزع ما يصيب كل قرية علىحساب الدونمات . وفي سنة(١٣٠١) أعيدت أصول الأمانة أيضاً . وفي سنة(١٣٠٢)عادوا إلى طريقة التلزيم أيضاً على أساس القرى لا القضاء أو اللواء كما كان آنفاً . وظل الحال على ذلك إلى سنة(١٣٣٠)أي سنة إعلان النفير العام وفي خلال ذلك وضعت أصول التخمين موضع الإجراء وظلت إلىسنة(١٣٣٣)حتى إذا كانت سنة(١٣٣٤) طبقت أصول الأمانة . وبعد مغادرة الحكومة العثمانية هذه الديار أعيدت أصول التلزيم أيضاً . وفي سنة(١٩٢٥م) وضعت أصول التربيع وذلك بأخذ متوسط بدلات كل من سنة ١٩٢١ و ١٩٢٢ و ١٩٢٣ و ١٩٢٤ واتخاذها أساساً لوضع بدل معين على كل قرية من القرى ، ولم تبرح هذه الأصول معمولاً بها . أما أصول جبايتها فهي تابعة لقانون الجباية أي أصبحت تجبى على نحو ما تجبى الضرائب .

رسوم الجمرك :

يرجع أصلهذا الرسم إلى الزكاة التيهيمن جملة التكاليف الشرعية، وكان يجبى من التجار الوطنيين على نسبة واحد من أربعين ومن التجار الأجانب على نسبة واحد بالعشرة من مجموع أموالهم . وظل الحال على ذلك من أول تأسيس الدولة العثمانية إلى الزمن الذي عقدت فيه المعاهدة التجارية مع الدول

الغربية فأنشأوا يستوفونه على الصورة التالية :

أولاً – رسم الواردات عن البضائع التي ترد براً وبحراً إلى المملكة العثمانية .

ثانياً – رسم الصادرات عن البضائع التي تخرج من الأرض العثمانية إلى الديار الأجنبية .

ثالثاً – رسم التصدير عن البضائع التي تستهلك في الداخل كالدخان والأسماك .

رابعاً – رسم المرور (ترانسيت) عن البضائع التي تمر بالأقطار الأجنبية عن طريق المملكة العثمانية ولا تستهلك فيها .

وقسمت هذه الرسوم إلى قسمين داخلي وخارجي . أما الرسم الخارجي فيتقاضى وفقاً لأحكام المعاهدات التي عقدت مع الدول المجاورة بحسب العلائق التجارية . وأما الرسم الداخلي فيستوفى وفقاً لأحكام المقررات الخاصة التي كانت تقررها بحسب الأحوال وعلى نسبة التعرفة المخصوصة . ولما كانت علاقة الأجانب بالتجارة الخارجية تتوقف على رخصة خاصة كسائر المسائل كان يمنح الأجانب حق تعاطي التجارة في الممالك العثمانية وكان ذلك بامتياز خاص بالمتجر . ولما كانت المواد التي تقضي المعاهدات بإيرادها وإصدارها تذكر في تلك المعاهدات بأنواعها أصبح ذكر تلك المواد يدل على منع سواها ، ولما زادت الصلات التجارية مع الأجانب قبلت بادئ بدء حرية التجارة إلى حد محدود ، وبعد ذلك بدأت بالتوسع . فأعطي على عهد محمد الفاتح الامتياز المعلوم للبنادقة . وصادق ياوز سليم على المعاهدة التي وقع عليها ملك مصر . وفي عام(٩٧٠)عقدت المعاهدة المعروفة مع النمسا . وفي سنة(٩٨٣)مع حكومة البندقية ، وفي سنة(٩٨٤)مع حكومة النمسا أيضاً ، وفي سنة(١٠٨٤) أي في سلطنة محمد الرابع عقدت معاهدة مع ملك فرنسا جاءت مؤيدة للمعاهدات السالفة الي كانت ترمي لاستيفاء رسم الجمرك على نسبة ٣ بالمئة بدلاً من الخمسة ما خلا رسم التصدير .

ولما عقدت المعاهدة الجمركية بين فرنسا وإنكلترا في سنة(١٢١٦)اشتركت الحكومة العثمانية معهما بتلك المعاهدة التي كانت عبارة عن تجديد نصوص العهود القديمة . وفي سنة(١٢٥٤) عقدت معاهدة تجارية مع فرنسا كان من

جملة أحكامها التوسع في معاونة التجار الفرنسيين وشركاتهم وما إلى ذلك ، على أن يتناول ذلك عامة البضائع والمتاجر وقد تضمنت هذه المعاهدة فيما تضمنته استيفاء رسم الواردات على نسبة ٥ بالمئة ورسم الصادرات ١٢ بالمئة ورسم المرور ٥ بالمئة من مجموع قيمة البضائع والسلع ، وبقيت المعاملات السابقة بحالها على أن تعدل مرة في كل سبع سنين .

وأنشأوا على عهد نظام التنظيمات الخيرية يستوفون هذه الرسوم بطريق الأمانة أي على ذمة الحكومة ثم أخذوا يحيلونها إلى بعض الصيارف والملتزمين ودام ذلك إلى سنة(١٢٧٤). وفي سنة(١٢٧٥) وضع نظام خاص جامع لجميع المقررات التي قررت من بداية التنظيمات الخيرية إلى ذاك العهد وجرى تطبيق ذلك على جميع ما يتقاضى منه رسم الجمرك ما خلا رسم مواد البناء والدخان والسعوط والمسكرات.وجرى في عام(١٢٧٧)و (١٢٧٨)تعديل ذلك بعد عقد المعاهدات مع بلجيكا والدانيمرك وفرنسا وإنكلترا وإيطاليا وهولاندة والنمسا وروسيا والسويد واسبانيا وأميركا ، وكان من جملة أحكام تلك المعاهدات إبلاغ رسم الواردات إلى ٨ بالمئة وتنزيل رسم الصادرات إلى ٨ بالمئة أيضاً على أن ينزل من أصله واحد بالمئة في كل سنة إلى أن يصبح واحداً في المئة فقط . وقد اعتبر رسم المرور اثنين في المئة علىأن ينزل في ثماني سنوات تبدأ من تاريخ العقد إلى واحد بالمئة فقط .

وبعد ذلك وقع التذرع كثيراً لتعديل هذه الرسوم وصورة جبايتها ، فلم يأت تذرعهم بثمرة تذكر . بيد أنه أضيف في سنة(١٣٢٣)على رسم الواردات ثلاثة بالمئة بموافقة جميع الدول العظمى بحيث أصبح أحد عشر بالمئة على أن يؤخذ خمسة وعشرون بالمئة من الزيادة التي عينت لتسديد الديون العامة وخمسة وسبعون بالمئة لتسديد ديون الولايات الثلاث الخ .

الجمارك الشامية ووجوه نفقاتها وتوزيعها :

كان محصول الرسم الأصلي الذي هو ٨ في المئة حتى يوم ١ كانون الثاني سنة(١٩٢٦) يوزع بين الدول الشامية الموضوعة تحت الانتداب الفرنسي ، وكان الرسم الإضافي ثلاثة بالمئة يدفع لحساب الدين العام العثماني . وقد صدر

قرار في ٣ نيسان سنة(١٩٢٤)يقضي برفع الرسوم الجمركية من ١١ إلى ١٥ بالمئة ابتداء من شهر أيار سنة ١٩٢٤ وقضى القرار المؤرخ في ٢٣ شباط سنة(١٩٢٦)بأن الأموال الناتجة عن تحصيل ضمائم الرسوم الجمركية من ١ أيار سنة(١٩٢٤)حتى ٣١ كانون الأول سنة (١٩٢٥) ٦٢ مليون تؤلف مبلغاً مشاعاً يؤخذ منه ما تستلزمه الضرورة والمبالغ الخاصة لسد جميع النفقات الناشئة عن الثورات التي نشبت في الدول الموضوعة تحت الانتداب . على أن يجري توزيع ذلك فيما بعد بصورة قطعية وتقرر في٢٥ أيار سنة(١٩٢٦) رفع رسوم الواردات اعتباراً من ١ حزيران سنة ١٩٢٦ إلى ٢٥ في المئة .

وما زال محصول الرسم الأصلي ١٥ في المئة المخصص للدين العام باقياً إلى أن يجري اتفاق مع حاملي الأسهم بشأن عملة الدفع .

ويتضح من تعليمات المستشار المالي في المفوضية العليا أنه يمكن أن يلاحظ لعام ١٩٢٧ ما يلي :

١٢٥,٠٠٠,٠٠٠ فرنك محصول الجمرك من الرسم الأصلي١٥ في المئة .
٦٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك ضمائم ١٠ في المئة .

١٨٥,٠٠٠,٠٠٠ المجموع .

وتوزع كما يلي :

٨٥,٠٠٠,٠٠٠ فرنك لدائرة الدين على أن تجري التنزيلات التي يقبل بها حاملو الأسهم .
٥٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك نفقات جيش الشرق .
٥٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك يقتضي توزيعها بين الدول .

ومن الممكن أن ينزل الرسم ٢٥ في المئة لأنه إذا كان قد طبق هذا الرسم لأحوال استثنائية فلا يكون اليوم إلا عثرة في سبيل تنمية الاقتصاديات .

ضريبة التمتع :

يرجع تاريخ إحداث هذه الضريبة إلى قسمين : القسم الأول ما أحدث قبل التنظيمات الخيرية وكان أصلها رسم الاحتساب الذي أحدثه السلطان محمود سنة(١٢٤١)وهو عبارة عن ضريبة تؤخذ بأسماء متنوعة تسمى يومية الدكاكين

وشهرية الدكاكين ورسم المأكولات والمستهلكات والذهب والفضة والمجوهرات والمنسوجات وما شابه ذلك .

وبالأمر السلطاني الصادر في ١٦جمادى الأولى سنة(١٢٥٤)ألغي رسم الاحتساب ونشر نظام مؤرخ في ١٩ ذي القعدة سنة(١٢٥٤)يقضي بتوزيع التكاليف على الأهالي عن طريق تعيين مقدار الأملاك والأرضين والحيوانات وربح التجار والأصناف السنوي ، غير أنه لم توضع ضريبة مخصوصة على الأرباح السنوية بل وضعت «وحدة» على الثروة الذاتية المقدرة لكل فرد على نسبة أملاكه وأراضيه وأمواله وحيواناته وأرباحه .

والقسم الثاني ما وضع بعد التنظيمات الخيرية وظلت هذه الضريبة تعد من الضرائب الموحدة من سنة(١٢٥٥ — ١٢٧٥)وقد أصبحت إذ ذاك تؤخذ على نسبة ثلاثين بالألف من مجموع الربح السنوي . وبناء على القرار المؤرخ في ٥ ربيع الأول سنة(١٢٩٧)بشأن الأملاك والأغنام والأعشار بلغت اعتباراً من ذلك التاريخ أربعين في الألف . وفي عام(١٣٠٣) أبلغت إلى خمسين وشملت أصحاب الرواتب والمشاهرات أيضاً ، ولما كان الأجانب غير مرخص لهم بتعاطي التجارة داخل المملكة العثمانية كان هذا الرسم محصوراً بالعثمانيين لا يتناول الأجانب . ولما جرى الاتفاق على قبول إقامة الأجانب في الدولة وتعاطيهم التجارة ألفت لجنة مختلطة في نظارة الخارجية في سنة (١٨٨٠ م) ونظمت لائحة حمل الأجانب على أداء هذه الضريبة أسوة بالعثمانيين . فقاوم سفراء الدول هذه الفكرة مقاومة حالت دون تطبيقها إلا على رعايا صربيا وبلغاريا ورومانيا والجبل الأسود واليونان وإيران .

وفي عام(١٣٢٣)أحدث نظام خاص يقضي باستيفاء الضريبة المذكورة على قسمين : مقطوع ونسبي وخصصت به من يجب تكليفه بالضريبة المقطوعة ، ومن يجب أن تتقاضى منه الضريبة النسبية من أرباب التجارة والصناعة . وفي عام(١٣٣١)ألغت القانون السابق وأحدثت قانوناً جديداً ألغت به الامتيازات الأجنبية فقضي على جميع رعايا الدول أداء الضريبة المذكورة أسوة بالعثمانيين بدون تفريق بينهم على أن تطرح هذه الضريبة على ثلاثة أوجه: نسبي ومقطوع ومتحول .

الضريبة النسبية :

يحقق هذا القسم من الضريبة بالنظر إلى الإيراد غير الصافي المقدر للمحل الذي يشغله المكلف ، وجعل هذا القسم على ستة أنواع يحتوي كل منها على قسم من أنواع التجارة والصناعة ومقدار نسبة الضريبة التابعة لها . فالنوع الأول يدخل فيه أصحاب المصارف ونسبة ضريبتهم عشرون بالمئة من الإيراد غير الصافي المقدر للعمل المتخذ مصرفاً . والنوع الثاني يتناول شركات النقل والمشتغلين بالأوراق المالية والسماسرة والمتعهدين والأطباء والمهندسين ووكلاء الدعاوي وأمثالهم من أصحاب الصناعات والأعمال العلمية ونسبة ضريبتهم خمسة عشر في المئة من الإيراد المذكور .

ويشمل النوع الثالث التجار البائعين بالجملة والصيارفة والخياطين وباعة الأقمشة وخاطتها وباعة الأحجار الثمينة وأمثالها ونسبة ضريبتهم ١٢ في المئة . والنوع الرابع يتناول بائعي الألبسة والثياب والأدوية والعطور وأشباه ذلك من عامة المعمولات والمصنوعات ونسبة ضريبتهم عشرة في المئة . والنوع الخامس يدخل فيه أرباب الصناعة كالنجار والحداد والخياط ومن يبيع حبوباً ومأكولات وأخشاباً وأشياء حديدية وأصحاب الفنادق والقهاوي والألعاب وأمثالها ونسبة ضريبتهم ثمانية في المئة .

الضريبة المقطوعة :

يحتوي هذا القسم على من لم يتخذ محلاً مخصوصاً لممارسة الصنعة من متعهدين وأطباء ومهندسين وأمثالهم اعتبرت ضريبتهم مقطوعة وجعلت خمسة أقسام باعتبار نفوس البلدة فقط . فالنازلون في العاصمة من القسم الأول وضريبتهم ٣٠٠ قرش والنازلون خارجها من الصنف الثاني مكلفون بـ ٢٥٠ والثالث بـ ١٥٠ والرابع ٧٥ والخامس ٥٠ قرشاً .

وكذلك الحال في ذوي الصناعة من معمارين ورؤساء أشغال وعملة قد كلف كل منهم حسب بلده ومكانة صناعته بمقدار معلوم مسطر في جدول مخصوص من القانون المذكور تبتدئ ضريبتهم من خمسة عشر قرشاً إلى ثلاثمائة قرش .

الضريبة المتحولة :

هذه الضريبة قسمان: القسم الأول يطرح على أصحاب المحال التجارية والصناعية لاستفادتهم من خدمة العاملين عندهم والمعاونين فتبتدئ الضريبة من ستة قروش إلى مائة قرش بحسب صنوف البلدة ونوع التجارة وعمل العامل ، أما أصحاب الرواتب فقد كلفوا بموجب المادة السادسة بثلاثة قروش في المئة من مجموع إيرادهم السنوي إن كان زائداً على ألفي قرش ديناري ومن لم يزد إيراده على ذلك فهو مستثنى من الضريبة . والقسم الثاني يطرح على حسب الوسائط الناشئة من ممارسة الصنعة كعجلات الركوب والنقل والحيوانات والآلات التجارية وجعلت درجات باعتبار صنعة البلد ونوع تلك الوسائط . وكذلك الشركات فقد كلف كل منها بنسبة معينة في المادتين الرابعة والخامسة ، وقد ألفت لجان للنظر في الاعتراضات بدايةً واستئنافاً وتمييزاً ، وبقي معمولاً به من السنة المذكورة إلى يومنا هذا . أما التعديلات التي طرأت عليها حتى الآن فلم تغير هذه الأسس ، وبقيت محصورة في بعض المعاملات الفرعية التي لا علاقة لها بهذا البحث اه .

الرأي في الجباية والنفقات :

لا جرم أن الأموال إذا جبيت كما تجبى في الممالك المتمدنة بالرفق ، وبحسب طاقة المكلفين ، يتوازن مع الزمن الدخل والخرج ، بل قد يزيد الأول على الثاني إذا وقع الاقتصاد في وجوه النفقات ، كأن تكتفي الشام بما تخرجه لها أرضها ويفيض عليها ما تصرفه على الخطوط الحديدية ورصف الطرق وتعبيدها في المدن وبين القرى ، وعلى الأسلاك البرقية والكهربائية والهاتفية، وتجفيف البطائح وإصلاح طرق الري، وإقامة معالم العلم ودور التهذيب.

وكل مملكة تسد عجزها بالاقتراض ، ولا تستثمر بأيدي رجالها ما في سطحها وبطنها من الخيرات ، يكون مصيرها إلى الاستعباد الاقتصادي ، وهو أبشع ضروب الاستعباد . وما لا تستطيع أن تعمله لنفسك ليس في مكنة غيرك أن يحمله إليك . وكل أمة لا تفرض الجباية بالعقل ، ولا تجبيها بطرق العدل ، ولا تبذل على المرافق العامة منها الفضل ، تنحل بل تضمحل .

الاوقاف

منشأ الوقف :

من أهم القوانين الاجتماعية التي أثرت في عمران هذه الديار وأخلاق أهلها قانون الوقف ، وهو حبس العقار أو الأرض عن البيع وحصر المغلّ في يد شخص أو أشخاص على مقصد معين . كان الوقف معروفاً عند الرومان ومنه الخاص والعام ، وكذلك هو معروف عند الأمم النصرانية لعهدنا ، وكان أهل الجاهلية من العرب لا يعرفونه . قال الشافعي : لم يحبس أهل الجاهلية فيما علمت وإنما حبس أهل الإسلام . فاستنبط الرسول صلوات الله عليه الوقف لمصالح لا توجد في سائر الصدقات ، فإن الإنسان ربما يصرف في سبيل الله مالاً كثيراً ثم يفنى فيحتاج أولئك الفقراء تارة أُخرى ، ويجيء أقوام آخرون من الفقراء فيحرمون ، فلا أحسن ولا أنفع للعامة من أن يكون شيء حبساً للفقراء وأبناء السبيل ، تصرف عليهم منافعه ويبقى أصله على ملك الوقف . وقد وقف رسول الله بعض ما ظهر عليه من الأرضين فلم يقسمها وقد قسم بعض ما ظهر عليه ، ووقف ثمانية عشر سهماً من خيبر لمن نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس والوفود وما نابه من نوائب الناس . وفي صحيح مسلم أن عمر أصاب أرضاً بخيبر فأتى النبي صلى الله عليه وسلم يستأمره فيها فقال : يا رسول الله إني أصبت أرضاً بخيبر لم أُصب مالاً قط هو أنفس عندي منه فما تأمرني به ؟ قال : إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها . قال : فتصدق بها عمر أنه لا يباع أصلها ولا يبتاع ولا يورث ولا يوهب قال : فتصدق عمر في الفقراء وفي القربى وفي الرقاب وفي سبيل الله وابن السبيل والضيف ، لا جُناح على من وليها أن يأكل منها

بالمعروف ويطعم فقيراً غير متمول فيه ، وفي رواية غير متأثل مالاً . قال بعض الفقهاء : إنما وقف عمر بن الخطاب سواد الكوفة لأنه ليس مما حازه المسلمون حين ظهروا عليه ، ولو كانوا حازوه وجمعوا ما فيه من السبي والأموال كان غنيمة ليس للإمام أن يقفه حتى يخرج منه الخمس لله ثم يقسم أربعة أخماسها بين الذين حضروا فتحه . وقد وقف بعض الصحابة أوقافاً .

وذكروا أن أحد شهداء أُحد واسمه مخيريق عهد إلى الرسول قبل قتله أن يضع أمواله حيث أراد فحبسه على سبعة حوائط وهي كروم النخل في المدينة ، فأصبحت الأموال المحبوسة من ذاك العهد لا تشرى ولا تورّث ولا توهب ، وأخذ بعضهم يحبسون أموالهم على أعقابهم وأعقاب أعقابهم . ووقف مخيريق أول وقف في الإسلام . قال زيد بن ثابت : لم نر خيراً للميت ولا للحي من هذه الحُبُس الموقوفة ، أما الميت فيجري أجرها عليه ، وأما الحي فتحبس عليه ولا توهب ولا تورث ولا يقدر على استهلاكها .

تعريف الأوقاف وطرقها :

قالوا : إن ولاية الأوقاف من باب التعاون على البر والتقوى ، ولا ينهض بحملها إلا الأمين القوي ، فإن أبوابها متسعة ، وأربابها متنوعة ، وشعابها متفرعة ، فإنهم أصناف وطوائف ، فمنهم الأشراف المتصلون بالرسول ومنهم الهاشميون والعباسيون والعلويون والحسنيون والحسينيون وغيرهم ، ومنهم الفقهاء الشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة وغيرهم ، ومنهم الصوفية والفقراء والقراء والأضراء والأسرى وأبناء السبيل والمرضى والمجانين ، ومنها تكفين الموتى وإصلاح أسوار الثغور وقناطر الطرقات وعمارة المساجد ومصابيحها وأئمتها ومؤذنوها وقومتها ومصالح المدارس وإقامة وظائفها ، وكذلك الرُّبُطُ والخوانق والمشاهد ومواطن العبادة إلى ما سوى ذلك من وقف على تعليم اليتامى الخط ، ووقف على من انكسرت له آنية لا يقدر على عوضها وغير هذا من أبواب الطاعات وجهات الخيرات ، فهذه الوقوف العامة جميعها على اختلاف مصارفها وتباين جهاتها مشتركة في أن المقصد بها التقرب إلى

الله تعالى فإنها معدودة من الصدقات ، داخلة في باب القربات ، فيجب اتباع شروط واقفيها والعمل بها .

وما برحت الأوقاف تنمو بنمو الثروة وامتداد السلطة بامتداد الفتوح ، حتى تكاملت أجزاؤها ، وتكاثرت موادها ، في صدر الخلافة العباسية وخصوصاً على عهد الخليفة المأمون فإنه وقف الأوقاف الكثيرة في العراق وغيرها على العلماء ودور العلم والجوامع والمباني العامة ، لتبقى دائمة الانتفاع على الدهر ، وتكفي العلماء والمحاويج ، وأصحاب الزمانات والعاهات من التكفف والاستجداء ، فمن ثَمَّ كثرت الأوقاف النافعة كثرتها في الولايات المتحدة الأميركية لهذا العهد ومعظمها على دور العلم والبائسين .

أول أوقاف الشام وسوء استعمالها :

وأول وقف حبس في الشام فيما بلغنا أراضي بطارقة الروم فيها ممن فروا من جيوش الإسلام أو قتلوا في الحرب وكانوا قواد جند الروم ، فأصبحت أملاكهم شاغرة فأوقفها الفاتحون على بيت المال ، وكان العمال يُقَبّلونها أي يضمنونها ويضيفون دخلها إلى بيت المال ، وكان من العمال من يحبس القرى على مصالح المدينة ومرافقها ، قاصداً بذلك عمارتها ، وكان من الأرض المفتتحة عنوةً ما ليس يملكه السلطان فيباع « لأنه فيء للمسلمين يقوم مقام الوقف على جميعهم » قال القاضي أبو يعلى : إن أرض السواد صيرها عمر وقفاً بنفس الفتح ، والأرض لا تصير وقفاً حتى يقفها الإمام ، فعلى هذا يجوز له بيعها إذا رأى بيعها أصلح لبيت مال المسلمين ، ويكون ثمنها مصروفاً في عموم المصالح وفي ذوي الحاجات من أهل الفيء وأهل الصدقات . وقد قال أحمد في رواية عبد الله : الأرض إذا كانت عامرة هي لمن قاتل عليها إلا أن يكون وقفها من فتحها من المسلمين كما فعل عمر بالسواد فاعتبر إيقافه .

ومن أحسن القوانين الصريحة عند المسلمين أحكام المواريث فإنها تقضي على المورث أن لا يوصي بغير الثلث من ماله في وجوه المبرات وأن يبقي الثلثين لوارثيه يستمتعون به استمتاعه من قبل ، ولذا لم يكن إلا في الوقف

مندوحة في خرق هذه القاعدة ، فتوسع القوم فيها لا سيما ما كان منه أهلياً حتى كاد ينقلب الخير إلى شر ، فإن الواقف يقف أملاكه أو شطراً منها لتكون من بعده وسيلة إلى التعاطف بين الذراري والأعقاب ، فما هو إلا جيل أو جيلان حتى تغدو أوقافه ذريعة للتقاطع والتدابر ، فتقوم نائرات الخصومات بين الأسرات ، للاستئثار بإدارة الوقوف واقتسام مغلها ، خصوصاً عند كثرة المستحقين وقلة الأنصبة ، وربما تكاثرت ذرية الواقف بعدُ حتى يصيب الفرد من الدخل بضعة قروش . ولا تسل كيف تكون حال تلك العقارات والأرضين الموقوفة من العمران ، ففي تعدد الموقوف عليهم تعدد للمناحي وتباين في الآراء . وربما استأثر بالوقف فرد واحد يكون أشد المستحقين مراساً ، فيغصب حقوق الآخرين . من أجل هذا ترى الغاصبين وفي مقدمتهم المتولي أو الناظر يقضون حياتهم على دكات المحاكم الشرعية مدافعين ذوي الحقوق بالحق والباطل ، حتى جرى في حكم الأمثال قولهم « نصف الأوقاف موقوفة على الحكام » .

شرط الواقف وخراب أوقاف الشام :

بالغ المتأخرون في احترام الأوقاف أهلية كانت أو خيرية حتى قالوا : إن شرط الواقف كنص الشارع ، ولو كان فيما هو ظاهر ضرره ومكروه عند العارفين . وعُدت الأوقاف على طول الزمن من أعظم القُرُبات حتى قالوا : إنّ من لم يمت عن وقف مات ميتةً جاهلية . وقد ردّ ابن قيم الجوزية قول من قال : إن شرط الواقف كنص الشارع فقال : إن شرط الله أحق وأوثق ، بل يقولون ههنا : نصوص الواقف كنصوص الشارع وهذه جملة من أبطل الكلام ، وليس لنصوص الشارع نظير من كلام غيره أبداً ، بل نصوص الواقف يتطرق إليها التناقض والاختلاف ، ويجب إبطالها إذا خالفت نصوص الشارع وإلغاؤها ، ولا حرمة لها حينئذ البتة . ويجوز بل يترجح مخالفتها إلى ما هو أحب إلى الله ورسوله منها ، وأنفع للواقف والموقوف عليه . وقال علماء الحنفية : إن قولهم شرط الواقف كنص الشارع لا في وجوب العلم به والإثم بتركه ، بل بالاخذ بمفهومه وأنه لا يستحق المعلوم إذا خالفه .

وقال ابن القيم أيضاً عند كلامه على الحيل الجديدة في مسائل الوقف : ومن الحيل الباطلة تحيلهم على إيجار الوقف مائة سنة مثلاً ، وقد شرط الواقف أن لا يؤجر أكثر من سنتين أو ثلاثاً ، فيؤجر المدة الطويلة في عقود متفرقة في مجلس واحد ، وهذه الحيلة باطلة قطعاً ، فإنه إنما قصد بذلك دفع المفاسد المترتبة على طول الإجارة فإنها مفاسد كثيرة جداً ، وكم قد مُلك من الوقوف بهذه الطرق ، وخرج عن الوقفية بطول المدة ، واستيلاء المستأجر فيها على الوقف هو وذريته وورثته سنين بعد سنين ، وكم فات البطون اللواحق من منفعة الوقف بالإيجار الطويل ، وكم أوجر الوقف بدون إجارة مثله لطول المدة وقبض الأجرة ، وكم زادت أجرة الأرض أو العقار أضعاف ما كانت ، ولم يتمكن الموقوف عليه من استيفائها . إلى أن قال : اللهم إلا أن يكون فيه مصلحة الوقف بأن يخرب ويتعطل نفعه فتدعو الحاجة إلى إيجاره مدة طويلة يعمر فيها بتلك الأجرة ، فهنا يتعين مخالفة شرط الواقف تصحيحاً لوقفه ، واستمراراً لصدقته ، وقد يكون هذا خيراً من بيعه والاستبدال به ، وقد يكون البيع والاستبدال خيراً من الإجارة اهـ .

وبهذا النقل رأيت أن الوقف يصح بيعه واستبداله إذا كان هناك مصلحة ، وأن تلاعب المتلاعبين أدى إلى تبدل الأوقاف وجعلها حرة تباع وتشرى منذ المئة الثامنة أو من قرن قبله ، ولولا ذلك لأصبحت الشام إلا جزءاً قليلاً منها أوقافاً بمرور الأيام ، ووقفت بالوقف حركة العمران وقوفاً هو الجمود بعينه ، وفي الجمود الموت والفناء . ولكن المولى تعالى أرفق من أن يسلب منافع الأرض مخلوقاته ، ويجعلها خاصة بفئة معينة لا تنقطع عنهم مادتها ، ولولا ذلك لكان ابن الغني غنياً على الدهر ، وابن الفقير كذلك ، ولبطل هذا النظام الطبيعي الذي لا تقوى القوانين على تغييره .

قالوا : إن الأمير جكم العرضي (٨١٠)الذي تسلطن بحلب والشام أخرب غالب الديار الشامية ، وأخرج أوقاف الناس في الشام وفرقها إقطاعات بمثالات على جماعته . وأخرج الملك شيخ الأوقاف بدمشق وجعلها إقطاعات وفرقها بمثالات على عسكره . وفي أيام الناصر فرج خرجت غالب أوقاف الناس في البلاد الشامية والحلبية . فاستدللنا بذلك أن الأوقاف لم تلزم حالة

واحدة ، والرأي في تعطيلها لصاحب القوة أياً كان .

كان أكثر العمال وأصحاب الأموال في عصور المصادرات يقفون الأوقاف على الجوامع والمدارس والرُّبُط والمستشفيات وغيرها فراراً بأموالهم من مصادرات الملوك إذا غضبوا عليهم ونحَّوهم عن وظائفهم ، أو قضوا نحبهم فطمعوا في وَفرهم ، وهذا كان الشأن مع الأقوياء والأمراء وأرباب الإقطاعات . ومن الأوقاف ما منحه الملوك بعض عمالهم وحاشيتهم ليستمتعوا بها ما داموا أحياء على سبيل الإقطاع ، فما عتّم المنعَم عليهم أن جعلوا ذاك العقار أو تلك القرية بواسطة القضاة وأهل الحكم أوقافاً شرعية يتناولها أعقابهم من بعدهم فتتوزع عليهم بعد أن يكونوا ألفوا الاتكال ، وانقطعت أيديهم عن الأعمال ، إلا من بسطها لتناول ريع أوقافهم الحقيرة . وإذا كان بعض الواقفين توقعوا من أوقافهم أن تقي أبناءهم وأحفادهم عوادي الفاقة ، فإن اعتماد أنسالهم على ما خلفه لهم آباؤهم قد يرميهم فيما كانوا يحاذرونه من الفقر ، وذلك لتوزع الوقف بتعدد الأنصبة ، ولأن المستحقين لمغلّ الوقف يعتمدون على ريع أوقافهم التي تأتيهم بلا عمل غالباً ، وينسون أن الثروة هي العمل ، وأن من لا يعمل لا يثري ولا يتنعم ، سنة الله في خلقه .

التفنن في الأحباس والتلاعب بالموقوف :

ولقد تفنن القوم في أنواع الأوقاف حتى لا يكاد يخطر ببالك خاطر في الوقف إلا وتجد من سبقك إليه مما أوشكت أن تكون معه معظم ديار الإسلام موقوفة ، وكاد يصبح نصف أرض المملكة تقريباً من نوع الوقف ، وكانت ثلاثة أرباع الأملاك في المملكة العثمانية وقفاً على الجوامع والمساجد . والأحباس والأوقاف عامة وخاصة ، فالعامة هي ما جعل عينها وريعها بدون قيد ولا شرط وقفاً على أعمال الخير والبر أو على المصالح العامة . أما الخاصة فهي التي جعل واقفوها حق الاستمتاع بريعها إلى وارثيهم مباشرةً ، ولا تؤول إلى الأوقاف العامة إلا بانقراض نسل الواقف . قلنا: ومن العادة أن يشرط الواقفون في أواخر صكوكهم شروطاً منها أن الوقف إذا انحل بفقد الذرية وانقراض المستحقين يعود بجملته إلى الحرمين الشريفين ، ومن الناس

من يقفون عليهما مباشرةً . وأنشأوا في بعض العهود ديوان البر جعل حاصله لإصلاح الثغور وللحرمين الشريفين .

وفي صك وقف الملك سيف الدين بلبان لزور بلحسين في شيزر سنة أربع عشرة وسبعمائة : «أنه وقفه وقفاً صحيحاً شرعياً على نفسه الزكية الطاهرة الرضية ، مدة حياته ، أحياه الله الحياة الطيبة ، ثم من بعده على أولاده ذكوراً وإناثاً على الفريضة الشرعية للذكر مثل حظ الانثيين ، ثم على نسله وعقبه قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل ، على الشرط المزبور على أن من مات منهم عن ولد أو ولد ولد أو نسل وعقب ، كان نصيبه لولده ثم لولد ولده ثم لنسله وعقبه ، يقدم الأقرب فالأقرب،ومن مات ولا ولد له ولا نسل ولا عقب كان نصيبه للأقرب فالأقرب لمن هو في درجته وذوي طبقته ، فإذا انقرضوا بأجمعهم وخلت الأرض منهم ذكرهم وأنثاهم ، رجع هذا الوقف بأجمعه على الفقراء والمساكين والأيتام والأرامل والمنقطعين والمجاورين بالحرمين الشريفين بمكة والمدينة الطيبة ... » وشرط أن لا يؤجر جميعه ولا شيء منه في عقد واحد أكثر من ثلاث سنوات ، ولا يستأنف عقد حتى تنقضي مدة عقد الأول . وعلى هذا جرت عادة الواقفين باتباع هذه الشروط وسطروا وقفياتهم عليه . ومن الوقفيات التي اطلعنا عليها حجة نقلت حوالي المئة العاشرة عن حجة كتبت سنة ثمان وسبعمائة للهجرة جاء فيها أن « الست الجليلة صالحة خاتون ابنة الأمير الكبير صلاح الدين بن بهلوان ابن الأمير الكبير شمس الدين الأكري الآمدي وقفت وحبست وأبدت ، في صحة منها وسلامة وجواز أمرها ، جميع الضياع الخمس المتلاصقات المعروفات بوادي الذخائر عمل دمشق المحروسة وتعرف أحداهن بالبويضا والثانية بالبريصا والثالثة بالحميرا والرابعة بديرعطية والخامسة با لحمرا » وقد تغيرت معالم هذا الوقف ولا يعرف بهذه الأسماء غير ديرعطية والحميرا في تلك الجهة ، وانتقلت هاتان القريتان إلى أيدٍ أُخرى .

وتفنن الواقفون في صدقاتهم ومبراتهم في الشروط التي شرطوها ، وفي كتاب وقف الوزير لالا مصطفى باشا ووقف زوجته فاطمة خاتون بنت محمد بك بن السلطان الملك الأشرف قانصوه الغوري ، وكتب الأول سنة

أربع وثمانين وتسعمائة والثاني سنة أربع وسبعين وتسعمائة ، مثال من هذا التفنن . ووقف الأول على منزل في قرية القنيطرة للمترددين بين مصر والشام وزائري القدس ومشهد الخليل وجامع قرية الشعراء من عمل القنيطرة ومكتب على الصبيان وعمارة على الضيفان إلى غير ذلك من ضروب البر ، وفي هذا الكتاب كلام على المتولي ووظيفة الواقف وأولاده والبنات منهم أو انقراضهم ، وجباة الوقف ووظيفتهم وخطيب الجامع والإمامين ورئيس الحفاظ والقراء والمؤذنين ووظيفة ثلاثين قارئاً ومفرّق الأجزاء ومن يقرأ سورة يس وعم والنصر وتبارك ومعلم الكتاب وخليفته والمبخر ، والمشروط لثمن القناديل والزيت ووظيفة الشّعال والبواب والقيم والكناس والفراش ومعاونه والبواب بالحوش ، وشيخ العمارة ونقيب اللحم والخبز ووكيل خرج العمارة وصاحب المستودع ومعاونه وحافظ الغلال والخباز وتلميذه والطباخ وتلميذيه ، ومن يغسل الصحون وينقي الأرز ودقاق الحنطة والبناء والبستاني ومصلّح الصحون وكناس منازل المسافرين والذاكرين في مسجد القنيطرة والمؤذنين بجامع الأموي بدمشق ، والمشروط لحصير المكتب بالقنيطرة ، ووظيفة من يرمم الموقوفات ورئيس الشواة ، وشرط الواقف في الإطعام ومدة إقامة المسافرين إلى غير ذلك من الشروط والقيود مما لا يصدر إلا عن أناس ذاقوا طعم الحضارة وأشربت نفوسهم محبة الخير . ولهذا من الأمثال مئات وألوف،وقد بلغ ريع الأوقاف التي استصفتها الحكومة في الشام وأدخلتها في موازنتها بضع مئات الألوف من الليرات وقد أكل أكثر منها ، ولو صرفت على ما وضعت له لما بقي في القطر جاهل ولا معوز . وفي حجة وقف تكية السلطان سليمان بدمشق المؤرخة سنة (٩٦٤) غرائب من شروط البر لا تخطر في الفكر . منها إطعام ثمانمائة فقير في كل غدٍ وعشية وأن يكون الخازن على غلاله حفيظاً فظاً غليظاً حتى لا يني في توزيع الغلال وأخذها منه . وكان الواقفون يعينون على الأكثر المبالغ التي تعطى للمباشرين لخيراتهم من العلماء وغيرهم ، كما عينوا نوع الصدقات ومقدارها ، ففي كتاب وقف المدرسة الدلامية بدمشق أن صاحبها رتب بها إماماً وله من المعلوم مائة درهم ، وقيّماً وله مثل الإمام ، وستة أنفار من الفقراء الغرباء المهاجرين

لقراءة القرآن ولكل منهم ثلاثون درهماً في كل شهر ، ومن شرط الإمام الراتب أن يتصدى لإقراء القرآن للمذكورين ، وله على ذلك زيادة على معلوم الإمامة عشرون درهماً ، وستة أيتام بالمكتب الذي على بابها ، ولكل منهم عشرة دراهم في كل شهر أيضاً . وقرر لهم شيخاً وله من المعلوم في الشهر ستون درهماً، وعاملاً وله من المعلوم كل سنة ستمائة درهم ، ورتب المرتب في كل عام مثلها ، وللسبع ولقراءة البخاري والتواريخ مـــائة درهم ، ولأرباب الوظائف خمسة عشر رطلاً من الحلوى ورأسا غنم أضحية ولكل من الأيتام جبة قطنية وقميص ... وتاريخ هذا الوقف (٨٤٧هـ) .

ومن غريب الأوقاف وأجملها قصر الفقراء الذي عمره في ربوة دمشق نور الدين محمود بن زنكي . فإنه لما رأى في ذلك المتنزه قصور الأغنياء عزّ عليه أن لا يستمتع الفقراء مثلهم في الحياة ، فعمر القصر ووقف عليه قرية داريا وهي أعظم قرى الغوطة وأغناها . وفي ذلك يقول تاج الدين الكندي :

إن نور الدين لما أن رأى — في البساتين قصور الأغنياء
عمّر الربوة قصراً شاهقاً — نزهـةً مطلقـةً للفقراء

وذكر القرماني أن داريا كان وقفها لعامة فقراء دمشق تفرق عليهم غلاتها ، وما برحت كذلك وقفاً إلى القرن الحادي عشر كما قال كاتب چلبي .

ولقد أخر الاستكثار من الأوقاف سير الشرق في محجة الترقي ولا يزال مؤخزاً لها ، وكم في هذا القطر من آثار ودور وقصور ومحال عامة هجرت وتعطلت بضياع أوقافها وكثرة المتنازعين عليها ، وكان من الأوقاف أن أضرت بالجباية التي تصرف في مصالح الدولة قال بلوك : إن العقار الموقوف على الأعمال الخيرية عند المسلمين لا يعفى من الضرائب فقط بل إنه لا يباع ، وهو امتياز انتفع به كثير من رؤساء البيوت واستخدموه في تدبير ثرواتهم ، ولذلك كثرت الأوقاف كثرة زائدة فأضرت كل الضرر بالمصلحة العامة ، ذلك لأن إعفاء الأحباس من الخراج يسلب الحكومة جزءاً مهماً من ريعها

وارتفاعها . وحظر بيع الوقف يعبث بريعه على وجه الإجمال ، لأن أموال الأوقاف وعقاره لا تستثمر استثماراً جيداً .

ولقد شدد الواقفون في شروط أوقافهم خصوصاً إذا كان عليها مسحة الأوقاف المسبلة على المصالح العامة ، ومع هذا انتهبتها أيدي الضياع ، وسطت على ريعها وأعيانها مخالب السارقين والمزورين . وهذه مدينة دمشق كان في واديها في القرن التاسع زهاء ألف وخمسمائة مسجد وجامع ، وليس فيها اليوم مائتان وخمسون ، وكان فيها أوائل القرن العاشر ثلاثمائة وعشرون مدرسة ورباط وخانقاه وتكية ومستشفى وليس فيها اليوم من كل ذاك الإرث القديم خمس مدارس وربط يصح أن يطلق عليه اسم مدرسة أو رباط اللهم إلا من باب التجوز ، وقد بدلت أعيانها كلها واختلست أحباسه ، ومنها ما لا تزال قائمة أوقافه مزبورة على أحجار أبوابها حتى الساعة تقرأ بلسان عربي مبين ، على كثرة ما بدل المبدلون وتلاعب المتولون والمستحقون ، وهكذا قل عن مدارس القدس فإن أكثرها مما عبث به النظار والمتولون، ومثل ذلك قل في مدارس حلب وهي تعد بالعشرات كمدارس العاصمة ورباطاتها وزواياها وجوامعها فإنها أصبحت وأوقافها أثراً بعد عين ولم يكتب البقاء إلا لبضع منها .

أوقاف نور الدين وصلاح الدين ومن تقدمهما وخلفهما :

راجت أسواق الأوقاف على عهد صلاح الدين يوسف وآل بيته ، فإن حاشيته وأولاده أكثروا من أعمال الخير اقتداء به حتى وقف عبيد دولته وجواريه وأبناؤه وأحفاده وبناته أوقافاً جمة على الخيرات . وكان ريع أوقاف نور الدين في الشام سنة (٦٠٨) تسعة آلاف دينار صورية كل شهر ، ليس فيها غير ملك صحيح شرعي ظاهراً وباطناً .

تقدم نور الدين بإحصاء ما في محالّ دمشق فأناف على مائة مسجد فأمر بعمارة ذلك كله وعين له وقوفاً . وقد وقف وتصدق في سبيل الخيرات ووجوه البر والصدقات ، ما تقدير ثمنه مائتا ألف دينار ، وتقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة ثلاثون ألف دينار ، من ذلك ما وقفه على المدارس

الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وأئمتها ومدرسيها وفقهائها ، وما وقفه على دور الصوفية والرُّبُط والجسور والبيمارستانات والجوامع والمساجد والأسوار وما وقفه على أبناء السبيل في طريق الحجاز ، وما وقفه على فكاك الأسرى وتعليم الأيتام ، وقصر الغرباء وفقراء المسلمين ، وما وقفه على الأشراف العلويين والعباسيين ، وما ملكه لجماعة من الأولياء والغزاة والمجاهدين . هذا عدا ما أنعم به على أهل الثغور من أملاكهم فإنه يضاهي هذا المبلغ وزيادة . ولهم أوقاف على فكاك الأسرى ومنها وقفان سجلا على الحجر بالحرف الكوفي في مدينة بصرى فيحوران تاريخ أحدهما سنة (٥٦١) ووقف جاولي أربعة حوانيت ووقف آخران فرناً وداراً على من لا يكون له أهل ولا يقدر على فكاك نفسه .

قال ابن جبير من أهل القرن السادس عند كلامه على مشاهد دمشق : ولكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة على بساتين وأراضٍ بيضاء ورباع ، حتى إنَ البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيها ، وكل مسجد يستحدث بناؤه أو خانقة يعين لها السلطان أوقافاً تقوم بها وبساكنيها الملتزمين لها ، وهذه أيضاً من المفاخر المخلدة ، ومن النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة وتنفق فيها الأموال الواسعة وتعين لها من مالها الأوقاف ، ومن الأمراء من يفعل مثل ذلك . وذكر ابن بطوطة في القرن الثامن في رحلته كلاماً يقرب من كلام ابن جبير قال : والأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها ، فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج لمن يحج عن الرجل كفايته ، ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن ، وهن اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن ، ومنها أوقاف لفكاك الأسرى ، ومنها أوقاف لأبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم ، ومنها أوقاف على تعديل الطرق ورصفها ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير . قال : مررت يوماً ببعض أزقة دمشق فرأيت بها مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صفحة من الفخار الصيني ، وهم يسمونها الصحن ، فتكسرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم : اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني فجمعها وذهب الرجل معه إليه فأراه

إياها ، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن . قال : وهذا من أحسن الأعمال فإن سيد الغلام لا بدّ له أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره ، وهو أيضاً ينكسر قلبه ويتغير لأجل ذلك ، فكان هذا الوقف جبراً للقلوب .

تكاثر الأوقاف ومضار الجمود :

استولى الخراب على الشام بعد تخريب تيمور دمشق أوائل المئة التاسعة ولكن عاد إليها رونقها فتجددت على عهد الدولة الشركسية ، فلما جاء العثمانيون أخذت تتراجع حتى بلغت هذه الدركة من الانحطاط الذي نراه ، وليس في القطر جزء صغير من ذاك العمران المستبحر ، وقد نال الأوقاف ما نال غيرها من التشتت ، وكأن يد القدرة قضت أن لا تدوم سعادة السعيد ولا شقاء الشقي ، ولو دامت مثلاً تلك الحركة المباركة التي كان الناس أو أهل الثروة منهم يقلد فيها بعضهم بعضاً من إنشاء معاهد الخيرات والصدقات على اطراد واتصال ، لأصبحت الشام بأسرها مجموعة أوقاف يتناول ريعها الأشراف والأجلاف ، وأصبحت سائر الأمة خدمة وأجراء .

ولذلك كان العقلاء على مثل اليقين أن الأوقاف التي وقفها بعض أبناء الطائفة المارونية في جبل لبنان وبلغت لعهدنا نحو ربع الجبل على ما يؤكد بعضهم يتصرف فيها بطريركهم وينفق من مستغلها على بعض الأديار والبيع ، لا تلبث أن يقوى عليها أصحاب القوة والمكانة ويتخذون من القانون حجة لبيعها أو يعرض لها عارض آخر — كما وقع في فرنسا على عهد ثورتها الأولى واستصفت الحكومة أموال البيع والأديار والجمعيات الدينية .— فتتمزق لأن مثل هذه الأوقاف التي حبسها أهل الخير على أعمال البر في الغالب لم تنفع أبناء تلك الطائفة في زمن المحنة أي في الأربع سنين الأخيرة على عهد الحرب العامة ، ولو صح الاجتهاد وأظنه يصح في مثل هذه المواقف لأنه هو المعقول والشرائع تسير على المعقولات ، لكان على شمامسة الموارنة وقساوستهم وأساقفتهم وبطريركهم أن يعمدوا إلى بيع تلك الأوقاف أو رهنها على الأقل ليصرفوا ثمنها على إطعام أبناء طائفتهم ولو فعلوا لما مات جوعاً في لبنان من الموارنة ألوف .

تأثير الوقف في العمران :

رأينا في أيامنا مزارع ومنها البعيد عن المدن ، المتعذر استثماره بحسب العرف ، قد أصبحت حدائق غلباً بفضل توفر مالكيها على تعهدها، وطول آمالهم في تحسينها ، إرادة أن يستمتعوا بها هم وأولادهم من بعدهم ، ولو كانت من نوع الوقف لخربت وبارت ، ولأعرضوا عن تعهدها كما هو المشاهد في القرية الموقوفة والأرض الموقوفة . ولكم رأينا الدائر الغامر إلى جانب الزاهر العامر. وحالة المسقفات أو العقارات كحالة المستغلات بل أدهى وأمرّ . وكذلك الحال في الأناسي الذين يعيشون من أوقافهم ومن يعيشون من زراعتهم أو صناعتهم أو تجارتهم ، فتجد في الأولين اتكالاً مجسماً وهمماً متراخيةً ، وفي الآخرين مضاء وعزماً وشمماً وحسن ثقة بأنفسهم . وعندي أن من وقفوا الأوقاف وحبسوا الأحباس لأبنائهم ومن يجيء بعدهم قد أضروا بهم أكثر مما نفعوهم ، والرزق كالحياة لا طاقة لصغير أو كبير أن يضمنه لنفسه فكيف به لغيره .

كانت الأوقاف نافعة في الصدر الأول لقلتها ، ولأنها محبوسة على وجوه البر وعلى البائسين خاصة . فقد سأل شيخ عاجز من أهل الذمة عمر بن الخطاب شيئاً فقال له : ما أنصفناك أخذنا منك الجزية زمن شبابك ، ولم نكفك مؤونة التكفف أيام عجزك ، وأمر له من مال الصدقة بما يكفيه . من أجل هذا كانت الحبس على هذه الغاية الشريفة مما لا يسع عاقلاً إنكار نفعه . ولكن الملوك ومن بعدهم من رجال الدول أنشأوا يجعلون من أموال المغارم أوقافاً ، وقلما تشاهد المخلص فيما حبس ووقف .

الأوقاف عند قدماء العثمانيين :

كانت تغلب على ملوك بني عثمان في مبدإ أمرهم البداوة والسذاجة والتدين ، ولذلك ملأوا بروسة وأدرنة والاستانة وكوتاهية وازنيق بأوقافهم ومدارسهم ، وكذلك فعل وزراؤهم وكانوا يتناولون أرزاقهم من مقاطعات يقطعهم إياها سلطان الوقت . فلما غلبت عليهم الحضارة وفتحوا مصر والشام في عهد سليم وتكاملت فتوحهم في عهد سليمان ، أصبحوا يتفننون في ضرب

الضرائب على الرعية ، وقد غدا دخلهم لا يوازي خرجهم كما كان سابقاً ، وأمسى رجال الأمر فيهم يسيرون على سيرة ملوكهم يعرقون لحم الأمة ليجمعوا أموالاً ربما وقفوا بعضها على الأعمال الخيرية ، فكانوا كالتي تزني وتتصدق ، وما كانت صدقاتهم في الحقيقة إلا فراراً بأموالهم من المصادرات لأن مصادرة الوزراء والأمراء بعد المئة العاشرة أصبحت في الدولة العثمانية مورداً من الموارد التي تعيش بها الدولة ، بعد أن كانت لأول أمرها تقتصر في دخلها على الجزية الشرعية والخراج الذي كانت تتقاضاه من ملوك النصرانية وأعشار الأملاك السلطانية وريع الجمارك والملاحات والخمس الشرعي من أموال الغنائم .

وإذا كان عمال الدولة لا يأخذون الأموال إلا من حلها كيف استطاع مثل سنان باشا فاتح اليمن أن يصرف على خيراته ما يربو على مليوني ليرة بسكة زماننا ، ولو قدر هذا المال بقيمته العرفية اليوم لبلغ عشرة ملايين . لا جرم أنه لم يحتجن هذا المبلغ الذي تعجز أمة من الأمم الراقية اليوم عن المفاداة به إلا بارتكاب ضروب المظالم والمغارم . ولو فتح هذا الفاتح ما بين المشرقين وارتكب مثل هذه المنكرات في أموال العباد ما نفع شيئاً في قرباته وصدقاته .

وإذا كان مثل جنجي خوجه من مشايخ السلطان إبراهيم ، وهو من أرباب الدجل ، قد جمع من الرشاوى والهدايا والأوقاف ما يربو على مائة ألف كيس والكيس خمسمائة قرش يوم صودر وأخذ خطه بها ، فكيف حال من يقبض على زمام الأمر من الوزراء والولاة ويظل مدة في منصبه ، ثم هو يظن أن إنشاء مدرسة أو جامع مما يبرر أعماله ويكفر عن سيئاته ، وأن ذراريه بمأمن من الفقر لأن الملوك في الغالب كانوا يتركون لهم العقارات والأرضين ويكتفون بمصادرة الأموال فقط .

الوقف من مال غير محلل :

قال في « نتائج الوقوعات » : ومؤلفه من وزراء السلطنة في عهد السلطان عبد العزيز رداً على من قال إن الأسلاف لم يحبسوا ما حبسوه إلا خوف المصادرة

وإرادةَ أن يتركوا لأولادهم وأحفادهم مورداً يعيشون به : إذا كان من الواقفين من هم على هذه الصفة فإن أكثرهم على خلاف ذلك لا محالة ، وقد رأينا في صكوك أحباسهم أنهم وقفوها على الجوامع والمدارس والكتاتيب والخانات والحمامات وعلى إنشاء القلاع وإعاشة القائمين عليها من المرابطين وعلى أبناء السبيل . إذا عرفت هذا وشاهدت ما أبقوه من هذه الآثار الجسيمة النافعة التي ساعدوا بها على نشر المعارف والعلم وعمروا بها المملكة ، فليس من الإنصاف أن تقدم الأصل على الفرع وتذهب إلى سوء الظن فيهم . قال : وإذا جئنا نبحث عن المبالغ التي أُنفقت على هذه الأوقاف وعما إذا اكتسبت من وجوه محللة ، فأنا معك بأن كل هذه الخيرات لم تتم بالمال الطيب ، أما وقد جمعت تلك الأموال بصور مختلفة فإن إنفاقها بما ينفع العامة من الأعمال الصالحة أزين في العاقبة وأدعى إلى المحمدة ، من صرفها في الإسراف والسفاهة، وحابسها يذكر بالرحمة ، ويستفيض اسمه المسجل في عداد المتصدقين .

هذا ما ارتآه الوزير التركي وفي كلامه نظر عند العقلاء إذ أي طاعة تثبت في جنب تلك المعاصي . ولعمري متى ساغ للمرء أن يأكل أموال الناس بالباطل ، ثم يتصدق بها أو ببعضها ويحمد الخالق والخلق أثره . وقد أحسن هذا الوزير بقوله : إن صرفها في هذه السبيل أولى من غيره على كل حال .

قال حجة الإسلام الغزالي : أرباب الأموال والمقترّون منهم فِرَق ، ففرقة يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس كافة ويكتبون أساميهم بالآجر عليها ليتخلد ذكرهم ، ويبقى بعد الموت أثرهم ، وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك ، وقد افتروا فيه من وجهين : أحدهما أنهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم والنهب والجهات المحظورة ، فهم قد تعرضوا لسخط الله في كسبها ، وتعرضوا لسخطه في إنفاقها ، وكان الواجب عليهم الامتناع عن كسبها ، فإذاً قد عصوا الله بكسبها فالواجب عليهم التوبة والرجوع إلى الله تعالى ، وردها إلى مُلاّكها إما بأعيانها أو برد بدلها عند العجز ، فإن عجزوا عن الملاك كان الواجب ردّها إلى الورثة ، فإن لم يبق للمظلوم وارث فالواجب صرفها إلى أهم المصالح .

نعم نحن على رأي صاحب « نتائج الوقوعات » من أن جميع الواقفين لم يكونوا على نسبة واحدة في تحصيل الثروة ، وقوله إن أكثرهم صالح يحتاج إلى نظر بليغ ، بل الأولى أن يقال: إن منهم الصالح الذي جمع أمواله من طرق مشروعة وجعلها قربة لمولاه لما اقترب من لقائه ، كأن يدخر المال ويقتصد فيه ويكون إقطاعه أو راتبه عظيماً ، أو يرث من آبائه أو غيرهم أو يتجر ويزارع إلى غير ذلك من وسائط الاغتناء المشروع ، وفي سير بعض الأمراء والعلماء وبعض صدور الناس حوادث كثيرة تؤيد هذه القضية .

مضار الأوقاف :

وكيفما دارت الحال فإن الأوقاف على الصورة التي وصلت إليها في هذه الديار عامة كانت أو خاصة قد حملت في مطاويها من المضار ، أضعاف ما توقع واقفوها منها من المنافع ، وخصوصاً الأوقاف الأهلية فإنها ضارة من كل وجه ، أما الأوقاف على وجوه البر والتقوى فليس في استطاعة أحد منعها ما دام المرء حراً بماله يصرفه كما يشاء .

وقد أدرك العثمانيون في العهد الأخير مضار الأوقاف الأهلية فقضوا بقسمتها إذا كانت صالحة للقسمة ، أو بيعها وتقسيم ثمنها بين الشركاء ، إن لم تكن كذلك بمجرد طلب أحد الشركاء ، وبذلك تخف مضرتها . على أن أوقاف الجوامع والمدارس وسائر القربات أيضاً قد تخلص من ربقة الوقف بحيل يسمونها شرعية واخترعوا لها أسماء كالتحكير والاحترام والإجارتين والمرصد وأخرجوها بهذا العمل عن ملك الوقف إلى ملك خاص . وبهذا كانت تقل الأوقاف حيناً وتكثر تارة أخرى ، وفي حلب اليوم ألف وأربعمائة وقف ينظر فيها ديوان الأوقاف ويبلغ ريعها مليوني قرش ما عدا الأوقاف الأهلية ، وكذلك الحال في دمشق والقدس وأوقاف كل بلد بحسب غناه ونفوسه.

منافع الأوقاف :

إن إخراج الزكاة عند المسلمين في القرون الأولى للإسلام ، ثم إنشاء المعاهد الدينية وغيرها في القرون الوسطى وما بعدها ، وحبس الأموال لإطعام

الفقير والزّمِن والعاجز عن الكسب ، قد خفف ولا شك من شرور الفاقة بعض الشيء ، وإن كان فيه من جهة أخرى تحبيب التوكل والتواكل إلى الناس . ولم نر في ديارنا ، وتحصيل الرزق فيها أهون منه في أوربا مثلاً ، ما نسمع به من ضروب الشقاء الذي يسوق هناك إلى الانتحار وإلى ارتكاب الفظائع . وبعض الأمم المتمدنة اليوم تفكر في قتل العجائز لقلة فائدتهن ، والإبقاء على الكلاب ، وهذا من أغرب ما سمع . ولم يعهد العرب شيئاً من هذا بفضل ما حبسه المتصدقون على ضروب البر ، وإن كان هذا الإفراط في الإفضال على العاجزين عن الكسب، قد يورث الخمول ويقعد بالهمم عن الكدح .

إلى اليوم لم ينشأ للبشر مجتمع كامل في عامة صفاته ، على كثرة ما جاءه من الشرائع وسُنّ لأجله من القوانين ، والسعادة لم يمسسها الناس بأيديهم ، وكأنها محالة الآن . وما ندري إن كانت أسبابها تتم في مستقبل الدهور والعصور ، فلا الوقف وقى الناس من الفقر ، ولا عدمه أفقرهم . هذه القوانين قد تلطف من شِرّة الشر ، ولكنها لا تستأصله من جذوره ، لأن لذلك أسباباً أخرى ، ولعله لا يتم المطلوب قبل انقضاء أيام وليال ، وقضاء آجال وأجيال ، والله يحكم لا معقب لحكمه .

تقسيم الأوقاف وإصلاحها (*) :

يقسم الوقف إلى خيري وأهلي ، وينقسم الخيري إلى ديني محض كحبس المساجد والمعابد ، وإلى ديني دنيوي وهو يشمل جميع أنواع الوقوف الخيرية كوقف مدارس العلم ودور الصناعات ورباطات المجاهدين ، وفنادق أبناء السبيل ، ومستشفيات المرضى ، ومقابر الموتى ، ونحو ذلك من وسائل الارتفاق العام ، ومثله ما تحبس عينه لينتفع بريعه مصارف الصدقات الشرعية ، سواء أكان الحبس على جميع المساكين أم على فئة مخصوصة منهم .

(*) اقترحنا على صديقنا الشيخ سعيد الباني أن يكتب لنا رأيه في الأوقاف وطرق إصلاحها فكتب كتاباً سماه « الكشاف عن أسرار الأوقاف » فاقتبسنا منه ما هو بمثابة تتمة لما كتبناه في الفصل السابق .

وأما القسم الثاني وهو الأهلي فينقسم إلى طائفي وذرّي ، والأول ما حبسه الواقف على طائفة مخصوصة من الناس . والثاني ما حبسه على ذريته من بعده . وهذه الأقسام تبع لانقسام الوقف باعتبار المتعلق ، لأنه ينقسم باعتبار متعلقه وعوارضه إلى أقسام كثيرة ، فالمتعلق الموقوف له كالعبادة التي وقفت لأجلها المعابد ، والثاني الموقوف عليه وهو المخلوقات التي تتمتع بنعمة ما حبس عليها ، والثالث الأعيان الموقوفة . وأما العوارض فهي كالصحة أو عدمها من الوجهة الشرعية ، وكالضبط أو الإلحاق من الوجهة الإدارية ، وقد يتداخل بعض هذه الأقسام مع فروعها فيقال مثلاً وقف خيري صحيح مضبوط .

ولانقسام الأعيان إلى ثابتة ومنقولة انقسم الوقف باعتبار هذا المتعلق إلى وقف الأموال الثابتة ووقف الأموال المنقولة. فالثابتة كأرض الزراعة المملوكة الرقبة والحوائط والبساتين والعرصات والعقارات المسقوفة . وهذا النوع لا خلاف بين جمهور علماء المسلمين بصحة وقفه . وأما الأموال المنقولة صامتة كانت أو ناطقة ، فقد اختلف الفقهاء بصحة وقفها ، والمعتمد الصحة وفقاً لما جرى عليه تعامل المسلمين في القديم والحديث من وقف المصاحف والكتب والجنازة ونحو ذلك ، وبالأولى معدات الجهاد كالسلاح والكراع .

والأرض الأميرية سواء أكانت عشرية أم خراجية لا يصح وقفها إلا إذا كانت مملوكة الرقبة ، فإذا ملكها السلطان ملكاً شرعياً فله أن يقفها على من يشاء كتصرفه ببقية أمواله المملوكة . والواجب إذاً تقييد وقف السلاطين الأرض الأميرية بالأوقاف الأهلية ، إذ لا يسوغ للسلطان أن يفرز مزرعة من أرض بيت مال الأمة العام ويخصها بفئة من الناس على سبيل الحبس والتأبيد ، كما فعل السلطان سليم الأول العثماني حينما استولى على الشام بإفرازه كثيراً من المزارع بدون تملك رقبتها ، ووقفها على أرباب الزعامة الدينية وذراريهم . والعشر الذي تتقاضاه اليوم البقية الباقية من الذرية أو أدعياء النسب المندسون بها ، هو ضرب من السحت يجب أن يتحول مجراه عن هذه الحليمات الطفيلية إلى مصالح الأمة ومرافقها الخيرية العامة .

وخلاصة القول أن هذا النوع من الأوقاف السلطانية غير صحيح ، وبالأخلق وقف الوزراء وعمال الولايات . ولو اقترن بموافقة سلطانهم الأعظم ، لأن عمال القرون المظلمة في عهد الحكم الإقطاعي كانوا يقترفون في إيالاتهم ما شاءوا وشاءت أهواؤهم فيقتلون البررة والأبرياء ، ويعفون عن الجناة وقطاع السابلة الأشقياء ، ويصادرون أموال من يشاءون ، ويصلون بها من يشاءون . فإذا كان الموت والحياة بين شفتيهم ، وحقوق العباد الخاصة ألعوبة بين أيديهم ، وأموال الرعية مباحة لديهم ، فأخلق بهم أن يعبثوا بالحقوق العامة كأرض بيت المال الشائعة الانتفاع بين أفراد الأمة ، فراغاً بالبيع أو انتقالاً بالإرث ، أو إحياء بالعمل مقابل البدل . فقد كان هؤلاء الظلمة يضعون أيديهم على ما يختارونه من أرض إيالتهم الأميرية المملوكة الانتفاع فضلاً عن الشاغرة (وهي ما تدعى بمصطلح قانون الأرضين بالمحلولات الأميرية) ويتملكون هذا الحق بالتفويض من أنفسهم لأنفسهم ، لأنهم الكل بالكل لا يسألون عما يفعلون ، ما داموا يشترون الولاية على الإيالة بثمن مقطوع ، يؤدونه مسانهة إلى سلطانهم أو أعوانه ، وبعبارة ثانية يفهمها عوام الموظفين الحكوميين ، ما دام الولاة يلتزمون الولاية على الإيالة من أعوان السلطان بالمزايدة ، حتى تصل إلى بدلها اللائق أو الفاحش ، ويقع عليهم المزاد الأخير وتحال إلى عهدتهم إحالة قطعية .

وكل وقف من أوقاف السلاطين يتحول من منفعة خاصة إلى مصلحة عامة فهو صحيح والعكس بالعكس . وحكمة ذلك سد الذرائع بوجه الوزراء وعمال الإيالات الظالمين الذين كانوا يطوقون بنفوذهم الأرض الشاغرة ، ويغتصبون المملوكة وينتفعون بحق قرارها ، ثم يحتالون بوقفه خشية المصادرة . وقد مهد لهم سبل الاحتيال المتفقهة المصانعون ، فأفتوهم بصحة الوقف على النفس الذي يروى القول بصحته عن بعض علماء السلف لمصلحة عامة ، وهي ترغيب الناس بالوقف لأن مصيره بعد موت الواقف وانقراض ذريته إلى جهة لا تنقطع ، وهي الفقراء والمساكين الذين لا تخلو منهم الأرض في كل عصر وقطر . لكن متفقهة السوء قلبوا هذه المصلحة مفسدة فأعانوا الظلمة بهذه الفتوى وأضرابها على إفراز المزارع من أرض بيت المال ، وحبس

حق قرارها على أنفسهم في حياتهم وعلى ذرياتهم من بعد مماتهم .

هذا رأي نبديه من الوجهة الفقهية النظرية ، ولا نفتي ولا نقضي به من الوجهة الشرعية العملية ، وإن كان مناطه المصلحة العامة التي ترمي إليها الشريعة السمحة الواسعة ما لم تتفق عليه كلمة أهل الحل والعقد من علماء الشريعة الإسلامية ، لأن الفرد يخطئ ويصيب . لكن الذي نقطع بإجحافه من الوجهة القانونية هو مصادرة حق قرار الأرض من المتصرف بها بمجرد تعطيلها ثلاث سنوات عن الحرث والزرع بدون معذرة شرعية ، لأن المتصرف بالمنفعة لم يملكها إلا بأسباب شرعية ، وكل ما يملك بسبب شرعي لا يجوز نزعه من مالكه إلا بأسباب شرعية .

ضروب الحيل وانتهاك حرمة الأوقاف :

الناس محتاجون بسائق الاضطرار إلى البيع والابتياع والمقايضة والمقاسمة ، ما دام الإنسان مدنياً بالطبع ، مضطراً إلى التعامل بالتبادل الذي هو محور دائرة المنفعة الاقتصادية ، وهي دعامة العمران . وقد أورث تهافت السلف على الوقف اصطدام سكونه المؤبد بحركة التعامل الاقتصادي الضروري الاستمرار لأن التصرف بالعقارات الموقوفة بيعاً أو شراء ممنوع شرعاً ، وبواعث العمران والاقتصاد تقتضي هذا التصرف طبعاً ، درءاً لخطر الآفات الاجتماعية ، والأزمات الاقتصادية .

ولذا اخترعوا — والحاجة أم الاختراع — انتزاعاً على ما يقولون من قواعد الإمام أحمد بن حنبل ، ما يدعى في الديار الشامية بالمرصد . وهو الدَّيْن الذي على ذمة العقار الموقوف أو الاستيفاء من أجرته بعد استيفاء المتولي عليه مقداراً مالياً معجلاً من المستأجر يسمى « خدمة » ، وفرض مقدار مؤجل عليه يستوفى منه مسانهة يسمى ديناً مؤجلاً ، بشرط أن يكون المستأجر على الموقوف لعمارته أو ترميمه ديناً بذمة شخصه ، فاذا أيسر فللمتولي أن يؤدي إلى صاحب المرصد ما كان له على رقبة الوقف ليعيدها إلى جهته طوعاً أو كرهاً . ومرمى هذا المخرج ومغزاه تحرير العقارات الموقوفة بالجملة بمنح التصرف بها بيعاً وشراء مراعاة للمصلحة الاقتصادية ، مع تقدير مرتب مقابل

هذا المنح ، ومع الاحتفاظ بحق الرجوع بعد أداء الدين حرمة للأحكام الشرعية ، وبنسبة تكاثر العقارات الموقوفة بدمشق مثلاً تكاثرت المراصد .

هذا فيما يتعلق بالعقارات المسقوفة ، وأما الأرضون الصالحة للزراعة فقد اخترعوا لمنح التصرف بها ، فراغاً أو انتقالاً ، مخرجاً آخر وهو سراية « شد المسكة » من الأرض الأميرية إلى الموقوفة . ومعناه استحقاق الحراثة في الأرض التي ليست مملوكة الرقبة للحرث مقابل أداء العشر أو الخراج إن كانت أميرية ، وأداء مرتب الوقف إن كانت موقوفة الرقبة بعد أداء حق قرارها . وقد أضحت قضية أرض الزراعة الموقوفة في الشام ذات غموض عظيم في زماننا ، لاختلاط الموقوفة بغيرها ، واختلاط الموقوفة وقفاً صحيحاً لتملك رقبتها بالموقوفة وقفاً غير صحيح لعدم تملك الرقبة ، وكذلك لاختلاط ذات الوقف الأهلي بذات الوقف الخيري فضلاً عن ضياع وقف أغلبها واندثاره بتقادم العهد ، ما عدا الأرضين التي صانت الحكومة وقفها وضبطته ، مقابل إفراز العشر والاعتراف باستحقاقه لجهة الوقف سواء أكانت خيرية أم أهلية ، وسواء أكان الوقف صحيحاً أم غير صحيح .

وإذا كانت قضية الأرض الأميرية باعتبار ذاتها من أشكل المشكلات لما طرأ من التبديل على الخطة التي رسمها سيدنا عمر رضي الله عنه بعد فتح الشام ، فكيف بما عرض لها من عوارض الوقف المختلفة الأنواع التي استترت على أبناء هذا الزمان، ما لم يتح لهم الاطلاع على كتب الواقفين،ومناشير السلاطين المصونة بيد المستحقين أو المتولين ، ويندر أن يطلعوا عليها أحداً لعبثهم بشروط الواقفين من الوجهة الخيرية ، واختلاسهم حقوق المستحقين من الوجهة الأهلية . على أن أغلب أرض الزراعة الموقوفة لا تختلف أحكامها في عهدنا وربوعنا عن بقية الأرضين من وجهة الفراغ والانتقال .

ونحن مع اعترافنا بضرورة اختراع هذا المخرج ، لعلمنا بيسر الشريعة واتساعها وملاءمتها لمقتضيات الزمان والعمران ، لا يسعنا إنكار ما نجم عن اختراعه من اندثار الأوقاف الإسلامية وانهيار معالمها ، لأنه فسح مجالاً لابتداع الحيل التي مهدت السبل لاختلاس الأوقاف وطمس معالمها ، ودرس معاهدها . ولما أدرك أرباب الطمع أن المرصد لا يملكهم العقار الموقوف ملكاً باتاً ، لأن

لمتولي الوقف الرجوع على صاحب المرصد متى أدى إليه دينه على الوقف ، كادوا للأوقاف الإسلامية بحيل ابتدعها بعض متفقهة القرون الوسطى ، ما عرفها الشرع ولا عرفته ووضعوا لها أسماء سموها ما أنزل الله بها من سلطان وهي : القيمة . الجدك (الكدك) . الخلو . القميص . الحكر . الاحترام .. ويشمل هذه الأنواع ما يسمى حق القرار[1] في البلاد الشامية والكردار في بلاد خُوارزم ، وهو غير حق القرار في الأرض ، بل يريدون به تجوزاً الأعيانَ القائمة سواء أكانت متصلة كالجدران والسقف ، أم منفصلة كالآلات والعدد . وتختلف أسماؤها باختلاف ما حلت به من الأمكنة ، فإن حلت في البساتين والحدائق فاسمها في ديارنا «قيمة» والمراد بها جدران البستان (الدكوك) وما يشتمل عليه من جذور نجمه . وبمصطلح العامة (شروش الفصة) ومعجن مشمشه وبمصطلح العامة (تيغار معك مشمش القمر الدين) وقمامته (المزبلة) وإن وجدت في الحمامات فالمراد بها الفرش والأثاث كالسجاد والوزرات والطاسات . وإن كانت في الحوانيت فتسمى جدكاً وهو ما يضعه المستأجر متصلاً كالأبواب والرفوف . أما إذا كان منفصلاً كعُدد المقاهي وآلات الحلاقة فيسمى خلواً أو حق السكنى . ويغلب على الظن أن هذا غير الخلو الذي اصطلح عليه متفقهة القطر المصري بل الأرجح أنهم يعنون بالخلو ما يدعوه متفقهة الشام بالمرصد ، ويقرب منه ما يدعوه متفقهة بلاد الروم بذي الإجارتين ، وهو بلا ريب غير الخلو المراد به وضع اليد والقدم .

ثم إن هذه الأعيان إذا كانت في المطاحن فإنها تسمى قميصاً ، والمراد به آلات الطحن كالقطب وحجري الرحى ونحو ذلك من آلات الطحن المنقولة. وإذا كانت مادة بناء قائم في عرصة موقوفة فتسمى حكراً . وصورة احتكارها أن يأذن متولي الوقف للمستأجر بالإنشاء في العرصة الموقوفة على أن يكون ما يبنيه ملكاً له ، بعد أن يؤدي إلى المتكلم على الوقف مقداراً معجلاً يسمى خدمة ، ويتعهد بأداء مقدار مؤجل يؤدى مسانهة يسمى ديناً مؤجلاً . وإن كانت غراساً فيسمى غرسها «احتراماً» . وصورته أن يأذن المتولي على أرض موقوفة – ما عدا أرض الزراعة – بغرسها لإنسان على أن ما يغرسه يكون

(١) هو غير حق القرار بالأراضي الأميرية المراد به التمتع بحق حراثتها وزرعها .

ملكه أو أن يكون بعضه ملكه، والآخر ملك جهة الوقف على سبيل التابعية للأرض بعد أن يؤدي إلى المتكلم على الوقف مقداراً معجلاً يسمى أيضاً خدمة، ويتعهد بمقدار مؤجل يؤدى مسانهة يسمى أيضاً أجرة أو ديناً مؤجلاً — هذا ملخص ما نص عليه المتفقهة المتأخرون.

مصائب الأوقاف :

إن غلو الواقفين بالتهافت على الوقف، واتخاذ الظلمة المتجرين بالدين الوقف دريئة لصيانة أموالهم المغصوبة من المصادرة، وتحريج أئمة الحرج الذين سماهم بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم، وهم المتفقهة المتنطعون، وتشديدهم على الناس أو تضييقهم ما وسع الله تعالى على عباده، وتساهل متفقهة السوء بابتداع حيل الأوقاف لإفعام جيوبهم، وإشباع بطونهم النهمة التي لا تشبع بالقليل لأنهم يأكلون بسبعة أمعاء — كل ذلك كان من أعظم البواعث على إضاعة الأوقاف الإسلامية في الشام، لأن إغراق الأسلاف المتقدمين بالتهافت على الوقف، ضيق على الذين يلونهم من الأخلاف المتأخرين سعة الأرض الحرة بالحبس عن التصرف بيعاً أو ابتياعاً أو مقايضة أو مقاسمة إلى آخر ما هنالك من ضروب التصرف المدني. على حين مبنى الشرائع الإلهية كما قال ابن القيم على الحكم والمصالح، وكلها رحمة وحكمة، ومصلحة وعدل، وكل قضية خرجت عن الرحمة إلى النقمة، وعن الحكمة إلى العبث، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن العدل إلى الظلم، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل. وأرى أن كل ما كان كذلك فهو من الشرع المبدل.

أضاع هؤلاء الجامدون حكمة الوقف ومصلحته، وحالوا دون نمو ريع العقارات الموقوفة كحرصهم على شرط الواقف وصفته، ولو اقتضت منفعة الوقف التغيير والتبديل. وقد نجم عن التهافت على الوقف غلو في الدين أو اتجار به، وعن تشديد المتفقهة على الناس ابتداع الحيل التي أودت بالأوقاف، فطفق الناس يتملكون العقارات الموقوفة تملكاً محضاً، وإن ظلت عليه شية من مسحة الوقف باسم الحكر أو القيمة أو القميص ونحوها من الحيل الكردارية التي جرأت الظلمة فيما بعد على اختلاس المساجد والمدارس والمقابر مباشرة

مع عقاراتها الموقوفة عليها بدون التذرع بهذه الحيل ، في زمن آثر كثير من أبنائه الدنيا على الدين لفرط جشعهم. فانفجر بركان الجرأة على الشريعةلتضييق أئمة الحرج ، وفجر المتأخرون لغلو المتقدمين بالتهافت على الوقف . ولم يجد اختراع مخرج المرصد نفعاً لصيانة العقارات الموقوفة . إذ لم نسمع ولم نشهد أن المتكلم على وقف أدى إلى صاحب المرصد ما كان له ديناً على رقبة الوقف واسترجعها إلى جهته ، بل نمي إلينا عكس ذلك وهو أن أصحاب المراصد كانوا يرشون المتكلمين على الأوقاف ليغضوا الطرف عن انتقال العقارات من الوقف المرصد إلى الملك الحر ، ويرشون أيضاً مفوضي تمليك العقارات ليسجلوا العقار الموقوف ملكاً صرفاً ، بل إن بعض المتولين أنفسهم كانوا يخونون الوقف باتخاذهم مخرج المرصد حيلة ، إذ يتذرعون به بدون اضطرار إليه لتحويل العقار من الوقف المحض إلى المرصد ، ويرشون قضاة السوء ليثبتوا اضطرار الوقف إلى الدين والاستدانة ..

أوقاف الذرية :

قوام الوقف ركنان وهما الحبس والتأبيد ، فمتى حبس الواقف العين عن التمليك وأبد الحبس بالتقييد إلى جهة لا تنقطع ، أصبح الوقف مبرماً وأضحت العين محبوسة شرعاً . ولا يمكن تحريرها من قيد الوقف، ورجوعها ملكاً صرفاً كما كانت البتة ، لأن الشرع صانها للجهة الموقوف عليها من تصرف الانتقال والتمليك . ولخوف الواقف من سفه ذريته ، وتبديدها الثروة من بعده ، أو لخوفه من المصادرة أو لغير ذلك من الأسباب المختلفة باختلاف النيات ، لجأ إلى الوقف وقيده بقيود وشروط تلائم رغائبه ، وأبده بالتقييد إلى جهة لا تنقطع بعد انقراض الذرية لئلا يفقد الوقف أحد ركنيه . وما التجاء الواقف إلى الوقف إلا التجاء إلى كنف الشريعة التي شرعت الوقف وصانته بأحكامها . وغير خفي أن حامي حمى الشريعة أمام المسلمين المكلف برعاية أحكامها ، والنائب عنه من هذه الوجهة وزارة الأوقاف في العاصمة ودوائرها الفرعية في الإيالات وملحقاتها . والشريعة لا ترد اللاجئ إلى حماها بالطرق الشرعية . ولهذا لم تفرق قواعدها وأحكامها بين الأوقاف الخيرية

والأهلية بالمناعة والصيانة ، فكل من النوعين منيع مصون بنظر الشريعة . واللاجئ إلى الشريعة لاجئ طبعاً إلى المكلف بحمايتها ورعاية أحكامها ، فكان حقاً على إمام المسلمين والنائبين عنه من الوجهة الوقفية ، صيانة الأوقاف الأهلية كحرصهم على صيانة الأوقاف الخيرية . فهذه القواعد منشأ سيطرة دوائر الأوقاف الحكومية على الأوقاف الأهلية المحضة ، ولا سيما أن الوقف الأهلي الصرف يحتمل أن ينقلب خيرياً محضاً في أقرب وقت ، بانقراض الموقوف عليهم ، لأن مآل الأهلي إلى الخيري بالعاجل أو الآجل ، لتقييد الوقف بالتأبيد إلى جهة لا تنقطع . وكل ما يعود إلى هذه الجهة فهو من الأوقاف الخيرية ، فحق على دوائر الأوقاف أن تكون في كل آن واقفة بالمرصاد أمام تصرف نظار الأوقاف الأهلية . على أن أغلب من تذرعوا بالوقف الأهلي لصيانة الثروة ، ولا سيما الوزراء وعمال المقاطعات ، كانوا يتبرعون بالأوقاف الخيرية ليوطدوا الأولى بالثانية ، ويعهدوا بالولاية على الجميع إلى الأرشد من ذريتهم . فرعاية لشروط الواقفين لا تنتزع دواوين الأوقاف الولاية من المتولين على الأوقاف الخيرية المتحدة بالولاية على الأهلية ، ما دام المتولي يؤدي دفتر المحاسبة نقياً من الشوائب . وإذا كان الأمر لا يسوغ لديوان الأوقاف أن يضبط الوقف بل يذره ملحقاً ، لكن يحق له أن يجبر المتولي أن يؤدي حساباً عن الوقفين الخيري والأهلي لتداخلهما ، وإن لم ترفع إليه شكوى من أرباب الاستحقاق .

الأوقاف في العهد العثماني الأخير :

لهذا العهد ثلاثة أدوار : الأول دور السلطان عبد الحميد الثاني . الدور الثاني دور أخيه محمد رشاد الخامس . الثالث دور أخيهما وحيد الدين محمد السادس خاتمة ملوك بني عثمان . ولم تكن دوائر الأوقاف في الشام على العهد الحميدي أقل من بقية الدوائر الحكومية خللا وفوضى واختلاساً وقلة نظام ، بل كانت أكثر اختلالاً من غيرها لأن لها وجهة دينية ذات اتصال بمشايخ الدين الحشويين أو الدجالين ، وهم أبعد الناس عن النظام والانتظام ، فكانت

الشؤون الدينية في عهد عبد الحميد مسرح الفوضى لتهاونه بالدين ، واكتفائه على الجملة بالتمويه بشعائره الصورية ورسومه الرسمية ، وكان أعوانه يبيعون على مسمع ومرأى منه الوظائف الدينية كالقضاء الشرعي والفتيا والتدريس العام والوعظ والإرشاد . ومن جملة ما يبيعون وظيفة مدير الأوقاف التي كانت تكد وتجد وتبذل الجهد في جباية أموال الأوقاف ، لتبعث بها بعد السلب والنهب والمقاسمة إلى العاصمة ، فيفيض السلطان من هذه الأموال على الدجالين من مشايخ الطرق وعلماء الرسوم والرتب والأوسمة باسم (إحسانات أو صدقات سلطانية ، أو فدية عن عافية ذاته الملوكية) ويكزّ يديه بالصرف على علماء الدين العاملين فساءت لذلك حال أئمة المساجد وخطباء المنابر والسدنة والمؤذنين والواعظين لفرط التقتير عليهم ، حتى انحصرت هذه الأعمال في البائسين والكسالى والزمنى .

تنقسم الأوقاف إلى خيرية وأهلية . وتنقسم الخيرية إلى مضبوطة وملحقة ، تناط الأولى بدائرة الأوقاف مباشرة . وتركت الثانية لنظارها مع احتفاظ ديوان الأوقاف بالنظارة العامة عليها ، وللديوان حق السيطرة على الأوقاف الأهلية ولا سيما إذا كانت مختلطة بالخيرية . وهي تنقسم إلى جلية وخفية . فالأولى من متعلقات الأوقاف الخيرية المضبوطة ، وهي نفقات أرباب الشعائر الدينية والاختلاس منها تافه جداً بالنسبة إلى نفقات تنوير المساجد والمعاهد وابتياع ما يلزم من الأثاث ، وهو أيضاً حقير بالنسبة إلى ترميمها وترميم الأعيان الموقوفة عليها . وأما الإنشاء المحدث أو المجدد فلم يكن معهوداً في ذاك العهد لأن ديوان الأوقاف يجبي الأموال من الشام ليبعث بها إلى العاصمة .

وبالجملة لم تكن وسائل الاختلاس الجلية شيئاً مذكوراً قياساً مع الوسائل الخفية وهي عديدة : أولها أن كثيراً من المساجد والمدارس والزاويات (زوايا مشايخ الطرق الصوفية أو المتصوفة) والمعاهد الخيرية كالمستشفيات أو مطاعم الفقراء (التكايا) ونحوها من الأمكنة المضبوطة أوقافها ، سواء كانت مهجورة أو مقفلة الأبواب لكونها في القرى أو في أحياء منزوية عن المدينة ، فكان ديوان الأوقاف يحسب عليها جميع ما تحتاج إليه من النفقات أضعافاً مضاعفة ، كما لو كانت عامرة آهلة مفتحة الأبواب ، في حين أنها لا تنفق عليها شيئاً

سوى مقدار زهيد لقاء تطبيق المعاملة على الأصول المرعية الإجراء ، بالحصول على وثائق وصول النفقات إلى البائسين المستعارين الذين يستعيرهم الديوان مقابل توقيع الوقائع والأسناد الكاذبة . والوسيلة الثانية أشد خفاء من الأولى ، وهي مواطأة دائرة الأوقاف مع نظار الأوقاف الملحقة الغزيرة الريع على أكل أوقاف المسلمين الكثيرة العدد ، وهي مما حبسه السراة والأمراء والوزراء الأسبقون على ذراريهم ، وعلى المعاهد الخيرية والمعابد ، وجعلوا الولاية عليها في الأرشد على ذريتهم . وذلك أن هؤلاء النظار نظار الأوقاف الخيرية الملحقة كانوا يتقاضون أعشار القرى المضبوطة الوقف من الخزانة العامة باسم الأوقاف الأهلية والخيرية ، على حين درس جل بل كل المدارس والمساجد وأصبحت أسماء لا مسميات لها ، درست وانقلبت حوانيت وفنادق ودوراً وقصوراً ، وسجلت في سجلات التمليك ملكاً حراً لهؤلاء النظار المختلسين ، ثم انتقلت لورثتهم ولمن ابتاعها منهم . وكانوا يتقاضون أموال العشر الخاصة لهذه المعاهد، ويدرجون بكل قحة وجرأة مبلغاً وافراً باسم النفقة على تنويرها وترميمها وفرشها وإقامة شعائرها ، ثم يتغاضى ديوان الأوقاف عن محاولة النظار تحويل الأعيان الجارية بملك الوقف إلى مرصد أو كردار بدون سبب قوي ، ثم إغضاء هذا الديوان عن تحويل الأعيان الموقوفة من الوقف المحض أو لمرصد الكردار إلى الملك الصرف ، ثم تسجيل العقارات الموقوفة على المعابد والمدارس ملكاً صرفاً للنظار المختلسين إلى غير ذلك من أنواع المواطآت بين ديوان الأوقاف والنظار عليها . وكلها ترجع إلى اختلاس الريع وتغيير الأعيان الموقوفة . وكان ديوان الأوقاف يكتب من حين إلى آخر إلى وزارة الأوقاف في العاصمة بأنه ضبط مدرسة كان بعض الأشرار اتخذها سكناً فأرجعها معبداً تقام فيه الشعائر والصلوات والأوراد والأذكار والأدعية للخليفة الخ .

أما القلب وأعني به مجلس إدارة الأوقاف الأعلى فقد كان على جانب عظيم من الضعف ، وفقاً لمقتضيات العهد الحميدي التي يرومها عباد المنافع الخاصة وأعداء المصالح العامة . وإذا كان القلب الذي هو مصدر الحياة ضعيفاً بتعفن حجيراته المنبعث عن تغلب الجراثيم الذريعة الفتك ، فكيف تكون حالة شرايين الجثمان وأعضائه ودورة دمه . لا ريب أنها تكون كحال هيكل

ديوان الأوقاف وإدارتها ، ما دام أعضاؤها عاطلين من الأهلية علماً وخلقاً ، ولأكثرهم علائق بوقف خيري أو أهلي ، مما هو مخالف للقانون . فهم لا علم ولا نزاهة ولا غيرة . أما نظار الأوقاف الأقوياء بالمجد الكاذب ، فقد كانوا يتصرفون تصرف الملاك بالأعيان الموقوفة الريع على المعاهد الدينية والخيرية وعلى ذرية الواقفين ، فضلاً عما يختلسونه من المدارس وأفنية المساجد ، يتخذون جميع ذلك دوراً وحوانيت وحدائق ، وينقلونها في سجلات التمليك من الوقف المحض إلى الملك الصرف . وإذا طالب بعض أرباب الغيرة بإعادة الأوقاف إلى حالها وإجراء أمورها على حقيقتها تقام عليهم الدعاوى المزورة ، وتنصب لهم المكايد وأشراك الانتقام . وكأن لسان حال ديوان الأوقاف ومجلس إدارتها ورئيسه يقول لنظار الأوقاف المختلسين : (سكتنا عنكم لتسكتوا عنا) لأن جميعهم باستنزاف الأموال وسحق الضعفاء سواء .

ولقد انتظم ديوان أوقاف الشام في الجملة بعد إعلان القانون الأساسي (١٩٠٨ م) وتسرب إليها شيء من الإصلاح بفضل الخطط التي رسمها وزير الأوقاف العثمانية العربي خليل حمادة باشا ، وتناقص النهب والاختلاس بالنسبة إلى العهد المنصرم ، غير أن المعاهد والمعابد لم ينلها حظ من زيادة الواردات ، لأنها كانت تنفذ إلى العاصمة فتنفق كغيرها من واردات أوقاف الإيالات العثمانية كإنشاء فنادق كبرى للوقف في الاستانة . وظلت قوانين الأوقاف كما كانت في عهد السلطان عبد الحميد حبراً على ورق . ومما يسجل من أعمال الدولة في الحرب العالمية أنها انتهكت الحرمات باسم الجهاد المقدس ، وذلك باتخاذ المعابد وفي مقدمتها الحرم النبوي الشريف ، والمدارس والمعاهد الخيرية وملاجئ الإسعاف العام ثكنات لمأوى الجنود وإصطبلات لربط الخيول ، وحبس الأنعام ، ومستودعات لادخار أنواع الذخيرة وضروب الميرة . ولما انجلى الترك عن ربوع الشام ، أغاروا على سجلات الأوقاف ووثائقها وأوراقها الخطيرة ونقودها ، كما أغاروا على وثائق أغلب الدواوين وسجلاتها ونهبوا نقودها ، وفي عدادها أموال اليتامى وأمانات المصارف الزراعية ، فأصيبت دواوين الأوقاف من أجل هذا بمصيبة عظيمة .

الأوقاف بعد العهد التركي :

وفي عهد الحكومة العربية الفيصلية أُلف ديوان الأوقاف تأليفاً جديداً ، ولم تلبث أن فاضت واردات الأوقاف عن نفقاتها لأن المبالغ الباهظة التي كانت ترسل إلى العاصمة التركية ظلت في خزانة الدائرة التي شرعت توسع على أرباب الشعائر وتحدث كثيراً من الوظائف . وأخذت ترمم المساجد والمدارس والأعيان الموقوفة وتنشئ المعاهد كالمدرسة السيمساطية بدمشق التي نقضت من أساسها وأُنشئت خلقاً جديداً — ومثل ذلك الإصلاح الذي تم في ترميم الأعيان الموقوفة أو إنشاء الجديد منها في حلب وغيرها — حتى إذا تقلص ظل سلطان الملك فيصل واحتلت الجيوش الفرنسية داخلية الشام أُصيب ديوان الأوقاف بتبلبل مالي ، وذلك لاستبدال الورقة السورية بالمصرية ، واتخاذ القرش السوري محور التعامل وحظر التبادل بالنقدين الذهب والفضة قبضاً وصرفاً ، في حين أن الورقة السورية كميزان الحرارة لا تثبت على حالة واحدة في اليوم الواحد ، فارتبكت معاملات دواوين الأوقاف بهذا التبلبل وزاد في نضوب خزائنها ، على الرغم مما زاده القائمون بإدارة شؤونها من زيادة الضمائم الفاحشة على الديون المؤجلة .

وقضت إرادة المفوض السامي الأول أن يتدخل المنتدبون في الشؤون الإسلامية المحضة ، وذلك بالإشراف على أوقاف المسلمين دون أوقاف اليهود والنصارى ، في حين أن الدولة العثمانية الإسلامية لم تتدخل بشؤون أوقاف اليهود والنصارى المنضوين تحت لوائها ، سواء أكان ذلك إبان قوتها ، أم أيام ضعفها ، وتركت إدارتها إلى المجالس الطائفية ، كما أن الدولة البريطانية لم تتدخل في مصر بشؤون الأوقاف الإسلامية فاستثنت وزارة الأوقاف المصرية من سيطرة الاستشارة وسلطة المستشارين ، وتركتها مناطة بشخص عزيز مصر مباشرة . وقد نهجت أيضاً هذا النهج في فلسطين فتركت إدارة أوقاف المسلمين وجميع شؤونهم الدينية كتقليد القضاء الشرعي والفتيا والوعظ والإرشادوالخطابة والإمامة إلى مجلس ينتخب أعضاءه المسلمون يدعى بالمجلس الإسلامي الأعلى . أما في الأصقاع المشمولة بالانتداب الفرنسي فقد أُنشئت المراقبة العامة على

شكل مبتدع بين الأشكال الحكومية ، ووضع غريب غير معهود بين الأوضاع الإدارية . وكذلك يقال في مجلس الأوقاف الإسلامية الذي قضت المفوضية بتأليفه ، ففصلت بذلك دواوين الأوقاف الإسلامية عن الحكومات المسلمة الأهلية ، ووصلتها مباشرة بالمفوضية العليا ، وجعلت لها مستشاراً غير مسلم يتصرف في شؤونها الإدارية والمالية بسلطة واسعة . وكان من إحداث مراقبة الأوقاف إرهاق خزائنها بالرواتب المستحدثة العظيمة ، ولم تأت بعمل يذكر مجاراة لمقتضيات الترقي الحديث استناداً إلى قواعد الشريعة العامة التي يحظرون الاستنباط منها ، ذلك لأن معظم أعضاء مجلس الأوقاف من أعداء التجدد ، وعشاق الاحتفاظ بالقديم وإبقائه على قدمه ، فقد نقضوا قرار مجلس رياسة العلماء المنطوي على ضرورة التذرع باستبدال المساجد الخربة التي لم تعد صالحة لإقامة الصلوات مع استناده إلى مذهب الإمام ابن حنبل بالشروط المنصوص عليها .

وسائل إصلاح الأوقاف :

ضيق بعض متفقهة القرون الوسطى دائرة الشريعة الواسعة ، وقلبوا يسرها عسراً ، ومرونتها صلابة ، وصوروها عقبة كؤوداً في سبيل الارتقاء ، بما ابتدعوه من القيود المنبعثة عن الجمود ، وبما أقاموه من السدود المنيعة دون دخول منافذ ينابيع العلم ، وما سدلوه من الحجب الكثيفة على نوافذ نور العقل . احتال فريق منهم على الشريعة فاختلقوا باسمها حيلاً تقلبها رأساً على عقب ، انقياداً لاهواء العلماء والأغنياء ، بسائق الجشع وحب الجاه ، وافتاتوا على دين الفطرة بحشو أودس ما تنبو عنه حكمته وأصوله وفروعه التي ترمي جميعها إلى السعادة البشرية في الدارين . فقد قيد المتنطعون بالتحريف والتشديد الوقف بقيود وشروط وحدود ، حالت دون ارتقاء الأوقاف وعمرانها ونمو ثروتها ، وقضت على حكمة الوقف وإرادة الواقفين ، كما ابتدع المحتالون حيلاً نجم عنها ضياع الأوقاف كالمرصد وضروب الكردار ، حتى آل حال الأوقاف إلى ما آل من المصير الفاجع .

وبعد فالواجب الآن على أهل الحل والعقد تأليف لجنة مختلطة من علماء

الشريعة المجددين ، وعلماء الحقوق والإدارة والاقتصاد ، ليدون أعضاؤها مجموعة لأحكام الأوقاف الشرعية على نسق جديد ، مغترفين من بحر الشريعة المحيط ، ومن كل مذهب من مذاهب الأئمة المجتهدين ، ما هو أصلح وأضمن لسعادة الأوقاف وارتقائها وإثرائها ، وصيانتها من عبث العابثين ، واعتداء المعتدين ، وجمود الجامدين ، وما هو أكثر ملائمة لروح الزمان ، ومقتضيات العمران ، وفقاً لما يرمي إليه الشرع وقواعده العامة من انتقاء الأصلح وترجيح الأحسن .

ثم إن الملحق بالشعائر الدينية نوعان ، وهما التدريس الخاص بالمدارس الدينية ، والإرشاد الدقيق في الزوايا الصوفية . أما الأول فهو تعليم العلماء فلامذتهم العلوم الدينية ووسائلها ، وجل هؤلاء إن لم نقل كلهم متبرعون تلا تعلق والحال هذه لدواوين الأوقاف بهم . وإنما التذرع بإصلاح أساليب اعليمهم ، واستئصال الفوضى الضاربة أطنابها في هذه المدارس ، وهذا شأن من يتولى شؤون العلوم الدينية كرئيس العلماء أو شيخ الإسلام مثلاً . أما إذا وجدت وظيفة تدريس خاص بأحد العلوم في إحدى المدارس بأجر رتبه الواقف ، وكان صاحب هذه الوظيفة يتقاضى الراتب من خزانة الأوقاف ، فإن للدائرة حق النظر فإذا كان صاحب الوظيفة غير قائم بها لعدم أهليته فإنه يعزل ، وإن كان غير قائم بها كسلاً فإنه ينذر . أما النوع الثاني وهو الإرشاد الدقيق فقد أجدبت الزوايا الصوفية من التصوف بمعناه الصحيح ، وأقفرت من المرشدين الكاملين ، والمريدين الصادقين ، وأضحت مقر المشايخ الدجالين تلعطلين ، والمريدين الكسالى العطلين . فأمثال هؤلاء يجب طردهم من الزوايا التي لم ينشئها الواقفون ليأوي إليها الضالون المضلون ، باسم التصوف والطرق الصوفية ، وإذا كان لهم أوقاف يجب تحويلها إلى مصارف البر والإحسان والإسعاف العام .

أشرنا إلى ما أنتاب الأعيان الموقوفة من الدرس والطمس والاختلاس سواء أكانت معابد أم مدارس أم مقابر أم ملاجئ إسعاف أم عقارات موقوفة الريع . وهذا النوع الأخير أضحى من المتعسر إن لم نقل من المتعذر إنقاذه من الاختلاس بعد مرور الزمن وعدم دلالة الظاهر عليه ، كدار كانت جارية

بملك الوقف ، ثم لعبت بها الأيدي ، فانتقلت من ملك الوقف الصرف إلى ملك مختلسها المعتدي الأثيم . أما إذا لم يمض عليها مرور الزمن ، وكانت معلومة الحدود والبقعة ، فيجب حتماً على دواوين الأوقاف إقامة الدعوى على المختلس أو ورثته ، كما يجب عليها التنقيب على ما كان من هذا القبيل . والمرجع في الاهتداء هو سجلات المحاكم الشرعية وكتب الواقفين . والواجب على دواوين الأوقاف الإيعاز إلى نظار الأوقاف الأهلية والخيرية الملحقة بإبراز كتب الواقفين فيما إذا لم يعثر عليها بين سجلات المحاكم الشرعية ، وإنذارهم بوضع اليد على الوقف إذا أبطأوا بالإبراز . أما النوع الأول فهو أسهل إنفاذاً من العقارات الموقوفة الريع ، لأن ما اختلس من نحو المساجد أو المدارس أو المقابر وانقلب حوانيت أو دوراً أو حدائق أو غير ذلك ، وأضحى ملكاً صرفاً للمختلسين أو ورثتهم أو المبتاعين منهم مطموسة ، لتبدل شكل المدرسة مثلاً بعد اختلاسها وطمس معالمها ، فإن كانت آثارها لا تزال قائمة كالقباب والقبور والمحاريب فعلى دائرة الأوقاف التذرع بالوسائل القانونية لإنقاذها من المختلسين ، وإن تبدل شكلها ومحي رسمها ، وجهلت حدودها، ومضى عليها مرور الزمن ، وانقطع الأمل من إرجاعها فهي برقبة مختلسيها . ومصباح الهداية المنير إلى المعابد والمعاهد المختلسة والمدارس الدارسة والمقابر المندرسة ، هو كتب تواريخ المدن الشامية والرسائل والأسفار الموضوعة في الخطط والآثار .

وما دعا إلى هذا العبث بأعيان الأوقاف وريعها إلا فقدان وازع يزع القائمين بهم ، أو مؤثر أدبي يردعهم ، أو رأي عام يكبح جماحهم ، أو مؤاخذة حكومة تضرب على أيديهم . ولم نسمع ولم نشهد في ربوعنا أن ناظر وقف خائن مختلس عوقب بسجن أو تعزير وتشهير ، أو بتضمين ومصادرة ، بل جل ما شهدناه في عصرنا الحاضر أن الناظر الضعيف إذا ظهر أثناء محاسبته أدنى شبهة أو خيانة ينحى عن العمل ويساق إلى المحكمة الشرعية ، وهي إما أن تحكم بعزله ، وإما أن تبرئ ساحته وهو الأغلب ، لأن مؤثرات الشفاعة والحنان ونحوهما تعمل عملها . وأما الناظر القوي فلا يسأل عما يفعل . وربما أُعين على ظلمه وخيانته واختلاسه مع التبجيل والتوقير !.

وإذا كتب لدواوين الأوقاف حظ من التجدد والإصلاح ، فالواجب

أن تشرع بمحاسبة النظار ، تناقشهم الحساب ، فتبدأُ بالأقوياء منهم ، وتغلظ عليهم ، وتكرههم على إبراز كتاب الواقف الأصلي المسجل بحكم الحاكم الخالي من شائبات التحريف والتبديل ، الحالي بتوقيع أو خاتم القاضي الحاكم بصحته ، فيما إذا فقدت سجلاته ، وأن لا تعتبر الصورة المنقولة عن أصله لأنها عرضة للتحريف والتبديل ، كما يقع ذلك من النظار الخائنين . وإذا أبرز الناظر على وقف كتاب الوقف الأصلي ، يعثر ديوان الأوقاف في الأغلب على موارد أموال غزيرة مختلسة ،وعلى مساجد ومعاهد دارسة ومدارس مندرسة ، كما يعثر عرضاً واتفاقاً من يحفر بئر ماء على كنز ثمين أو ركاز دفين ، وإذا امتنع الناظر من إظهار كتاب الوقف يستفيد ديوان الأوقاف من اعتبار الوقف من قبيل ما انقطع ثبوته ، واشتبهت مصارفه ، وجهلت شرائطه ، لعدم وجوده في سجلات القضاة ، وما كان كذلك يتحول إلى الإسعاف العام ، ما لم يبرهن المرتزقة على استحقاقهم بإثبات الوقف وشروط الواقف ونسبتهم إليه أو إلى الطائفة الموقوف عليها .

وأرى أن تتخلى المفوضية العليا في بلاد الانتداب الفرنسي عن التدخل بأوقاف المسلمين بواسطة مستشارها الفرنسي المستمد منها نفوذه مباشرةً ، فإنه لا فرق بين هذا التدخل وبين التدخل بشؤون الصلاة والزكاة والصيام والحج ، لأن الولاية على الأوقاف الخيرية ولا سيما الدينية المحضة هي من القضايا الشرعية الصرفة ، فلا فرق والحال هذه في الحظر بين إمامة النصراني المسلمين بالصلاة ، وبين ولايته على أوقاف مساجدهم ومعابدهم . وهذا الحظر غير محصور بالإسلام بل هو من ضرورات جميع الديانات . فإن النصرانية مثلاً تحظر أن يتعاطى أحبار المسلمين ومشايخهم ما يتعاطاه أساقفة النصارى وقسيسوهم من التعميد والتكليل والتكريس والحرمان والغفران ، كما تحظر ولاية المسلمين الموحدين على أوقاف كنائس النصارى المثلثين وأديارهم ، وهذا سر إحجام الدولة العثمانية المسلمة عن التدخل بأوقاف اليهود والنصارى من رعاياها ، وتركها إدارة أوقافهم والولاية عليها لمجالسهم الطائفية . فالواجب على حكومة الانتداب أن تترك المسلمين في هذه الديار طلقاء التصرف في أوقافهم وتقصر عنايتها على الإرشاد في الشؤون المدنية .

ولا أجنح بتة إلى رأي من يقول بإلغاء دواوين الأوقاف الحكومية ، وإناطة الولاية على الأوقاف الإسلامية بمجلس إسلامي أهلي ينتخبه الأهلون على منوال مجلس أوقاف فلسطين ، لأن المجالس الأهلية مهما بلغت من النظام والانتظام لا تضارع دواوين الحكومة المسؤولة والمؤاخذة قانوناً على الكبيرة والصغيرة . وليسع الشام مايسع مصر والعراق . ومن رأيي أن تربط إدارة الأوقاف بالحكومات المحلية ، ويجعل لها ديوان خاص يعد في جملة دواوينها . أما أوقاف فلسطين فقد قضت الضرورة إناطة إدارتها بالمجلس الإسلامي الأهلي . لأن البلاد محكومة حكماً مباشراً ، بيد أنه قد نشأ من إنشاء هذا المجلس من الشقاق والتخاذل بين الفلسطينيين ما انقسم الناس في الحكم عليه إلى مادح وقادح بدافع المؤثرات الحزبية المتضاربة . أما شرقي الأردن أو حكومة الشرق العربي فإنها مليئة بأوقافها التي انتابها ما انتاب أوقاف بقية الأقاليم من الاختلاس في القرون المظلمة ، ولعل الحكومة تؤسس فيها ديوان أوقاف يشرف على ما في صقعها من معاهد وقف ووقوف محبوسة الريع اه .

الحسبة والبلديات

العرب دعاة مدنية :

لم تقصر العرب في شأن من شؤون المدنية بالنسبة لأعصارهم ، فاستنبطوا بعقولهم ، وطبقوا على شريعتهم ، كل ما يعلي أمرهم ، وتحلو به حياتهم . وكلما ارتقت حضارة الغرب ، وتوفر العاملون من أبنائه على استخراج دفائن هذه المدنية العربية الإسلامية ، تتجلى لنا أمور ما كنا نحن أصحاب تلك المدنية نعلمها ونعمل بها من قبل . انتقلت المدنية إلى العرب من الفرس واليونان والهند . ولكن جاء الإسلام بما فيه من العوامل القوية ، والنظام المدني البديع الذي استخرجه أهل الصدر الأول من روح الكتاب والسنة ، بأجمل مدنية عرفها البشر إذ ذاك ، وما نظنه مهما ارتقى في الأزمان التالية يخرج عن حدّها كثيراً . ونظام العقل نظامه في كل دور وطور .

لم يترك العرب باباً من أبواب المدنية إلا طرقوه ، ولا علماً من علوم الصناعات إلا برزوا فيه وعانوه . وتجلت مدنيتهم بأجلى مظاهرها في فارس والعراق ومصر والشام والأندلس أكثر من غيرها من الأقطار التي هذبها الإسلام ، وكانت العرب أساتذة أبنائها . والغالب أن قيام دول عظمى إسلامية في تلك الأقطار على أسس مدنيات قديمة كان من أول الدواعي إلى تجويد مدنيتهم ، ورفع شأنها بين الأمصار على اختلاف القرون والأعصار ، وللأقليم وطبيعته دخل كبير في تثقيف العقول ، ونبذ الجمود والخمول ،

ضاعت أو كادت واأسفاه أوضاع مدنيتنا القديمة ومشخصاتها ، لأن العرب تمزقوا وتفرقوا بعد استيلاء أناس من الفاتحين على ديارهم ، كانوا

دونهم في سلامة الذوق وجودة الفطرة ، فأفسدوا أخلاقهم بما حملوه إليهم من عاداتهم وتقاليدهم المختلة ، وأوصلوهم إلى درجة من الجهالة لو لم يتداركها في القرن الماضي محمد علي باشا في مصر وخير الدين باشا في تونس ومدحت باشا في الشام والعراق لاضمحل عمرانهم وباد سلطانهم إلا قليلاً .

تعريف الحسبة :

وبعد فإن الناظر في أصول الحسبة في الحكومات الإسلامية السالفة ، يعلم أن أجدادنا هيأوا لمدنهم وسكانها جميع ضروب الراحة والهناء ، وحاولوا أن يبعدوا عنها ما أمكن الجور والشقاء . والحِسبة بالكسر الأجر وهو اسم من الاحتساب أي احتساب الأجر على الله ، تقول فعلته حسبة وأحتسب فيه احتساباً ، والاحتساب طلب الأجر . وكانت الحسبة وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين ، يعين لذلك من يراه أهلاً له ، فيتعين فرضه عليه ، ويتخذ الأعوان على ذلك ، ويبحث عن المنكرات ، ويعزر ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة ، مثل المنع من المضايقة في الطرقات ، ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل ، والحكم على أهل المباني المتداعية بهدمها ، وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة ، والضرب على أيدي المعلمين في الكتاتيب وغيرها ، من الإبلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين — قاله ابن خلدون .

وقال ابن تيمية : وبنو آدم لا يعيشون إلا باجتماع بعضهم مع بعض ، وإذا اجتمع اثنان فصاعداً فلا بد أن يكون بينهما ائتمار بأمر . وتناه عن أمر ، وأولو الأمر أصحاب الأمر ، وذوو القدرة وأهل العلم والكلام . فلهذا كان أولو الأمر صنفين العلماء والأمراء ، فإذا صلحوا صلح الناس ، وإذا فسدوا فسد الناس .

وقال ابن الأخوة : الحسبة من قواعد الأمور الدينية ، وقد كان أئمة الصدر الأول يباشرونها بأنفسهم لعموم صلاحها ، وجزيل ثوابها ، وهي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ، ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله ، وإصلاح بين الناس ، والمحتسب من نصبه الإمام أو نائبه للنظر في أحوال الرعية ،

والكشف عن أمورهم ومصالحهم ، وبياعاتهم ومأكولهم ومشروبهم وملبوسهم ومساكنهم وطرقاتهم ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر .

وكانت الحسبة (المقتبس م٣ ص ٥٣٧ و ٦٠٩) في الحكومات العربية وحكومات الطوائف ضرباً من ضروب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ولا يكون من تسند إليه إلا من وجوه المسلمين ، وأعيان المعدلين ، ولا يحال بين المحتسب وبين مصلحته إذا رآها ، والولاة تشد معه إذا احتاج إلى ذلك . وقد قسمت الحسبة إلى ثلاثة أقسام : أحدها ما يتعلق بحقوق الله تعالى ، والثاني ما يتعلق بحقوق الآدميين ، والثالث ما يكون مشتركاً بينهما . ويمكن أن تقسم الحسبة إلى دينية ومدنية ، فالديني منها بطل من ديار الإسلام منذ أصبحت حكوماتها لا تحافظ على جوهر الدين بالذات . والمدنية استعيض عنها في القرن الماضي في الولايات العثمانية بالمجالس البلدية ، وبقيت الحسبة معروفة في مصر إلى أواسط القرن الغابر . ومصر آخر ما اضمحل من أقطار العرب وأول من نهض .

الحسبة تجمع الشرطة والصحة والبلدية وعملها :

فالحسبة والحالة هذه أشبه بديوان الشرطة والصحة والبلديات لعهدنا ، وكان المحتسب أو صاحب الحسبة يشرف على المعاملات المنكرة في الدين ، ويجازي عليها في الحال ، فينكر ما يجده مثلاً من المنكرات في الأسواق ، ويشدد على السوقة والباعة في صحة القناطير والأرطال والمثاقيل والدراهم والموازين والمكاييل والأذرع ، ويجري قواعد الحسبة على الطحانين والعلافين والفرانين والخبازين والشوائين والنقانقيين[١] والكبوديين والبواريين والجزارين والرواسين والطباخين والشرايحيين والهراسين وقلائي السمك والزلابية والحلاويين والشرابيين والعطارين والشماعين واللبانين والبزازين والدلالين والحاكة والخياطين والرفائين والقصارين والحريريين والصباغين والقطانين والكتانيين والصيارف والصاغة والنحاسين والحدادين والأساكفة والبياطرة وسماسرة العبيد والجواري والدواب والدور والحمامات والسدارين[٢] والفصادين

(١) النقانقيون: هم الذين يعملون النقانق اي المصير المحشو باللحم والقلوب .

(٢) السدارون: الذين يطحنون السدر وهومن المطهرات كالصابون إذا غش يضر ولا ينفع .

والحجامين والأطباء والكحالين والمجبرين ومؤدبي الصبيان والقومة والمؤذنين والوعاظ والمنجمين وعلى أصحاب السفن والمراكب وباعة قدور الخزف والكيزان والفاخرانيين والغضاريين[١] والأبارين والمسلاتيين[٢] والمرادنيين[٣] والحناويين والأمشاطيين وعلى معاصر السيرج والزيت الحار والغرابليين والدباغين والبططيين[٤] واللبوديين والحصريين والتبانين والخشابين والقشاشين والنجارين والنشارين والبنائين إلى غير ذلك مما يقصد منه منع غش المبيعات ، وتدليس أرباب الصناعات والبياعات .

الحسبة قانون مدني :

اختصوا المحتسب بالنظر في أمور: إحداها إراقة الخمور كلها وكسر المعازف وإصلاح الشوارع ، وذلك باب كبير فيه مسائل إحداها أمر الميزاب والأوحال والأرداغ ، ومنع جلوس الباعة عليها ، ومنع سوق الحمر والبقر للخشابين والآجريين ونحوهم ، ومنع ربط الناس دوابهم فيها ، ومنع عمارة الحيطان في شيء من الشوارع ، ومنع شغل هواء الشارع ، ومنع المبرز في الجوار إلى غير ذلك من المصالح ، مثل النظر بين الجيران في التصرفات المضرة ، كالنظر وسد الضوء إلا فيما يرجع إلى الملك ، كغصب قطعة من الأرض ، ومنع إسبال الإزار ونحوه على الكعبين ، وزجر الرجال عن التشبه بالنساء ، ومنع النساء عن التشبه بالرجال .

ومنع الناس عن تطيير الحمام ، ومنع البغايا وتعزيرهن ، ومنع أوليائهن ومواليهن وأزواجهن ، وأمر غير المسلمين بتطهير الأواني التي يبيعون فيها المائعات كالدهن واللبن ، وأمر الغسالين بإقامة السنة واجتناب البدعة في غسل الموتى ، وحفر القبور والحمل ، وزجرهم عن الغلاء في أخذ الأجرة ، ونصب الصلحاء وذوي الخبرة بهذه الأمور ، وتفحص الجامع يوم الجمعة ،

---

(١) الفاخرانيون والغضاريون: هم الذين يصنعون الصحاف (الزبادي أو السلطانيات) .

(٢) المسلاتيون : صناع المسلات .

(٣) المرادنيون: الذين يعملون المرادن ، آلات الغزل القديمة ، تعمل من خشب السامم او من السنط الأحمر .

(٤) البططيون : كأنها نسبة الى بطة والجمع بطط وبطة الدهن قارورته .

المصلى يوم العيدين ، وإخلاؤهما عن البيع والشراء، ومنع الفقراء عن التخطي ، ومنع القصاص عن القصص المفتراة ، ومنع النساء السائلات عن الدخول في المصلى ، ومنع الصبيان والمجانين منه ، ودفع الحيوانات المؤذية عن العمرانات كالكلاب العقور ، والنهي عن النجس والأمر بالتنظيف ، ومنع الناس عن الوقوف في مواضع التهم ، كتحدث الرجال مع النساء في الشوارع ، ومنع النقاشين والصباغين والصواغين عن اتخاذ تماثيل ذوات الروح وكبر الصور ، ومنع المسلمين عن الاكتسابات الفاجرة كاتخاذ الأصنام والمعازف والصنج وبيع النبيذ والبختج .

ومنع الناس عن اتخاذ القبور الكاذبة ، وخروج الناس إلى زيارة بعض المتبركين أو بعض المساجد ، على مشابهة الخروج إلى الحج ، ومنع النساء عن التبرج والتفرج بالخروج إلى النظارات وزيارة القبور ، ومنع الناس عن التصرفات في المقابر بلا ملك ، ومنع المطلسمة والسحار والكهان عن بدعهم ، ونهي أصحاب الحمامات عن منكراتهم ، بتطهير المياه وإخلاء الحمام عن المرد ودخول العراة فيه ، وأمرهم باتخاذ الحجب بين الرجال والنساء ، ومنع الناس عن تعلم علم التنجيم مما لا يحتاج إليه في الدين ، وتصديق الناس الكهان والمنجمين ، ومنع الناس عن بدعة ليلة البراءة ، ومنع الناس اللعابين بالنرد والشطرنج ، وتفريق جمعهم وأخذ بساطهم وتماثيلهم ، ومنع القوابل عن إسقاط جنين الحوامل ، ومنع الجراحين عن الجب والخصاء ، ومنع الإقامة في المساجد ووضع الأمتعة فيها ، ومنع الذي أصابه اللـمم عن التكلم بالغيب ، واجتماع الناس عنده زاعمين أنه صادق في إخباره بالغيب ، ومنع الخطاط ومعلم القرآن ومعلم النحو بأجر عن الجلوس في المساجد ، ومنع المعلم عن أخذ شيء باسم النيروز والمهرجان ، وينذر المحتسب معلمي الكتاتيب أن لا يضربوا الصبيان ضرباً مبرحاً ولا في مقتل ، وكذلك معلمو العلوم بتحذيرهم من التغرير بأولاد الناس ، ويقفون من كان سيئ المعاملة فينهونه بالردع والأدب .

عمل المحتسب بحسب البلد :

وكانت وظائف المحتسب تزيد وتنقص بحسب البلد ، ولا يعدو عمل المحتسب الأمور المشتركة بين الناس . فالمحتسب في بيروت يقضي عليه أن ينظر في أمور لا ينظر فيها محتسب دمشق مثلاً . ففي بيروت يُعنى المحتسب بالاحتساب على السماكين والملح والصير والبوري وقلاَّئي السمك والطيور وصياديها ، ونجاري المراكب وتقديراتها . وجميع المدن مشتركة مثلاً في الحسبة على الصيادلة والعقاقير والأشربة والمعاجين والقلانسيين والخرازين وصناع الشراك والأساكفة وصناع الخفاف وصنعة السرابات والزفاتين والنحاتين والدهانين وغشهم والمكارين وغشهم وكساحي السماد وحمالته والغرابيل ومناخل الشعر والوراقين والمبهرجين ، وفيمن يكتب الرسائل على الطرق والرقاع والدروج وكتاب الشروط ، والولاة والقضاة وتدليسهم ، والميازيب ومضرتها والمراصد والمراقب وطباخي الولائم والمحامل وصناعها والروايا والقرب إلى غير ذلك مما كان يستدعيه دينهم وعاداتهم ومدنيتهم .

وذكر السبكي أن على المحتسب النظر في القوت ، وكف غمة المسلمين فيما تدعو حاجتهم إليه من ذلك ، والاحتراز في المشروب ، فلطالما أوهم الحمار أنه فقاعي أو اقسماوي[١] ، وطالما أوهم الطباخ أن لحم الكلاب لحم ضأن . فليتق الله ربه ولا يكن شيء في إدخال جوف المؤمنين ما كرهه الله لهم من الخبائث ، ويحرم عليه التسعير في كل وقت على الصحيح ، وقيل يجوز في زمن الغلاء ، وقيل يجوز إذا لم يكن مجلوباً ، بل كان يزرع في البلد وكان عند الشتاء . وإذا سعر الإمام انقاد الرعية لحكمه ، ومن خالفه استحق التعزير . ومن مهمات المحتسب ولا سيما في الشام أمران ارتبطا به أحدهما النقود من الذهب والفضة المضروبين . ولا يخفى أن في زغلهما هلاك أموال البشر ،فعليه اعتبار العيار في محك النظر والتثبت في سكة المسلمين ، وثانيهما المياه فعليه الاحتراز في سياقها ، وقد جرت عادة أُناس في الشام أن يشتري بعضهم قدراً معلوماً من نهر ثورا وباناس مثلاً ويتحيل لصحته بأن يورد العقد على مقره بما له فيه من حق الماء وهو كذا أصبعاً ، ثم يسوقه ويحمله

(١) الاقسماوي : بائع السويق او المثلجات .

على ميـــاه الناس يرضي طائفة يسيرة منهم . وكان الشيخ الإمام رحمه الله يشدد النكير في هذا وله كتاب فيه سماه (الكلام على أنهار دمشق) . والحاصل أن الخلق في أنهار دمشق سواء يقدم الأعلا منهم فالأعلا ولا يجوز بيع شيء من الماء ولا مقره ولا يفيد رضى القوم ولا كلهم لأنهم لا يملكون إلا الانتفاع ، بل ولا رضى أهل الشام بجملتهم لأن رضاهم لا يكون رضا من بعدهم ممن يحدث من الخلق اه .

ثلاثة آراء في الحسبة :

وليس هذا كل ما يُطلب من المحتسب فقد كان يطلب منه أن يسيطر على العقول أيضاً . ذكر ابن الأثير في تقليد أنشأه لمنصب الحسبة : ... واعلم أن الناس قد أماتوا سنناً وأحيوا بدعاً ، وتفرقوا فيما أحدثوه من المحدثات شيعاً ، وأظلم منهم من أقرهم على أمرهم ، ولم يأخذهم بقوارع زجرهم ، فإن السكوت عن البدعة رضا بمكانها ، وترك النهي عنها كالأمر بإتيانها ، ولم يأت بنا الله إلا ليعيد الدين قائماً على أصوله ، صادعاً بحكم الله فيه وحكم رسوله ، ونحن نأمرك أن تتصفح أحوال الناس في أمر دينهم ، الذي هو عصمة مالهم ، وأمر معاشهم الذي يتميز به حرامهم من حلالهم ، فابدأ أولاً بالنظر في العقائد ، واهد فيها إلى سبيل الفرقة الناجية الذي هو سبيل واحد ، وتلك الفرقة هي السلف الصالح الذين لزموا مواطن الحق فأقاموا ، وقالوا ربنا الله ثم استقاموا ، ومن عداهم شعب دانوا أدياناً ، وعبدوا من الأهواء أوثاناً ، واتبعوا ما لم ينزل به الله سلطاناً ، ﴿ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم ﴾ ، فمن انتهى من هؤلاء إلى فلسفة فاقتاه ولا تسمع له قولاً ، ولا تقبل منه صرفاً ولا عدلا ، وليكن قتله على رؤوس الأشهاد ، ما بين حاضر وباد ، فما تكدرت الشرائع بمثل مقالته ، ولا تدنست علومها بمثل أثر جهالته ، والمنتمي إليها يعرف بنكره ، ويستدل عليه بظلمة كفره ، وتلك ظلمة تدرك بالقلوب لا بالأبصار ، وتظهر زيادتها ونقصها بحسب ما عند رائيها من الأنوار ، وما تجده من كتبها التي

هي سموم ناقعة ، لا علوم نافعة ، وأفاعي ملقفة ، لا أقوال مؤلفة ، فاستأصل شأفتها بالتمزيق ، وافعل بها ما يفعله الله بأهلها من التحريق .

ومن تقليد رشيد الوطواط لمحتسب: وأمرناه أن يجعل الزهد شعاره ، والتقوى دثاره والعلم معلمه والدين مناره ، ثم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويقيم حدود الشرع على موجب النصوص والأخبار ، ومقتضى السنن والآثار ، من غير أن يتسور الحيطان ، ويتسلق الجدران ، ويرفع الحجب المسدولة ، ويكسر الأبواب المسدودة ، ويسلط الأوباش على دور المسلمين وحرم المؤمنين ، حتى يغيروا على أموالهم ، ويمدوا الأيدي إلى عوراتهم وأطفالهم ، ويظهروا ما أمر الله بستره وإخفائه ، ونهى عن إشاعته وإفشائه ، فإن عبادة الأوثان خير من ذلك الاحتساب ، والعقوبة الأبدية أولى بمباشره من الأجر والثواب .

وأشار ابن فضل الله في وصية محتسب أن ينظر في الدقيق والجليل ، والكثير والقليل، وما يحصر بالمقادير وما لا يحصر، وما لا يؤمر فيه بمعروف أو ينهى عن منكر ، وما يشترى ويباع ،وليتعرف الأسعار ويستعلم الأخبار ، في كل سوق من غير إعلام لأهله،ليقيم عليهم من الأمناء من ينوب عنه في النظر، ويأمره بإعلامه بما أعضل . وقال له : إن النقود قد يكون فيها من الزيف ما لا يظهر إلا بعد طول اللبث ، فليعرض منها على المحك من رأيه ما لا يجوز عليه بهرج ، وما يعلق من الذهب المكسور ويروبص من الفضة ، وما أكلت النار كل لحامه ولا بعضه ويقيم عليه من جهته الرقباء ، وليقم الضمان على العطارين والطرقية في بيع غرائب العقاقير إلا ممن لا يستراب فيه ، وبخط مطبب ماهر لمريض معين في دواء موصوف ، والطرقية وأهل النجامة وسائر الطوائف المنسوبة إلى ساسان ، ومن يأخذ أموال الرجال بالحيلة ويأكلهم باللسان ، ومن وجدته قد غش مسلماً ، أو أكل بباطل درهماً ، أو أخبر مشترياً بزائد،أو خرج عن معهود العوائد ، أشهره في البلد ، وغير هؤلاء من فقهاء المكاتب وعالمات النساء وغيرهما ، ومن يقدم على ذلك وارشقهم بسهامك ، وزلزل أقدامهم بإقدامك ،ولا تدع منهم إلا من جربت أمانته ، واختبرت صيانته .

الحاجة والحسبة أمس واليوم :

ولقد حدثنا التاريخ أن الناس كانوا يتولون الحسبة بأنفسهم عندما تضعف الحكومات لأن مصلحة أهل كل بلد لا تتم إلا بدفع الأذى بعضهم عن بعض والتواصي بالحق ، والجاهل في ذمة العالم ، والضعيف من حصة القوي . وأهل البلد الواحد متكافلون معنىً وضمناً إذا لم يتكافلوا هلكوا،ولا تتم للفرد فيه سعادة لا تتناول المجموع . وكان قانون الاحتساب يسد حاجات المجتمعات في هذه الديار . نعم إن تلك الأوضاع قد بلغت عند غيرنا في هذا العصر مبلغاً عالياً من الرقي بفضل قاعدة توزيع الأعمال ، وكثرة الاختصاصيين في كل فرع من الفروع ، ولكن ديوان الحسبة وحده كان يقوم بأكثر هذه المقومات في المدن الفاضلة ، فكانت الحسبة آخذة برقاب المنافع ، داقة أعناق المضار . ومن الغريب أن عصرنا على رقيه لم يصل في هذا القطر إلى بعض ما كان يتمتع به أهلها في القرون الغابرة ، وأغرب من هذا كيف اهتدوا إلى أشياء فأصلحوها لتوفير راحتهم ورفاهيتهم،وما بلغوا ما بلغوه من تراتيبهم بدون التوسع في القوانين الفضفاضة شاهدة على تمدنهم،وأنهم أهل عمليات أكثر مما هم أرباب نظريات ، فسبحان الملهم العظيم .

تأسيس البلديات (*) :

يبدأ عهد الإصلاح في الدولة العثمانية من تاريخ إعلان المنشور السلطاني الصادر في غرة جمادى الآخرة سنة(١٢٧٢)وفيه القواعد الأساسية التي بني عليها ذلك الإصلاح في الشؤون المختلفة ، وفي جملة المعاهد التي أنشئت ، المجالس البلدية التي أُحدثت عقب صدور المرسوم المذكور ووضع لها نظام خاص جرى فيه تعديل بحسب الأحوال .

فإن النظام المؤرخ بيوم ٢٣ ربيع الأول سنة(١٢٨٤)الذي يحوي في مطاويه أصول تأليف المجالس البلدية في مراكز الولايات والألوية والأقضية ، قد جرى تعديله فيما بعد كما هو مصرح بذلك في الفصل السابع من قانون إدارة الولايات العمومية (٢٩ شوال سنة ١٢٨٧ و ٩ كانون الثاني سنة ١٢٨٦)

(*) كتب فصل البلديات السيد أمين الحشيمي .

ويقضي هذا القانون بإحداث مجلس بلدي في كل مركز من مراكز الولاة والمتصرفين وقوام المقامات مؤلف من ستة أعضاء ومن رئيس ومعاون ومن طبيب البلدة والمهندس بصفتهما عضوين مشاورين وكاتب ومحاسب موظفين . وينص بأن هيآت المختارين (العمد) والشيوخ في المراكز المبحوث عنها هي التي يحق لها انتخاب الأعضاء للمجالس البلدية من ذوي الكفاءة باتفاق الكلمة أو بأكثرية الآراء ، وأن الحكومة المحلية تصادق على انتخابهم ونصبهم . أما نصب الرئيس فيجب أن يقرّه المتصرف والوالي أيضاً ، وأما الرئيس والأعضاء فيخدمون مجاناً بلا راتب . والكاتب والمحاسب يخصص لهما راتب من ريع البلدية ويربط المحاسب بكفالة معتبرة . ويجتمع هذا المجلس مرتين في الأسبوع وينظر في وظائفه المعينة في القانون . وأهمها ما له مساس بإنشاء الأبنية وفتح الطرق وتوسيع الجادات والأزقة والشوارع ، وتنظيف البلدة وتنويرها ، ومراقبة الأوزان والمكاييل ، وتعديل الأجور والأسعار ، وتنظيم مجاري مياه الشرب وقنوات المياه المالحة وغير ذلك من الشؤون التي تنفع في عامة شؤون البلدة .

ثم صدر قانون البلديات (٢٧ رمضان سنة ١٢٩٤) فعدّل كثيراً من مواد الأنظمة السابقة وزاد في اختصاص المجلس والرئيس وغيّر طريقة الانتخاب ، فبعد أن كانت منحصرة في الهيآت المؤلفة من المختارين وأعضاء مجالسهم أصبحت شاملة أفراد الأمة الذين توفرت فيهم الشروط القانونية ؛ وأصبح لكل واحد منهم حق الاشتراك في الانتخاب بحيث يمكنه أن يكون ناخباً أو منتخباً حسب الشروط المتوفرة فيه ، وزاد في تحسين حالة الدخل وتوفير منابعه وانتظام جبايته .

ومنح هذا القانون مجالس الإدارة في المدن الكبيرة حق تقسيم هذه المدن إلى مناطق ، بحسب سعتها ووفرة سكانها ، وتأليف مجلس بلدي في كل منطقة منها على أن يراعى عدد السكان ولا يقل عن أربعين ألفاً في كل منطقة . وأناط بالبلدية وظائف عديدة فوق تلك الوظائف ، فعهد إليها إصلاح المدينة وترقية شؤونها من كل الوجوه العمرانية والصحية والأخلاقية . وأوجب الزيادة في عدد الأعضاء فجعلوا اثني عشر عضواً بعد أن كانوا ستة أعضاء

فقط . على أن تكون تلك الزيادة بنسبة عدد السكان واتساع المحل . وخوّل الحكومة المحلية حق تعيين الرئيس من الأعضاء المنتخبين براتب يتقاضاه من واردات البلدية ، وأما الأعضاء فيبقون بلا راتب كما في السابق على أن يبدل نصفهم في كل سنتين . ثم جرى تعديل هذه المادة بشأن الرئيس فتقرر أن تختار الحكومة لرئاسة البلدية من شاءت من ذوي المقدرة واللياقة ، سواء كان من الأعضاء المنتخبين أو من غيرهم . ولكنها بعد التجربة عدلت عن هذه الطريقة وأرجعت المادة إلى أصلها .

وفي قانون البلديات أن كل فرد من أفراد الدولة إذا كان يؤدي مائة قرش خراجاً وهو في سن العشرين وغير محكوم عليه بجناية . يحق له أن يشترك في انتخاب أعضاء البلدية . وإذا كان يدفع مائة وخمسين قرشاً خراجاً وكان عمره خمساً وعشرين سنة وكان غير محكوم عليه بالحبس مدة سنة أو بجزاء آخر يعادله وغير تابع لحكومة أجنبية أو مستخدم عند أحد أو في مجلس بلدي آخر أو متعهد أو كفيل للمتعهدين في دوائر البلدية وكان غير جندي أو حاكم في المدينة أو القصبة فيحق له أن ينتخب عضواً في البلدية .

وفي هذا القانون أن واردات البلدية عبارة عن الرسوم والضرائب المخصصة لها بإذن سلطاني ، وعن أثمان الفضلات الحاصلة من توسيع الطرق وفتح الشوارع وغيرها ، وعن الرسوم التي يجب استيفاؤها من أصحاب الأملاك الذين يستفيدون من فتح الجادات والشوارع لانتفاع عقاراتهم وأملاكهم من شرف الموقع وإحداث البنايات ، إذا قام بناؤها على الطراز الجديد ، ومن الجزاء النقدي ورسوم القنطار والكيل والوزن ورسوم الذبحية ورسم المقاولات المعقودة في الإيجار والاستئجار ورسوم الحيوانات المباعة ضمن حدود البلدية .

وقد خُصص للتنوير والتنظيف عشرون في المئة من خراج العقارات والمستغلات وعشرة في المئة من التمتع . وهناك رسوم أُخرى للبلدية مثل رسم الرخصة عن الأبنية المنشأة حديثاً أو المراد تعميرها وترميمها . وعن الألعاب المرتبة في المقاصف ومحلات اللهو والطرب ، ومثل رسم العجلات والدواب المعدّة للركوب والنقل وغير ذلك من الرسوم المتروكة للبلدية ، ومن الهبات والتبرعات أيضاً . وأهم الرسوم المخصصة للبلدية رسم الدخول (الاوكترُوا)

فإنه بالنظر لتنوع موارده يكاد يكون الدعامة القوية في إصلاحات البلدية .

ونص قانون البلديات على وجوب مراقبة الدخل والصرف ، وتنظيم موازنة عامة في كل سنة سالمة من الشوائب والنواقص ، وقضى بتأليف لجنة من أعضاء المجلس الإداري وأعضاء المجلس البلدي مرتين في السنة باسم الجمعية البلدية . وحتّم عليها أن تلتئم في نيسان من كل سنة فتنظر في نفقات البلدية عن السنة السابقة ، وفي حساباتها وأعمالها العامة ، ثم تصادق عليها ، وأن تجتمع مرة أُخرى في تشرين الثاني من تلك السنة فتنظم الموازنة العامة للسنة القادمة . وتنظر في الشؤون التي يجب أجراؤها في تلك السنة . ومنح هذه الجمعية حق التعديل في أنظمة البلدية ، والنظر في أحوالها العامة على أن ترفع مقرراتها فيما يتعلق بالتعديل والإصلاح إلى المجالس العمومية في مراكز الولايات .

ولما كان توسيع الطرق وتعبيدها ، وفتح الجادات والشوارع وإحداث الأرصفة وإصلاح مجاري المياه والجداول وتنظيمها ، وإنشاء المدارس والمستشفيات العمومية والثكنات والمعاقل . والقيام بجميع الأعمال المفيدة التي يشمل نفعها السكان على اختلاف طبقاتهم يتوقف على إطلاق يد البلدية في استملاك الأراضي والبنايات اللازمة للإصلاحات المنوه بها فإن قانون الاستملاك المؤرخ في ٢١ جمادى الأولى سنة(١٢٩٦)والمعدل بقوانين وأنظمة أُخرى قد منح البلديات حق الاستملاك في جميع الأرضين والعقارات بمقابل بدلات معتدلة تقدرها لجان مؤلفة من مخمنين محلفين من ذوي الخبرة والنزاهة تبعاً لأصول نص عليها هذا القانون . وهذا ما زاد أعمال البلديات تحسيناً وإتقاناً ، فأصبحت موافقة لأساليب العمران الحديث ومنطبقة على قواعد الهندسة والفن ، وحفظت لأصحاب الأملاك والأرض حقوقهم من الضياع أيضاً .

النظام الجديد :

وضع رئيس الدولة السورية قراراً مؤرخاً في ١٠ حزيران سنة(١٩٢٥) بتأسيس البلديات في المدن التي لا يتجاوز عدد أهاليها عشرة آلاف شخص فغيّر هذا القرار بعض أحكام القوانين السابقة . وقد نصّ فيه على أن المدن

التي يتجاوز عدد أهاليها مئة ألف نفس تؤلف مجالسها البلدية من عشرة أعضاء ينتخبهم الأهالي وعضوين يعينهما وزير الداخلية باقتراح الوالي أو المتصرف ، وأن المدن التي يبلغ عدد أهاليها بين خمسين ألفاً ومئة ألف ، تؤلف مجالسها من ثمانية أعضاء ينتخبهم الأهالي وعضوين يعينهما وزير الداخلية باقتراح الوالي أو المتصرف . والمدن التي لا يتجاوز عدد سكانها خمسين ألفاً تتألف مجالسها من ستة أعضاء منتخبين واثنين ينصبهم وزير الداخلية .

ونص أيضاً على أن المجلس البلدي يجتمع حتماً يوم الخميس من كل أسبوع يلتئم فوق ذلك بدعوة من ممثل الدولة المنتدبة أو رئيس الحكومة السورية أو وزير الداخلية أو مستشار البلدية ، وفي الأحوال المستعجلة يجتمع بدعوة من رئيس البلدية أو بطلب من نصف أعضاء المجلس على الأقل .

ونص على صورة عقد الجلسات والمذاكرة في القضايا المحالة إلى المجلس البلدي وتدوين المقررات الصادرة منه ، ومنح مستشار البلدية أو المفتش حق حضور الجلسات وإبداء رأيهما أثناء المذاكرة ، وجعل اللغتين العربية والإفرنسية رسميتين ، وأوجب تسطير المحضر باللغة العربية وباللغتين معاً كلما سمحت الأحوال .

وأجاز هذا القرار لرئيس الدولة حل المجلس البلدي بقرار منه وباقتراح وزير الداخلية ، واشترط موافقة المفوض السامي على ذلك الحل ، ثم ذكر الأسباب الموجبة للحل كما يأتي : (١) إهمال المجلس واجباته المنصوص عليها في القرار المذكور بعد أن يمر على تبليغه (٤٨) ساعة . (٢) مخالفته أحكام المادة ٢٣ من هذا القرار التي تحظر عليه المذاكرة في موضوع خارج عن سلطته ، أو في موضوع لم يذكر في برنامج أعمال الجلسة . والمذاكرة أيضاً في قضية عقد عليها قرار يتعلق بمصلحة بعض الأعضاء الذين اشتركوا في الجلسة ، والمذاكرة بإذاعة نشرات أو خطب وإبداء أمانٍ لها صبغة سياسية أو دينية تتعلق بالإدارة العامة . (٣) إهماله المناقشة في إحدى القضايا المسجلة بصورة نظامية في بيان أعمال الجلسة الأولى خلال أربع جلسات متوالية . (٤) نقص عدد الأعضاء إلى درجة لم يتمكن معها في أربع جلسات متوالية من إدراك النصاب القانوني .

ونص القرار على تأليف لجنة خاصة بقرار من رئيس الدولة تضم خمسة أعضاء للقيام بوظائف المجلس الذي يكون حله قد تم وفقاً للأحكام السابقة ، وصرّح بأنه يجوز تعيين اثنين أجنبيين من دافعي الضرائب في اللجنة المذكورة ، وأن هذه اللجنة تقوم بعامة وظائف المجلس ، وأنه يُشرع بانتخابات جديدة متى ساعدت الحال على ذلك ، ويعين تاريخ إجرائها بقرار من رئيس الدولة .

ونص القرار على وظائف المجلس البلدي فجعل إنفاذ المقررات المتضمنة للوظائف المذكورة متوقفاً على تصديق وزارة الداخلية وإنفاذ غيرها من المقررات مناطاً بوضع إشارة عليها من المستشار . والوظائف المهمة هي : تنظيم الموازنة والتعديل في تقدير الرسوم ، ومشترى عقارات يزيد مجموع قيمتها على عشر واردات البلدية ، ووضع ضرائب استثنائية وعقد قروض (لا بد في هذه من الحصول على إذن المفوض السامي) وبيع أملاك البلدية أو مبادلتها ، وترتيب درجات الشوارع والساحات وتزيينها ، وتحديد الأماكن العامة وتوسيعها أو إبطالها ، وإحداث ساحات للأسواق وللصيد والسباق في المواسم وغير ذلك .

وصرح بأن هذه المقررات ترفع إلى وزارة الداخلية ، فإذا لم يُبد الوزير رأيه خلال ثلاثين يوماً من تاريخ الوصل المعطى منه ، يحق للمجلس البلدي إنفاذ أحكامها ، وإذا رفض الوزير الموافقة عليها خلال تلك المدة فإن للمجلس البلدي حق تمييزها إلى مجلس الشورى ، ويكون قراره بشأنها مبرماً . وقد نص ذلك القرار على أنه يعين عضو من أعضاء المجلس البلدي رئيساً للبلدية بقرار من رئيس الدولة وبالاستناد إلى اقتراح وزير الداخلية .

ويصرح القرار بأن الرئيس يُعين لمدة سنة وأنه يمكن تجديد تعيينه لسنة أخرى بعد انقضاء مدة الرئاسة . وأنه إذا تغيب الرئيس أو وجد سبب آخر يمنعه من الحضور ، فإن أكبر الأعضاء سناً يقوم مقامه في وظائفه ، وإذا تجاوزت مدة غيابه أو مدة السبب المانع من حضوره خمسة عشر يوماً فيعين حينئذ وكيل الرئيس بقرار من رئيس الحكومة بناء على اقتراح وزير الداخلية . وأما عزل الرئيس أو تنحيته عن العمل فلا يكون إلا بقرار رئيس الدولة مبني على اقتراح وزير الداخلية ومصادق عليه من المفوض السامي بشرط أن يلمّ بالأسباب الموجبة للتنحية أو منعه .

ويتقاضى رئيس البلدية تعويضاً شهرياً يعين بقرار من وزير الداخلية ويتناول الأعضاء في نهاية كل شهر تعويضاً عن الجلسات التي حضرها كل منهم خلال ذلك الشهر على أن لا يتجاوز مجموع التعويض لكل عضو عشرين ليرة سورية صافية . وقد صرّح القرار بوظائف رئيس البلدية فإذا هي أوسع نطاقاً من الوظائف التي خصته بها القوانين السابقة . وتبين أن قرارات رئيس البلدية في دائرة سلطته الخاصة أو بالاستناد إلى مذاكرات المجلس البلدي ، تعرض فوراً على وزير الداخلية ولا توضع موضع الإنفاذ إلا بعد مرور خمسة عشر يوماً على تسليمها للوزارة المشار إليها ، ويجوز لوزير الداخلية أن يأمر بتنفيذها فوراً في الأحوال المستعجلة فقط ، أما القرارات التي تتضمن تسوية وقتية فإنها تنفذ حالاً بعد نشرها أو تبليغها . وفي كل حال لا تسري أحكام القرارات على ذوي العلاقة بها إن لم تنشر وتذع ، هذا إذا كانت أحكامها عامة ، وعلى وجه الانفراد فيما إذا كانت خاصة .

تأثير البلديات في العمران :

للبلديات تأثير عظيم في عمران المدن والقصبات على اختلاف درجاتها لا سيما إذا عهد بإدارة البلدية إلى رجال كفاة يحسنون العمل . وينطوون على نزاهة ونشاط . ومع أن بلدية دمشق مثلاً وبها نمثل ، وكلامنا فيها يصدق على أكثر مدن الشام لم تحصل على هذا الشرط الأساسي في ترقية شؤونها إلا في الأحايين ، فإن تأثيرها في عمار المدينة ظاهر محسوس لا ينكره أحد ، ومنه اتساع الشوارع والجادات وانتظامها ، ويستثنى من ذلك الأزقة التي ما برحت ماثلة للعيان على الطراز القديم لا يكاد يتخللها الهواء ولا ينفذ إليها النور. ولو أُتيح للمدينة حكام وللبلدية رؤساء في الزمان الغابر يقدرون الضرر العظيم الذي يطرأ على الصحة العامة بسبب ضيق المنافذ للهواء والنور . لأزالوا تلك الموانع ، فوسعوا جميع الطرق والأزقة الضيقة ، وخدموا بذلك المدينة أجلّ خدمة ، كما فعل مدحت باشا في سوقه الشهير ، وكما فعل جمال باشا في زمن الحرب ، فإنهما فتحا الشوارع الكبيرة ومهدا سبل الإصلاح في المدينة وكما يفعل الآن رجال السلطة العسكريين فإنهم قد باشروا العمل نفسه بجد ونشاط.

ومن ذلك إحداث المجاري للمياه القذرة وتنظيمها بدرجة تمنع اختلاطها بالمياه الصالحة للشرب . وهذا العمل من أعظم الأعمال المفيدة التي أدخلتها البلدية في برامج إصلاح المدينة ، وصيانة الصحة العامة من الأمراض السارية ، ويليه جر المياه من عين الفيجة بقساطل مستورة لتسلم من جراثيم الأمراض . وإحداث البنايات والأسواق على النمط الجديد مما زاد في رونق المدينة وبهائها ، ووضع الخرائط والمصورات التي قيدت أرباب المساكن والبيوت بإنشائها وفقاً للفن والهندسة ، وتوسيع الأزقة تدريجياً ومنع البناء بغير الحجر والآجر . ومنها : إنارة الأزقة والشوارع والساحات العامة وتسهيل المرور ليلاً ، ورفع المحاذير التي يكثر حدوثها تحت ستار الظلام كالسرقات وغيرها . ولا يزال التنوير مفقوداً في بعض الأزقة ولا سيما الضيقة منها . ومنها إيجاد وسائط للنقل في المدينة مثل قاطرات الترام ، فإنها سهلت انتقال السكان من أقصى المدينة إلى أقصاها بالسرعة المعتدلة وبأجور خفيفة ، ووفرت عليهم الوقت أيضاً . ومن ذلك إنشاء المستشفى العام ومدرسة الصناعة ودار الأيتام والعجزة وغير ذلك من المعاهد النافعة التي زادت في تحسين حالة البلدة من الوجهة الصحية والأخلاقية والعمرانية . ذكرنا أمهات المنافع والفوائد العامة التي حصلت في المدينة بتأثير البلدية ، وهناك فوائد أخرى أيضاً لا تخفى على ذوي الألباب .

رأي في إصلاح البلدة :

إن قوانين البلدية وأنظمتها التي وضعت في زمن الأتراك ، واستمر العمل بها مع تعديل وتغيير في بعض موادها بحسب الأحوال ، وافية بالحاجة لإدارة الشؤون . ولذلك أرى أن إصلاح البلديات يجب أن يقوم على أساسين متينين يكفيان لتشييد بنيانه : توفير دخلها وحسن جبايته ، وإنفاقه في سبيل ترقيتها وتزيينها .

ودخل البلدية الآن في دمشق مثلاً وافر لا يستهان به ، وكل بلدة في الشام ولا سيما أمهات مدنها قد زادت مع الزمن وارداتها . وبعض البلديات لا تقوم مداخيلها بنفقاتها المتنوعة من فتح الجادات وتعمير الطرق وتوسيعها ويكفي ريع الفضلات الحادثة من فتح الشوارع وتوسيع الطرق لتأدية بدلات

الاستملاك إلى أصحاب الأبنية التي يجب هدمها من جرّاء ذلك الإصلاح . ومع هذا فإنه يمكن زيادة الإيراد بطرق عديدة . أما الرسوم فإنها تباع بطرق الالتزام وتجبى بدلاتها وفقاً لنظام الأعشار بنفقات معتدلة وفي زمن قصير . وهذا هو المطلوب في جباية الضرائب ، ولذلك لا تكلفها الجباية نفقات باهظة . وتكفي السلطة المخولة للمجلس البلدي في جباية الرسوم وتحصيل الديون لحفظ حق البلدية من الضياع والضرر .

بقي علينا صرف الواردات وإنفاقها في سبيل عمارة المدينة . فلهذه القضية علاقة كبرى بانتخاب الرئيس وأعضاء المجلس البلدي لأن الإيراد مهما كان وافراً فإنه لا يفيد شيئاً إذا لم تكن الأيدي المسيطرة على شؤون البلدية أمينة على العمل منقطعة إليه متقنة إياه . ويجب أن يكون الرئيس موظفاً تنصبه الحكومة ويشترط أن يكون من ذوي الدربة والحنكة ومن حاملي الشهادات العالية أو المتعلمين بدرجة لا تقل عنها سواء كان منتخباً أو غير منتخب ، وأن يخصص له راتب وافر لينصرف بكليته إلى إيفاء عمله وليحفظ مكانته ووقاره لدى الطبقات التي يمثلها .

وأما الأعضاء فيشترط في انتخابهم أن يكونوا متعلمين تعليماً ثانوياً ، ويرجح انتقاؤهم من أصحاب اليسار ومن ذوي المكانة ليكونوا في غنى عن تناول الأجور التي يخصصها لهم المجلس البلدي لقاء الكشف والتحقيق عن القضايا المودعة إليهم ، وينجم عنها ما يسيء سمعتهم ويخل بمكانتهم بعض الأحيان .

وعندي أن حجر الزاوية في أساس الإصلاح انتقاء الرئيس والأعضاء من خيرة الرجال ، وإطلاق أيديهم في العمل ، ووجود الكفاة في الوظائف مع غل أيديهم لا يفيد شيئاً . ويصح تطبيق هذه القاعدة في مراكز الألوية والأقضية مع التعديل فإنه يختار فيها المتعلمون والمهذبون من ذوي الشأن وأصحاب اليسار والنزاهة وإلا فإن تزييد الواردات لا يكفي للإصلاح ، والمعول على الأيدي العاملة النزيهة النشيطة والله الموفق للصواب اه .

الترع والمرافىء والطرق(*)

ترعة السويس :

يتناول موضوعنا المرافئ والخطوط الحديدية والكهربائية والطرق المعبدة ، ولما كان افتتاح ترعة السويس بين البحر الأحمر والبحر المتوسط من أعظم العوامل التي أثرت تأثيراً كبيراً في سير المواصلات البحرية ، وتقريب المسافات الشاسعة بين الشام والبلاد الشرقية الأخرى كفارس والهند والصين ، وخصوصاً بين الشام وأمها جزيرة العرب وسهولة نقل الحجاج إلى الأرض الحجازية المقدسة — رأيت أن أفتتح الكلام بهذه الترعة وبما يتعلق بها من الشؤون الفنية والتاريخية والاقتصادية فأقول :

المواصلات بين البحر المتوسط وبين البحر الأحمر قديمة العهد ، تبدأ من المصريين القدماء على عهد امبراطوريتهم الوسطى أي منذ ألفي سنة قبل الميلاد تقريباً . فالمسألة إذاً عريقة في القدم ، وقد عرفت لأول مرة قبل أربعة آلاف سنة على التقريب . وما كانت هذه المواصلات القديمة بين البحرين إلا من قبيل المصادفات ولم تكن غاية ما كان يرمي إليه القدماء . وهؤلاء ما كانوا يتطلبون سوى الحرص على المواصلات بين البحر الأحمر ونهر النيل ليتمكنوا من وصل أهم طرقهم وهو النيل بأعظم طريق بحري يؤدي إلى آسيا وبلاد الحبشة وهو البحر الأحمر . ولذلك قام الفراعنة بتخطيط طريق لا شك أنها من أهم طرق ذلك العهد ، بين المكان الذي قامت فيه الآن مدينة القاهرة وبين السويس ، ليسهل عليهم نقل بعض الأحجار والمعادن من سيناء

(*) كتب هذا الفصل السيد عبد الوهاب المالكي .

كالفيروز والنحاس والمغنيزيا فحفروا أول قناة بين النيل وبين البحر الأحمر .

ولما كان النيل يصب في البحر المتوسط أصبح من الممكن إذ ذاك مرور المراكب بين هذين البحرين . ولا تعرف اليوم تلك القناة الصناعية ولا ذلك الفرع الذي حفرته يد الإنسان ، ولا شك أنه كان ثمة فرع طبيعي لنهر النيل العظيم جف ماؤه منذ العصور الجيولوجية أي قبل ظهور الإنسان . ويؤكد بعض المؤرخين أن هذا الفرع كان في زمن رمسيس الثاني والناظر إلى خريطة مصر يتمثل لعينيه هذا الوادي القديم وادي تومات ، وفيه قسم من الأراضي الخصيبة المنبتة يقطعه الخط الحديدي بين الزقازيق والإسماعيلية وهذا الوادي هو الفرع القديم الجاف لنهر النيل وهو موضع القناة القديمة . فمجرى هذه القناة يتقارب جداً من القناة الحالية التي تجري فيها المياه العذبة لإرواء الأرضين الواقعة بالقرب من ترعة السويس . ويظهر أن سلسلةالبحيرات المتقطعة الواقعة على طريق هذه الترعة كانت متصلة قديماً بخليج السويس الطويل ويجري إليه فرع النيل الشرقي القديم المبحوث عنه .

ويظهر من درس الأراضي والارتفاعات والمستحاثات أن أحجار البسوط قد ارتفعت قليلاً ولا ريب أن المواصلات كانت على أتمها زمن الامبراطورية الوسطى وفي عهد الامبراطورية الجديدة . فكانت القناة الأولى تصل نهر النيل ببحيرة التمساح ، وذلك في عهد الأسرة الثانية عشرة إلى التاسعة عشرة أي منذ ألفين إلى ألف ومائتي سنة قبل الميلاد . وأن قناةً ثانيةً من عهد الفراعنة أيضاً وفي زمنهم الأخير المعاصر للفتوحات الفارسية أي منذ خمسمائة وخمس وعشرين سنة قبل الميلاد ، كانت تصل نهر النيل ببحيرة المرة الكبيرة بواسطة وادي تومات وهذه هي القناة التي قام بحفرها وإصلاحها بسامتيك ونيخاووس من السلالة السادسة والعشرين وذلك بين سنة(٦١٠ و ٥٩٤)قبل الميلاد . وكان مشروعه يقضي بتجديد الفرع القديم لنهر النيل المنفصل عنه في منطقة بوباشيس والمار في وادي تومات . إن هذا العمل الذي ذهب بحياة مائة وعشرين ألف عامل كما ذكر ذلك المؤرخ الشهير هيرودوتس خلال رحلته إلى مصر (أي بعد سنة أربعمائة وتسع وأربعين ق م) لم ينجح وتُرك قبل إتمامه،لأنه أوحي إلى الملك نيكو على ما يقال بأن عمله خدمة للبرابرة

أي الفرس، ولذلك لم تتم هذه القناة إلا بعد مائة سنة أنشأها الملك داريوس الأول الفارسي . على أن القناة القديمة كانت أوسع من هذه القناة الحالية . وقد ظهرت آثار القناة القديمة المندرسة في سنة (١٧٩٨) وتظهر الآثار الآن في أماكن عديدة . وقد استعمل قسم منها لمجرى القناة الجديدة المستعملة لإسالة الماء العذب ، وقد عرفنا من الجدران المائلة والمرتفعة ومن الأحجار المنحوتة أن عرض القناة القديمة كان خمسة وأربعين متراً في عمق خمسة أمتار . وذكر المؤرخ هيرودوتس أن طولها أربعة أيام وقد كانت معدة إذ ذاك لسير السفن . وتكريماً لإنجاز عمل القناة أقام داريوس عدة مسلات تذكرة ومفخرة .

وجاء بعد ذلك البطالسة وجهدوا لتجديد عمل هذه القناة وأخذوا يقاومون الطبيعة في العصر الرابع والثالث والثاني والأول ق م . وكانوا يرمون إلى المحافظة على طريق نهر النيل إلى البحر الأحمر من البحيرة المرة وجعله أبداً صالحاً لمرور الزوارق . كلفهم ذلك جهوداً عظيمة وقاموا بأعمال صناعية دقيقة، كالسدود والأحواض وأعمال أخرى كان القصد منها دفع المياه المالحة عن النيل وعن الأراضي المصرية، ثم أهمل شأنها في القرن الأول ق م .

وبعد فإن تاريخ هذا العمل العظيم أي قناة السويس القديمة ينتهي في عهد الرومانيين . وقد كان آخر من قام بحفر هذه القناة القديمة التي امتلأت بالرمال الامبراطور تراجان الروماني بين سنة (٩٨ و ١١٧) بعد الميلاد وقد فتح على عهده نهر تراجان الذي كان يبتدئ بالقرب من القاهرة ويمتد إلى خليج السويس في البحر الأحمر، وهذا النهر هو القناة المبحوث عنها آنفاً . طمتها الرمال وارتفع مستوى الأرض فضاع أعظم أثر من آثار القدماء يعد من بدائع القرون الغابرة .

ولما افتتحت العرب مصر كانت قناة النيل والبحر الأحمر عبارة عن ذكرى قديمة العهد جداً . ومع هذا يرجع الفضل والشرف في إحياء هذه الذكرى القديمة منذ اثني عشر قرناً للعرب الفاتحين وهم آخر من أحيا هذه الذكرى قبل أهل المدنية الحاضرة . وأعظم من هذا أنهم هم أول من فكر بالطريقة الحديثة لإيجاد قناة بين البحرين المتوسط والأحمر . ذلك لأن مملكة العرب كانت متسعة الأرجاء وتحتاج للمواصلات في كل وجه خلافاً لمملكة

الفراعنة فإنهم لم يفكروا إلا بما يفيد مصر وحدها . فالحاجة عند العرب كانت ماسة لربط الصلات بين جزيرتهم وما افتتحوا من الممالك الأخرى . وقد قام بهذه المهمة عمرو بن العاص أحسن قيام وتبعه في ذلك الخليفة العباسي هرون الرشيد . ولعدم وسائطهم الفنية الحديثة لم يتمكنوا من فتح ترعة عظيمة كالترعة الحالية وإن فكروا بها ملياً،ولما أشكل عليهم الأمر لم يحجموا عن جعل النيل واسطة الاتصال بين ممالكهم . وكان القصد من استعمال النيل هذه المرة الوصل بين البحر المتوسط والبحر الأحمر . وعلى هذا قاموا بإصلاح قناة الأقدمين التي تبتدئ من الزقازيق على النيل . وكانوا يأتون في سفنهم من الشمال ويدخلون في بحيرة المنزلة ثم في النيل ومن هناك يتبعون القناة التي أصلحوها إلى أن يدخلوا البحر الأحمر ومنه يتجهون نحو جزيرة العرب . وكانوا بهذه الصورة ينقلون من مصر ما يحتاجونه من الحنطة إلى جزيرتهم .

ويحدثنا التاريخ أن عمرو بن العاص نقل في هذه الترعة الحنطة من الفسطاط إلى القلزم (السويس) ومن هناك إلى جزيرة العرب عن طريق البحر الأحمر . وقد بقيت القناة صالحة للسير مدة من الزمن حتى جاء الخليفة المنصور العباسي وقام بطم هذا الطريق المفيد مخافة أن تنقل الذخائر إلى القائم بالحجاز إذ ذاك من أرض مصر . وعلى هذه الصورة انقطع حبل الوصل للمرة الأخيرة بين البحرين مدة ألف سنة ونيف . على أن فكرة اتصال البحرين ما زالت باقية منذ ذلك العهد وهي الفكرة التي لم يسبق أحد إليها . وكانت من الأعمال التي لا مندوحة للمدنية من تطبيقها . وجاء البنادقة قبل العرب بفتح ترعة لتضرر تجارتهم من افتتاح طريق رأس الرجاء الصالح ولكنهم لم يفلحوا . وفي سنة (١٦٤١) عرض لايبنيس العالم الرياضي الشهير على ملك فرنسا لويس الرابع عشر بأن يؤلف جيشاً لافتتاح مصر،وكان من جملة ما طلبه فتح هذه الترعة للوصول منها إلى الهند،ولكن لم يتم شيء من هذا كما وقع ذلك للسلطان مصطفى الثالث العثماني الذي فكر أيضاً بفتحها،وكان الأمر كذلك مع علي بك زعيم المماليك الذي لم يكتب له النجاح أيضاً . وقد ارتأى فتحها أيضاً كولبر الشهير وكثير من وزراء لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر .

ويظهر أن كل من حاولوا ربط البحرين هم إفرنسيون أو أصدقاء لفرنسا ، اتفقوا على هذا الأمر للفت في عضد إنكلترا التي كانت تحصر طريق رأس الرجاء الصالح . ولما جاء نابليون مصر نظر في الأعمال الأولى لفتح الترعة سنة(١٧٩٨). وقام مهندسه لوپير بدرس المشروع وعمل المصورات اللازمة عملاً بإشارة سيده غير أنه أخطأ في حسابه خطأ عظيماً إذ وجد أن مستوى الماء في البحر الأحمر أعلى من مستواه في البحر الأبيض بنحو تسعة أمتار وتسعين سانتيماً،في حين ليس من فرق بين مستوى البحرين وبذلك كان لوپير السبب في تأخير هذا العمل مدة طويلة .

بقيت المواصلات مقطوعة بالفعل بين السويس والبحر المتوسط مدة ألف ومائة سنة أي منذ سنة(٧٥٥) إلى سنة(١٨٥٤)ميلادية أو من عهد المنصور إلى الزمن الذي قام به بحفر الترعة الحالية فرديناند دليسبس الذي برهن على عكس ما ادعاه مهندس نابوليون . وقد قام المهندسون لينان بك واستيفانسون ونيكريللي وبوردالو بمساحات دقيقة بين سنة(١٨٤٨ و ١٨٥٧)وأثبتوا بصورة نهائية خطأ المهندس لوپير .

أقنع دليسبس الخديوي سعيد باشا بفائدة الترعة وأحرز في سبعة أيام موافقته على ذلك . وصدر المنشور الخديوي بفتح الترعة يوم ٣٠ تشرين الثاني سنة(١٨٥٤). فعارضت بريطانيا في فتح الترعة مدعية أنها تريد المحافظة على كيان الدولة العثمانية من الأخطار التي ستحدثها هذه الترعة المشؤومة . ولم يرجع دليسبس عن مشروعه فأسس شركة وعرض في ٥ تشرين الثاني سنة (١٨٥٨)أسهمها للبيع . وكانعدد هذه الأسهم (٤٠٠,٠٠٠) سهم بيع منها (٢٠٧,٠٠٠)سهم في فرنسا واشترك في شراء هذه الأسهم جميع الطبقات . أما ما بيع في البلدان الأخرى فلم يتجاوز الثلاثة بالمائة . و اكتتب الخديوي سعيد باشا لنفسه بما بقي من الأسهم أي بنحو خمسة وأربعين بالمائة من مجموعها ووضع تحت إدارة القائمين بالأعمال خمسة وعشرين ألف عامل بأجرة زهيدة جداً . وأسست هيأة إدارية للقيام بهذا المشروع وجرى الاحتفال بالموضع الذي أنشئت فيه بورسعيد في ٢٥ نيسان سنة(١٨٥٩)وذلك قبل أن تتم موافقة الباب العالي وقبل أن تضع المعارضة البريطانية سلاحها . ومع هذا كانت

أعمال الحفر تتقدم بوسائط ابتدائية . فتنقل أتربة الحفريات على ظهور الحمير. ولنا أن نقدر الصعوبات التي اقتحمها القائمون بالعمل إذا فكرنا بأن ما كان يحتاجه العمال من الماء للشرب كان ينقل على ظهور الإبل وكان يكلف هذا النقل ستة وخمسين ألف فرنك في الأسبوع حتى انتهى عمل القناة المعدة لإسالة الماء العذب .

وفي ١٨ تشرين الثاني سنة(١٨٦٢)جرى فتح أول قطعة من الترعة وقد ترأس هذا الاحتفال الفخم دليسبس صاحب هذا المشروع . وحُطم السد أثناء الاحتفال فدخلت مياه البحر المتوسط إلى بحيرة التمساح فكان هذا الاحتفال فخماً مهيباً . ومات الخديوي سعيد باشا فأضاع دليسبس أكبر نصير له . على أن هذه المصيبة لم تمنعه من الحصول على موافقة السلطان العثماني وذلك في سنة(١٨٦٦)وجيء يومئذ بآلات الحفر الضخمة ذات قوة (٢٢) ألف حصان واستغنوا عن الأدوات الابتدائية . وجرى افتتاح هذه الترعة في ١٧ تشرين الثاني سنة(١٨٦٩)فاجتمع في ذلك الاحتفال خمس وخمسون سفينة أتت من أوربا، وممن حضر امبراطور النمسا وأولياء عهد بروسيا وهولاندا وغيرهم . وقد أُنفق على هذه الترعة تسعة عشر مليون ليرة إنكليزية .

ولما رأت إنكلترا فائدة هذه الترعة ندمت على تباعدها عن مد يد المساعدة لأول الأمر وقررت أن تستعيض عما فاتها من الوقت . ففي تشرين الثاني سنة(١٨٧٥)تمكن ديزرائيلي وزير إنكلترا من ابتياع مائة وستة وسبعين ألف سهم كانت ملك الخديوي سعيد باشا وذلك بمبلغ أربعة ملايين ليرة إنكليزية وفي تسعة أيام دخل ثلاثة أعضاء إنكليز في هيأة إدارة الترعة وسقطت تلك المعارضة التي اشتدت بين إنكلترا وبين شركة الترعة. وفي سنة(١٨٨٢)أهملت فرنسا مصالحها في مصر فعسكرت الجيوش البريطانية في القاهرة فاحتج فرديناند دليسبس على خرق حياد الترعة فلم يجد احتجاجه نفعاً .

وفي سنة(١٨٨٥)وضعت قواعد الاتفاق الفرنسي الإنكليزي لإدارة شؤون الترعة . وكان أثر هذا الاتفاق عظيماً جداً وخصوصاً أيام الحرب العامة . فكانت هذه الترعة خندقاً حصيناً بيد الحلفاء للمحافظة على مصر . ولما هاجم

الترك الترعة سنة (١٩١٥) قام بالدفاع عنها الجنرال مكسويل ونجح على أيسر وجه . ولم تمض مدة قليلة بعد الحرب حتى عادت الترعة إلى ما كانت عليه قبلها وهي اليوم إحدى الطرق البحرية العظيمة في العالم أجمع. وقد مر منها في سنة (١٩٢٥) ٥٣٣٧ سفينة . وكان مجموع ما تحمله هذه السفن (٢٦,٧٦١,٩٣٥) طناً .

لا جرم أن إصلاح الترعة وجعلها صالحة لسير السفن كل حين عمل شاق يتطلب جهوداً عظيمة . وكان عرض الترعة في بادئ أمرها اثنين وعشرين متراً في القعر وثمانية أمتار عمقاً . في حين أنها اليوم خمسة وأربعون متراً عرضاً في القعر بعمق عشرة أمتار ونصف، مما يدل على أن العمل فيها متواصل وأن عرضها قد تضاعف . ثم إن عرض الترعة على مستوى سطح الماء يختلف بين المائة والعشرين والمائة والأربعين متراً وقد يبلغ المائة والستين ، وطولها ١٦٨ كيلو متراً .

وتقرر مؤخراً أن يجعل عمق الماء ثلاثة عشر متراً وعرض الترعة في القعر ستين متراً . هذا والنفقات تزداد يوماً فيوماً . وقد بلغ ما صرف على هذه الترعة منذ البدء فيها في سنة (١٨٥٩) إلى يومنا هذا ما يقرب المليار من الفرنكات الذهبية . ويبدو في ميزانيات هذا العمل عجز ظاهر من أول الأمر . وكان ما استحصل من هذا العمل لا يتجاوز الستة ملايين من الفرنكات على الرغم من الرسوم الباهظة الموضوعة على التجارة والبواخر وتحسنت الحالة في العهد الأخـيـر .

وفي سنة (١٩٢٣) بلغت الواردات غير الصافية ٤١٩ مليون فرنك وكان الصافي من الواردات سنة (١٩٢٤) ٢٦٤ مليون فرنك . اسم هذه الشركة « الشركة العمومية لترعة السويس البحرية » وهي شركة مصرية بقانونها وشركة دولية عمومية بالاسم . غير أن حقيقتها شركة إفرنسية وأكثرية هيأة ادارتها إفرنسية أيضاً . ورئيسها الذي خلف دليسبس إفرنسي أبداً . ومركز إدارتها في باريز وقد دفعت هذه الشركة عن سنة (١٩٢١) ١٤ مليون فرنك إلى الحكومة الفرنسية ضرائب عن أموالها . ومركز الإدارة العامة أيضاً في باريز تقوم بإدارة الثلاث شعب الموجودة في مصر والتي يديرها موظفون إفرنسيون .

وهذه الشعب هي : إدارة الأشغال ، إدارة المركز ، إدارة سير السفن . ويقوم بأعباء هذه الشعب الثلاث ٥٠٠ موظف وربان و ٢٥٠٠ عامل . وإذا أضفنا إلى هذه الأرقام عيال هؤلاء الموظفين والعمال وأولادهم بلغ عدد من لهم علاقة مباشرة بشركة الترعة ١٤ ألف نفس .

الترعة العظيمة عن طريق فلسطين :

قبل اتفاق ترعة السويس الذي صيرها ترعة محايدة دولية ، فكر الإنكليز في فتح طريق بحري يمر بفلسطين . وذلك لإضعاف نفوذ الفرنسيين في الشام ونفوذ الروس في فلسطين، فارتأوا وصل البحر المتوسط ببحيرة لوط ثم البحر الأحمر . وذلك بواسطة قناة تبتدئ من مدينة حيفا ، فتملأ وادي الغور الذي ينخفض ٣٩٣ متراً عن سطح البحر ، ثم تتصل هذه القناة بالعقبة الواقعة على شاطئ البحر الأحمر بعد أن تقطع وادي العربة . وبهذا يكون للإنكليز طريق حربي تبلغ به بريطانيا الهند إذا أغلقت في وجهها ترعة السويس وينافسون ترعة السويس .

إن سهل يزرعيل لا يرتفع سوى مائة متر عن سطح البحر . في حين يرتفع وادي العربة بين البحر الميت والبحر الأحمر مائتين وأربعين متراً . فلو فرضنا أنه أمكن المرور من هذه السهول المرتفعة التي تتطلب أعمالاً صناعية دقيقة يتساءل المرء عما سيكون مصير الماء الجاري من البحرين إلى هذه الهوة الطبيعية أي وادي الغور فإنه يتبخر في الحال كما هو الشأن بماء نهر الشريعة الذي يصب في بحيرة لوط . فقد حسب السير اوليفان أن هوّة الغور التي ينخفض قعرها ٤٠٠ متر تقريباً عن سطح البحر تملأ في خمس سنوات . وقد قدّر علماء آخرون بأن المدة اللازمة لامتلاء هذا الوادي لا تقل عن عشرة أمثال المدة التي حسبها اوليفان . ومهما تكن هذه المدة أي مدة امتلاء هذه الحفرة طويلة أو قصيرة ، فإن عملاً كهذا سيغير إقليم فلسطين حتماً ، ويحصل من جراء هذا العمل الكبير ملجأ للسفن الكبيرة ، وهذا ما يتجلى به سبب تحمس الإنكليز لهذا المشروع منذ أربعين سنة .

طول هذه الترعة العظيمة ٤٠٠ كيلو متر منها ١٩٢ كيلو متراً فقط يقتضي

حفرها بعرض ٦٠ متراً وبعمق ١٢ متراً . ومهما تكن فكرة فتح هذه التّرعة عظيمة ، ومهما تكن الاستفادة من قوة الماء الذي سينصب في وادي الغور جيدة ، لا يتأتى إخراج هاتين الفكرتين إلى حيز العمل دع أن ثروة البلاد المعدنية المشهورة بجوار بحيرة لوط يصعب أن تذهب هدراً تحت غمر المياه لها، ثم إن نفقات العمل ستكون باهظة وقد قدّرها اوليفان من مليار إلى مليارين من الفرنكات ، وقدّرها غيره بخمسة مليارات ، مما يجلب خسائر عظيمة ولا يفيد رؤوس الأموال التي ترصد له .

التّرعة بين البحر المتوسط والخليج الفارسي :

وهناك مشروع آخر أشد غرابةً من هذا ألا وهو وصل البحر المتوسط بالخليج الفارسي ،وذلك بترعة تبتدئ من السويدية وتمر بأنطاكية وحلب وباليس على الفرات . وبإصلاح نهر الفرات بحيث يغدو صالحاً لسير السفن حتى شط العرب . وقد قدرت نفقات هذا المشروع بسبعين مليون ليرة عثمانية ذهباً . فلو فرض بان الملايين الليرات لا شأن لها فإننا نتساءل عن فائدة هذا الطريق النهري الطويل الذي لا ينقص طوله عن طول طريق البحر الأحمر ، فضلاً عن أن ارتفاع الأرض في جوار حلب هو ٤٠٠ متر ، مما يجعل هذه الفكرة بعيدة التحقيق أيضاً .

مرفأ غزة :

تبعد مدينة غزة عن ساحل البحر خمسة كيلومترات ، وترتفع عن سطح البحر ٥٥ متراً ، وتفصل بين المدينة والبحر تلال قليلة الارتفاع لا يتجاوز أعلاها ١٥ متراً . والساحل مملوء بطبقات رمل لا تتمكن البواخر من الاقتراب منه . وقد تكونت هذه الرمال بما تقذفه مياه النيل من الرمال إلى البحر المتوسط فتسوقها الرياح الغربية إلى هذا الساحل . والظاهر أن مرفأ غزة كان في معظم أدوار التاريخ دون سائر موانئ الشام ولم يكتب له أن ينتفع به حق الانتفاع إلا في أوقات قليلة .

مرفأ يافا :

خربت مدينة يافا في الحروب الصليبية فأضحت عبارة عن قرية تتألف من بضعة بيوت . وقد بدأت في التجدد أواخر القرن السابع عشر . وكان المرفأ إذ ذاك غير صالح لإرساء السفن كما هي حالته لهذا العهد . ولذلك كانت ترسي السفن الفرنسية في مرفأي عكا وصيدا . وحصنت يافا في القرن الثامن عشر وأخذت تزداد عمراناً إلىأن جاء نابليون في سنة(١٧٩٩).وقد ازدادت مكانتها وكثر عدد سكانها لعهدنا ، وذلك لقربها من القدس ومرور الخطوط الحديدية منها ومهاجرة اليهود والألمان إليها ، وكان جماع هذه الأسباب العامل الكبير في تقدم هذه المدينة . ومضت أدوار كانت كلمة الذهاب إلى يافا تدل عند الغربيين على عمل خطر . حتى إن بعض التجار كان يراهن الراحلين إلى الأراضي المقدسة على ثرواتهم بمعنى أن المسافر يقبض ما يعادل ثروته من التاجر الذي راهنه إذا عاد إلى أرضه سالماً . كما أن المسافر يترك ثروته لهذا التاجر إذا لم يعد إليها . وهذا مما يدل على أن الخطر في دخول السفن هذا المرفأ كان قاب قوسين أو أدنى . وكانوا يعتقدون أن احتمال حدوث الخطر أكثر من السلامة . وتحسنت الحال قليلاً منذ ذلك العهد ، ومع هذا لم يزل تفريغ السفن في ساحل يافا من الأمور الصعبة الخطرة.

إن مرفأ يافا صغير وقليل العمق وهو مسدود بخط من الصخور البارزة عن سطح الماء وليس له سوى مدخل صغير بين الشمال والشمال الغربي من المدينة . وقد وقع توسيع هذا المدخل بالنحت ونسف الصخور بالمفرقعات وهناك ممر آخر في جهة الشمال في عرض ٢٠٠ متر ليس بصالح للانتفاع لما يطمه من طبقات الرمل . وهذه الصخور الممتدة من الساحل إلى عرض البحر هي بمثابة سد طبيعي تكون في طول ٣٠٠ متر . ويكوّن من هذا السد ملجأ أمين للسفن الصغيرة الحجم ، ولكن قعر البحر يرتفع يوماً فيوماً لتكوّن جنس من الحجر المركب من الرمل والأصداف بواسطة نوع من الملاط المترسب من الماء ، فليس ثمت عمق يزيد على الخمسة أمتار إلا بعد ٥٠٠ متر من الساحل بحيث لا تتمكن البواخر الضخمة من الإرساء إلا بعيدة عن

الشط نحو ٧٠٠ متر مما يتعذر معه تفريغ السفن . ويكون التفريغ بواسطة زوارق كبيرة تسيرها نواتية من أهل هذه المدينة بمهارة فائقة . وكثيراً ما يصطدم هؤلاء الربابنة بالصخور من شدة الأمواج العظيمة التي تهب بريح الشمال في فصل الصيف ورياح الغرب في الشتاء . وأصحاب هذه الزوارق يتقاضون أجوراً باهظة من الركاب لكثرة الأخطار التي تحيط بهم . من أجل هذا لا يتيسر للسفن أحياناً تفريغ بضائعها وإنزال ركابها بل تسير بهم إلى مرافئ حيفا وبيروت وبورسعيد .

ثم إن قعر البحر مركب من رمال ومزيج من الحصى ومواد لزجة أخرى لا تمكن المراسي من مقاومتها عند وقوف السفن . ولذلك تبقى هذه السفن موقدةً بخارها خوفاً من مفاجأة الرياح الغربية الشديدة المزعجة . فالخطر والحالة هذه عظيم جداً في إنزال الركاب . فبناء مرفإ على الطراز الحديث هو عمل إنساني مفيد . وأول من درس هذا الموضوع الدكتور زامبل ثم أهمل أمره وذلك قبل سنة(١٨٧٥)في الوقت الذي جرى فيه قلع الصخور ونسفها بالمواد النارية . وفي سنة(١٨٨٠)طلب وزير الأشغال في الدولة العثمانية بناء سد في عرض البحر طوله كيلو متر واحد . وقد قدّر نفقات هذا المشروع بأربعة ملايين فرنك. وفي سنة(١٨٩٠) كثر طلب هذا الامتياز ، ومن الطالبين شركة ري بساتين البرتقال في يافا ثم شركة من القسطنطينية وشركة سكة حديد يافا القدس . والظاهر أن فتح مرفإ جديد كبير يتطلب نفقات طائلة لا تكفي تجارة هذه المدينة لتسديد الفوائد الناتجة عن هذه النفقات .

مرفأ حيفا :

تقوم مدينة حيفا على خليج صغير يبعد عن عكا جنوباً ثلاثين كيلو متراً ، وكان نزلها منذ أواخر القرن الماضي نفر من الألمان ، وأسسوا مستعمرات صغيرة ، وأبنية جميلة ، فزادت مكانتها التجارية ، وزادت نفوسها ، ووفرت مرافقها ، والمرفأ الحالي القريب من سهل قيشون وهو بطائح ومستنقعات يتجه نحو الشمال الشرقي في مأمن من الرياح الجنوبية والغربية بجبل الكرمل الذي يمتد داخل البحر من الجنوب إلى الجنوب الغربي وينتهي فيه عمودياً .

ولذلك تبتعد السفن من هذا المرفأ عند اشتداد العواصف في البحر المتوسط إذا تعذر إرساؤها في مرفإ يافا . أما الرياح الشمالية والشمالية الغربية فشديدة جداً في هذا المرفإ ، وعمق الماء فيه لا يتجاوز الخمسة أمتار إلا بعد مسافة كيلو متر واحد في عرض البحر من الساحل كما هي الحالة في جميع السواحل الشامية . ولذلك ترسو السفن الكبيرة في عرض البحر وتفرغ بضاعتها وركابها في الزوارق الصغيرة التي لا تحتاج لعمق عظيم من الماء . وخير طريقة لإنشاء مرفإ مدينة حيفا هو عمل سد في عرض البحر يبتدئ من شمالي المدينة ويتجه من الغرب إلى الشرق بطول كيلو متر ونصف فيبلغ عمق الماء مقداراً كافياً لدخول السفن الكبيرة حتى تقترب من الرصيف فيمكن تفريغها على أيسر وجه ويتأتى ردم البقعة المثلثة التي تحصل بين السد وبين الساحل بحيث تكون صالحة لتوسيع المدينة وزيادة الأرصفة على عمق كافٍ . وقد أصبح دخول السفن إلى المرفإ من المدخل الشرقي سهلاً في كل وقت إذ أضحى المرفأ آمناً من العواصف والرياح الشمالية فعمل كهذا يفيد كل الفائدة خصوصاً ومدينة حيفا متصلة بالداخلية بواسطة الخط الحديدي الحجازي ، ونفقات هذا المشروع باهظة لا يؤمل تسديد فوائدها في بادئ الأمر . وقد فكّر الترك في إنشاء مرفإ حيفا بل أعطوا به امتيازاً تحضيرياً فحالت الحرب العامة دون تحقيق المشروع .

ولما دخل البريطانيون فلسطين رأوا أن إيجاد مرفإ يجب أن يتم في أول فرصة تسنح ، وكان التنافس بين يافا وحيفا لأن بقية المرافئ كغزة وعكا ليست إلا مراسي بسيطة . ويافا وحيفا هما أهم المواني في فلسطين . والقسم الأعظم من البضائع التي ترد إلى فلسطين تأتي عن طريقهما . ففي سنة (١٩٢٥) دخلت المواني الفلسطينية (٢٤٧٢) سفينة حمولتها(١,٨٩٥,٠٤٢) طناً . وقد كان نصيب يافا وحيفا منها ما يأتي : يافا (٧٣٤) سفينة حمولتها (١٦,٤١٤) طناً و (٥٠٤) بواخر حمولتها (١,١٤٣,٤٠٥) أطنان . حيفا (٥٤٢) سفينة حمولتها (٧٥١٢) طناً و(٢٥٠) باخرة حمولتها (٦٨٨,١٣٤) طناً . والناظر إلى الأرقام يرى يافا أولى من حيفا بالمرفإ الحديث . وصقع يافا من أكثر بقاع فلسطين سكاناً وثروةً . ولا ريب في أن مستقبلها زاهر

وفيها عنصر من عناصر ثروة فلسطين وهو البورتقال وهي منفذ القدس إلى البحر . هذه هي كل مزايا يافا . أما عيوبها فضيق مساحتها ورداءة مينائها وتعرضها للرياح بحيث تعطل فيها أعمال الشحن من ٨٠ إلى ١٠٠ يوم في العام . أما حيفا فتعد بالنسبة إلى يافا مدينة جديدةفلم يكن سكانها سنة(١٩٠٤) يزيدون على عشرة آلاف فبلغوا في سنة (٩٢٢) ٢٥ ألفاً وهم اليوم يزيدون على ٣٥ ألفاً . وتعزى هذه الزيادة إلى ازدهار الصناعة في جوارها لاتصالها بدمشق وبجنوب الشام بسكة الحجاز . وميناء حيفا جيد يحميه جبل الكرمل في الجنوب من الرياح ولا ينقطع العمل فيه إلا أياماً معدودة في العام . وأخيراً قررت حكومة فلسطين إنشاء مرفإ في حيفا على الطراز الحديث وأخذت تضع المصورات والتصميمات ووقع اختلاف بين فريقين من المهندسين ففريق يقول بإنشاء المرفإ في شمال حيفا والفريق الآخر يذهب إلى إنشائه في الجنوب . ولا تلبث هذه الاختلافات أن تزول ويخرج هذا المشروع إلى عالم الوجود بما اقترضته الحكومة لهذه الغاية من الأموال الطائلة .

مرفأ عكا :

مدينة عكا مفتاح فلسطين كانت ذات مكانة حربية اعترف بها نابليون وازدادت شأناً منذ فتحت قناة السويس ويرسم خليج عكا قوساً بشكل نصف قطع ناقص محوره الكبير يمر من حيفا ومن عكا . قامت المدينة في شبه جزيرة تمتد من الشمال إلى الجنوب . ولئن كان البحر محفوظاً من الشمال فهو معرض لرياح الجنوب والغرب . والإرساء إذاً بمرفإ حيفا أسهل منه في عكا . أما المرفأ القديم فحالته جيدة لمكان السد الممتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي . وقد امتلأ هذا الحوض بالرمال ولم يبق فيه من العمق سوى مترين فقط . ترسي السفن الكبيرة في عرض البحر ومع ذلك لا تأمن الأخطار في بعض أيام الشتاء والربيع . أما من جهة إنشاء مرفإ جديد في عكا فمما يصعب عمله ، لأن ذلك يقتضي نفقات باهظة لا تتناسب مع تجارة هذه المدينة .

مرفأ صور :

كان مرفأ صور المشهور في العصور الغابرة في جزيرة منفصلة عن الساحل

اتصلت بالأرض بعد أن أنشأ الإسكندر طريقاً بينها وبين الساحل . ثم اتسع هذا الطريق اتساعاً كبيراً بما كان يحمله البحر من الرواسب حتّى أضحت الجزيرة جزءاً من الساحل . ولم يبق في العهد الأخير من المدينة سوى اسمها حتى إن الرحالة المشهور هاسيل كيست السويدي لم ير في المدينة غير عشرة أشخاص في القرن الثامن عشر أي بين سنة (١٧٤٩ و ١٧٥٢) وقد خربت كثيراً بزلزال سنة(١٨٣٧)وبعدئذ ابتدأت تزداد عمراناً ونفوساً . وبالقرب من المدينة وعلى بعد سبعة كيلو مترات من جنوبها خزانات قديمة من عهد الفينيقيين تسمى خزانات رأس العين تسقي المدينة وتروي سهولها حتّى ساحل البحر . ولصور مرفآن الأول الصيداوي يقع إلى الشمال وهو المرفأ الحالي، والثاني المصري وهو إلى الجنوب وهو أكبر من الأول لا يصلح لإرساء السفن لامتلائه بالرمال . ويصلح المرفأ الصيداوي للسفن الصغيرة الحجم ويمكن تعميقه بنفقات قليلة . ولا يتأتى للبواخر الإرساء بالقرب من ساحل البحر . وخط العمق ذو الخمسة أمتار لا يبعد كثيراً عن مدخل المرفإ الصيداوي في حين أن هذا الخط يبتعد كثيراً عن بقية نقاط ساحل هذه المدينة .

مرفأ صيدا :

طمّ الأمير فخر الدين المعني مرفأ صيدا خشية مهاجمة الأسطول العثماني . ولما تولى الحكم أحمد باشا الجزار في عكا وقع بينه وبين القنصل الفرنسي اختلافات عديدة اضطرت الفرنسيس من سكان صيدا أن يتّركوا المدينة سنة (١٧٩٠) بدون أن يتمكنوا من أخذ أموالهم ولم يمض ثمانية أعوام أُخر حتّى أُخرجوا منها مرة ثانية ، ومن ذلك العهد ابتدأ شأنها يتضاءل . ولقد كان لصيدا قديماً مرفآن كمدينة صور ، الأول في الشمال الغربي ، والثاني في الجنوب الغربي . ومرفأ الشمال الغربي هو المرفأ الحالي وهو ذو شكل مستطيل تحده شرقاً قلعة البحر والجسر الموصل بين هذه القلعة وبين الشاطئ . وتحيط بهذا المرفإ من الشمال والغرب سلسلة من الصخور . ومدخله الغربي المنحوت قديماً في الصخر لم يعد صالحاً للاستعمال. أما مدخله الشمالي فهو الذي يصلح وحده لاجتياز السفن ولا يتجاوز عمقه الثلاثة أمتار . فلو نظف هذا المرفأ من الردم

والأنقاض لعاد صالحاً لإرساء البواخر . والسفن الكبيرة ترسي بعيدة عن الشاطئ على مسافة ١٣٠٠ متر . والمرفأ الجنوبي الغربي معرض للرياح الجنوبية الغربية والرواسب المتجمعة من مياه النيل كالمرفإ المصري في مدينة صور .

مرفأ بيروت :

يطلق الإنكليز على خليج بيروت اسم سان جورج وهو يتجه نحو الشمال تأمن فيه السفن من الرياح الجنوبية والشرقية . أما الرياح الشمالية والغربية التي لا تصادف موانع طبيعية فهي تعصف عصفاً عظيماً في الشتاء وتحدث أمواجاً هائلة . وكان الأمير فخر الدين المعني ردم مرفأ بيروت اتقاء مداهمة الأسطول التركي . ولما خلفت السفن البخارية السفن الشراعية رأت البواخر صعوبة جمة في هذا المرفإ وكثيراً ما كانت تضطر للإرساء في عرض البحر كما هي الحالة في بقية سواحل الشام ،ولقد كانت تقضي اليومين والثلاثة لتتمكن من تفريغ شحنها . وكانت العواصف الفجائية الشديدة التي تكثر في السواحل الشامية تضطر السفن إلى الابتعاد عن الشاطئ خوفاً من أن تتحطم بصخوره . وقد استمر الحال على هذه الصورة مدة طويلة . ولم يكن الأمر ذا بال يومئذ لأنه لم يكن لبيروت مكانة في التجارة ولعلة كانت واحدة في جميع السواحل. ولما استفاضت تجارة بيروت وزادت مكانتها بسرعة غريبة وذلك بعد سنة (١٨٤٠)اضطر ولاة الأمر أن يعيروا التفاتهم لمرفئها . ففي سنة(١٨٦٣)تقدمت شركة المساجيري ماريتيم بخارطات لهذا المرفإ لأحمد قيصرلي باشا حاكم مقاطعة صيدا ، وقدرت نفقات هذا العمل بـ ٦,٣٧١,٣٠٠ فرنك . ولم يسفر هذا التذرع عن نتيجة . وفي سنة (١٨٧٩)لم تتوفق بلدية بيروت التي قررت أخذ امتياز هذا المشروع لنفسها ، لأن الحكومة لم تصدق على قرارها . وفي سنة(١٨٨٠)وضع وزير الأشغال في الدولة العثمانية خارطة سنة(١٨٦٣) موضع النظر في تقريره عن الأشغال العامة ، وبالنظر لضرورة هذا المرفإ والمنافع التي ستنجم عنه والاقتصاد الذي يتأتى من تفريغ البضائع فيه تقدم بعضهم للحصول على امتيازه . ففي سنة(١٨٨٣)ظهر ثلاثة طلاب لهذا العمل ، وفي يد كل منهم الشروط الكافية والضمانات اللازمة ، وكان يظن أن شركة

طريق بيروت – دمشق ستتمكن من إجابة طلبها ، ولم تنل هذا الامتياز بل ناله يوسف أفندي مطران بإرادة سلطانية مؤرخة بـ١٩حزيران سنة(١٨٨٧) لمدة ستين سنة تنتهي في ١٩ تموز سنة(١٩٤٧). وقد اشترط على صاحب الامتياز المباشرة بالعمل بعد سنتين وإنجازه في خمس سنوات على أن يكون طول الرصيف١٢٠٠ متر وأن ينشأ سدان كبيران يحيطان بالمرفإ ويبقى بين هذين السدين مدخل في عرض ٢٠٠ متر وعمق ثمانية أمتار وأن تكون مساحة هذا المرفإ السطحية على وجه التقريب ٢٣ هكتاراً ، وقد يتأتى توسيعه في المستقبل .

واحتفظت الحكومة بحق ابتياع هذا المشروع بعد ثلاثين سنة ، واشترط المنشور السلطاني على السفن الداخلة إلى المرفإ أداء رسوم الدخول والرصيف أو دفع نصف الرسوم إذا كانت السفن تدخل المرفأ ولا تقترب من هذا الرصيف. وبعد هذا تم الاتفاق بين شركة طريق دمشق – بيروت وصاحب الامتياز . وفي سنة(١٨٨٨)تألفت الشركة العثمانية للمرفإ والأرصفة والمخازن في بيروت برأس مال خمسة ملايين فرنك تقسم إلى عشرة آلاف سهم باعتبار كل سهم بـ ٥٠٠ فرنك . وكانت هذه الشركة إفرنسية بحتة،فأشاع الإنكليز أن هذا المشروع عقيم جداً لعدم وجود خط حديدي بين بيروت ودمشق ، وأن هذا الخط لا يمكن عمله لشدة الميل في جبل لبنان والجبل الشرقي ولعدم وجود خط حديدي لنقل المحصولات بين المرافئ الشامية وبيروت . وقد بوشر بالأعمال سنة(١٨٨٩) وقامت بإنجازها شركة موزي وطونن ولوزي . واستخرجت مواد البناء اللازمة لهذا المشروع من نهر الموت نقلت على خط حديدي طوله ثلاثة كيلو مترات و ٦٠٠ متر على ساحل البحر وسارت الأعمال إذ ذاك ببطء لمرض العمال بالمرض الوافد . وأضرت الأمطار والسيول فأحدثت خسائر عظيمة . وقد عقد اتفاق جديد بين شركة المرفإ وشركة الخط الحديدي بين بيروت ودمشق وحوران سنة(١٨٩٢)على أن تقرض هذه الشركة الأخيرة خمسة ملايين فرنك بفائدة مقررة لشركة المرفإ . ورهنت هذه الشركة مقابل القرض جميع أبنيتها وأملاكها وآلات المرفإ وأدواته جميعاً. وهنالك شروط أخرى اشترطتها شركة الخطوط على الشركة المدينة ضمانة ، وكانت شركة الخطوط تنشئ يومئذ خطوطها مما وسع

مجال الآمال في نجاح المشروعين معاً. وبعد انتهاء عمل المرفأ سنة (١٨٩٤) ومد الخطوط الحديدية لم تمض مدة وجيزة حتى خابت الآمال وظهر نقص عظيم في تجارة بيروت . وأسباب هذا النقص عديدة ، منها الاختلافات التي وقعت بين شركة المرفإ ووزارة البحرية العثمانية على مسألة دخول البوارج الحربية العثمانية إلى المرفإ ، ومنها الاختلاف بين شركة المرفإ وإدارة الجمارك بشأن رسم الحمالين والمخازن وتعيين حدود منطقة لشركة المرفإ ، ومنها زيادة رسوم الدخول للمرفإ مما دعا إلى تحويل قسم عظيم من الصادرات والواردات إلى بقية المرافئ الشامية القريبة ، ومنها بعد المسافة بين منتهى الخط الحديدي دمشق — بيروت وبين المرفإ .

دُرست مصورات هذا المرفإ سنة (١٨٨٩) على طول كيلو متر واحد من الساحل بين رأس الشامية ورأس المدور فاستطاعوا اقتطاع أرضين واسعة من البحر مما ساعد على إنشاء رصيف يختلف عرضه بين ١٠٠ و ١٥٠ متراً . ويبدأ أحد السدين من رأس الشامية ويمتد في عرض البحر مسافة ٨٠٠ متر . وينتهي آخره بسد صغير عمودي على هذا السد متجه نحو رأس المدور . وأما السد الثاني فيبدأ برأس المدور ويتجه نحو السد الصغير المذكور فيقترب منه على مسافة ٢٠٠ متر . ويرتفع السد الأول وهو الأعظم طولاً وارتفاعاً خمسة أمتار عن سطح البحر . وأما السد الصغير والسد الثاني فيرتفعان مترين عن سطح البحر . وتقدر الزاوية التي تحدث بين السد الأول واستقامة الشاطئ بـ ٤٥ درجة تقريباً ، وأما الزاوية الكائنة بين السد الثاني وذات الاستقامة فتقدر بـ ٦٠ درجة والعمق في منتصف المدخل ١٤ متراً ويتناقص بصورة غير محسوسة من منتهى السد الأول إلى مبدئه أي يتناقص من ١٦ متراً إلى أربعة أمتار ويختلف العمق قرب الرصيف بين ثلاثة وخمسة أمتار . وفي قرب السد الثاني بين ثمانية واثني عشر متراً . حتى لقد تتمكن المراكب الكبيرة من الدخول إلى هذا المرفإ دون أن تستطيع تفريغ شحنها على الرصيف رأساً . ومساحة المرفإ الذي تم عمله ٢٠ هكتاراً لا ٥٣ كما جاء في شروط الامتياز ولا يستوعب سوى ١٢ باخرة كبيرة في آن واحد .

فرضتا جونية وجبيل :

أخذت ترتقي مدينة جونية الواقعة على عشرين كيلو متراً تقريباً من شمال بيروت وقد قامت داخل خليج كبير يصلح ملجأ للمراكب الشراعية بل للسفن الكبيرة أيام اشتداد الأنواء، ولهذه المدينة مرفأ صغير يمكن توسيعه بنفقات قليلة . أما مدينة جبيل فهي في تأخر مستمر ولكنها ذات مكانة أثرية أكثر منها تجارية وما استخرجه علماء الآثار من الغربيين من مطاوي أرضها من العاديات النفيسة دليل على ما كان لها في الأعصر الخالية من المكانة البحرية .

وقد حاول اللبنانيون أواخر الحكم العثماني أن يجعلوا من جونية أو البترون أو غيرهما من المنافذ البحرية في لبنان مرفإ يستغنون به عن بيروت فلم يفلحوا ، لأن ما وراء هذه الموانئ الصغيرة من القرى لا شأن له في استهلاك المتاجر ، ولا اتصال له بمدن كبرى في الداخلية .

مرفأ طرابلس :

إن مرفأ طرابلس غير صالح لإرساء البواخر الضخمة لذلك تبقى فيه بعيدة عن ساحل البحر نحو ١٢٠٠ إلى ٢٠٠٠ متر . وقد بنت شركة الخطوط الحديدية مرفأ صغيراً قرب المحطة محفوظاً من جهة البحر ومدت عليه خطوطها ، وإنشاء مرفأ كبير في طرابلس من المسائل القديمة العهد ، لأن شكل المدينة ملائم كثيراً لهذا العمل لوقوعها على الطريق بين جبال لبنان والعلويين .وتمر من هذه الطريق سكة الحديد التي تصل طرابلس بحمص بصورة سريعة وسهلة مما لا مثيل له في بقية السواحل كبيروت مثلاً لأنها منفصلة عن الداخل بسلسلة جبال شاهقة لا ممر لها إلا من شواهق عظيمة .

تتألف مدينة طرابلس من قسمين الأول المدينة وهي تبعد عن الشاطئ ثلاثة كيلو مترات والميناء وهذا هو مرفأ المدينة . والسهل بين هذين القسمين غير صحي ويتجه مرفأ الميناء نحو الشمال . وهناك جزيرتان صغيرتان تحفظان هذا المرفأ من الرياح الغربية ، والغربية الجنوبية . والسد القديم الممتد من الشرق إلى الغرب يحفظه من الرياح الشمالية أيضاً . فموقع المرفإ إذاً يوافق إرساء السفن في كل وقت وإذا اشتدت الأنواء تجد هذه السفن ملجأ منيعاً

تأوي إليه . أما البواخر والبوارج التي تحتاج لعمق كبير فإنها تضطر للإرساء في عرض البحر بعيدة عن هذا الساحل .

مرفأ اللاذقية :

يقع مرفأ اللاذقية في سهل خصيب على مسافة نصف ساعة من البحر ، وهذا السهل غير صحي ، ويتجه خليج اللاذقية نحو الجنوب فيرسم قوساً في شكل نصف دائرة وهذه القوس تنتهي من جهة الغرب بالرأس المسمى رأس اللاذقية . فمرفأ هذه المدينة معرض للرياح الجنوبية والغربية ، ويتأتى لهذا المرفإ أن يكون ملجأ صالحاً للسفن لو لم يكن مطموراً بالرمال ، وقد ضاق مدخله كثيراً بسبب أنقاض قصر قديم كان مشيداً هناك ، فالسفن العظيمة ترسو في عرض البحر والصغيرة التي لا تتجاوز حمولتها الـ ٣٠٠ أو الـ ٣٥٠ طناً تدخل المرفأ بسهولة وسط أعمدة من الرخام والمحبّب من أطلال الآثار الغابرة. ولا يتأتى إنشاء فرضة لمدينة اللاذقية على طراز حديث بالفائدة المتوخاة لأن عملاً كهذا يتطلب نفقات باهظة ، فالرسوم التي يقتضي وضعها واستيفاؤها لتسديد فوائد تلك النفقات تكون سبباً لتحويل قسم عظيم من تجارة هذه المدينة إلى المدن المجاورة لها . وعلى هذا فبناء المرفإ يأتي بنقص كبير في تجارة المدينة ويؤدي إلى عكس الفائدة المطلوبة . وكانت الحكومة العثمانية وضعت مصوراً بهذا المشروع وعاضدها نفر كبير من الأهالي . ونرى أن إنشاء طريق بين اللاذقية وحماة أجزل فائدة من إنشاء مرفإ اللاذقية .

مرفأ الإسكندرونة :

تُضرب الأمثال بقذارة مدينة الإسكندرونة ومع هذا فقد اتخذت هذه المدينة منذ القرن السابع عشر قاعدة ومرفأ لتجارة حلب وما جاورها من البلدان وذلك لاستبداد بعض حكام طرابلس في ذلك العصر ، وليست مدينة إسكندرونة بالبلد الزراعي ولا الصناعي ويعيش الأهلون من نقل البضائع .

يدخل خليج الإسكندرونة في اليابسة ثلاثين ميلاً في عرض عشرين ميلاً وموقعه الجغرافي يدعو إلى تأسيس مرفإ بحري يكون من أعظم مرافئ البحر

المتوسط . فللإسكندرونة بموقعها محسنات عظيمة ومهما اشتدت الرياح الهوج في عرض البحر فالأمواج فيها خفيفة ثم إن الرياح الغربية قليلة الهبوب لمكان الجبال المرتفعة التي تعارض هبوبها . وشكل الأرض في قاع البحر ملائم لأن الخطوط المنحنية التي تمر من عمق ثلاثة وأربعة وخمسة أمتار تحت سطح البحر يتباعد بعضها عن بعض بميل خفيف لذلك تصلح لتوسيع أرض المرفإ . وتكفي المسافة بين المنحني المرسوم من عمق ٥ إلى ١٥ لإنشاء عامة لوازم المرفإ بأحسن الشروط . ومواد البناء قريبة وكثيرة في أطراف المدينة . وفي مقالع الإسكندرونة كمية عظيمة من الأحجار الصالحة لبناء الأحواض في البحر ، والمدينة قابلة بأيسر الأسباب أن تصبح من كبريات المدن، ويصلح الجبل المجاور لها لتأسيس مصايف جميلة، وهناك عيون كثيرة تفيض ثرة ويقل مثيلها في غيرها من المصايف الجميلة .

والإسكندرونة هي المرفأ الوحيد لمدينة حلب ، انطاكية ، كليس ، عينتاب ، مرعش ، أورفة ، البيرة ، ديار بكر . ولجميع مدن شمال الجزيرة حتى مدينة الموصل . وهذا المرفأ أكبر مرفإ في الشام لأنه يمكنه إرساء البواخر والأساطيل الضخمة . وكان وزير الأشغال العثمانية قدّم تقريراً لإصلاح هذا المرفإ وإنشائه ، وقدّر النفقات بمليوني فرنك ذهبي . على أن عمل مرفإ في الإسكندرونة يقتضي إنجازه وتجفيف المستنقعات المحيطة بالمدينة معاً وكان قدّر هذا الوزير نفقات هذا العمل أي تجفيف المستنقعات المذكورة بنصف مليون فرنك ذهبي .

لا يفيد إنشاء مرفإ عظيم مجهز بأحدث الآلات في مدينة الإسكندرونة الفائدة المطلوبة إلا بربطه بخط حديدي كثير الحركة يمكن بواسطته الاتصال مع الداخل الواسع إلى ديار بكر فالموصل فبغداد فإيران . ولذلك اقتضى أن يكون هذا المرفأ هو الطريق الطبيعي للتجارة مع أوربا والبحر المتوسط . ويقوم الخط الحديدي الذي أنشأته شركة سكة حديد بغداد بين الإسكندرونة وطوبراق قلعة المتصل بالخط الأساسي بتسهيل المواصلات مع قليقية . وستتحول تجارة هذه الديار عن مرسين للإسكندرونة إذا جهزت هذه المدينة بفرضتها البحرية الحديثة . وستظل المواصلات مع حلب وما وراءها صعبة لأن عمل

سكة حديد بين الإسكندرونة وحلب عن أقرب طريق يقتضي له المرور من أعالي جبل أمانوس وجعل الميل شديداً على مسافة طويلة . وإذا أُريد تخفيف الميل يقتضي إطالة مدى الطريق فلا تختلف إذ ذاك المسافة بين الإسكندرونة وحلب في هذا الطريق الجديد عن طريق طرابلس حمص حلب من حيث المسافة عدا أن هذا أسهل من الأول . بقيت هناك طريقة أُخرى للقيام بهذا المشروع وهي خرق الجبال التي تفصل بين الإسكندرونة وحلب بنفق لا يقل طوله عن عشرة كيلو مترات تحت مضيق مدينة بيلان،وهذا يستلزم نفقات كثيرة ربما زادت على الفائدة المطلوبة ألا وهي ربط حلب وضواحيها بالساحل البحري عن أقرب طريق . أما إذا نظرنا إلى الإسكندرونة بصفتها مرفأ خاصاً لحلب فقط بل كما ذكرنا أعلاه للعراق وإيران فتكون النفقة حينئذ متناسبة مع عظمة المشروع .

الخطوط الحديدية :

لقيت شبكة الخطوط الحديدية الشامية بأسرها صعوبات جمة فلم يتيسر إكثار عددها واتساع نطاقها . فسلسلة جبال لبنان تقضي باستعمال الخطوط المسننة . وهبوط أراضي الغور التي تنحدر بصورة شديدة تقرب من الشاقولية وتجعل منها حفرةً عميقة تمنع سهولة المواصلات بين الساحل وشرقي نهر الأردن . فهذه الموانع الطبيعية في صورة الجبال اضطرت القائمين بأعمال هذه الخطوط أن يعمدوا إلى الخطوط الضيقة ذات الميل الشديد ، مما أدى إلى كثرة النفقات في الإنشاء وزيادة المنفق على الاستثمار . فالخطوط الحديدية في الشام التي تمكنا من الحصول على بعض الوثائق عنها وعن نبذة من تاريخها والشؤون المتعلقة بها هي على الصورة الآتية :

أولاً : طريق بيروت — دمشق ، وبيروت — المعاملتين ، ودمشق — المزيريب ، ورياق — حلب ، وحمص — طرابلس .

خط بيروت — دمشق :

لما كثرت حركة التجارة والنقل على طريق بيروت لم تعد تكفي المركبات

(الكارات) ولا الحوافل (الدبليجانس) مع ما هي عليه من الانتظام والسرعة فدعت الضرورة إلى إنشاء سكة حديد بين هاتين المدينتين ، ولكن مشروعاً كهذا يصعب تنفيذه لأنه تفصل دمشق عن بيروت سلسلتان من الجبال الشاهقة لبنان الغربي ولبنان الشرقي وذلك بصورة متعامدة على الخط الواصل بين المدينتين . وترتفع هذه الجبال عن سطح البحر إلى ١٤٠٠ أو ١٥٠٠ متر على الأقل وبينهما سهل البقاع الذي يرتفع هو أيضاً من ٨٠٠ إلى ١٠٠٠ متر عن سطح البحر فيظهر مما تقدم شدة الصعوبات الكثيرة التي تعترض سير الخط قبل وصوله إلى دمشق المرتفعة ٦٩٠ متراً عن سطح البحر إذ يقتضي على هذا الخط قطع هذه العوارض والسهول .

وفي حزيران سنة(١٨٩١)استحصل السيد حسن بيهم أمراً سلطانياً بامتياز خط حديدي بين دمشق وبيروت . وفي هذا الامتياز رخصة باستعمال بعض الأرضين مجاناً ، وإعفاء جميع مواد البناء اللازمة من رسوم المكوس والضرائب بأنواعها . واشتُرط على صاحب الامتياز استعمال اللغة التركية وحدها ، واستخدام الرعية العثمانية ، وتنظر المحاكم العثمانية في كل اختلاف يحدث خلال العمل . والحكومة العثمانية تحتفظ لنفسها بحق شراء هذا المشروع بعد ثلاثين سنة ، ودفع ثمنه أقساطاً على أن لا تكون قيمة القسط أقل من خمسين بالمائة من وسطي الواردات غير الصافية للخمس سنوات الأخيرة ، كما أوجبت على صاحب الامتياز أن يؤسس شركة مساهمة عثمانية خلال ستة أشهر ، وأن يتفق مع شركة طريق بيروت — دمشق للتخلي عن حقوقها وأن يدفع عربوناً للحكومة مقابل هذا الامتياز . وفي العشر سنوات الأولى من مدة الامتياز يرجح صاحبه على سواه لإنشاء تراموای على مسافة ثلاثة كيلو مترات من طرفي الخط الحديدي أو تأسيس إدارة لتسيير عجلات أو سيارات بين محطات الخط الحديدي والبلدان القريبة من هذا الخط .

وفي ١٨ نيسان سنة(١٧٩٠)حصل يوسف أفندي مطران على امتياز خط حديدي بين دمشق وحوران . ولما لم يقم بتقديم مصورات المشروع خلال المدة المعينة سقط حقه من ذلك الامتياز . غير أنه استعاده بعدئذٍ وأسس شركة

بلجيكية باسم شركة ترامواي دمشق وخط دمشق – حوران برأسمال قدره أربعة ملايين فرنك ذهبي تقسم على ثمانية آلاف سهم . سعر كل سهم منها ٥٠٠ فرنك . ومن جهة أخرى فإن الشركة التي أُسست للحصول على الامتياز الممنوح للسيد حسن بيهم سميت باسم الشركة المساهمة العثمانية لخط بيروت – دمشق الاقتصادي . وقد رأت هاتان الشركتان من الضرورة الماسة أن تندمجا معاً ولا سيما لما أحرزت شركة إنكليزية امتياز خط حيفا – دمشق وذلك دفعاً للخطر المحتمل حدوثه من هذا الامتياز الأخير . وقد طلبتا الموافقة على ذلك الاندماج من الحكومة العثمانية فقبلت بذلك بالمرسوم السلطاني المؤرخ في ٢٢ تشرين الثاني سنة(١٨٩١) الذي مدّد مدة امتياز هاتين الشركتين إلى ٩٩ سنة اعتباراً من٣ حزيران سنة(١٨٩١). وعلى هذه الصورة جعلت مدة الشركتين واحدة . وسميت الشركة الجديدة باسم شركة الخطوط الحديدية العثمانية الاقتصادية لبيروت – دمشق – حوران في سورية . واعتبر تأسيسها نهائياً في صورة عثمانية اعتباراً من٤ حزيران سنة(١٨٩٢) . وقد باعت شركة طريق بيروت – دمشق جميع حقوقها المحررة بالمرسوم السلطاني المؤرخ بـ ٢٠ تموز سنة(١٨٥٧)من هذه الشركة الجديدة . وذلك بتاريخ ٢ كانون الثاني سنة(١٨٩٢)وقد خُصص لكل ذي سهم واحد في شركة الطريق سهمان في شركة الخطوط . واستحصلت شركة المرفإ على مقعدين في مجلس إدارة شركة الخطوط للمنافع المتبادلة بين الشركتين . وصدرت إرادة سلطانية في ٢٥ تموز سنة(١٨٩٢)بتمديد ٤٩ سنة مدة امتياز شركة المرفإ وذلك لجعل مدة الشركات الثلاث متساوية . ولم تمض مدة قليلة حتى تبدل اسم الشركة للمرة الثالثة (١٨٩٣) والسبب في ذلك أن يوسف أفندي مطران صاحب امتياز خط دمشق – حوران قد حصل على امتياز جديد خط دمشق – حمص – حماة – حلب – البيرة (بيره جك) . وعرض على الشركة هذا الامتياز الذي كانت تحلم به فصدرت إرادة سلطانية في٣٠ أيار (١٨٩٣) تمنح يوسف أفندي مطران إنشاء الخط المذكور واستثماره لمدة ٩٩ سنة . وعلى ذلك أصبح اسم الشركة الشركة المساهمة العثمانية لخطوط بيروت – دمشق – حوران – البيرة وجُعلت مدتها ٩٩ سنة تنتهي في حزيران(١٩٩٢)وجرى افتتاح خط بيروت – دمشق

في ٣ آب (١٨٩٥) .

هذا الخط هو من الخطوط الضيقة عرضه متر وخمسة سانتيمترات . وهو يقطع جبال لبنان بواسطة الخطوط المسننة على مسافة ٣٤ كيلو متراً ، وطوله ١٤٧ كيلو متراً أما ميله فيصل إلى سبعة بالمائة أحياناً ، ويحتوي على أربعة أنفاق لا يتجاوز أطولها ٣٥٠ متراً فاستعمال الخطوط المسننة قد أبطأ سير القطارات إبطاءً غريباً ، مما جعل السرعة الوسطية لا تتجاوز الـ ١٦ كيلو متراً في الساعة ، ويقطع قطار الركاب المسافة بين بيروت — دمشق في تسع ساعات ، وتجتاز قطارات الشحن المسافة عينها في ١١ ساعة في حين أن الحوافل كانت تجتاز هذه المسافة أيضاً بـ ١٣ ساعة . وخط بيروت — دمشق يربح نفقات الاستثمار مع فائدة رأس المال .

وإليك جدولاً يحتوي أسماء المحطات ومقدار المسافات مع ارتفاع هذه الخطوط عن سطح البحر .

أسماء المحطات	المسافات كيلومتر	الارتفاعات متر
بيروت	٠	٠
الحدث	٧	١٥٠
بعبدا	٩	٢٤٢
جمهور	١٢	٣٨٠
عاريا	١٧	٣٨٠
عاليه	٢١	٧٥٠
بحمدون	٢٧	٧٥٠
عين صوفر	٣١	١٢٩٥
« رأس جبل لبنان »		١٤٨٧
المريجات	٤٤	١١٥٠
الجديدة	٤٧	٩٥٠
المعلقة	٥٦	٩٥٠

أسماء المحطات	المسافات كيلومتر	الارتفاعات متر
« سهل البقاع »		٩٠٠
رياق	٦٦	٩٠٠
يحفوفا	٧٨	١٣٢٨
« رأس جبل لبنان الغربي »		١٤٠٥
سرغايا	٨٧	١٣٧٠
الزبداني	٩٨	١٢١٣
سوق وادي بردى	١١٥	١٢١٣
دير قانون	١١٩	١٢١٣
عين الفيجة	١٢٣	١٢١٣
الجديدة	١٣٠	١٢١٣
الهامة	١٣٤	٧٤٠
دمر	١٣٧	٧٢٥
دمشق — برامكة	١٤٤	٦٩٠
دمشق الميدان	١٤٧	٦٩٠

خط بيروت — المعاملتين :

يسير هذا الخط الحديدي على شاطئ البحر ويمر بطريقه على بعض قرى الساحل وأهمها بلدة جونية ، وكان القصد من إنشائه وصل مدينة طرابلس ببيروت ولكنه لم يتم منه سوى ١٩ كيلومتراً عند قرية المعاملتين وهو ملك لشركة الترامواي اللبناني .

خط دمشق — حوران :

جرى إنشاء خط دمشق — حوران باهتمام وسرعة زائدة وقد تم سنة (١٨٩٣) وبوشر باستثماره في أواسط سنة (١٨٩٤) ، ولم يصادف صعوبة عظيمة في إنشائه فال ١٠٣ كيلو مترات المتألف منها هذا الخط تمر في سهل خفيف التموج بين دمشق — المزيريب والميل الأعظم فيه لا يتجاوز الاثنين بالمئة ،

وهو من الخطوط الضيقة كخط بيروت ـ دمشق أي في عرض متر وخمسة سنتيمترات .

وكان لا يحصل إلا على نفقات الاستثمار فقط أي إنه كان لا يؤدي فوائد رؤوس الأموال . ومن العوامل التي دعت إلى عدم نجاحه بُعد مرفإ بيروت عن منتهى الخط الحديدي مسافة ٢٤٠٠ متر ولكن شركة الخطوط الحديدية اتفقت مع شركة المرفإ وشركة الترامواي اللبناني على وصل الخطوط بأرصفة المرفإ (٤ شباط ١٨٩٧) وجرى بالفعل ذلك الوصل وبوشر باستثماره في سنة(١٩٠٣) ويبلغ طول هذا القسم ٢٢٠٠ متر وهو أيضاً من الخطوط الضيقة وقد كلف عمله جهوداً عظيمة ونفقات باهظة ـ أما سكة دمشق ـ المزيريب فقد اقتلعت خطوطها أثناء الحرب العامة لاستعمال قضبانها في إنشاء الخطوط الفلسطينية العسكرية. ولذلك أصبح هذا الخط من الخطوط التاريخية لأنه لم يجر إرجاعه إلى ما كان عليه حتى إن الشركة الفرنسية صاحبته لا تفكر بإرجاعه على ما نظن ، بعد أن وضعت يدها على إدارة الخط الحجازي. ولا يعقل بقاء خطين متوازيين في منطقة واحدة .

خط دمشق ـ حلب :

كتب وزير الأشغال العامة في الدولة العثمانية في تقريره سنة(١٨٨٠)لوصل مدينة حلب بديار بكر بخط حديدي ماراً بالبيرة وأورفة . وكتب المهندس برسيل أيضاً في تخطيط الطريق الحديدي ما يقرب مما ارتآه الوزير العثماني على أن يكون الخط في طول ٤٢٠ وفي عرض ١,٤٤ أي من الخطوط الاعتيادية . وفي تقرير الوزير العثماني أيضاً خط حديدي يبتدئ من حلب إلى حماة فحمص فدمشق فحوران . وكان قدّر نفقات كل كيلو متر واحد إذ ذاك بـ ١٣٠ ألف فرنك ، وطلبت امتياز هذا الخط شركة الباتينيول وأرسلت مهندسيها لوضع التصميمات اللازمة له . وفي سنة(١٨٩٢)طلبت شركة عثمانية مؤلفة من أعضاء مسلمين امتياز هذا الخط من وزارة الحربية وذلك لإنشاء خط عسكري بدون ضمانة كيلومترية . ولكن صدرت الإرادة السلطانية بتاريخ ٣١ أيار(١٨٩٣)بإعطاء الامتياز ليوسف أفندي مطران وكيل الشركة

الفرنسية لخط بيروت – دمشق – حوران. وقد ذكر بصراحة في أول مادة لهذه المقاولة أن القصد من عمل هذا الخط عسكري بحت . وعلى صاحب الامتياز أن يسير حسب ما قررته وزارة الحربية من التخطيط وأن ضابطاً من أركان الحرب سيقوم بدرس هذا المشروع مع اللجنة المخصصة لدرسه . وجُعلت مدة الامتياز ٩٩ سنة على أن يكون عرض الخط اعتيادياً (١,٤٤) وأن يكون مفرداً ويضاف إليه خط ثان في المستقبل . وفي الامتياز شروط أخرى تُذكر عادةً في المقاولات من هذا النوع ، كإعفاء المحروقات وأدوات الخط جميعها من المكوس ووضع عربون في خزينة الدولة مقداره ٢٢٥ ألف فرنك ، وأنه يحق للدولة اشتراء هذا الخط ودفع ثمنه أقساطاً على ألا تكون قيمة القسط أقل من خمسين بالمئة من متوسط الواردات غير الصافية للخمس سنوات الأخيرة وألا يكون المبلغ المدفوع أقل من سبعة آلاف فرنك عن كل كيلومتر واحد . وقد ذكر أيضاً أربعة شروط أخرى ذات مكانة عظيمة نذكرها فيما يلي :

(١ً) أن الشركة قد حصلت على حق استثمار المعادن الواقعة في طرفي الخط على مسافة ٢٠ كيلومتراً من الجانبين .

(٢ً) حصلت الشركة على ضمانة كيلومترية مضمونة بأعشار البلدان التي يمر منها هذا الخط . وهذا عكس جميع الخطوط الشامية . وألا تكون هذه الضمانة أقل من سبعة بالمئة من رأس المال الموضوع للتأسيس وألا تكون أكثر من١٢,٥٠٠ فرنك عن كل كيلومتر واحد .

وبما أن هذا الخط الذي أُخذ امتيازه ولم يجر إنشاؤه يبلغ طوله أكثر من ٥٠٠ كيلو متر فأعظم ضمانة يقتضى على الحكومة العثمانية دفعها تتجاوز السبعة ملايين و ٢٥٠ ألف فرنك ولما كانت النقليات قليلة على بعض نقاط هذا الخط فستضطر الحكومة لدفع هذا المبلغ برمته تقريباً .

(٣ً) يحق للشركة أن تمدد خطوطها إلى الشمال لنقطة واقعة بين البيرة حتى تتمكن من وصلها بخط بغداد (المادة ٣) .

(٤ً) تُرجح الشركة على سواها للحصول على امتيازات جميع الخطوط التي تقرر الحكومة تمديدها بين الخط الأساسي والسواحل الشامية

بشروط متساوية(المادة ٣٥). وأخيراً وضع وزير المالية مبلغ مليون و ٨٠٠ ألف فرنك بين يدي اللجنة الدولية للديون العامة لتأمين الضمانة الكيلومترية . وكان ذلك في سنة(١٨٩٦) . وفي ١٢ تشرين الأول (١٨٩٦) اتفقت الشركة والحكومة العثمانية على تأجيل إنشاء هذا الخط خمس سنوات . وتعهدت الحكومة بدفع تقسيط سنوي مقداره ٣٣ ألف ليرة عثمانية ذهباً أي ٧٥٠ ألف فرنك إلى الشركة مقابل العطل الذي يصيبها من هذا التأجيل .

ومع هذا لم يتم إنشاء هذا الخط إلا لمدينة حلب فقط وجرى عمله على قسمين : الأول رياق – حماة . والثاني حماة – حلب . وطول القسم الأول وهو خط رياق – حماة ١٨٩ كيلومتراً بوشر باستثماره سنة(١٩٠٢)وعرضه متر وأربعة وأربعون سانتيمتراً ونصف ، وميله الأعظم اثنا عشر بالألف ، وفي رياق مخزن كبير للفحم ، ومعمل لإصلاح أدوات الخطوط والقاطرات ويعلو هذا الخط في بعلبك ١١٢٠ متراً عن سطح البحر . ثم يهبط إلى حماة المرتفعة ٣٠٧ أمتار . أما القسم الثاني وهو خط حماة – حلب فيبلغ طوله ١٤٣ كيلومتراً جرى استثماره سنة(١٩٠٦) وعرضه متر وأربعة وأربعون سانتيمتراً ونصف ، وميله الأعظم اثنان في المئة . وقد كان القصد تمديده إلى البيرة كما تقدم ولكن إعطاء امتياز خط بغداد إلى الشركة الأناضولية حال دون تمديده إلى الشمال .

خط حمص – طرابلس :

طول هذا الخط ١٠٢ كيلومترين ، وقد شرع باستثماره سنة (١٩١١) ، وعرضه متر وأربعة وأربعون سانتيمتراً ونصف ، وميله الأعظم اثنان بالمئة، واقتلعت قضبانه أثناء الحرب الكونية العامة واستعملت في تمديد خط بغداد – نصيبين ، وخربت كثير من المحطات وبعض الجسور خلال هذه الحرب ، وأعيد الخط إلى ما كان عليه قبلاً سنة(١٩٢١)وبلغت إعادته واحداً وعشرين مليون فرنك . وقد بلغت نفقات استثمار خطوط شركة دمشق – حماة وتمديداتها عن سنة (١٩٢٦) ، ٣٤,٧٥٩,١٤٢ فرنكاً والواردات ٥٧,٧٥٩,٣٢٥ .

طريق الحج وإنشاء الخط الحجازي :

كان المسلمون يلاقون صعوبات ومشقات في ذهابهم وإيابهم إلى الأرض المقدسة لأداء فريضة الحج كل سنة ، فكان يستغرق سفر الحاج الشامي أربعين يوماً من دمشق إلى المدينة المنورة وعشرة أيام من المدينة إلى مكة المكرمة . خمسون يوماً يقضيها الحاج بين دمشق والمدينة فمكة وعشرون يوماً على الأقل يمضيها في القيام بالمناسك وزيارة قبر النبي المعظم صلى الله عليه وسلم ويقضي خمسين يوماً في عودته . فهذه أربعة أشهر كاملة للحج الشامي . أما التركي والإيراني وغيرهما من أهالي الممالك الإسلامية النائية فقد كان يحول الحول على أحدهم دون الوصول إلى بغيته . وناهيك بما يعترض الحاج من مشاق الأسفار وأهوالها وما يضطر لصرفه من النفقات الباهظة في هذه السبيل . وكان كثير من الأغنياء يتقاعسون عن القيام بهذه الفريضة لعدم توفر الوسائط اللازمة لراحتهم . فمد خط حديدي إلى الديار المقدسة كان من الضرورة بمكان .

كان الحجاج المسلمون يأتون ألوفاً من الأقطار الإسلامية إلى دمشق ويجتمعون فيها انتظاراً لسفر موكب الحج،وكان يتألف هذا الموكب في دمشق ويسير منها متجهاً نحو الحجاز تحت إدارة حاكم يلقب بأمير الحج . إن قافلة كهذه يصعب جداً سيرها بدون انتظام شديد وكانت تتألف من مشاة وفرسان وهجانة وحمّارة يقدر عددها بعشرة آلاف نسمة وعشرين ألف دابة على الأقل . ولذلك كانت طاعة أمير الحج واجبة على الحجاج ليسهل عليهم قطع هذه الطريق المملوءة بالأخطار والمصاعب دون أن يتركوا أحداً على الطريق أو أسيراً بين أيدي البدو . وكان هؤلاء يثورون على الحكومة من وقت إلى آخر ، وبواسطة الهدايا التي كان يرسلها السلطان لقبائل البدو والعطايا التي يمنّ بها على شيوخهم كانت أطراف دمشق آمنة سالمة ، وكان لا يخشى وقوع حوادث بالقرب منها ، ولذلك كانت القافلة غير آمنة إلا بجوار بلدة المزيريب في حوران .

وفي العادة أن يرحل أمير الحج من دمشق في الخامس من شهر شوال في

ركب مؤلف من جيش صغير مجهز بالأسلحة الكاملة والمدافع الصغيرة ويتبعه الحجاج زرافات ووحداناً . والدمشقيون يقومون بتشييعهم إلى قبر أحمد باشا في الميدان أي إلى جامع العسالي ، وتجري المراسم العسكرية والاحتفالات تكريماً لهذا الموكب العظيم ، وكانت الحكومة في دمشق تهتم بتشييعه ، ويسير الموظفون وأصحاب الرتب العالية بألبستهم الرسمية أمام المحمل الشريف تحيط بهم صفوف الجند وهجانة البدو حتى نهاية طريق الميدان ، وكانت الموسيقى تصدح أثناء الموكب والمدافع تطلق حين خروجه وعند وصوله إلى القدم والكل فرحون مسرورون من هذا اليوم العظيم .

وبعد ذلك يسير الركب من القدم إلى الكسوة وهناك يجد ماءً صالحاً للشرب ثم يسير إلى المزيريب فيبقى فيها أربعة أو خمسة أيام وعندئذ يتألف الركب عسكرياً وعلى رأسه أمير الحج فيسير قسم من الجيش في المقدمة والقسم الآخر يقوم بحفظ جناحي الركب . وفي كل صباح ومساء تطلق ثلاث طلقات نارية إعلاماً بوقت المسير والوقوف وكثيراً ما كان يبلغ طول هذا الركب ثلاثة أو أربعة كيلو مترات . وأما الدرب الذي كان يسير عليه فهو عبارة عن عدة طرق صغيرة حفرتها أيدي الإبل والدواب طول السنين ولا يوجد طريق مرسوم على الطريقة الفنية الحديثة المعروفة اليوم . وكانت المسافة بين دمشق ومكة المكرمة تقدر بأربعمائة وتسعين ساعة وبأربعين مرحلة منها ٩٠ ساعة من المزيريب إلى معان .

ويجتاز الركب من المزيريب إلى المفرق وعين الزرقاء والبلقاء والقطرانة وهنا تشتد صعوبة الدرب ويدب الرعب والخوف في قلوب الحجاج ذلك لأنه كانت المضايق غاصة بعصابات من اللصوص ، والماء المشروب قليل . وكثيراً ما كانت السيول تجرف الركب بأجمعه فلا ينجو منه إلا الحجاج فقط ، فإذا بلغ الركب مدينة معان يستريح فيها قليلاً ويتابع سيره فيقطع العقبات المؤدية إلى النفود ، ويبعد هذا المضيق الصعب ثلاث عشرة ساعة عن معان ، وعندئذ يترجل الحجاج عن دوابهم ويسيرون مشاةً أمام أمير الحج الذي يصعد على رأس جبل صغير ويجلس مشاهداً الجموع تمر أمامه ، وبعد ذلك يسير لا يشاهد في طريقه سوى رمال سهل النفود القاحل حتى مدائن صالح .

وكثيراً ما يشاهد الحجاج سراب هذه الرمال الجميلة عن بعد . ففي هذه الطريق الصعبة وبين هذه الرمال المحرقة يسرع الركب تخلصاً من النصب والتعب ، فيوزع أمير الحج على الحجاج المياه للشرب مجاناً ويستأجر مئات من الجمال لتقوم بهذا العمل الخيري ، وكل ذلك لم يكن يجدي نفعاً . ولطالما حدثت اختلافات بين الأمير والبدو فتقع المصيبة على رأس الحجاج والركب معاً على ما جرى ذلك كثيراً فيملأ الرعب قلوب الحجاج طول الطريق يتحدثون بما وقع في السنين الماضية من الحوادث ويعلم بعضهم بعضاً بمحالها ومواقعها ويذكرون ما كان يتبعها من أعمال السلب والنهب .

إن مدائن صالح أخف صعوبة من الأرجاء التي قبلها وأقل خطراً منها . وفيها كثير من الآثار القديمة النبطية . ومنها يسير الركب إلى المدينة المنورة وبعدها إلى مكة المكرمة وأكثر الأراضي الحجازية مؤلفة من جبال وأودية وقليل من الواحات فطريق الركب طريق صعبة ، وفيها آبار متقطعة وليست بجيدة . وهناك أيضاً درب آخر يقال له الدرب السلطاني وهو الدرب الأقصر طولاً والأشد خطراً . فالحجاج يعرضون عنه حينما تبلغهم ثورة البدو على الحكومة . هكذا كانت حالة الطريق المؤدية إلى الأرض المقدسة وهذه هي المشقات التي كان يلاقيها الحجاج في طريقهم .

إنشاء الخط الحجازي :

وهذا ما دعا الحكومة العثمانية إلى اتخاذ التدابير اللازمة لإزالة هذه الصعوبات والحيلولة دون الأسباب التي كانت تقلق راحتها في الداخل وتظهرها بمظهر العاجز في الخارج أمام دول الغرب . وكان السلطان عبد الحميد الثاني حريصاً على توسيع نفوذه المعنوي في جميع الممالك الإسلامية خدمة للإسلام وتوصلاً لغاياته السياسية لذلك فقد قرر (سنة ١٩٠٠) مد خط حديدي يصل الشام بالحجاز ويسهل السفر على الحجاج ويأتي الدولة والولايات بالفوائد المادية والمعنوية . على أن هذه الفكرة لم تكن بنت وقتها وليست وليدة رأس عبد الحميد فقد سبقه إليها الدكتور زامبل الأميركي الألماني الأصل فاقترح سنة (١٨٦٤) على الحكومة العثمانية مد خط حديدي بين دمشق وساحل البحر الأحمر .

وفي سنة(١٨٨٠)صحت عزيمة وزير الأشغال العامة في الأستانة على تمديد هذا الخط إلى الأراضي المقدسة . ولكن أكثر المهندسين والجغرافيين كانوا يقولون بتعذر تنفيذ هذا المشروع . لأن الأصقاع التي يجتازها الخط ينزلها قبائل من البدو الرحالة الذين اعتادوا السلب والنهب . وسهولة المواصلات بالوسائط البحرية ورخصها أكثر من البر . وقالوا إن الربح الذي يحصل من نقل الحجاج أثناء الموسم لا يكفي للقيام بجميع النفقات السنوية لهذا الخط العظيم . ولكن كانت هذه الصعوبة في نظر السلطان عبد الحميد أخف مما يُتصور . فإدارة الحج ونفقات السفر كانت تستنزف من موازنة الحكومة مبلغ ١٥٠ ألف ليرة عثمانية على الأقل . والهدايا التي ترسل إلى البدو تقوّم بـ ٦٠ ألف ليرة عثمانية . وكان السلطان عبد الحميد يأمل من جهة أخرى وصول مبالغ عظيمة من الأمم الإسلامية إعانة لهذا المشروع الإسلامي ولم تبدأ الحكومة بالعمل إلا بعد أن أعلنت عزمها على ذلك في جميع الأقطار الإسلامية مما هو داخل تحت سيطرتها أو خارج عنها . وأبانوا ما ينتج عن ذلك من التسهيل لرواد الحج واستمطرت أكف المسلمين تعضيداً لهذا المشروع الديني المحض. فتحقق أمل السلطان وبدأت الاكتتابات ترد من البلدان الإسلامية وقد افتتح هو نفسه هذه الاكتتابات بـ ٣٢٠ ألف ليرة عثمانية ، وتابعه في ذلك الملوك والأمراء المسلمون . فشاه العجم أرسل ٥٠ ألف ليرة عثمانية وخديوي مصر تعهد بإرسال كمية عظيمة من مواد البناء والإنشاء . وألفت الجمعيات في الممالك الإسلامية الخارجة عن حدود الدولة العثمانية لجمع الأموال ، فألف الهنود ١٦٦ جمعية وأهالي لكنو وحدهم أرسلوا ٣٢ ألف ليرة عثمانية وكذلك أهالي رانكون ومدراس أرسلوا ٧٣ ألف ليرة ، وأرسل الميرزا علي أحد أغنياء كلكوتا خمسة آلاف ليرة وأرسل مدير جريدة الوطن في لاهور ٥٠٠٠ ليرة وذلك من الاكتتاب الذي فتحه في جريدته واشترك فيه الهنود والترانسفاليون والصينيون . ولم تنقطع الإعانات مدة إنشاء الخط مما دل على سريان روح التضامن في الشعوب الإسلامية .

والأغرب من هذا أن أحد النمسويين دفع ٢١٠٠ ليرة عثمانية ليحصل على لقب (باشا). وقد جعلت شارات وأوسمة لمن يدفع الإعانات . فالدرجة

الثالثة لمن يدفع من اﻟ ٥ ليرات إلى ٥٠ ليرة . والدرجة الثانية لمن يدفع من الـ ٥٠ إلى ١٠٠ ليرة . والدرجة الأولى لمن يدفع أكثر من ١٠٠ ليرة ذهبية . وهذه الطريقة كانت نافعة لولا أن هذه الرتب والأوسمة كانت تباع في الأستانة بأقل مما تتقاضاه دوائر الخط الحجازي . ثم وضعت بعض الضرائب لإعانة الخط ونزل الموظفون عن راتب شهر كامل في بادئ الأمر ثم أكره الموظفون على دفع عشر وأُتبهم الشهري في السنة مرة واحدة . وأحدثت طوابع الخط الحجازي وبعض الضرائب الجمركية كما جمعت إدارة الخط جلود الأضاحي من الناس تبيعها وترتفق بثمنها . مما دعا قنصل إنكلترا إلى أن يصرح سنة(١٩٠٤)قائلاً : يظهر لي أن احتمال إكمال الخط الحجازي هو أعظم مما كنت أتصور قبل سنة أو سنتين . والحقيقة أن أكثر الناس كانوا إذ ذاك وخصوصاً المطلعين على هذا الأمر يظنون أن عملاً كهذا هو أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة . وإذا لم يتم هذا المشروع إلى مكة المكرمة ووقف عند المدينة المنورة فذلك لم يكن منبعثاً من قلة المال لأن المال أصبح وافراً بعدما كان يخشى من قلته ويظهر ذلك من الاطلاع على موارد هذا المشروع . فالإخصائيون لا يظنون الآن أن النفقات العامة تتجاوز ١٢٥ مليون فرنك أي خمسة ملايين ونصف ليرة عثمانية . في حين أنه كان يظهر في بادئ الأمر أن هذا المبلغ هو الحد الأصغر لهذا العمل . فقد جمع من الإعانات في الممالك الإسلامية ٧٥٠ ألف ليرة عثمانية أي ١٧ مليون فرنك . والضرائب التي وضعت تضمن مورداً قدره ٢٥٠ ألف ليرة سنوياً . فهذا المبلغ يسد نفقات الإنشاء . والإعانات تساعد على شراء المواد اللازمة اهـ .

وفي الواقع أنه لم يكن أحد يتصور أن النتيجة ستكون قريبة التناول بهذه الصورة وأن العمل سيتم على هذه السرعة وهذا النظام لطول المسافة ، وفقدان المياه ، ووعورة المسالك ، وفقر الدولة وضعفها الإداري ، ولكن المشيئة الإلهية قد ذللت كل هذه الصعاب ووفقت في إنجازه ليكون نقطة اتصال بين الأقطار وخير واسطة لتوفير راحة الحجاج وتسهيل مسالك الحج والزيارة .

كان استعمال الإعانات منظماً تنظيماً حسناً . وقد وزعت الأجور على العمال والرواتب على الموظفين بصورة منظمة ، ودفع ثمن الأدوات ومواد

الإنشاء في الحال ، مما دعا الناس أن يؤمنوا بإنجاز هذا المشروع . وكان سير العمل سريعاً يمدون مائة كيلو متر في العام . وكان أحد المقربين من السلطان عبد الحميد أحمد عزت العابد يدير مع لجنة الحجاز الأموال على طريقة غير مرضية فتسربت الأموال إلى جيوب الخونة . وأدى سوء الاستعمال في مواد الإنشاء لإضاعة كثير منها . وكان هؤلاء المقربون يحمون بعض رجالهم الذين يتقدمون في صورة ملتزمين وينقدونهم الأموال الزائدة ويعينون بعضهم في وظائف الإدارة .

شرع بإنشاء الخط الحجازي في شهر أيلول سنة(١٩٠٠) مبتدئاً به من المزيريب،وبين دمشق وهذه القرية سكة حديد إفرنسية يمكن نقل الحجاج من الشام إلى المزيريب عليها لا سيما وأن امتياز هذه السكة لا يجيز إنشاء سكة أخرى تحاذيها . وما كادت الحكومة تمضي في عملها حتى بدأت المنافسة تشتد بين الإدارتين فشعرت الحكومة العثمانية حينئذ بشدة الحاجة إلى اتصال الخط الحجازي بمدينة دمشق . وقررت إنشاء خط درعا ــ دمشق وبوشر بالعمل من دمشق والمزيريب دفعةً واحدة . وفي سنة(١٨٩٣)نالت الشركة الفرنسية امتيازها ولم يكن السلطان عبد الحميد يفكر في خطه المقدس ، ولذلك كان سمح لها بإنشاء سكة حديد بين دمشق والمزيريب وبوشر باستثمارها منذ سنة(١٨٩٤)فإنشاء سكة حديدية موازية لخطها من دمشق إلى درعا يجعل المنافسة على أشدها ولذلك احتجت الشركة على هذا العمل فتمكنت من نيل امتياز خط حلب مع الضمانة الكيلومترية وذلك في شباط سنة(١٩٠٥) .

وقد افتتح القسم الأول من الخط الحجازي أي دمشق ــ درعا في أيلول ١٩٠٣ وبعد ذلك بشهر واحد افتتح قسم درعا ــ عمان وتيسر لإدارة السكة الحجازية في أقل من ثلاث سنين مد ٢٢٣ كيلو متراً .

يتجه الخط الحديدي الحجازي بعد خروجه من واحة دمشق نحو الجنوب الشرقي في استقامة سهل حوران فيمر بالمسمية أهم قرى اللجاة،ثم يقطع هذا الخط سهل حوران الخصيب برمته وهو يمتد إلى سفح جبل الدروز ويصل إلى محطة درعا الواقعة في وسط السهل وهي على ١٢٣ كيلومتراً عن دمشق، ومن درعا يتفرع فرع حيفا متجهاً صوب الغرب فيصل البحر ، وأما الخط

الأساسي فيبقى مستمراً في طريقه نحو الجنوب .

من أهم الفوائد التي جنيت من امتداد هذا الخط أن كثيراً من البدو سكنوا تلك الربوع بالقرب من مخافر الجنود العثمانية وامتلك عدد عظيم من مهاجري الشركس الذين كانوا تائهين في شمالي الشام بعض الأراضي هناك وأسسوا القرى والمزارع فيها . وكل هذا العمل لم يكلف أموالاً باهظة بالنسبة لغيره من المشاريع . وكانت القاطرات في نهاية سنة(١٩٠٣) تسير إلى مسافة ٣٠٠ كيلو متر من دمشق وبلغت أكلاف الكيلو متر الوسطي حينئذ ٢٠٠٠ ليرة عثمانية ذهبية . ولما بدأت المنافسة بين السكة الحجازية والسكة الفرنسية شعر السلطان عبد الحميد ومهندسوه بشدة الحاجة إلى اتصال الخط الحجازي بمرفإ بحري يستمد منه لوازمه وأدواته ويكون منفذاً للأقطار الواسعة التي سيمتد فيها فقرر إنشاء خط حديدي جديد بين حيفا ودرعا .

والناظر إلى مصور القطر يرى لأول نظرة مكانة خليج عكا فسلسلة الجبال الممتدة من مصب نهر العاصي إلى ترعة السويس وهي بمثابة سد عظيم بين الساحل والداخل وليس فيها سوى بعض منحدرات كسهل طرابلس وبيروت ومصب الليطاني أي القاسمية وخليج عكا . وأعظم هذه المنحدرات وأهمها الانخفاض الواقع قرب عكا . إن سلسلتي لبنان الغربي والشرقي المتوازيتين تحولان لارتفاعهما دون المواصلات مع الداخل . وبالطريق الفنية اتصلت دمشق ببيروت وهكذا الشأن في الانخفاض في جوار بحيرة لوط فإنه يعوق المواصلات مع الداخل أيضاً . فلم يبق إذاً سوى سهل عكا الذي يسهل المرور منه إلى الداخل . ولذلك كانت عكا وحيفا في العصور القديمة والقرون الوسطى حتى القرن التاسع عشر مرفأين طبيعيين لحوران ودمشق . وقد رأى كثير ممن يعنيهم الأمر وصل دمشق وحيفا بخط حديدي لسهولة هذا الطريق كما بيناه آنفاً . وكان الإنكليز أشد الناس رغبة بنيل امتياز هذا الخط وخصوصاً بعد احتلالهم جزيرة قبرس . وقد تمكن أبناء سرسق من استصدار منشور سلطاني يمنحهم حق إنشاء خط حديدي بين عكا — دمشق . ولكنهم لم ينجحوا في عملهم لتعذر معاونة أرباب الأموال في إنكلترا . فخسروا العربون الذي دفعوه إلى خزينة الدولة وقدره خمسون ألف فرنك .

وفي سنة(١٨٨٩)طلب رأس المهندسين في لبنان هذا الامتياز مجدداً مع تمديد الخطوط إلى حوران فلم يفلح أيضاً . وقد انقضت المدة ولم يُعمل عمل بهذا الشأن إلى أن نال الامتياز المهندس اللبناني والمستر بيللنغ الإنكليزي وأسسا شركة الخطوط الحديدية العثمانية في الشام برأس مال قدره ٦٠٠ ألف ليرة إنكليزية . وبوشر بالعمل سنة(١٨٩٢) ثم وقفت الأعمال بعد الكيلومتر التاسع لأن أفكار أرباب الأموال من الإنكليز كانت متجهة نحو معادن الذهب . فجاءت حرب الترنسفال وانصرفت أفكار الإنكليز إليها وأدى ذلك إلى ترك العمل .

ولما قرر السلطان عبد الحميد وصل الخط الحجازي بمرفإ حيفا رأى من الضرورة استرجاع هذا الامتياز وذلك في تشرين الثاني سنة(١٩٠٢). وتمكن مهندسو عبد الحميد من عمل خط حيفا والخط الحجازي بعد استلامهم الأعمال التي تركها الإنكليز . بيد أنهم لم يتخذوا الخط الإنكليزي أساساً لهم بل تركوه وشأنه وجعلوا خطهم الجديد خطاً ضيقاً كالخط الحجازي وتمكنوا من الوصول إلى درعا نقطة اتصال هذين الخطين بأقل من ثلاث سنوات بالرغم مما اعترضهم من الصعوبات العظيمة أثناء عملهم . وقد كلف هذا الخط من سبعة إلى ثمانية أضعاف المعدل المتوسط لنفقات الخط الحجازي . وحقاً إن هذا القسم كان أهم قسم من الخط الحجازي وأحسنه من الوجهة الفنية إذ كانت تتخلله صعوبات فنية لا توجد في سواه .

ويبتدئ هذا الخط من حيفا على ساحل البحر فيرتفع ٨٠ متراً في مرج ابن عامر بعد سير ٤٠ كيلو متراً ، ثم يهبط من أعلى هذا السهل إلى أسفل وادي الشريعة ليمر فوق جسر ينخفض ٢٤٦ متراً عن سطح البحر . وذلك بعد قطع مسافة ٤٥ كيلومتراً ثم يعود فيصعد من جديد إلى ارتفاع ٣٧٦ متراً وذلك بعد مسافة ٤٠ كيلومتراً ، ثم يصل إلى سهل درعا المرتفع ٥٣٠ متراً عن سطح البحر . فكل هذه التموجات من الصعود والهبوط قد اقتضى قطعها مسافة ١٦٨ كيلومتراً . فالقضية صعبة بنفسها وخصوصاً ان وادي اليرموك الواقع في الجهة الشرقية من نهر الشريعة كان شديد الخطر وليس من ممر سواه في تلك البقاع . وبذلك تمكن السلطان عبد الحميد ومهندسوه

من الخلاص من شركة بيروت – دمشق – حوران وأصبح لهم مرفأ خاص وهو حيفا التي أصبحت تبعد عن درعا ٣٢٣ كيلومتراً بالقطار . وبين درعا وحيفا ستة جسور حديدية اثنان منها بطول ٥٠ متراً والأربعة الأخرى بطول ١١٠ أمتار . ويوجد سبعة أنفاق يختلف طولها بين الـ ٤٠ والـ ١٧٠ متراً . والخط يقطع نهر الشريعة على جسر من الحجر جميل المنظر والصنع طوله ٦٠ متراً وهو ذو خمس قناطر .

وفي الوقت الذي نجز فيه خط حيفا – درعا تم القسم الثالث من الخط الحجازي الواقع بين عمان – معان . ففي أول أيلول سنة(١٩٠٤)المصادف للعيد الثامن والعشرين من الجلوس السلطاني ذهب وفد برئاسة طرخان باشا وزير الخارجية العثمانية للاحتفال بافتتاح الخط الحجازي بين دمشق ومعان وطول هذا القسم ٤٥٩ كيلو متراً . وكان هذا الوفد مؤلفاً من عظماء رجال الدولة العثمانية .

يسير الخط الأساسي بعد محطة درعا نحو الجنوب الشرقي ثم نحو الجنوب مباشرة فيمر من سهل قاحل تنزل فيه عشيرة بني صخر المؤلفة من ٢٠٠٠ بيت و ٢٠ ألف نسمة وبعد أن يقطع « الحماد » أي السهل المنبسط يمر بالقرب من أطلال الحصون الرومانية القديمة التي يسميها العرب اليوم قلعة المفرق وقلعة السمرة .

وتظل بقايا مدينة جرش القديمة وآثارها وسورها في غربي الخط الحجازي. وهذه الآثار أعظم ما في تلك البقاع . وفي القرب من قلعة الزرقاء الرومانية يقطع الخط وادي نهر الزرقاء على جسر مرتفع جميل الصنع . ثم يصعد الخط في وادي نهر الزرقاء ويصل إلى عمان بالقرب من نبع هذا النهر وذلك بارتفاع ٧٣٧ متراً عن سطح البحر وعلى ٢٢٣ كيلو متراً عن دمشق .

وبعد الخروج من عمان يتجه الخط نحو الجنوب صاعداً سهل الصحراء المائل فيمر من نفق طوله ١٤٠ متراً ويترك بجانبه كثيراً من الآثار القديمة منها المعبد اليوناني في قصر السهل . والمدينة القديمة في لُبّن وكذلك الخزان الروماني والقصر العربي في الجيزة أو قلعة الزيزاء . وقبل أن يصل الخط إلى قلعة ضبعة يميل نحو الشرق ويلتف بأطراف وادي الموجب وبعد ذلك يتجه

أيضاً نحو الجنوب فيمر من خان الزبيب وقلعة القطرانة وقلعة الحسا وجروف الدراويش وفيها قصر روماني بديع .ويجتاز بقلعة عنزه وتقطن فيها أحياناً قبيلة عنزة المؤلفة من ٧٠٠٠ نسمة . وبعد قلعة الحسا تبدأ الأرضون التي تنزل فيها قبيلة الحويطات . ثم يصل الخط إلى معان المرتفعة ١٠٧٤ متراً عن سطح البحر . وهذه المدينة هي النقطة الوسطى للخط الحجازي ، لأنها تبعد عن طرفيه على أبعاد متساوية والمحطة تبعد كيلومترين عن مدينة معان ، وفي هذه المحطة أبنية عديدة للسكة الحجازية . وبفضل وصول الخط الحديدي إلى تلك البقاع استتب الأمن فيها وبدأت الحياة الزراعية تظهر شيئاً فشيئاً . وقد تحضر قسم من البدو وأصبحت تلك الديار في قبضة الحكومة العثمانية بعد أن كانت تابعة لها بالاسم فقط بحيث أن أحد شيوخ البدو المدعو محمد جهل كتب إلى بيير لوتي الكاتب الفرنسي المشهور سنة ١٨٩٤ « بسم الله الذي هو الكل ولا باسم سلطان القسطنطينية الذي ليس بشيء » .

وكان قصد القائمين بهذا المشروع الجليل إنشاء فرع للخط بين مدينة معان والعقبة لتقريب المواصلات بين البحر الأحمر والديار المصرية من جهة وبين الخط الحجازي من جهة أخرى ،ولكنهم لم يرغبوا يومئذ في صرف جهودهم في غير الخط الأساسي لأن غايتهم كانت الوصول إلى الأرض المقدسة في أقرب وقت .

يتجه الخط بعد معان نحو الجنوب الشرقي فتلتف حوله الصحراء من جديد ويبتعد عن البحر الأحمر ثم يصعد العقبة الحجازية أو الشامية المرتفعة ١١٥٠ متراً عن سطح البحر . وهذه النقطة هي المفرق الطبيعي للمياه التي تسيل إلى البحر المتوسط والبحر الأحمر . ثم يهبط الخط نحو ملعب بطن الغول المحفور في الصخور الرملية ذات الألوان العديدة المختلفة . وهذه البقعة من أجمل البقاع الطبيعية . وقد يضع السكان هذه الرمال الملونة في القوارير ويبيعونها من الحجاج تذكاراً لهذه البقاع .وبعد ذلك يصل الخط إلى محطة المدورة فتنتهي حدود قبيلة الحويطات ، وتبتدئ منازل قبيلة بني عطية . وكان وصول هذا الخط إلى هذه البلدة سنة ١٩٠٦ وهي تبعد ١١٤ كيلو متراً عن معان . وكان

قسم من الخط أيضاً على وشك الإنجاز بين المدورة وتبوك وهو على مسافة ١١٧ كيلو. متراً وفي ١ أيلول سنة ١٩٠٧ تم القسم الرابع من الخط الحجازي وهو القسم الواقع بين معان وتبوك الذي يبلغ طوله ٣٣١ كيلو متراً فبوشر باستثماره .

وقد جرى في التاريخ نفسه الاحتفال بافتتاح قسم جديد بين تبوك ومدائن صالح التي تبعد ٩٥٥ كيلو متراً عن دمشق . وفي هذا القسم جسر حجري ذو عشرين قنطرة يبلغ طوله ١٤٣ متراً. وكانت الأرضون فيه قاحلة ولكنها سهلة وأقل عوارض طبيعية من غيرها وكان يكفي أن توضع القضب الحديدية على الأرض حتى يصلح السير عليها وذلك على مسافة كيلو مترات كثيرة . وبعد مدائن صالح يصل الخط إلى العلا التي تبعد ٩٨٠ كيلو متراً عن دمشق . والعلا مدينة صغيرة يقطنها قوم من الزراع يقدر عدده من ثلاثة آلاف إلى أربعة وتقع في واحة جميلة . ويسير الخط بينها وبين المدينة المنورة على طريق القوافل لأن المياه كثيرة في هذه الطريق وبمرور الخط في سهل وادي العلا وهو يرتفع ٧٩٠ متراً عن سطح البحر وذلك بين الزمرد والبئر الجديدة ثم يهبط إلى بلدة الهدية المرتفعة ٣٤٥ متراً عن سطح البحر وهي التي كان يؤمها سابقاً حجاج إفريقية من مرفإ الوجه على شاطئ البحر الأحمر . وبعد الهدية يصعد الخط إلى إصطبل عنتر وبئر عثمان ومنهما إلى المدينة المنورة التي ترتفع ٧٠٠ متر عن سطح البحر وتبعد ١٣٢٠ كيلو متراً عن دمشق . وقد وصل أول قطار إلى المدينة المنورة في ٢٢ آب سنة ١٩٠٨ وجرى الاحتفال في أول أيلول المصادف ليوم عيد الجلوس السلطاني : وجرى فيه أيضاً افتتاح المحطة التي شيدت خارج أبواب المدينة وقد أُنيرت المحطة بمصابيح الكهرباء . وكان سرور أهاليها عظيماً جداً حتى حملوا على أكتافهم المشير كاظم باشا رئيس هذه الحفلة مع رئيس المهندسين مختار بك . وقد طلب أهالي المدينة إعادة هذه الأفراح والأعياد بمناسبة وضع أول حجر لبناء جامع الحميدية قرب هذه المحطة . وعلى ذلك فقد أُعيد الاحتفال بحضور ثلاثين ألف شخص . ودُعي لهذه الحفلة ممثلو الصحف الأجنبية وكثير من الأجانب مما لم يسبق له نظير في الاحتفالات الماضية وقد جرى هذا بمناسبة الانقلاب السياسي في الاستانة .

ولما كان القصد من إنشاء الخط الحجازي خدمة الحجاج وتسهيل المواصلات بين الحجاز وبقية العمالات العثمانية اقتضى الوصول به إلى عاصمة الإسلام مكة المكرمة ومد فروع منه إلى جدة وبعض الولايات العثمانية الأخرى تتميماً للفائدة ، وكانت الحكومة مصممة على ذلك . وبإعلان الحكم الدستوري وخلع السلطان عبد الحميد الثاني موجد هذه الفكرة ومؤسس هذا العمل الكبير ، توقف ورود الإعانات من الأقطار الإسلامية فحالت هذه الأسباب دون الوصول إلى هذه الأمنية وأخرت إتمام هذا المشروع العظيم .

وحاولت بعد ذلك حكومة الاتحاديين أن تواصل العمل فلم توفق فأعادت الكرة قبل إعلان الحرب العامة بيسير وأرسلت من القضب الحديدية والآلات والأدوات اللازمة الشيء الكثير ، وكادت إدارة الخط تبدأ بالعمل فأعلنت الحرب العامة وصرفت الوجوه عن جميع أعمال الإصلاح ومنها هذا العمل الجليل . وكل هذا لا يحول دون البحث عن الطريق المناسب لمد الخط الحديدي بين المدينة المنورة ومكة المكرمة ، عسى أن تنهض البلاد العربية من كبوتها فيقوم أبناؤها بإتمام هذا المشروع الحيوي .

الطرق الممتدة بين المدينة المنورة ومكة المكرمة التي يصلح السير عليها ثلاث أو اثنتان إذا اعتبرنا الثالثة فرعاً للثانية . فالطريق الأول هو الطريق الشرقي الذي يصل المدينة المنورة بمكة المكرمة رأساً وهو يبعد ١٥٠ كيلو متراً عن شاطئ البحر الأحمر ويمر من أعالي الجبال بين موانع عديدة يصعب سير الدواب المحملة عليها ،ولذلك فإن قوافل الحجاج لا ترغب في المسير عليها وإن كانت أقصر الطرق . وأما الطريق الثانية فهي السلطاني الذي ينخفض من المدينة المنورة نحو ساحل البحر الأحمر إلى مرفإ رابغ ومنه يعود فيصعد إلى مكة المكرمة . وهناك طريق آخر بين المدينة ورابغ ينقص طوله ٦٠ كيلو متراً عن الطريق السلطاني ويسمى الطريق الفرعي لأنه لم يخرج عن كونه قسماً من الطريق الثانية .

تفضل قوافل الحجاج السير على الطريق السلطاني لمكانته الرسمية والتاريخية ولسهولة المواصلات عليه ، وعلى هذا فالخط الحديدي المنوي إنشاؤه بين المدينتين المقدستين لا يصلح عمله إلا بالقرب من الطريق السلطاني وعلى طوله مرفأ

رابغ الذي يقع على شاطئ البحر الأحمر يسكنه ٣٠٠٠ نسمة وهو على مسافة ١١٢ كيلو متراً من شمالي جُدّة . وليس ثمة من صعوبة في إنشاء هذا الخط لعدم وجود موانع طبيعية كما أن المياه غزيرة على طول الطريق على العكس في الطريق الشرقية .

بقي مبدأ الخط الحجازي حتى سنة ١٩٠٨ في منتهى محلة الميدان بدمشق بالقرب من قرية القدم . وقد بُنيت بعد هذا التاريخ محطة القنوات الواقعة في غرب مدينة دمشق على طراز عربي حديث وبشكل جميل يناسب عظمة هذا الخط المقدس . وبالقرب من محطة القدم معمل كبير خُصص لإصلاح القاطرات والشاحنات وصب الآلات الحديدية وأعمال النجارة والتدهين والأبنية الخاصة بالمعمل والمخازن تشغل سطحاً من الأرض تبلغ مساحته ١٠,٦٠٠ متر مربع . وقد بلغت نفقات إنشاء هذه الأبنية مليون فرنك . وبُنيت في محيط تبلغ مساحته ٥٣ ألف متر مربع . أنيرت جميع هذه الأبنية مع الساحة بالأنوار الكهربائية .

الخط الحجازي في عهد العثمانيين وبعدهم :

كان الخط في عهد الدولة العثمانية يدار في جميع أدواره بموازنة مستقلة عن موازنة الحكومة باعتبار أنه وقف إسلامي . وكان في البدء مرتبطاً بلجنة عليا في الاستانة يرجع إليها في شؤونه العامة ، ثم طرأت على إدارته طوارئ عديدة غيرت من أوضاعه على ما عرضنا لذلك سابقاً ، ثم استقر مرتبطاً بإدارة الأوقاف . أما حالته بعد انسحاب الدولة العثمانية من الشام ودخول جيوش الحلفاء فإنه كان تام الأجزاء من حيث وضعه الأساسي ولم يطرأ عليه الخراب سوى في الجهات البعيدة بعض البعد عن العمران . ويمكن اعتبار مبدإ التخريب من بعد المحطات التي تلي محطة عمان جنوباً على أن هذا التخريب يكاد ينحصر في الجسور والمحطات والمصانع والمستودعات وغير ذلك من المباني والمحال التي كان يسهل نسفها . أما القضب الحديدية فظلت سليمة بالجملة ما خلا نقاطاً قليلة يسهل إصلاحها وتشييدها .

هكذا كانت حالة هذا الخط عند دخول الحلفاء الشام، وأما حالته من حيث

الآلات والأدوات ومعامله وقاطراته ومركباته وشاحناته وغير ذلك من لوازم التعمير ووسائط سيره فقد بلغت من الجودة درجة يندر وجود نظيرها لدى أغنى الشركات في الأقطار التي خاضت الحرب العامة طول هذه المدة .

وإليك مقادير الآلات والأدوات الخاصة بقسم السير والجر وهي ١٢٠ قاطرة بخارية و ١٢٠٠ شاحنة و ١٠٠ مركبة ركاب من صنوف مختلفة و ٢٠ شاحنة بريد . عدا ما هنالك من عدد كبير من شاحنات الماء (الصهاريج) وأشياء فنية كثيرة ، وأما المعامل فمنها ما كان في القَدَم جنوبي دمشق وهو معمل مجهز بأحدث الآلات الفنية وكذلك مستودع صغير للمرمات . وفي درعا مصنع صغير ومستودع وفي سمخ مستودع وفي عمان مستودع وفي معان مستودع ومصنع مختصر وفي تبوك مستودع وفي مدائن صالح مستودع ومصنع صغير وفي المدينة المنورة مستودع وفي حيفا مستودع ومصنع صغير .

تقسيم الخط الحديدي الحجازي :

قسم الخط في بدء الاحتلال ثلاثة أقسام : استولت بريطانيا العظمى على قسم فلسطين وسلمته إلى إدارة الخطوط بفلسطين . واستلمت الحكومة العربية الفيصلية قسم سورية، وأما القسم الثالث فقسم الحجاز أطول مسافات الخط وهو قسم غير مثمر لوقوعه في البادية ولخراب جسوره وأكثر محطاته . وقد قسمت أيضاً المعامل الصناعية والآلات والأدوات الفنية إلى ثلاثة أقسام وكان أهل كل قسم من هذه الأقسام إذا وقعوا في منطقتهم على شيء أو ظفروا بشيء وضعوا أيديهم عليه . فالمصانع التي كانت داخل المنطقة الشرقية الفيصلية بقيت لحكومتها ومثلها المعامل الصناعية في فلسطين والحجاز . ورجع ما في فلسطين لحكومة فلسطين وسلمته هذه إلى شركة الخطوط بفلسطين . وما في الحجاز إلى حكومة الحجاز . وكذلك القاطرات والشاحنات والمركبات وشاحنات البريد وسائر اللوازم فقد قسمت على الطريقة عينها ولكن كان حظ الحجاز منها قليلاً جداً، فإن جميع ما بقي على الخطوط ووضع اليد عليه لا يتجاوز عدد الأصابع وأكثره مخرب لأنه كان طوال هذه المدة عرضة لهجمات الثائرين . وكذلك الشاحنات والعربات وشاحنات البريد فإن عددها لا يكاد

يذكر بالنسبة إلى ما استولت عليه فلسطين وسورية . في حين أن أكثر الخط ممتد في أرض الحجاز .

وقد جرى إصلاح الخط على عهد الحكومة العربية بصورة سطحية وعلى أثر هذا الترميم وصل القطار من المدينة المنورة إلى دمشق في أواخر سنة ١٩١٩ وهي أول مرة دخلها بعد الحرب العامة ولم يتيسر تسيير القطارات بانتظام كما كانت تسير قبلاً لعدم إتمام العمائر بصورة فنية تبعث على الطمأنينة ولعدم وجود رأس مال كافٍ لهذه الغاية . وبقي الحال على هذا المنوال حتّى سقوط الحكومة الفيصلية في سورية ودخول الجيش الفرنسي إليها . ولما دخل الفرنسيون دمشق في تموز ١٩٢٠ تركوا إدارة الخط تسير على ما كانت عليه في عهد الحكومة العربية حتّى آذار سنة ١٩٢٤ وأُحيلت إدارته إلى شركة دمشق — حماة وتمديداتها الفرنسية .

الخط الحجازي في شرقي الأردن والحكومة الهاشمية :

يبتدئ هذا الخط في هذه المنطقة من محطة نصيب وينتهي بمعان وكانت من عمل الحجاز وهي على ٣٢٣ كيلو متراً ، وكان في هذه المنطقة مستودعات عديدة وفيها الشيء الكثير من آلات الخط وأدواته وقد سلمتها جميعها حكومة شرقي الأردن إلى إدارة خطوط فلسطين مقابل مقاولة معقودة بينهما .

ولقد أراد الملك حسين تعمير الخط الحجازي ليتسنى له استثماره ويصل مملكته بمملكة ولده الأمير عبد الله فأصدر أمره خلال سنة ١٩٢٢ بتأليف لجنة يعهد إليها النظر في شؤون الخط وترميمه فألفت لجنة للقيام بهذه المهمة في شرقي الأردن وأرسل إليها الملك حسين أربعة آلاف جنيه مصري للترميمات الضرورية فقط . فقررت المباشرة بإصلاح الجسور والمنافذ وفرضت إعانات تقطع من رواتب الموظفين وكذلك من واردات الطوابع الحجازية التي تستوفى داخل المنطقة فبلغ مجموع ما دخل عليها من هذه الموارد خلال مدة التعمير أربعة آلاف جنيه والمجموع ثمانية آلاف جنيه مصري في حين أن الترميمات والإصلاحات الضرورية لا تتم بأقل من ١٠٠ ألف جنيه ليمكن إعادة الخط سيرته الأولى .

وقد أتمت اللجنة إنشاء الخط حتى المدينة المنورة على صورة موقتة لقلة الأموال التي تمكنت من جمعها وبدأ سير الخط رسمياً . ونقل خلال استثماره في تلك الحقبة القليلة أكثر من أربعة آلاف زائر إلى المدينة المنورة ذهاباً وإياباً وبلغت واردات الخط من الزوار والنقليات التجارية أربعين ألف جنيه .

الخط الحجازي في المؤتمرات :

عقدت معاهدة لوزان بين تركيا والحلفاء في سنة ١٩٢٣ ولم يقرر المؤتمر شيئاً في مصير الخط الحجازي لأن الفرنسيين والإنكليز كانوا متفقين على تأليف لجنة إدارية عليا من المسلمين يكون مقرها المدينة المنورة تنظر في شؤون الخط وتسعى لإصلاحه . ولقد نصت المعاهدة التي عقدت بين تركيا والحلفاء في لوزان سنة ١٩٢٣ على عقد مؤتمر في الاستانة مؤلف من ممثلي الدول التي انفصلت عن تركيا ومن ممثلي مجلس الديون العامة لمعرفة واردات تلك الدول . وفي عام ١٩٢٤ عقد هذا المؤتمر فكان فيه مندوبون عن المناطق المنفصلة عن تركيا . وعند تعيين مقادير الواردات والتقاسيط السنوية تقرر تقسيم الخط الحجازي وتجزئته واعتبار كل قسم ملكاً للمناطق التي يجتازها هذا الخط . وقد ثبت الحكم المعين وفقاً لقرار جمعية الأمم في جلساته الحكمية في جنيف مبدأ اعتبار واردات الخط الحديدي الحجازي على النسبة الكيلومترية لا على نسبة ما تستفيده كل مقاطعة من الخط الذي يمر منها .

وتقضي المادة ١١٨ من معاهدة لوزان بعقد مؤتمر في باريز بعد مرور شهر من صدور حكم الحكم الذي عهدت إليه جمعية الأمم النظر والحكم في اعتراضات الدول ذات العلاقة بالديون العثمانية العامة . وقد ضربت الحكومة الفرنسية موعداً لعقد هذا المؤتمر في أول تموز سنة ١٩٢٥ بباريز دعت إليه جميع الدول ذات العلاقة بالديون ودعيت الحكومة الحجازية لإرسال مندوب عنها في شهود هذا المؤتمر فأجابت الدعوى ولكن لتحتج على ما لحق بالمملكة الحجازية من الحيف .

وبعد إلحاق معان والعقبة بشرقي الأردن (١٩٢٥) تسلمت إدارة خطوط فلسطين الخط الحجازي الجنوبي حتى المدوّرة في الكيلو متر ٥٧٧ وبما أن

طول الخط الأصلي من دمشق إلى المدينة المنورة عبارة عن ١٣٠٧ كيلو مترات فيكون ما تناط إدارته من هذا الخط بالحكومة الحجازية الحاضرة ٧٣٠ كيلو متراً .

نفقات الخط الحجازي وإصلاحه :

بلغت نفقات الخط الأصلي وفروعه حتى سنة ١٩١٨ وهي السنة التي خرجت الدولة العثمانية فيها من الشام ١٢,٣٩٨,٥٠٠ ليرة عثمانية ذهباً . فهذه القيمة قليلة جداً بالنسبة لطول الخط وللبوادي الشاسعة القاحلة التي قطعها . ولولا أن الحكومة العثمانية كانت تستخدم الجنود بأجور زهيدة للغاية لما تيسر لها إنشاء هذا الخط ولكانت اضطرت لإنفاق ضعفي هذا المبلغ على أقل تقدير . والحق يقال إن هذا الخط مدين بإنشائه للجنود العثمانية التي بذلت في سبيله الجهود العظيمة ، بل النفوس الكريمة ، وعدا ذلك فإن المبيعات المحلية والنقليات على اختلاف أنواعها جرت بصورة معتدلة للغاية . وكان معظم الناس يعتقدون ، وهم على صواب في اعتقادهم ، أن تقديم الإعانات إلى الخط وبذل المعاونات في سبيله من أعظم القربات . وبدافع هذه الثقة قدم كثيرون أشياء ثمينة ذات قيم كبيرة كالأخشاب والأحجار والأرضين . فلا بدع إذا قلنا إن هذا الخط ثمرة جهود الأمة الإسلامية ، ومأثرة غراء من مآثرها الخالدة في هذا العصر ، عصر النور والعرفان .

وخلاصة القول أن إصلاح هذا الخط أمر ضروري حيوي بالنسبة للأقطار العربية لما له من العلاقة بها كلها . فمن الواجب على الحكومات العربية أن تسعى كل السعي لإرجاع الخط إلى حالته الأولى ، وتعمل في سبيل تحسين شؤونه أكثر من قبل . وهذا الإصلاح لا يتم إلا بإيصال هذا الخط إلى مكة المكرمة عاصمة الإسلام ، وبربطه بخطوط فرعية مع السواحل كمكة المكرمة بجدة والمدينة المنورة بينبع ومعان بالعقبة فيصبح بهذه الفروع الممتدة إلى سواحل البحر الأحمر والبحر المتوسط من أكبر العوامل لإنعاش التجارة في الأرض التي يمر بها ، ويتسع نطاق العمران والتحضير في الصحاري والسهول العربية . ومن جهة أخرى يضمن بهذه الطريقة أيضاً نقل الفحم الضروري لاستثمار

الخط على أيسر وجه وبأقل كلفة . وقضية الفحم قضية ذات شأن في حياة الخط ، وكان يبلغ ما يستهلكه من الفحم الحجري نحو ٣٠,٠٠٠ طن في السنة ولا يبعد أن يأتي يوم تمكن فيه الاستفادة من شلالات زيزون وتل شهاب لتوليد الكهرباء فتسير القطارات حينئذ بهذه القوة فتقل نفقات الخط السنوية وتصبح الأجور أقل مما هي عليه الآن فتكثر المواد . وما ذلك اليوم ببعيد إن شاء الله .

تفتقر الأقطار العربية إلى رجال فن وأرباب صنائع إخصائيين يعول عليهم في تسيير شؤونها الفنية . وهي لا تنقص فيها المقدرة والاستعداد للقيام بأصعب الأمور إذا قيض الله لها من أبنائها من يرشدها ويحسن إدارتها . ولقد برهنت على ذلك في كثير من أدوار تاريخها المجيد ، وخصوصاً بما قامت به أخيراً من الأعمال أثناء إنشاء الخط الحجازي ، وما بذلته من الجهود في سبيله حتى لقد صرح مدير هذا الخط المسيو ديكمان الألماني بشهادته الطيبة لأبنائها في تقريره الذي رفعه للحكومة الفيصلية العربية : إنني عاجز عن وصف سروري من الموظفين والعملة العرب الذين كانوا في إدارتي ، لما هم عليه من حب العمل والنظام ، وما اتصفوا به من شدة الذكاء والمقدرة ، كما شاهدت ذلك في صفوف موظفي المحطات والقطارات والسواق والسير ، وكنت أجد سروراً خاصاً عند النظر في أمورهم لما هم عليه من النشاط في كل أمر .

الخطوط الفلسطينية خط يافا – القدس :

كانت مدينة يافا في كل أدوارها مرفأ لإنزال الزوار القاصدين لمدينة القدس . ولذلك كانت فكرة إنشاء خط حديدي بين المدينتين من الأمور المتفق على صحتها وجلالة شأنها . لكن بعض المشتغلين بهذه القضايا كان يعتقد صعوبة تنفيذها ، ويرجح إنشاء خط ترامواي لقلة المواصلات التجارية في فلسطين . ذلك لأن كثرة الزوار لا تكون إلا في مواسم معينة من السنة . وكان أول مصور قدم للحكومة لعمل سكة حديدية في سنة ١٨٦٤ قدمه الدكتور زامبل الأميركي الألماني . ومنح امتياز هذا الخط إلى يوسف نافون

أفندي في ٢٨ تشرين الأول سنة ١٨٨٨ لمدة ٧١ سنة مع احتمال تمديد هذا الخط إلى غزة ونابلس ، ثم إلى دمشق إذا دعت الضرورة إلى ذلك في المستقبل . وقد باع صاحب هذا الامتياز امتيازه من شركة الخطوط الحديدية العثمانية ليافا — القدس وتمديداتها الفرنسية المؤسسة في باريز في شهر كانون الأول سنة ١٨٨٩ بمبلغ مليون فرنك . وشرع بإنشاء هذا الخط في نيسان سنة ١٨٨٩ فصادف المهندسون صعوبات جمة في طريقهم ، خصوصاً في القسم الواقع بين عرتوف والقدس والأرض صخرية جبلية وقد استغرق هذا العمل ست سنوات بالنظر لهذه الصعوبات وانتهى في أيلول سنة ١٨٩٢ وافتتح الخط في ٢٦ أيلول سنة ١٨٩٢ . وطول هذا الخط ٨٧ كيلومتراً ، وهو خط ضيق منفرد وعرضه متر واحد يجتاز مائة وستة وسبعين جسراً سبعة منها حديدية . وأطول هذه الجسور لا يتجاوز الثلاثين متراً وأقصرها ستة أمتار . وقد تجنب القائمون بالأعمال فتح الأنفاق مما زاد في اعوجاج الخط وكثرة الحفريات الناشئة عن ذلك . فالخط يحاذي وادي صرار ويقطعه في محلات متعددة . واقتلعت إدارة الخطوط الحديدية العثمانية في الحرب العامة قسماً من هذه السكة بين يافا ولد أي على مسافة ١٩ كيلو متراً واستعملت قضبه في إنشاء الخطوط العسكرية التي كانت تنشأ إذ ذاك في فلسطين ولم تقتلع بقيته لأنها استفادت منه ووصلته بخط العفولة — القدس من لدّ إلى وادي صرار أي مسافة ١٨ كيلومتراً .

خط حيفا — دمشق :

ألمعت قبلاً إلى أن جبال لبنان الشاهقة وما وراءها من الهضاب الشرقية تمنع سهولة المواصلات بين دمشق وبيروت وتؤلف سداً منيعاً بين هاتين المدينتين ، ولذلك رأى من يعنيهم الأمر منذ زمن بعيد وصل دمشق بنقطة من الساحل تكون غير مدينة بيروت . فكانت الأنظار تتجه أبداً إلى مدينتي عكا وحيفا . لأن الخط الذي يصل دمشق بهاتين المدينتين يسهل إنشاؤه لوجود سهل يزرعيل على ما ذكرنا آنفاً . وكانت بريطانيا تحلم كثيراً بالحصول على خط حديدي يسير بين احدى المواني الشامية والخليج الفارسي . وخصوصاً

بعد احتلالها جزيرة قبرس في البحر المتوسط . ففي سنة(١٨٨٢)نال السادة أبناء سرسق منشوراً سلطانياً يخولهم حق إنشاء خط حديدي بين عكا ودمشق آملين إدخال التحسين على أملاكهم الواسعة في مرج ابن عامر راجين معاونة البريطانيين . وكانت فكرة إنشاء خط حديدي سائدة بينهم في ذلك الحين . بيد أنهم لم ينجحوا بعملهم وخسروا عربونهم البالغ ٥٠ ألف فرنك المودع في خزينة الدولة العثمانية .

وفي سنة(١٨٨٩) طلب يوسف الياس أفندي رأس مهندسي لبنان إلى الحكومة العثمانية منحه امتياز هذا الخط مع فرع إلى حوران . وانقضت المدة المضروبة للمباشرة بالعمل ولم يتمكن هو أيضاً من القيام بهذا المشروع . وفي ٣٠ أيلول سنة(١٨٩١) أعاد الكرة يوسف الياس أفندي ونال هذا الامتياز مجدداً بالاشتراك مع المستر نيللنغ الإنكليزي . واشترطت الحكومة عليهما في في هذا الامتياز إنشاء فرعين لهذا الخط الأول من قرية نوى إلى بصرى في حوران . والثاني من نهر الشريعة إلى حاصبيا . وشرع بالعمل في ١٢ كانون الأول سنة ١٨٩٢ في الوقت الذي باشرت فيه أعمالها شركة بيروت دمشق (٨ كانون الأول سنة ١٨٩٢) . ولم تمض مدة حتى توقفت الأعمال على خط حيفا — دمشق ولم يتم منه سوى ثمانية كيلومترات . لأن الشركة التي أسست للقيام بهذا المشروع لم تحصل على المعاونة المالية اللازمة لها في أسواق لندن . وكانت المدة المضروبة لإنهاء العمل تنتهي في شهر تشرين الأول سنة ١٨٩٥ وعلى هذا أنذرت الحكومة العثمانية الشركة في أوائل سنة ١٨٩٥ بوجوب الإسراع بالعمل وبعد إلحاح المساهمين وافقت الحكومة على تمديد المدة ثلاث سنوات أخرى . وبالرغم من هذه التسهيلات لم تقم الشركة بإتمام عملها . وفي سنة(١٨٩٦)أصبح القسم الممدد من الخط في حالة يرثى لها بعد تركه طوال هذه السنين الأخيرة . ثم ظهرت فكرة إنشاء الخط الحديدي الحجازي وربطه بأحد فُرُض البحر المتوسط فقام السلطان باسترجاع امتياز خط حيفا مستفيداً من ذلك التأخير الذي وقع في أعمال الشركة كما ذكرنا ذلك في عرض الكلام عن الخط الحجازي .

الخطوط العسكرية الفلسطينية :

لم تحلْ الحرب العامة دون الإدارة العسكرية العثمانية التي تولت السيطرة على الخط الحجازي إذ ذاك وتمديد مئات الكيلومترات من الخطوط الحديدية بين فلسطين والحدود المصرية داخل فلسطين أيضاً . وهذه الخطوط وإن لم يكن لها شأن يذكر بجانب الخط الأصلي فقد أحببنا أن نذكر شيئاً عنها تتميماً للفائدة .

أنشأت إدارة الخط الأصلي فروعاً لها في سورية وفلسطين . منها فرع حيفا – عكا وهو ١٧ كيلومتراً وفرع درعا – بصرى وهو ٢٧ كيلومتراً وفرع العفولة – القدس الذي شرع فيه سنة(١٩١٢)ووصل إلى قرية السيله عند إعلان الحرب العامة وهو ٤٠ كيلو متراً . ومن المسائل التي تستحق الذكر ما أجرته إدارة الخط من الأعمال في أثناء الحرب العامة ذلك أن حملة السويس لما أخفقت أدركت قيادة الجيش العثماني ضرورة تمديد الخط الحديدي حتى السويس بأسرع ما يمكن . وكان القائل بهذه الفكرة جمال باشا الذي تمكن على الدوم من إعطاء المال والرجال لإجراء الأعمال المطلوبة وقد جيء في ذلك الحين بميسنر باشا المهندس الألماني من بغداد لاستلام أعمال الإنشاء وكان هو مهندس الخط الحجازي عند تأسيسه من سنة ١٩٠٠ إلى ١٩٠٨ .

كان قسم العفولة – القدس الذي شرعت فيه إدارة الاستثمار وصل نابلس في شتاء ١٩١٤ و ١٩١٥ . وكانت الفروع المصرية التي بدأت الإدارة بإنشائها من المسعودية في خط العفولة – نابلس تمتد في بطاح سارون حتى القدس وليس فيها كثير من الموانع والحوائل الطبيعية . ودعت الضرورة إلى جعل الخط بعيداً عن الساحل ليكون بمأمن من قذائف السفن الحربية . وفي شهر تشرين سنة ١٩١٥ تمكنت الإدارة من إنشاء ١٦٥ كيلومتراً وسلمتها للاستثمار حتى بئر السبع . وهذا العمل بالنظر لما صودف في تنفيذه من المصاعب يعد من الأعمال العظيمة .

وقد استفادت إدارة الأعمال من خط يافا – القدس الفرنسي المشاد سابقاً بين محطة لدّ ووادي الصرار أي مسافة ١٨ كيلومتراً كما ذكرنا ذلك

آنفاً وأدخلت هذا القسم بخط العفولة — القدس الذي نحن في صدد الكلام عليه ، ولكنها اضطرت لتعريضه لأن عرضه كان متراً واحداً فجعلته متراً وخمسة سانتيمترات كبقية الخطوط الحديدية الحجازية . وكانت الإدارة لا تملك عند إعلان الحرب سوى ٣٠٠ كيلو متر من قضبه الحديدية و ٥٠ كيلو متراً من العوارض الحديدية فقلعت من خط يافا — القدس قسم يافا — لد ١٩ كيلومتراً وخط حيفا — عكا ١٧ كيلو متراً وخط دمشق — المزيريب ١٠٣ كيلو مترات وقد أحضر قسم كبير من العوارض من أخشاب الاوكالبتوس في بطاح شارون ومن شجر الصنوبر في جبل لبنان .

وبدئ بإتمام الخط إلى السويس في قلب صحراء سينا قبل أن تم إنشاء قسم بئر السبع . ولكن عمليات الإنشاء لم تتقدم بسرعة كما جرى في قسم مسعودية — بئر السبع لأن نقل الامداد للجيش كان من الأسباب الداعية لعدم سرعة العمل . ومع ذلك فقد أنشئ ٦٢ كيلو متراً نحو السويس وراء بئر السبع في صيف ١٩١٦ وكانت المحطة النهائية في القسيمة وعندما جلا الجيش إلى جهة غزة في ربيع سنة ١٩١٧ اضطرت الإدارة إلى رفع الأقسام الجنوبية من بئر السبع . ثم بدئ بإنشاء فرع من التينة إلى ديرسند — بيت حانون ومن ديرسند إلى الهوج ومسافتها ٥٣,٥ كيلو متراً وبنيت أيضاً فروع عسكرية ليضمن معها نقل محروقات الخط وهي طور كرم — كفر قرع ٢٤ كيلو متراً . وفرع جلينا — خضرا ستة كيلو مترات . وغزة — الهيشة ٢٨ كيلو متراً . القصر — الهرمل ١٩ كيلو متراً . ومن هذا كله يتضح أنه قد أنشئ في أثناء الحرب من الخطوط ٤٣٧ كيلو متراً وكانت كلها فروعاً للخط الحجازي ، وذلك رغم الصعوبات الكثيرة في تدارك اللوازم الضرورية .

ولما سقطت جبهة غزة واضطر الجيش للجلاء حتى أواسط فلسطين تركت أقسام الخط في جنوب طور كرم في تشرين الثاني سنة ١٩١٧ في حين أن الإنكليز كانت تسرع أثناء الحرب بإنشاء خط ساحلي من بور سعيد الذي خصص لمدد الجيش الإنكليزي . ولما استولت على فلسطين شرعت بتمديد هذا الخط من فلسطين أيضاً في أيلول سنة ١٩١٨ وأوصلته إلى حيفا عند جلاء الجيش العثماني عنها . وبهذه الواسطة تم أول اتصال بين الخطوط المصرية

والحجازية. ولا شك أن هذا الاتصال يفيد البلدين فائدة اقتصادية عظيمة لأنهما ما زالا منذ الأزمان القديمة مرتبطين أحدهما بالآخر ارتباطاً مادياً وأدبياً .

بدأ الإنكليز عقبى استيلائهم على فلسطين يتحرون الوسائط والطرق اللازمة لإنشاء خط كبير يخترق الديار العربية من الغرب إلى الشرق ويربط حيفا بالخليج العربي وطول هذا الخط تقريباً ١٥٠٠ كيلو متر ولكن بعد أن تمكنت السيارات من اختراق الصحراء والوصول إلى القطر العراقي بسهولة تأخرت فكرة إنشاء هذا الخط في الوقت الحاضر .

إن مجموع الخطوط الحديدية في فلسطين وشرقي الأردن ١,٤٠٥,٧٠٨ كيلومترات منها ٧١٥,٨٣٤ كيلو متراً من الخط العريض و ٦٨٩,٨٧٤ كيلومتراً من الذي عرضه ١٠٥ سانتيمترات وهذه التفاصيل :

كيلو مترات		
٢٢٣	٣٧٤	خطوط فلسطين الأصلية .
٤٩١	٩٨	خطوط فلسطين الجانبية (المحطات) والجوانب مقصات وتفريغ .
٧١٤	٤٧٢	المجموع .
٨٨٥	٢٠١	خطوط سينا العسكرية الأصلية .
٢٣٥	٤١	خطوط سينا العسكرية الجانبية ...
١٢٠	٢٤٣	المجموع .
٠٤٠	٢١٢	خط الحجاز في فلسطين الأصلي
٥٤٦	٣٠	خط الحجاز الجانبي ...
٥٨٦	٢٤٢	المجموع
٣٤٣	٤٣٦	خط الحجاز الشرقدنّي الأصلي
٩٤٥	١٠	خط الحجاز الشرقدنّي الجانبي ...
٢٨٨	٤٤٧	المجموع .

ثم أنشئ فرع جديد من حيفا خاصاً بمعمل نيشر طوله سبعة كيلومترات .

عدد

١٣٠ القاطرات

١٠٧ مركبات الركاب

٢٢٥٩ قاطرات وشاحنات

« الواردات عن سنة ١٩٢٥ والنفقات »

جنيه مصري

٦٠٤٥٧٩ الواردات

٤٣٨٥٠٤ النفقات

١٦٦٠٦٥ الباقي وهو الربح السنوي

وقد اشترت حكومة فلسطين جميع الخطوط العسكرية والفرنسية وأصبحت ملكاً لها .

خط بغداد :

جرى البحث كثيراً في الأندية الانكليزية منذ سنة ١٨٣٤ إلى سنة ١٨٤٥ بشأن الملاحة في نهر الفرات ، فتألفت شركة في سنة ١٨٥١ لإنشاء خط حديدي من السويدية في خليج الإسكندرونة إلى الكويت في الخليج الفارسي . وكان يرأس هذه الشركة الجنرال سير فرنسيس شيزني . نالت امتياز هذا الخط مع وعد الحكومة العثمانية بأن تعطي الشركة ضمانة تضمن لها فائدة ستة بالمئة لرأس المال ، ولكن هذه الضمانة لم يتأكد إعطاؤها . ولما رأى الشعب الإنكليزي عدم اهتمام حكومته بهذا المشروع بصورة رسمية خاف من إخفاقه فلم يكتتب بأسهم الشركة . فلم تتمكن هذه من نيل المعاونة المالية اللازمة فسقط امتيازها . وبعد سنة ١٨٦٩ تجددت فكرة إنشاء خط السويدية — الكويت . وفي سنة ١٨٧٢ حبذ هذا المشروع كثير من النواب البريطانيين . وكانت تُقدر نفقات هذا الخط بعشرة ملايين جنيه إنكليزي . ومضى زمن وفكرة هذا المشروع تتخبط إلى أن حدثت أمور مهمة حولت الرأي العام الإنكليزي عنها بتاتاً . وبعد افتتاح ترعة السويس اقترح بعضهم وصل الإسماعيلية بالكويت بخط حديدي . ولكن هذا المشروع الجديد لم يجد أنصاراً ولم يرج

الرواج المطلوب في الرأي العام الإنكليزي. وبعد ذلك تألفت جماعة من الروسيين واقترحت طريقة جديدة وهي وصل طرابلس الشام بالخليج الفارسي بخط حديدي، يتفرع منه فرع إلى كربلاء، ولكن هذه الفكرة كانت عقيمة لا تستحق الاهتمام لأن خطاً حديدياً كهذا لا يجوز تمديده في تلك الصحاري القاحلة.

وبالتزاحم الذي حدث بين الدول الغربية لنيل امتيازات في الولايات العثمانية كان الألمانيون آخر من تقدم وذلك في سنة ١٨٨٨ فجاءوا بأفكار جديدة وكان الإنكليز والفرنسيون ممن يهتمون بالخطوط الحديدية العثمانية. ولا يفكرون بغير وصل السواحل بالأصقاع الداخلية وذلك لترويج صناعتهم وتجاراتهم. ولهذا لم ينشئوا سوى خطوط صغيرة كيافا – القدس – حيفا ودمشق – بيروت وطرابلس – حمص السويدية أو الإسكندرونة – حلب ومرسين – أذنة وأضاليا الخ. فكل هذه الخطوط كانت تبتدئ من السواحل وتنتهي بمدن الساحل. خلافاً لهذه الخطة الغربية تقدم الألمان بطريقة جديدة تتفق مع المصالح العثمانية أكثر من الأولى. ففي سنة ١٨٧١ ارتأى فون برسيل المهندس الألماني أن يجعل الاستانة مركز الخطوط الحديدية الأوربية والآسيوية، فبدلاً من أن يكون للمملكة العثمانية عشرون خطاً صغيراً لا رابطة بينها اقترح أن تنشأ خطوط أساسية تقطعها عرضاً وطولاً تكون خير واسطة بيد الحكومة من الوجهة الإدارية والعسكرية. وتصل جميع الأقطار العثمانية بعضها ببعض. وأول خط من هذه الخطوط التي اقترح عملها المهندس برسيل كان خط الاستانة – بغداد.

وبناء على اقتراحه هذا ووفقاً للمخططات التي رسمها، شرعت الحكومة العثمانية بإنشاء خطها العظيم الملقب بقاطع آسيا الصغير. وكان القصد من هذا الخط أن يبتدئ من مرفإ حيدر باشا على ساحل البوسفور وينتهي بالكويت على ساحل الخليج الفارسي ماراً بازميد مجتازاً مضايق نهر سقاريا المعوج فيصل أسكيشهر ومنها يتجه شرقاً نحو أنقرة – يوزغاد – سيواس – عربكير خربوط – ديار بكر – ماردين – الموصل – بغداد ومن هذه يسير موازياً لدجلة وشط العرب حتى خليج فارس. ودعوا هذا التخطيط بالمخطط الشمالي وكان هذا التخطيط أقصر الطرق وأقلها نفقة ويبلغ طوله ٣٥٠٠ كيلو متر.

قامت الحكومة العثمانية في سنة ١٨٧١ بمد ٩٢ كيلو متراً من حيدر باشا إلى ازميد بمعرفة المهندس برسيل ، ولكن الثورات والحروب المتتابعةفي أوربا العثمانية وكذلك التدخلات الأجنبية قد أوقفت استمرار العمل بهذا المشروع مدة ست عشرة سنة . وفي سنة ١٨٨٨ تمكن المصرف الألماني « دويتش بنك » من الحصول على امتياز هذا الخط حتى مدينة أنقرة مع الوعد بتمديد بقية أقسامه إلى مدينة بغداد بضمانة كيلو مترية ١٥ ألف فرنك . وقد وقعت الإرادة السلطانية التي منحت امتياز الخط باسم المصرف الألماني في تشرين الأول سنة ١٨٨٨ . وباشر الألمان عملهم في شباط سنة ١٨٨٩ . وفي سنة ١٨٩١ تمكنوا من إتمام ٣٠٠ كيلو متر . وفي سنة ١٨٩٣ وصل خطهم إلى أنقرة أي انه مد منه ٥٧٨ كيلو متراً .

كانت مدينة أنقرة بلدة صغيرة قبل جعلها عاصمة الدولة التركية وهي واقعة بأعالي الجبال ترتفع ٩٢٠ متراً عن سطح البحر . وعلى أثر وصولهم إليها طلبوا من الحكومة العثمانية امتياز الأقسام الأخرى ، على أن يجري تعديل في استقامة الخط ، فبدلاً من أن يسير من أنقرة إلى يوزغاد وسيواس ، طلبوا تحويله من أنقرة إلى قيصرية . وحصلوا في أول سنة ١٨٩٣ على امتياز قسم قيصرية أي مسافة ٣٢٠ كيلو متراً مع ضمانة كيلو مترية قدرها ١٧٦٥٠ فرنكاً وقد سمي هذا التخطيط الجديد بالمخطط الوسطي . ولم يرق في عيني روسيا وكانت تخشى تقدم الألمان في الولايات الشرقية . فلعبت السياسة ألاعيبها بين لينتغراد وبرلين ، وقبل الألمان بتغيير وجهتهم فتركوا أنقرة وشأنها ، وطلبوا من الحكومة إعطاءهم امتياز قسم جديد بين أسكيشهر وقونية . وقد حصلوا على ذلك في سنة ١٨٩٣ وسمي هذا التخطيط بالمخطط الجنوبي مع ضمانة كيلومترية قدرها ١٥ ألف فرنك . غير أن هذا التخطيط الأخير لم يرق أيضاً في أعين الإنكليز والفرنسيين وكانوا يرجون نيل امتيازات في تلك البقاع التي لهم فيها مصالح وخطوط . فاحتجوا لدى الباب العالي وقدموا شروطاً أحسن من شروط الألمان، وقد دعمت الحكومة الفرنسية طلب الماليين الفرنسيين ، وتمكنت من أخذ امتيازات الخطوط الحديدية السورية بين دمشق وحلب .

وصل الخط الحديدي إلى قونية في أواخر سنة ١٨٩٥ وبعد ذلك شعر الألمان بضرورة الاتفاق مع بعض الماليين من الأمم الأخرى ، فأشركوا معهم الفرنسيين ونالوا امتياز خط قونية — بغداد في كانون الثاني سنة ١٩٠٢ مع ضمانة كيلومترية قدرها ١٦,٥٠٠ فرنك وممن اشترك مع الألمان من الفرنسيين بهذا المشروع شركة خط ازمير — قصبة وشركة المصرف العثماني . وقد اشترط الفرنسيون مقابل دخولهم في هذه الشركة أن يكون لهم أربعون بالمئة من الأسهم وأربعون بالمئة للألمان وعشرون بالمئة لروسيا ، وأن تكون جميع الحقوق متساوية بين الألمان والفرنسيين كإدارة المشروع وتقديم الأدوات ولم يتم هذا الاتفاق لأسباب سياسية ، ولذلك لم تقبل فرنسا إدخال أسهم هذا المشروع في بورصة باريز . وفي شباط سنة ١٩٠٣ كلف الألمان حكومة لندن تأليف شركة جديدة تكون الأسهم فيها متساوية بين الألمان والإنكليز والفرنسيين أي ثلاثون بالمئة لكل منهن وعشرة بالمئة تبقى للروس أو للحكومات الصغيرة كالبلجيك وهولاندة وسويسرا ، فلم تنجح هذه الطريقة لحل المشكلة القائمة بينهم . وبقي الألمان مدة يساومون الدول الغربية بذلك يهددون الروس تارة بتكميل مخططهم الشمالي المنتهي بأنقرة ، وطوراً يهددون الإنكليز والفرنسيين بإتمام مخططهم الجنوبي المنتهي في قونية . وفي ٥ آذار سنة ١٩٠٣ قررت الحكومة العثمانية إعطاء امتياز خط قونية — بغداد والبصرة لشركة خطوط الأناضول . وفي ٣٠ تموز من هذه السنة صدر المنشور السلطاني بذلك . واشترط فيه إتمام هذا الخط في ثمانية أعوام أي في سنة ١٩١١ . فباشر الألمان عملهم وأتموا قسم قونية — بلغورلو وقد أمنتهم الحكومة على الضمانة الكيلومترية لهذا القسم . وبعد هذا القسم تأتي جبال طوروس الشاهقة . وفي هذه الجبال وادٍ عظيم كان الطريق الوحيد لجيوش الفاتحين من الأقدمين وهو خط الاتصال بين قليقية وصحراء الأناضول . وهذا الوادي لا يزيد عرضه على العشرة أمتار في كثير من النقاط ، والجبال ترتفع حفافيه أكثر من مئتي متر . وكان الإسكندر الكبير والرومان والصليبيون والعرب والسلجوقيون والمصريون يقطعون هذه الجبال ويجتازون هذا الوادي . وقد فكر الألمان

أن يمدوا خطوطهم على هذه الطريق بعد تعريضها بحيث تصلح للسير وبعد أن يبنوا عليها الجسور اللازمة والأنفاق الصغيرة . ولكنهم عدلوا عن هذه الفكرة لشدة الصعوبات في تنفيذها ولكثرة النفقات وخصوصاً نفقات الترميم الدائمة التي تكون باهظة . وفوق هذا لا يكون الخط في مأمن من الأنواء الجوية فضلاً عن أن بلدة بلغورلو ترتفع عن سطح البحر ١١٥٠ متراً والوادي المذكور يرتفع ١٤٥٠ متراً وتقوم مدينة أذنة على سفح الجبل من الجهة الثانية ولا ترتفع شيئاً يذكر عن سطح البحر. فهذه التموجات بالارتفاعات تجعل الطريق المذكورة صعبة جداً ويتعذر مد الخطوط فيها . ولذلك عوّل الألمان على درس طريق ثانية . فبعد أن بحثوا في الجبال عن أقل الطرق كلفة وأسهلها عملاً لم يروا سوى طريقة واحدة وهي عمل نفق حلزوني لا يقل طوله عن اثني عشر كيلومتراً ، وإنشاء نفق كهذا هو أيضاً من أصعب الأعمال حتى في ديار الغرب القريبة من معامل الحديد ومناجم الفحم ووجود أحدث الآلات فكيف إذاً يمكن القيام به في هذه الأرض القاحلة المتأخرة في ميدان المدنية . وبذلك تكون نفقات هذا القسم باهظة ، ولا تكفي الضمانة الكيلومترية المقررة له وهي ١٥,٥٠٠ فرنك عن كل كيلو متر لسد فوائد رأس المال ، ومع كل ما ذكرناه من الصعوبات لم يضعف هذا من عزيمة الشركة فثابرت على عملها وافتتحت كثيراً من الأنفاق في جبال طوروس وجبال أمانوس وقد كلفها ذلك مبالغ عظيمة . ولما كان عمل الأنفاق أمراً شاقاً يحتاج لزمن طويل ، لم تر هذه الشركة بدأً من أن تباشر بعملها أيضاً من حلب ومن نقاط أخرى . فكان الراكب الآتي من الاستانة مثلاً مضطراً للنزول من القطار في محطة بوزنتي والركوب على الدواب أو بالسيارات حتى بلدة إصلاحية وكانت اتصلت بمدينة حلب بخط بغداد الحديدي . وفي سنة ١٩٠٦ اشترت شركة بغداد خط مرسين — طرسوس — أذنه .

جاءت الحرب العامة فزادت الشركة همةً ونشاطاً في إتمام ما بقي من الخط بين بوزنتي وإصلاحية ، وذلك بضغط الحكومة على الشركة ، لأنها كانت مضطرة لنقل جنودها وذخائرها وعتادها في القطارات طلباً للسرعة واتصال المواصلات . وقد سبب تأخير حفر الأنفاق تعذّر نقل الفحم إلى

الخطوط الشامية التي كانت تستعيض عن الفحم بحطب الأشجار المثمرة فنتج عن ذلك أضرار عظيمة للشام . وتمكنت الشركة بما أبدته من النشاط والهمة في فتح الأنفاق من تسيير القطارات رأساً بين الاستانة وحلب وذلك في سنة ٩١٧ — ٩١٨ . أما هذا الخط فهو من الخطوط العريضة وعرضه متر و ٤٤ سانتيمتراً ، ونصف القطر الأصغر لمنعطفات الخط خمسمائة متر في حين لا يتجاوز هذا النصف القطر الثلاثمائة متر في بقية الخطوط العثمانية . ووزن القضب الحديدية أكثر من وزن قضب الخطوط الأخرى . لأن القصد من ذلك تزييد السرعة على هذا الخط وجعلها ٧٥ كيلومتراً في الساعة . وتبين من الإحصاءات التي أجراها المسيو ري مدير خط سلانيك — الاستانة أن المعدل المتوسط لسعر الكيلومتر في الخطوط الحديدية العثمانية ١٨٩,١١٠ فرنكات يدخل في هذا المبلغ ثمن القاطرات والعجلات والشاحنات والإنشاء ونفقات التأسيس وفوائد رأس المال وكل ما يتعلق بالخطوط من النفقات . وهذا قليل إذا قيس بخط بغداد لأن نفقاته كانت أكثر من غيره فيقتضي والحالة هذه أن يقدر المعدل المتوسط لسعر الكيلومتر بمائتي ألف فرنك أي تسعة آلاف ليرة عثمانية ذهباً .

الخطوط الحديدية بين الشام ومصر :

كان وصل الديار الشامية بمصر موضوع اهتمام المفكرين في كل الأدوار ، لما بين القطرين من العلاقات المادية والمعنوية . وقد فكر في هذه القضية وزير الأشغال العامة في الدولة العثمانية وأشار إليها في تقريره لسنة ١٨٨٠ وإلى ضرورة تمديد خط حديدي من القدس إلى العريش طوله ١٥٠ كيلو متراً ، وقدر نفقات هذا المشروع بعشرين مليون فرنك . وفي سنة ١٨٩١ طلب انطون يوسف لطفي بك إلى الحكومة العثمانية منحه امتياز خط حديدي يبتدئ من العريش على حدود مصر ويمر بغزة — يافا — حيفا — عكا — صور — صيدا — بيروت ، وينتهي بطرابلس حيث يتصل بخطوط الشركة الفرنسية . وكان الإنكليز يحبذون هذا المشروع ويوافقون عليه . غير أنه لم يتم تنفيذه ولم تتصل بنا الأسباب التي حالت دون إخراجه إلى حيز العمل .

وفي غضون الحرب العامة وبعدها . وعقب انسحاب الأتراك من الشام واحتلال السلطات الإنكليزية والفرنسية لها ، ظهرت فائدة هذا المشروع وبوشر بتنفيذه إذ ذاك حتى تم الاتصال بين حيفا والديار المصرية كما أنه سيتم عما قريب تمديد هذا الخط حتى مدينة طرابلس فيتصل بالخطوط الفرنسية .

الكهرباء وخطوط الترام في دمشق :

تم الاتفاق في ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٧ (٧ شباط سنة ١٣٠٥ ش) بين وزير الأشغال العامة في الدولة العثمانية وبين يوسف أفندي مطران على إنشاء خطوط ترامواي في مدينة دمشق يتفرع من مركز المدينة ويتجه نحو باب مصر (بوابة الله) في منتهى محلة الميدان . وإلى جامع محيي الدين بن عربي في محلة الصالحية ، وإلى الباب الشرقي ومسجد الأقصاب . ومن الباب الشرقي إلى دومة ومن باب مصر إلى المزيريب ، على أن تكون الخطوط الخمسة الأولى تجر مركباتها بالخيل . والخط الأخير أي خط المزيريب تجر مركباته بالبخار . وقد منح يوسف أفندي مطران بموجب هذا الاتفاق امتيازاً مدته ستون سنة وتعهد بالمباشرة بالعمل خلال سنة اعتباراً من تصديق مقاولة امتيازه وأن يتم العمل خلال سنتين ونصف . وقد قبلت الحكومة بإعفاء جميع الآلات والأدوات والدواب ولوازم الإنشاء من رسوم الجمرك أثناء العمل . وأعفت الأرضين والأعمال مدة الاستثمار من الضرائب . وقد أُذن لصاحب الامتياز بتأسيس شركة مساهمة عثمانية خلال سنة اعتباراً من تاريخ صدور الأمر العالي على أن تبقى جميع الخطوط والمعامل والأدوات الثابتة ملكاً للدولة عند انقضاء مدة الامتياز . أما الآلات والأدوات المتحركة كالعجلات وما سواها فالحكومة تبتاعها بتخمين قيمها .

وقد اشترطت الحكومة على صاحب الامتياز تعمير الطرق التي تمر منها خطوط الترامواي بعرض تسعة أمتار ، وكذلك أرصفتها ومجاري المياه فيها . وحددت أجور الركوب بثلاثة أرباع القرش الفضي للدرجة الأولى ونصف القرش للثانية وعلى ما نعلم إن يوسف أفندي مطران لم يقم بتنفيذ مقاولته هذه مدة طويلة من الزمن .

وبعد ذلك تقدم الأمير محمد أرسلان إلى الحكومة العثمانية طالباً إعطاءه امتيازاً بتوليد القوة الكهربائية واستثمارها وتم الاتفاق بينه وبين وزير الأشغال العامة بتاريخ ١٨ المحرم سنة ٣٢١ على تنوير مدينة دمشق وضواحيها بالكهرباء أي مسافة عشرة كيلومترات عن المدينة لمدة تسع وتسعين سنة ، وتعهد صاحب الامتياز بتنظيم الخرائط للمشروع وتقديمها في ثمانية عشر شهراً اعتباراً من تاريخ صدور المنشور العالي، وبالمباشرة بالأعمال في ستة وثلاثين شهراً بعد المصادقة على المقاولة، وبإنهاء الأعمال في أربع سنوات اعتباراً من تاريخ تصديق الخرائط ، على أن تعفى مواد الإنشاء واللوازم والآلات والأدوات من رسوم المكس إلى انتهاء أعمال الإنشاء وابتداء الاستثمار ، وأن تعفى أيضاً جميع البنايات والأدوات مدة الامتياز من الرسوم . ويتقاضى صاحب الامتياز أثمان التنوير بحسب التعرفة المقررة مدة الامتياز . وأما ما يتعلق بالتنوير العمومي للمدينة فيجب عليه أن يجري تنزيلاً يتناقص كلما زادت كمية الكهرباء المصروفة ، ويحسم أيضاً عشرة بالمائة لتنوير دوائر الحكومة والجوامع والكنائس والثكنات العسكرية والمستشفيات ، ويُسمح لصاحب الامتياز بتأسيس شركة عثمانية خلال سنتين اعتباراً من تصديق المقاولة ، وذلك للقيام بتعهداته وتحتفظ الحكومة بحق شراء الامتياز في كل حين بعد انقضاء ثلاثين سنة ، وتقوم بتخمين قيمة جميع الآلات والأدوات والأبنية والأرضين والمؤسسات التي دخلت في ملك صاحب الامتياز وتشتريها منه . وعند انقضاء مدة الامتياز يجب على صاحبه تسليم عامة البنايات والمؤسسات والآلات والأدوات بلا عوض إلى الحكومة ، وإذا لم يباشر أعمال الإنشاء خلال المدة المعينة بدون أن تكون هناك أسباب قاهرة تمنعه عن مباشرة العمل ، أو إذا لم ينجز العمل بتمامه أو يعطل أعمال التنوير ، أو لم يقم بتعهداته في المقاولة يسقط حقه من الامتياز ، وتضع الدولة يدها ، وتقوم بما يلزم من التدابير الموقتة لتأمين الاستثمار . وكذلك تعين البلدية بالاتفاق مع صاحب الامتياز عدد المصابيح ومواقعها ، وينحصر بيع التنوير وبيع القوة الكهربائية بصاحب الامتياز مدة امتيازه ، سواء كان ذلك للأفراد أو لوسائط النقل العامة ، ويكون حق الترجيح لصاحب الامتياز بتأسيس التلفون إذا قبل بالشروط التي يقدمها طالبو

هذا المشروع ، وتحدد التعرفة العظمى بثمانية قروش عن كل (كيلواتور) أي ما يعادل بارة واحدة عن كل شمعة بالساعة ، ولا يمكن زيادة التعرفة المقررة بدون موافقة الحكومة .

وبعد ذلك توفق الأمير محمد أرسلان بأخذ امتياز آخر يقضي عليه بتقديم القوة الكهربائية اللازمة لتسيير حوافل (الترام) على الخطوط الممنوح امتيازها قديماً إلى يوسف أفندي مطران ، وعلى الخطوط التي يمكن الدولة أن تمنح امتيازها لشخص آخر وذلك داخل منطقة تبعد حدودها عشرين كيلومتراً في كل جهة من وسط مدينة دمشق . ويقضي أيضاً من جهة ثانية على صاحب امتياز التراموای الخيلي ، وعلى جميع الشركات التي تؤسس لتسيير الحوافل الكهربائية داخل المنطقة المبينة آنفاً ، بمراجعة الأمير محمد أرسلان لاستحصال القوة الكهربائية اللازمة لهم ، إذا أرادوا تسيير حوافلهم بالقوة الكهربائية . وقد حُددت مدة هذا الاتفاق بتسع وتسعين سنة ، تبتدئ من تاريخ صدور المنشور العالي ، وأُعطيت مدة سنتين لصاحب الامتياز لتأسيس شركة مساهمة عثمانية تقوم بتنفيذ الشروط . كما احتفظت الحكومة لنفسها بحق شراء الامتياز في كل آن ، وذلك بعد مضي ثلاثين سنة من مدته . وقضوا أنه إذا وقع اختلاف بين الحكومة وصاحب الامتياز يفصل فيه مجلس شورى الدولة . وقد صدر المنشور العالي بهذا الامتياز في ٢٥ المحرم سنة ١٣٢١ وعلى ذلك فقد تأسست بتاريخ ٢٣ شوال سنة ١٣٢٢ وفي ١٧ كانون الأول سنة ١٣٢٠ (ش) و ٥ كانون الأول سنة ١٩٠٤ شركة بلجيكية مساهمة باسم الشركة العثمانية السلطانية للتنوير والجر الكهربائي بدمشق ، وحصلت على جميع الامتيازات المتعلقة بهذا الشأن . ومن الشروط التي تعهدت بها هذه الشركة إنشاء خطوط إجبارية من دار الحكومة إلى باب مصر (بوابة الله) بمنتهى محلة الميدان ومن دار الحكومة إلى جامع محيي الدين بن عربي في محلة الصالحية ، وتنوير المدينة وفقاً لشروط المقاولات المنعقدة والمصدقة في المناشير العالية بتاريخ ١٠ رجب سنة ١٣٠٧ و ٢٧ المحرم سنة ١٣٢١ ، وكان رأس مال هذه الشركة ستة ملايين فرنك قسمت على اثني عشر ألف سهم وجُعلت قيمة كل سهم ٥٠٠ فرنك . وكانت تدير أعمال الشركة لجنة منتخبة من الهيأة

العامة . ومن جملة أعضاء اللجنة في السنوات الأولى عزت باشا العابد .

وباشرت الشركة العمل بإقامة الأبنية والمعامل ومد خطوط الترام وأسلاك الكهرباء خلال سنة ١٩٠٤ . والخطوط التي مدتها الشركة ثلاثة يبتدئ الأول من ساحة الشهداء وينتهي في باب مصر في منتهى محلة الميدان وطوله ثلاثة كيلومترات ونصف كيلومتر وهو خط مزدوج . أما الخط الثاني فيبتدئ أيضاً من ساحة الشهداء وينتهي في حي المهاجرين بالصالحية وطوله ثلاثة كيلو مترات ومائتا متر وهو مزدوج حتى الجسر الأبيض والباقي منه حتى المهاجرين خط منفرد . وأما الثالث فيبتدئ من الجسر الأبيض فالصالحية وينتهي عند جامع محيي الدين بن عربي وطوله كيلومتر واحد وهو مزدوج . وعرض هذه الخطوط متر واحد وخمسة سانتيمترات ، كعرض الخطوط الحديدية الفرنسية الضيقة والخط الحجازي . وقد انتهت الشركة من مد الخطوط في ١٢ شباط سنة ١٩٠٧ وبدأت تسير حوافل الترام على الخطوط الممدودة وبدئ أيضاً بتنوير المدينة منذ شهر نيسان سنة ١٩٠٧ .

جاءت الحرب العامة وقطعت المواصلات بين الغرب والشرق ، وبقيت الشركة تحت سلطة الحكومة العثمانية . فانقطع ورود البترول من الخارج ، وأصبح أكثر المدن في الدولة العثمانية مظلماً إلا مدينة دمشق فقد ظلت تنار بمصابيح الكهرباء ، وذلك بفضل نهر بردى الذي لا يزال يفيض الخيرات على دمشق . ومن هذا تظهر فائدة استعمال القوى الطبيعية . وقد كانت السلطة العسكرية تستفيد من الكهرباء في محطة اللاسلكي وفي كثير من معاملها التي كانت تشتغل في إحضار العتاد والذخائر الحربية .

وفي ٢٩ أيار سنة ١٩٢٣ عقد اتفاق بين الشركة والمفوضية العليا حددت فيه أثمان القوة الكهربائية وأجور الركوب في حافلات الترام وأدخلت شروط جديدة لإصلاح الأسلاك الكهربائية ولتمديد خطوط جديدة ، واستمر العمل بهذا الاتفاق مدة سنتين . وفي ١٣ آب سنة ١٩٢٥ جرى تعديل مقاولة الامتياز القديمة تعديلاً مهماً وذلك بموجب البروتوكول الثاني عشر الملحق بمعاهدة لوزان وإليك خلاصة ما جاء في هذه المقاولة الجديدة .

يحق للبلدية أن تطلب من الشركة إنشاء خطوط جديدة وإذا لم يتم الاتفاق

بينهما خلال سنة يحق للأولى أن تمنح الخط الجديد لشخص آخر على أن تبقى الأرجحية للشركة إذا تساوت الشروط وقد حددت الأجور العظمى بموجب هذا التعديل على الوجه الآتي :

« الدرجة الأولى »	« الدرجة الثانية »
الكيلومتر الأول ٣,٢٠ قرش سوري ذهب	الكيلومتر الأول ٢,١٣ قرش سوري ذهب
« الثاني ٢,٩٧ « « « «	الثاني ١,٩٢ « « «
« الثالث ٢,٧٤ « « « «	الثالث ١,٧١ « « «
« الرابع فما فوق ٢,٥٠ « « «	الرابع ١,٥٠ « « «

على أن تضاعف أجور الحافلات التي تسير ليلاً . وتعفى الأرضون والأبنية والمصانع والآلات والأدوات الثابتة والمتحركة مدة الامتياز من الضرائب والرسوم . وتعفى أيضاً من الرسوم الجمركية والدخولية جميع المواد اللازمة للمعامل والمصانع ، وترفع الاختلافات التي تحدث بين صاحب الامتياز والحكومة على تفسير مواد المقاولة وإنفاذها إلى مجلس الشورى السوري . وتنتهي مدة هذا الامتياز بتاريخ ٣١ كانون الأول سنة ١٩٦٠ .

فللشركة الحق بإنشاء المعامل المولدة للقوة الكهربائية واستثمار ما أُنشئ منها وما سينشأ على نهر بردى بين التكية وعين الفيجة وبتوزيع القوة المستحصلة توزيعاً عاماً على مسافة خمسة عشر كيلو متراً لكل جهة من قلب مدينة دمشق (ساحة الشهداء) وبتقديم القوة الكهربائية قوة محركة لوسائط النقل العامة على مسافة عشرين كيلو متراً في كل وجه من وسط مدينة دمشق ، كما لها الحق أيضاً باستعمال الطرق العامة من ملك الدولة أو البلديات لتتمكن من القيام بالتنوير الخاص ، وبتقديم القوة الكهربائية لجميع الأعمال . وقد حددت الأجور العظمى :

البيع بالعداد للتنوير بسعر الكيلواتور ٤,٥٠ قروش سوري ذهبية
لباقي الاستعمالات « « ٣ « « «

البيع المقطوع ١٥ سانتيماً من القرش السوري الذهبي عن كل شمعة في الساعة
للنقليات العامة سعر الكيلواتور ٣ قروش سورية ذهبية

وتقرر أن يحسب التنوير العام بالعداد مع تخفيض ٢٥ بالمئة وأن يحسب

كذلك تنوير الدوائر العامة والبلدية والمعابد والمستشفيات مع تخفيض عشرة بالمئة من التعرفة ، وكذلك قبلت الشركة بأن تنير قصر الحكومة مع دائرة البلدية مجاناً أربع مرات في السنة في أيام الأعياد التي تعينها الحكومة . وأن تنير الجامع الأموي وبعض الجوامع الأخرى مجاناً أيضاً . وتنتهي مدة الامتياز بتاريخ ٣١ كانون الأول سنة ٢٠٠٢ وعند انتهاء مدته تستلم الحكومة جميع ما أنشأته الشركة بدون بدل ، ويحق للدولة في كل حين شراء الامتياز وذلك اعتباراً من تاريخ ٣١ كانون الأول سنة ١٩٦٥ .

وبعد المصادقة على هذا الاتفاق قامت الشركة بتحسين النور فبدلت المجرى الكهربائي بمجرى دائم إلى مجرى متناوب وغيرت درجة التوتر في بعض الأحياء فجعلتها ١١٠ بعد أن كانت ٢٢٠ وأسست مراكز لتحويل درجة التوتر في كثير من الأحياء لتوزع منها النور على المشتركين بصورة منظمة بعد أن يكون وصل الكهرباء إلى هذه المراكز بخطوط ذات توتر عالٍ تمدد تحت الأرض وهي لا تزال تعمل بهذه الإصلاحات بجد ونشاط .

ترامواي حلب الكهربائي :

منحت الحكومة العثمانية امتيازاً قبل الحرب العامة لرجل يدعى عثمان بك من أتراك الاستانة لتنوير مدينة حلب بالكهرباء مع إنشاء خطوط ترامواي فيها . وكانت مدة هذا الامتياز أربعين سنة . ولم يتمكن عثمان بك من القيام بتنفيذ امتيازه بسبب الحرب . وبعد الهدنة طرحت الحكومة العربية هذا المشروع في المناقصة فتقدمت في سنة ١٩١٩ شركة بلجيكية وأرسلت مندوبها إلى حلب مع تقديم شروطها . فجاء هذا المندوب وفاوض مجلس بلدية حلب ، ونظم مشروع مقاولة وشروط امتياز على أساس الشروط والمقاولة التي منحتها الحكومة العثمانية عثمان بك ، ولم يبق لتحقيق المشروع إلا تصديق هيئة إدارة الشركة عليه في بلجيكا . فرأت هذه الهيئة أن الشروط التي نظمت بمدينة حلب مجحفة بحقوقها ، فأرسلت تعلم بلدية حلب بعدم قبولها إلا إذا زيدت التعرفة المحددة في المشروع مع زيادة مدة الامتياز . فحبط هذا المشروع ولم يتحقق . وفي سنتي ١٩٢٢ و ١٩٢٣ أي بعد دخول فرنسا الشام تقدمت لطلب

هذا الامتياز ثلاث شركات الأولى شركة وطنية وعلى رأسها كريم أفندي بالي والثانية شركة بلجيكية والثالثة شركة المشاريع الفرنسية . وقدمت كل من هذه الشركات شروطاً تختلف عن الأخرى . وبما أن شركة كريم أفندي بالي الوطنية لم تقدم الضمان اللازم لم تنجح بطلبها . وبعد ذلك تألفت لجنة لدرس الشروط المقدمة ووضع تقرير فيها . وعقبي مذاكرة طويلة رأت هذه اللجنة أن الشروط المقدمة من الشركتين المذكورتين لا توافق مصلحة البلدية ، وعلى ذلك نظمت شروطاً خاصة مقتبسة من شروط الامتيازات القديمة الممنوحة من الدولة العثمانية لشركات كهربائية أخرى ، ومن الشروط التي قدمتها الشركتان المار ذكرهما ، وقد طلبت اللجنة في تقريرها إعلان ذلك ودعوة الشركات للمناقصة فلم يتقدم أحد .

وفي سنة ١٩٢٤ عرض على بلدية حلب مشروع امتياز جديد من شركة المشاريع الفرنسية لا يختلف كثيراً عن مشروعها الذي قدمته للمرة الأولى وطلبت المصادقة عليه وأخيراً تمكنت البلدية من تحديد الضمانة غير المحدودة والمطلوبة من الشركة عن الخسارة مسانهة بمبلغ ٢٠ ألف ليرة سورية ورقاً . أي تكون الخسارة التي تقع بأكثر من هذا المبلغ المحدد على الشركة . وأهم الشروط في هذا الامتياز أن مدته سبعون سنة . وأن التعرفة تعين سنوياً بعد إجراء حساب الدخل والخرج والفائدة والاستهلاك . وأن جميع الأرض والمقالع اللازمة للإنشاء والتأسيس تشتريها البلدية على حسابها الخاص وتسلمها للشركة ، وأن الخسارة إذا تجاوزت العشرين ألف ليرة سورية ورقاً تكون على البلدية . وكذلك تقسم الأرباح ٣٥ في المئة للبلدية وما بقي للشركة . وللمفوضية العليا حق التفتيش والفسخ ، ويكون جميع مأموري الشركة من السوريين ما عدا الإخصائيين الفنيين . وتحل الاختلافات التي تحدث بواسطة التحكيم . كما أن الشركة مضطرة أن تدرس على حساب البلدية مشروع جلب الماء إلى حلب خلال خمس سنين على الأكثر ثم تقدمه للبلدية ، حتى إذا وافقها تمنحُ الشركة المذكورة امتيازه وتُكره الشركة على أخذ هذا الامتياز . وقد بدأت الشركة بالعمل أوائل سنة ١٩٢٦ وأنجزت حتى الآن من الأشغال بناء الإدارة والمستودع وتركيب الآلات . وقد قلعت بلاط الطريق القديم

وبدأت تمد القضب الحديدية وتفرش الزفت وبدلت البلدية البلاط الأسود به . ومدت الشركة خطين للترام ، الأول يقطع مدينة حلب من الغرب إلى الشرق ويبتدئ من محطة دمشق وينتهي بمحلة القصيلة وطوله خمسة كيلومترات تقريباً . وأما الخط الثاني فيقطع المدينة من الشمال إلى الجنوب ويبتديء من محلة الحميدية وينتهي عند شارع خان الحرير وطوله ثلاثة كيلو مترات ونصف تقريباً وعرض هذين الخطين متر واحد وخمسة سانتيمترات كعرض خطوط ترام دمشق .

خط الترام في طرابلس :

تجر بالخيل حافلات خط الترام الممتد بين مدينة طرابلس وميناًها . والميناء هي مرفأ المدينة تبعد عنها ثلاثة كيلومترات . وقد منح امتياز هذا الخط في سنة ١٨٧٨ لشركة وطنية برأس مال قدره مائتا ألف فرنك أي تسعة آلاف ليرة عثمانية وهو ينقسم إلى ألفي سهم بقيمة مائة فرنك لكل سهم منها ، وقد أحسنت هذه الشركة إدارته واستثماره مما جعل الربح يختلف بين الأربعة عشر والستة عشر فرنكاً لكل سهم .

أما ما يتعلق بخطوط الترام في سائر المدن الأخرى فمن دواعي الأسف أننا لم نقف على الوثائق المتعلقة بها ولذا لم نتمكن من ذكر شيء عنها .

الطرق العامة في الشام :

تتألف الشام من ثلاثة دروب موازية لساحل البحر تفصل بعضها عن بعض سلسلتان من الجبال الشاهقة تمتد الواحدة منها من صور إلى الإسكندرونة بلا انقطاع فيها إلا في نقطتين . والثانية تبتدئ من الجنوب وتنتهي بالقرب من حمص فيتلاقى الدربان درب البقاع مع درب دمشق وتحصل منهما سهول حماة وحلب العظيمة الممتدة حتى الفرات . فالسلسلة الأولى تتألف من جبل لبنان وتلعاته العديدة الشاهقة المرتفعة عن سطح البحر ما ينيف على الألفي متر والحد الأعظم ٣٠٦٣ . ويمتد هذا الجبل ثلاثين كيلومتراً في الشمال الغربي إلى طرابلس . وهناك ينخفض عند فوهة حمص ثم يرتفع باسم جبل

النصيرية الذي يعلو ١٥٠٠ متر عن سطح البحر وجبل الأقرع وجبل كاسيوس المرتفع ١٨٠٠ متر عن سطح البحر . وبعد ذلك تمتد السلسلة حتى نهر العاصي الذي يقطعها بانخفاض عظيم وبعرض قليل . ثم تمتد هذه السلسلة حتى جبل اللكام وتدخل في أرض الترك حتى ترتبط بجبال طوروس . فهذه السلسلة تحد غرباً الدرب الأول الذي هو عبارة عن الساحل . وكثيراً ما يقرب الجبل من البحر ويسقط فيه كما هو الحال بين صور وحيفا . ولا يوجد في هذا الدرب أرضون سهلية إلا بالقرب من حيفا وبيروت وطرابلس واللاذقية ولكنها قليلة المساحة . وقد أُنشئت المدن المذكورة في هذه السهول . أما السلسلة الثانية الموازية للأولى فتبتدئ بجبل الشيخ (حرمون) بارتفاع ٢٨٠٧ أمتار وتتصل بالجبل الشرقي بارتفاع ٢٠٠٠ متر . وبين هاتين السلسلتين سهل البقاع الذي يبلغ عرضه ١٥ كيلومتراً ويمتد طوله بين الجبلين على مسافة عظيمة . وينحدر هذا السهل على طرفيه من نقطته العليا بالقرب من شمال بعلبك ويقطع هذا السهل النهران العظيمان نهر الليطاني الذي ينبجس من بعلبك فينحدر جنوباً ثم غرباً حتى البحر . ونهر العاصي القريب من نهر الليطاني ينساب شمالاً ماراً بحمص وحماة وأنطاكية بين جبلي امانوس والأقرع ثم يصب في البحر المتوسط في السويدية، وبشرق السلسلة الثانية يقع الدرب الثالث وهو سهل دمشق الذي تجري إليه مياه الجبل الشرقي التي تروي الصحراء . وهناك جبل حوران (جبل الدروز) الممتد شرقاً إلى الصحراء وكأنه بتخطيطه جزيرة منفصلة عن بقية الأرجاء . فهذه الدروب هي التي تقع فيها جميع البلدان الشامية وليس لهذا الجبل ارتباط بالسلسلتين المذكورتين ولذلك فمسألة الطرق تنحصر في ثلاث نقاط :

(أولاً) طرق الاتصال بين المدن الواقعة في درب واحد . (ثانياً) الطرق الواصلة بين المدن الواقعة بين دربين متوازيين بواسطة طرق عرضية أي (شرقية — غربية) . (ثالثاً) الطرق المتشعبة كالشرايين في سهول دمشق وحلب . هذا هو الوضع الجغرافي للشام ذكرناه توطئة للبحث ومنها يتمكن القارئ من معرفة أكثر الطرق .

طرق الشام :

كانت الطرق ووسائط النقل والمواصلات مفقودة في الزمن الغابر حتى القرون الأخيرة في جميع أرض الترك عامة وفي الشام خاصة ، مما دعا إلى تأخر دخول المدنية الغربية إلى هذه الديار مدةً طويلة من الزمن . وكانت الدولة العثمانية في أخريات أيام حكمها الشام أي في سنة ١٨٦٢ أقرت برنامجاً للطرق ، ووضعت قانوناً لإنشائها وإعمارها وحفظها ، فأخذت الأحوال تتبدل ، وبدأت المشاريع تظهر في الشام بصورة حسنة . وكان القانون العثماني يقضي على كل شخص أن يقوم أربعة أيام في السنة بعمارة الطرق خلال عشرين سنة من حياته أو أن يقدم ضريبة قدرها ريال مجيدي واحد . وكانت هذه الضريبة تجبى بمعرفة لجنة قوامها بعض الموظفين الإداريين وموظفي المصارف الزراعية . ولم يراع هذا القانون في كثير من الأحوال ، وكانت الأموال التي خُصصت لعمل الطرق تصرف في نفقات الدولة العامة . وقد وقف العمل بهذا القانون مدة قليلة لأن الأحوال السياسية حالت دون إتمام البرنامج المذكور ، فحرمت سورية الطرق . وكثيراً ما كان يرجح المار على الطريق أن يتبع الأرض المجاورة له لصعوبة السير عليه .

أما الحالة في لبنان فقد كانت على غير ذلك . فإنه منذ نال استقلاله الإداري سنة ١٨٦٠ ازدادت نفوسه ونتج عن ذلك أن ظهرت حركة المهاجرة التي ما فتئت تزداد من ذلك الحين . فاللبنانيون المهاجرون كانوا لا ينسون الذين تركوهم في الوطن ، بل كانوا يرسلون لهم الأموال من مهجرهم أميركا . كما أن الكثير من هؤلاء كان يرجع إلى موطنه بعد حصوله على ثروة لإتمام بقية حياته فيه . وإن قسماً عظيماً من هذه الثروة التي كان يجمعها اللبناني المهاجر كان ينفقه بإعمار بيوته ، أو بإنشاء بيوت جديدة على الطراز الحديث . وبهذه الصورة تمكن الجبل في مدة قليلة أن يعمر بقيام قرى جميلة وافرة السكان تحتاج للاتصال بالسواحل، ولا سيما بيروت وطرابلس وصيدا. وقد اتفق الأهلون أن ينشئوا كثيراً من الطرق بأموالهم الخاصة، فكان عدد الطرق لا يتناسب مع الفائدة المطلوبة منها بل ولا مع ثروة القرية التي تنتهي فيها

هذه الطرق . فكثيراً ما نرى طريقين أو أكثر تمتدان إلى قرى قريبة بعضها من بعض على هضبة واحدة صرف سكانهما الأغنياء على إنشائهما المبالغ اللازمة. ومن جهة أخرى نرى بعض القرى الفقيرة محرومة لا يصل إليها طريق.

الطرق العامة :

أولاً : الطرق الطولية — من الجنوب إلى الشمال .

(١) طريق الساحل — يبدأ من بئر السبع جنوباً وينتهي بالإسكندرونة شمالاً ويمر من بئر السبع — غزة — يُبنى — يافا — طوركرم — حيفا — عكا — صور — صيدا — بيروت — طرابلس — طرطوس — اللاذقية — جسر الشغور — جسر الحديد — بني شهر — بني كوي — الإسكندرونة .

(٢) الطريق الثاني — يبدأ من بئر السبع جنوباً وينتهي في كليس شمالاً ويمر من بئر السبع — الخليل — القدس — البيرة — رام الله — نابلس — جينين — الناصرة — طبرية — الجاعونة — مرجعيون — قرعون — سغبين — عميّق — قب الياس — شتورة — المعلقة — بعلبك — القصير — حمص — الرستن — حماة — معرة النعمان — سراقب — تفتناز — اوروم الصغرى — حلب — كليس ..

(٣) الطريق الثالث — يبدأ من بئر السبع جنوباً وينتهي بحمص شمالاً فيلتقي بطريق حماة وحلب. ويمر من المدن المذكورة أعلاه في الطريق الثاني حتى الجاعونة حيث يفصل منها فيمر من جسر بنات يعقوب — القنيطرة — وادي العجم — دمشق — دوما — القطيفة — النبك — قارة — حسية — حمص . ويمتد بعد ذلك إلى حلب كما هو مذكور في الطريق الثاني .

(٤) الطريق الرابع — يبدأ من القدس جنوباً وينتهي في دمشق شمالاً فيمر في القدس — أريحا — الصلت — عمان — الرمتا — درعا — شيخ مسكين — غباغب — خان دنون — الكسوة — دمشق .

(٥) الطريق الخامس طريق البادية — يبتدئ من دمشق جنوباً وينتهي بدير الزور بعد أن يتصل بطريق الموصل شمالاً ويمر في دمشق — القطيفة — جيرود — القريتين — تدمر — السخنة — دير الزور — الصوار — البيضاء

على الحدود التركية . وفرع يبدأ من دير الزور أيضاً إلى الصوار ومنها إلى نصيبين حيث الأراضي الداخلة في حدود تركيا .

ثانياً : الطرق العرضية من الغرب إلى الشرق .

(١ً) غزّة — بئر السبع .

(٢ً) يافا — الرملة — القدس — عمان .

(٣ً) يافا — قلقيلية — نابلس — الناصرة — طبرية — سمخ .

(٤ً) حيفا — الناصرة — طبرية — الجاعونة — جسر بنات يعقوب .

(٥ً) حيفا — الناصرة — جينين — نابلس — أريحا .

(٦ً) صيدا — مرجعيون — بانياس — القنيطرة — ازرع — السويداء — صرخد .

(٧ً) درعا — بصرى — صرخد .

(٨ً) بيروت — دمشق — بغداد .

(٩ً) طرابلس — حمص — تدمر — بغداد .

(١٠ً) اللاذقية — جسر الشغور — إدلب — حلب — دير الزور .

(١١ً) السويدية — أنطاكية — جسر الحديد — حارم — حلب .

(١٢ً) الإسكندرونة — قرق خان — يني شهر — اوروم الصغرى — حلب .

وصف الطرق :

أولاً — طريق الساحل : يبلغ طول هذا الطريق ٢٧٠ كيلو متراً اعتباراً من بئر السبع إلى عكا ورأس الناقورة . ومن رأس الناقورة حتى اللاذقية ٤٠٠ كيلو متر وهو طريق معبّد من أحسن الطرق الشامية . وطريق اللاذقية حتى يني كوي وطوله ١٧٠ كيلو متراً قيد الإنشاء ولا يزال في حالة تمهيدية . ومن يني كوي إلى الإسكندرونة طريق معبد وطوله ٥٠ كيلومتراً ويبلغ مجموع طول هذا الطريق ٨٩٠ كيلو متراً وإن المبالغ المنفقة عليه من عام ١٩٢٠ إلى عام ١٩٢٧ لا تقل عن ثلاثمائة ألف ليرة ذهبية تقريباً .

ثانياً — الطريق الطولي الثانية : إن هذا الطريق يبدأ من بئر السبع حتى طبرية والجاعونة وطوله ٢٩٠ كيلو متراً وهو معبد . ومن الجاعونة إلى سغبين وطوله ٨٠ كيلومتراً كان بوشر به في زمن الحرب ولما يتم تعبيده . ومن

سغبين إلى شتورة والمعلقة وبعلبك وطوله ٦٠ كيلومتراً وهو معبّد . ومن بعلبك إلى حمص فإن الطريق لم يجر إنشاؤه حتّى الآن . وقد كانت الحكومة العثمانية شرعت بانشاء بعض الجسور فيه ولم يتم .

أما القسم الواقع بين حمص وحماة وطوله ٤٧ كيلومتراً فإنه كان معبّداً وكانت شركة الحافلات (الدلليجانس) الوطنية قد أنشأته وبعد إنشاء الخطوط الحديدية أهملته الحكومة فتخرب خلال الحرب العامة بسبب النقليات العسكرية بالسيارات الضخمة وحتّى الآن لم يجر تعبيده . ولم يكن طريق حماة — حلب وطوله ١٥٠ كيلومتراً معبداً من قبل وليس ثمّة سوى طريق القوافل القديمة، على أن إدارة النافعة في حلب باشرت بإنشائه واتخذت طريقاً جديداً يبدأ من حلب إلى تفتناز باستقامة طريق إدلب — جسر الشغور — اللاذقية ومن تفتناز يتجه نحو بلدة خان شيخون الواقعة على حدود أراضي حلب ودمشق مارّاً بسراقب ومعرة النعمان . وقد تمت تسوية الطريق الداخل في منطقة حلب وبوشر بتعبيده وسينتهي في عام ١٩٢٨. وكذلك باشرت إدارة النافعة بدمشق بتسوية القسم الداخل في منطقتها وستنتهي تسويته في أوئل عام ١٩٢٨ . وقد بلغ ما صُرف على هذا القسم من سنة ١٩٢٥ حتّى سنة ١٩٢٧ ما يربو على أربعين ألف ليرة ذهبية . والطريق من حلب إلى تفتناز على طول خمسين كيلومتراً معبدة . وجرت تسوية الطريق من تفتناز إلى خان شيخون على طول سبعين كيلومتراً . وتم بناء الأعمال الصناعية من جسور وقناطر وهو يجري تعبيده الآن . وبوشر بتسوية طريق خان شيخون حماة على طول ثلاثين كيلومتراً والطريق معبد منذ القديم من حلب حتى كليس وطوله ستون كيلو متراً وقد جرى إصلاحه مجدداً .

ثالثاً — الطريق الطولي الثالث : يبتدئ هذا الطريق من بئر السبع إلى الجاعونة وجسر بنات يعقوب وطوله ٣٠٠ كيلومتر وهو معبد . والطريق معبد من جسر بنات يعقوب فالقنيطرة فوادي العجم فدمشق وطوله تسعون كيلومتراً . وكانت الحكومة العثمانية باشرت بإنشائه منذ عشرين سنة ولما

يتم . قد أُنفق على إنشائه من سنة ١٩٢٠ إلى ١٩٢٧ ما يربي على ثلاثين ألف ليرة ذهبية .

أما طريق دمشق – النبك – حمص وطوله ١٦٠ كيلومتراً فقد كانت الحكومة العثمانية باشرت بإنشائه قبل ثلاثين سنة وتم قسم كبير من تسويته ولم يتم . وهناك قسم منه وطوله ثلاثون كيلومتراً يقع بين النبك وقارة والبريج لم ينشأ فيه شيء أيضاً ولا يزال بحالته الطبيعية وتعمل حكومة قضاء النبك على إصلاحه أحياناً وتزيل الحجارة منه وتردم الحفر التي تنشأ بمرور العجلات والسيارات . وتفكر الحكومة الآن بتحويل هذا الطريق إلى قرية دير عطية بدلاً من قرية قارة التي كانت دائماً المركز الطبيعي للمواصلات بين دمشق وحمص . ولقد هجرت الحكومة العثمانية هذا الطريق أثناء الحرب العامة لفقد الأمن فيه وكثرة اعتداءات العشائر والجنود الفارين من الزحف وكانوا يلجأون إلى هذه المنطقة ليعتاشوا . وصرفت حكومة دمشق مبالغ كبيرة لإنشاء هذا الطريق ولم ينته إلى الآن . وقد بلغ ما أُنفق عليه من عام ١٩٢٠ إلى ١٩٢٧ ما يربو على الخمسين ألف ليرة ذهبية .

رابعاً – الطريق الطولي الرابع : تبدأ هذه الطريق من القدس وتتجه صوب أريحا والصلت وعمان والرمتا وإربد ودرعا . وكان شرع بتعبيدها منذ ثلاثين سنة ولم تزل على ما كانت عليه . وجرت فيها بعض الإصلاحات في جهة القدس والصلت وعمان . وما برح من درعا حتى دمشق على حالته القديمة ولم يُدخل عليه سوى بعض الإصلاحات بين دمشق وخان دنون وتعمل حكومة سورية على إصلاحه وقد حال فقدان المال دون إنجازه .

خامساً – الطريق الطولي الخامس : تبدأُ هذه الطريق التي تجتاز البادية من دمشق إلى القطيفة وهي معبدة وطولها ٤٠ كيلومتراً . ومن القطيفة إلى جيرود افتتح طريق جديد وجرت تسويته بتسخير الأهالي بالعمل فيه . ولم يجر شيء من الإصلاحات من جيرود إلى القريتين وتدمر ودير الزور حتى البيضاء . ويبلغ طول هذه الطريق من دمشق إلى تدمر ٢٥٠ كيلومتراً، ومن تدمر إلى دير الزور ٢٢٠ كيلومتراً، ومن دير الزور إلى البيضاء في حدود الموصل ١٥٠ كيلومتراً. فيكون مجموع طول هذه الطريق ٦٢٠ كيلومتراً

ولم يعمل فيها سوى جسر الصوار المعلق وفوهته خمسون متراً . وقد بنت نافعة حلب هذا الجسر مؤخراً وأنفق عليه ١٥ ألف ليرة ذهبية . ويبنى الآن في دير الزور جسر كبير معلق يبلغ طوله ٢٥٠ متراً وسيتم بناؤه قريباً وتقدر نفقاته بستين ألف ليرة ذهبية .

وأما الفرع الثاني الذي ينفصل من الصوار إلى الحسجة ونصيبين وطوله ١٩٠ كيلومتراً فإنه طريق طبيعي لم يعمل فيه شيء من القديم . ويبدأ طريق بغداد من دير الزور ماراً بالبصيرة والميادين والبوكمال ويبلغ طوله حتى حدود العراق ١٤٠ كيلو متراً . وتفكر إدارة النافعة في حلب بإجراء بعض إصلاحات فيه وهي تقوم بإنشاء جسر على نهر الخابور في البصيرة . وكذلك تعمل على تعبيد القسم المار في أرض صخرية وطوله ١٥ كيلو متراً . وهذا القسم جزء من الطريق الذي يبدأ من حلب إلى دير الزور وينتهي ببغداد .

ثانياً = الطرق العرضية من الغرب إلى الشرق :

(١ً) أُنشئ طريق غزة = بئر السبع وطوله ٤٢ كيلومتراً في زمن الحكومة العثمانية وهو معبد .

(٢ً) أنجزت الحكومة العثمانية بعض أقسام طريق يافا ــ الرملة ــ القدس ــ الصلت ــ عمان وطوله ١٦٠ كيلو متراً والقسم الآخر منه لم يتم . وقسم يافا ــ القدس وطوله ٦٠ كيلو متراً معبد والباقي قيد الإنجاز .

(٣ً) تم في العهد الأخير تعبيد طريق يافا ــ قلقيلية ــ نابلس ــ الناصرة ــ طبرية ــ سمخ وطوله ١٥٠ كيلومتراً .

(٤ً) تم إنشاء طريق حيفا ــ الناصرة ــ طبرية ــ الجاعونة ــ جسر بنات يعقوب وطوله ١١٠ كيلومترات . وكانت الحكومة العثمانية أنشأت بعض أقسامه .

(٥ً) ونصف طريق حيفا ــ الناصرة ــ جينين ــ نابلس ــ أريحا وطوله ١٥٠ كيلومتراً معبد والنصف الآخر لم يتم تعبيده .

(٦ً) طريق صيدا ــ مرجعيون ــ بانياس ــ القنيطرة ــ الشيخ مسكين ــ إزرع ــ السويداء ــ صرخد وطوله ١٨٠ كيلومتراً . وكانت الحكومة العثمانية باشرت إنشاء قسم الشيخ مسكين إلى إزرع والسويداء حتى صرخد

وذلك بعد حروب جبل الدروز لتموين الجيش وقد تم مؤخراً تعبيد القسم الواقع بين إزرع والسويداء وطوله ٣٧ كيلو متراً . وباشرت حكومة لبنان تعبيد طريق صيدا — مرجعيون — بانياس وطوله ٤٠ كيلو متراً ولم ينته حتى الآن . وتقوم إدارة النافعة بدمشق بتعبيد القسم الواقع بين بانياس والقنيطرة ويبلغ طوله ٣٤ كيلومتراً . وسينتهي في أول صيف عام ١٩٢٨ . وتدرس هذه الإدارة أيضاً مشروع إنشاء طريق من القنيطرة إلى الشيخ مسكين فإزرع وسينشأ هذا القسم خلال ثلاث سنوات . وتقدر نفقات إنشائه بنحو مائة ألف ليرة ذهباً .

(٧ً) لم يتم تعبيد طريق درعا — بصرى — صرخد وطوله ٦٠ كيلو متراً وكانت الحكومة العثمانية باشرت إنشاءه .

(٨ً) طريق بيروت — دمشق — بغداد وطوله من بيروت إلى دمشق ١١٢ كيلومتراً نالت امتيازه شركة إفرنسية في سنة (١٨٥٧) وبدأت بإنشائه في سنة (١٨٥٩) وقد ترأس أعماله الكولت دي تو بري وكان رأس مال هذه الشركة إفرنسياً بحتاً . وكان السير عليه صباحاً ومساءً من الجهتين على الحوافل (الدليجانس) وتقطع هذه الحوافل المسافة بين بيروت ودمشق في ثلاث عشرة ساعة ووضعت الحكومة العثمانية إذا ذاك لهذه الشركة نظاماً وأسعاراً لنقل الركاب والبضائع والحيوانات . وامتنع بعض الأهالي من السير عليه بسبب غلاء الأسعار فكانوا يسيرون بالقرب منه على طريقين متوازيين له . وقد كان هذا العمل من أربح الأعمال التي قامت برؤوس أموال إفرنسية وجرى الإجماع على أن هذا المشروع أفاد الأهالي وأصحاب الأسهم فائدة عظمى وقد ربحت الشركة أرباحاً طائلة منه . إذ كان الربح الصافي سنوياً يقدر بخمسمائة ألف فرنك . واستمرت هذه الشركة على أعمالها مدة ثلاثين سنة حتى انحلت سنة ١٨٩٢ أيام اشتركت مع شركة خط بيروت — دمشق — حوران الحديدي . وإذ ذاك استلمت الحكومة العثمانية الطريق وأهملت محافظته حتى قبل الحرب العامة ، فأصبح السير عليه صعباً لعدم إصلاحه وتعميره ، واهتم الأتراك بإصلاحه في الحرب العامة . وبعد الحرب قامت الحكومات السورية واللبنانية بإصلاحه فصلح للسير وتيسر أن تستعمل السرعة عليه بأجناس السيارات والدراجات .

وبعد دمشق يتجه الطريق شمالاً على طريق النبك وبعد عشرين كيلو متراً يتجه شرقاً على طريق البادية ماراً بجوار قريتي عذراء وضمير إلى الرُحَيْبة نقطة الحدود السورية العراقية . وطول الطريق من دمشق إلى بغداد ٧٧٠ كيلو متراً منه عشرون كيلو متراً على طريق النبك يسير في طريق معبدة والباقي ٧٥٠ كيلو متراً طريق طبيعي مهدته السيارات في الصحراء . ولهذا الطريق مكانة كبرى في التجارة والسفر بين دمشق والعراق وفارس .

ومن دمشق إلى بغداد طريق ثان وهو الطريق الذي يمر بالقطيفة وجيرود والقريتين وتدمر وطوله ٨٥٠ كيلو متراً ، فإنه يزيد طوله على الطريق الأول ٨٠ كيلو متراً ويبلغ طوله من دمشق إلى القطيفة ٤٠ كيلو متراً وهو جزء من طريق النبك المعبد وهو بحالة حسنة . وقد جرى فتح طريق القطيفة — جيرود مجدداً على طول ١٥ كيلو متراً ولم يعبد بعد غير أنه سهل المرور . والطريق من جيرود حتى القريتين وتدمر وبغداد طبيعي لم تعمل يد الإنسان فيه شيئاً . ويرجع شأن هذا الطريق لاجتيازه البلدان العامرة والقرى الآهلة على طول ٢٥٠ كيلو متراً بين دمشق وجيرود وتدمر وعلى الاخص لمروره بمدينة تدمر التاريخية .

(٩°) طريق طرابلس — حمص — تدمر — بغداد . كانت تستثمر طريق طرابلس — حمص شركة وطنية كما كانت تستثمر طريق بيروت — دمشق شركة إفرنسية وكان ذلك قبل أن تؤسس شركة الخطوط الحديدية الفرنسية . والمسافة بين طرابلس وحمص ٩٤ كيلو متراً وبين حمص وحماة ٤٧ كيلو متراً فيكون المجموع ١٤١ كيلو متراً كانت كلها موضوعة تحت تصرف الشركة الوطنية المذكورة ورأس مالها ٢٨ ألف ليرة عثمانية ذهبية . ويقسم رأس المال إلى سبعة آلاف سهم وقيمة كل سهم أربع ليرات عثمانية ذهبية . وكان ربح كل سهم من هذه الأسهم ليرة واحدة في السنة . ومدة الامتياز خمسون سنة . وأجرة الراكب في الحوافل (الدليجانس) نصف ليرة من طرابلس إلى حمص . وبعد انحلال هذه الشركة هجرت الحكومة العثمانية هذه الطريق حتى خربت وتداعت جميع جسورها أثناء الحرب العامة وزادت السيول في تخريبها حتى أصبحت في عام ١٩٢٥ بحالة لم تبق معها صالحة

للسير . وقد بوشر بتعبيدها في آخر عام ١٩٢٦ وانتهى في النصف الأول من عام ١٩٢٧ وأما طريق حمص ـ حماة فلم يزل على ما هو عليه أيام الحرب العامة . وشرعت الحكومة السورية بإصلاح بعض الأقسام فيه وسيتم إنشاؤه في نهاية عام ١٩٢٨ . ويجتاز الطريق من حمص إلى تدمر فبغداد من الصحراء على طريق طبيعي مهدته السيارات ويبلغ طوله ٧٥٠ كيلو متراً . وكانت السيارات تجتاز هذا الطريق أثناء انقطاع السبل بين بيروت ودمشق وبغداد .

(١٠ً) طريق اللاذقية ـ جسر الشغور ـ ادلب ـ حلب ـ دير الزور .

وقد افتتح القسم الواقع بين اللاذقية وحلب في آخر عام ١٩٢٦ ولم يزل العمل فيه مستمراً وسينتهي تعبيده في عام ١٩٢٨ ويبلغ طوله ١٩٠ كيلو متراً وطول المعبد منه الآن مائة كيلو متر . وفي اللاذقية يتصل هذا الطريق بالطريق العام الواصل بين اللاذقية وطرابلس وبيروت ورأس الناقورة فيتمكن المسافر من حلب أن يقطع هذا الطريق على متن السيارة من حلب حتى اللاذقية وبيروت . وأما من حلب إلى دير الزور فالطريق صعبة جداً وتقوم إدارة النافعة بحلب بإصلاح الأقسام الأكثر صعوبة منها ويبلغ طولها ٣٢٠ كيلومتراً وهي مارة بجوار مسكنة والرقة وتنتهي في بلدة دير الزور حيث يتفرع منها ثلاث طرق طريق الموصل وطريق بغداد وطريق تدمر ـ دمشق .

(١١ً) طريق السويدية ـ أنطاكية ـ جسر الحديد ـ حارم ـ حلب .

افتتح هذا الطريق حديثاً في آخر عام ١٩٢٦ ولم يزل العمل فيه مستمراً . وسيتم إنشاؤه في نهاية عام ١٩٢٨ ويبلغ طوله ١٤٠ كيلومتراً . وافتتح القسم الواقع بين السويدية وأنطاكية في الجبال والأودية ويبنى عليه عدة جسور ذات شأن عظيم وستكلف نفقات باهظة وطول هذا القسم ٣٥ كيلو متراً . ومن أنطاكية إلى جسر الحديد حتى حارم يجتاز الطريق في أرض طينية لا يمكن المرور فيها في فصل الشتاء . وأما بين حارم وحلب فالطريق معبدة وطولها ٧٠ كيلو متراً وتسير عليها السيارات بسرعة .

(١٢ً) طريق الإسكندرونة ـ قرق خان ـ بني شهر ـ أوروم الصغرى ـ حلب . تقضي كثرة المعاملات بين حلب والإسكندرونة بأن تكون المواصلات بين هذين البلدين سهلة ولكن لم يعمل في زمن الحكومة العثمانية ما يضمن

النجاح في هذا الشأن . وكان التجار الإنكليز في القرن السابع عشر يشكون من الصعوبات الجمة التي كانوا يلاقونها حين ذهابهم من حلب إلى الإسكندرونة

أنشأت الحكومة العثمانية طريقاً في سنة ١٨٧٠ في الحدود الشمالية من ولاية حلب تضمن به المواصلات في البحر إلى أنحاء كليس وعينتاب والبيرة والأرض التركية الأخرى . وكان القصد من إنشائه وصل الإسكندرونة بالولايات التركية وقد وصلت الحكومة العثمانية هذه الطريق بفرع بين قطمة وحلب تفادياً من إنشاء طريق ثان خاص بحلب فأصبح هذا الطريق يعد طريقاً لها . ثم تخرب في سنة ١٨٨٠ وكان كلف الحكومة مبلغاً لو أُنفق على إنشاء خط تراموای لما كلف أكثر من ذلك . وكانت القوافل تتبع طريقاً أقصر طولاً منه بأربعين كيلومتراً وهو الطريق الذي أنشأته الحكومة السورية حديثاً . وتتجنب القوافل المرور في مستنقعات نهر عفرين التي يمر منها الطريق القديم . وعلى هذا فقد بقي هذا الطريق مخرباً إلى سنة ١٨٩٠ حتى اتفق أن اجتازه أحد الولاة في حلب فتحطمت عجلته وعلى أثر ذلك قررت الحكومة تعميره وخصصت لهذا العمل سنوياً ثلاثة آلاف وثلاثمائة ليرة للاستمرار على ترميمه وإصلاحه . وبعد جلاء الأتراك بقيت الطريق مهجورة من غير إصلاح أو ترميم إلى أن تخربت . ورأت حكومة سورية أخيراً تركها لطولها وكثرة نفقات إصلاحها ولبعدها عن مراكز الأراضي الواقعة بين الإسكندرونة وحلب . ففكرت بعد إنشاء طريق حلب — حارم أن تنشئ فرعاً بين بنى شهر وبنى كوي للاتصال بين الإسكندرونة وحلب . وقد تم فتح هذا الفرع بتمهيده ولم يعبد بعد . وقد أصبح طول هذا الطريق الجديد بين حلب والإسكندرونة ١٢٣ كيلو متراً بعد أن كان طول الطريق القديم ١٦٣ كيلو متراً وصارت المسافة بالطريق الجديد أقصر منها في الطريق القديم أربعين كيلومتراً .

هذا مجموع الطرق الأساسية العامة بالشام وهناك طرق فرعية كثيرة ممتدة كالشرايين تصل القرى بعضها ببعض ثم تربطها بمراكز الأقضية كما أنها تتصل بالطرق العامة . وكان أُنشئ قسم من هذه الطرق الفرعية قديماً وافتتح القسم الآخر حديثاً بطريق السخرة غير أن أكثر هذه الطرق إن لم نقل كلها

تحتاج إلى الإصلاح والتعبيد لتسهيل المواصلات بين القرى والبلدان ولتتمكن السيارات من السير عليها على أيسر صورة وتصبح حركة النقل سريعة لا كما هي عليه الآن في أكثر هذه الطرق من البطء الظاهر وحينئذ تزداد الموارد ويسهل نقل البضائع إلى المدن والسواحل ولا يخفى ما في ذلك من الفوائد العظيمة لإنعاش الحياة الاقتصادية . ومن جهة أخرى فإن وجود طرق صالحة في قطر يزيد عدد السياح والمصطافين الذين يرتادونه ، وهذا أيضاً له شأنه في تقدمها وعمرانها .

السيارات :

وراجت في الشام عقب انتهاء الحرب العامة سوق السيارات على اختلاف أنواعها حتى أصبح منها عدد غير قليل يستخدم لنقل الركاب والبضائع في عامة الأرجاء . وقد تبين من الإحصاء الرسمي حتى آخر أيلول سنة ١٩٢٧ أن مجموع عدد السيارات التي سجلت رسمياً في الديار الشامية ٦٦٢٢ . منها ٦٥٣ في دمشق و ٦٢٩ في حلب و ١٠١ في حمص و ٩٣ في حماة و ٤١ في دير الزور و ٢١٥ في بلاد العلويين و ٤٨٩٠ في لبنان . وإذا فرضنا أن عدد السيارات في فلسطين نحو ثلاثة آلاف فيكون مجموعها في الشام ما يقرب من عشرة آلاف سيارة مختلفة الشكل والصورة . وقد أضرت هذه السيارات بمصلحة بعض السكك الحديدية ففترت أعمالها بعض الشيء لرغبة الناس في السرعة الزائدة — انتهى .

البرق والبريد والهاتف (*)

منشأ البرق « التلغراف » :

لم يكن إلى الربع الأخير من الحكم التركي بالشام برق ولا بريد ولا هاتف منظم . وضع نظام البرق في ٢٧ ربيع الأول سنة ١٢٧٦ هـ ولنظام البريد في ٢٦ المحرم سنة ١٢٨٦ هـ وكان يتبادل بريد الحكومة على عهد الحكومات السابقة بواسطة السعاة والنجابين أو بواسطة حمام الزاجل . وتستعمل إشارات الضياء (الفوانيس) إبان الحروب عوضاً عن الإشارات البرقية السلكية واللاسلكية والهوليسته المستعملة الآن ، واصطلح على استعمال كلمة برق عوضاً عن كلمة تلغراف اليونانية المركبة من كلمتين تل — غراف والأولى بمعنى بعيد والثانية الكتابة أي الكتابة عن بعد ، منذ نحو ستين سنة واستعملت كلمة الهاتف على عهد الحكومة العربية عوضاً عن كلمة تلفون اليونانية المركبة من تل وفون أي الصدى البعيد .

وللبرق ثلاثة فصول : الشبكة والآلات والأدوات المستعملة وشكل الإدارة والمخابرة واقتصرت شبكة البرق بدمشق على العهد التركي ، حتى سنة ١٨٩٩ على الأسلاك الممتدة منها شمالاً إلى حلب وجنوباً إلى القنيطرة ، الصلت ، حوران ، وشرقاً دومة ، وغرباً بيروت ، حاصبيا ، ثم توسعت هذه الشبكة في سنة ١٩٠٠ بتمديد الخط البرقي الحجازي من الصلت حتى المدينة المنورة وامتد فرع منه بين معان والعقبة . وللسلك البرقي الحجازي عمود تذكاري ركز في ساحة الشهداء بدمشق .

(*) أخذت معلومات هذا الفصل من إدارة البريد والبرق في دمشق .

وتفرع من السلك الشمالي فرع امتد بين حمص ، طرابلس وحمص ، بعلبك وحماة ، سلمية وحماة ، العمرانية ومن السلك الجنوبي إلى جبل الدروز وبصرى ، وعلى أثر جلاء الجيش التركي ودخول جيش الحلفاء أواخر سنة ١٩١٨ خربت هذه الشبكة ثم أعيد إنشاؤها على عهد الحكومة العربية إلى ما كانت عليه قبلاً حتى انسلاخ فلسطين وشرقي الأردن وجبل الدروز عن جسم الشام . وظلت هذه الشبكة البرقية بطول ١٥٧١ كيلو متراً .

وقد أنشأت الحكومة التركية أثناء الحرب العامة المخابرات اللاسلكية بدمشق وحلب واستعملت الإشارات الضيائية والبصرية بالأعلام والسواعد ضمن قطعات الجيش فقط .

الآلات والأدوات والمخابرة :

كانت الآلات والأدوات البرقية المستعملة على العهد التركي حتى سنة ١٣٠٥ هـ ١٨٨٩ م منحصرة في نوع سميس ومورس الأوربي ثم عدلت هذه الأدوات في مصنع البرق الذي أحدث في نظارة البريد والبرق في الاستانة بشكل جمع بين النوعين المذكورين بجعل إبرة الكاتبة بآلة الأخذ للمفاوضات البرقية أن تنقش الإشارات الرمزية .. — (— — .. — ... — . — .) على شريط الورق بصورة ناشفة بدلاً من نقشها بالحبر كالآلات السابقة ثم ألغت النظارة استعمال الأبرة والسلك على أثر ترقي الموظفين بتلقي نقرات المخابرة سماعاً وأصبحت الآلات المذكورة من نوع البارلور الذي هو عبارة عن الآلة الآخذة ، وقد اقتصدت الإدارة بوجود أقسام الكتابة ثلاثة أضعاف ما كانت تكلفها قبلاً . واستمر الحال على استعمال هاته الآلة حتى نشوب الحرب العامة فأحدثت الماكنات المضاعفة (دوبلكس) الألمانية والانكليزية التي سهلت المخابرة أخذاً ورداً في آن واحد على خط واحد كإحداثها ماكنات الهوك المفردة والمضاعفة التي تنقل المخابرات البرقية على السلك الورقي حروفاً هجائية أخذاً ورداً .

وكانت المفاوضات البرقية على العهد التركي حتى سنة ١٩٠٠ في أكثر المراكز تنحصر باللغتين الشرقيتين التركية والعربية ولا تتعدى الأرض العثمانية

عدا بضعة مراكز كدمشق وبيروت وما يماثلها من مراكز الولايات وبعد ذلك أحدثت المفاوضات الغربية بين المراكز العثمانية وأوربا .

إحداث الهاتف :

أحدث الهاتف في الشام بعد إعلان القانون الأساسي في تركيا خلال ٣٢٤/٩٠٨ وكان منحصراً بالدوائر الرسمية الرئيسية الملكية والعسكرية ورخص بتمديد الأسلاك الخصوصية في مسكن كل مشترك وحانوته أو مشترك آخر في بلدة واحدة تحت إشراف ديوان البرق الملكية . واستمرت هذه الشبكة الهاتفية بشكلها حتى نشوب الحرب العامة فألغيت منها الأسلاك الخاصةوانحصرت بالأسلاك الرسمية التي تجاوزت نفس دمشق وتوسعت إلى مناطق الجيوش ومواقع الحرب حتى إذا انجلت الحكومة العثمانية عن القطر ودخل الجيش المحتل استلمها وأسس على أنقاضها شبكة خاصة عسكرية ومدها إلى مناطق الانتداب الرئيسية كدمشق وحمص-وحماة وحلب والإسكندرونة الخ . وسمح للسكان والتجار بالاشتراك والارتباط والتخاطب بها مقابلأجور مقطوعة على كل ثلاث دقائق تمر أثناء المخابرة . وارتبطتالحكوماتالوطنية في كل من هاته البلدان بدوائرها المركزيةهاتفياً واستقلتالدرك بشبكة خاصةمع مخافرها.

أما الهاتف اللاسلكي الرسمي فانحصر بإدارة الراديوالعسكري أخذاً ورداً والهاتف اللاسلكي التجاري سمح به في قسم الأخذ منه تحت إشراف إدارة البريد والبرق دون استعمال آلة الرد أي الإصدار .

منشأ البريد :

البريد كلمة فارسية مختصرة من كلمتي بريد ذنب أي مقطوع الذنب . والسبب بهذا الاصطلاح غير المأنوس هو أن الفرس كانوا يقطعون أذناب الحيوانات التي تنقل بريد الحكومة تمييزاً لها عن بقية الحيوانات التي تستخدمها لركوب الدرك والجباة . فحذفت العرب كلمة الذنب واقتصرت على كلمة البريد والجمع منها برد . ولم يكن قبل القرن السابع عشر أثر للبريد على ما ورد في مجموعة البرق والبريد التركية .

كان شكل البريد وسيره وإدارته ونقله حتّى تاريخ تمديد السكة الحديدية المصادف لسنة ١٣٠٧ هـ ١٨٩١ م بين بيروت ودمشق – المزيريب تنحصر حتّى بيروت بمركبات شركة الحوافل الملغاة . أما باقي الجهات فكانت شمالاً حتّى حلب فالاستانة تسافر براً مع التاتار أي مع سعاة البريد الموظفين ينقلونه على ظهور الخيل ، وشرقاً بين دمشق والعراق – بغداد على ظهر الهجن (الذلول) ، وجنوباً بواسطة السعاة المأجورين ، وبحراً بواسطة بيروت وهو عبارة عن تبادل الكتب والصحف والملفات والنماذج والصرر ذات القيمة مع الأرض العثمانية وعلى الكتب والصحف والملفات مع الممالك الأجنبية .

وقد بدأ شكل سير البريد يتطور نقلاً وإدارةً ومعاملةً من سنة ١٣١٦– ١٩٠٠ فألغيت سعاة التاتار سنة ١٩٠٢ بين دمشق وحماة وسنة ١٩٠٥ بين حماة وحلب وسنة ١٣٣١ – ١٩١٥ من حلب وأذنة فقونية . وأصبح نقل البريد حتّى الاستانة براً بالسكة الحديدية التي أنشئت شمالاً كما أنها أحدثت نقليات البريد حتّى الحجاز أي المدينة المنورة بالسكة الحجازية التي كان بدئ بإنشائها سنة ١٩٠١ – ١٣١٧ وانتهت بسنة ١٩٠٨ – ١٣٢٤ . وتبدلت نقليات البريد تدريجياً في الأصقاع الشامية من الحيوانات إلى متن السيارات . وأما فيما له شأن بالمعاملات فقد أحدثت على التدريج واعتباراً من سنة ١٩٠٠ أنشئت الحوالات البريدية فالبرقية والطرود العادية فالمشروطة التأدية والرسائل ذات القيمة المقدرة بين الممالك العثمانية والشام . وفي سنة ١٩٠٢ بدأت هذه المعاملات الجديدة مع الممالك الأجنبية في أوربا وآسيا وإفريقية . ودامت على هذا التوسع التدريجي حتّى نشوب الحرب العامة فانقطعت عندئذ مع الدول المعادية لتركيا واقتصرت على الممالك المتفقة معها إلى أن جلت الدولة عن الشام وانقطعت المواصلات البريدية أثناء احتلال دول الانتداب أرض الشام ثم عادت المواصلات إلى سيرها السابق . هذا عدا انقطاع السكة الحجازية الذي لم تصل بين الشام والحجاز أي المدينة المنورة بعد الاحتلال البريطاني لفلسطين و شرقي الأردن الخارج عن حدود الدولة السورية .

مراكز البريد والبرق في الشام :

دمشق مركز البريد ، دمشق باب توما ، دمشق الميدان ، عفرين ، حلب ، اعزاز ، الباب ، بصرى ، دير الزور ، درعا ، جرابلس ، جسر الشغور ، دومة ، أريحا ، أزرع ، حماة ، حارم ، حمص ، خربة الغزالة ، أدلب ، قطنا ، القنيطرة ، القطيفة ، معرة النعمان ، منبج ، النبك ، عمر آغا ، الرقة ، سلمية ، السويداء ، يبرود ، الزبداني ، الإسكندرونة ، أنطاكية ، آرسوز ، بيلان ، قريق خان ، الريحانية ، السويدية ، كسب ، بلودان ، .

هذا في دولة سورية ، وهذه مراكز البريد في لبنان :

بيروت ، جديدة المتن ، جونية ، جبيل ، البترون ، ألفة ، طرابلس ، زغرتا ، عكار ، غزير ، أميون ، بشرّي ، الدامور ، صيدا ، صور ، تبنين ، بنت جبيل ، جزين ، النبطية ، مرجعيون ، حاصبيا ، بعبدا ، عاليه ، دير القمر ، بعقلين ، بيت مري ، برمانا ، بكفيا ، بيت شباب ، الشوير ، بسكنتا ، بحمدون ، صوفر ، حمانا ، زحلة ، رياق ، بعلبك ، الهرمل ، جب جنين ، مشغرة ، حصرون ، أهدن ، دومة لبنان ، حدث الجبّة ، عين زحلتا ، سوق الغرب ، سير ، قرْطبا ، الشويفات .

وهذه أسماء مراكز البريد في بلاد العلويين :

بانياس ، جبلة ، القدموس ، القرداحة ، اللاذقية ، المشتى ، العمرانية (مصياف) ، أرواد ، صافيتا ، صهيون ، طرطوس ، تل كلخ .

وإليك أسماء مراكز البريد والبرق في فلسطين :

عكا ، العفولة ، بئر السبع ، بيْسان ، غزة ، حيفا ، يافا ، جنين القدس . لدّ ، المجدل ، نابلس ، ملبس ، الرملة ، ديران ، سمخ ، صرفند تل أبيب ، طوركرم ، زمارين .

وقد أصبحت فلسطين في عهد الانتداب الإنكليزي مربوطة كلها حتى قراها بشبكة من سلك الهاتف فنازع الهاتف البرق في هذا القسم الجنوبي من أرض الشام وأصبحت المواصلات فيه سريعة للغاية .

وهذه جريدة أسماء مراكز البرق والبريد في شرقي الأردن :
اربد ، أم قيس ، دير أبو سعيد ، الحصن ، الرمتا ، الزرقا ، الصلت ، الطفيلة ، عجلون ، عمان ، القطرانة ، الكرك ، مادبا ، معان ، جرش .
أما مراكز البرق خاصة في ولايات الانتداب الإفرنسي في الشام فهي كما يلي :
(سورية) : حلب ، الإسكندرونة ، أنطاكية ، آرسور ، اعزاز ، الباب ، بيلان ، بلودان ، بصرى ، دمشق ، دير الزور ، درعا ، جرابلس ، جيرود ، جسر الشغور ، دومة ، ريحا ، ازرع ، حماة ، حارم ، حسيه ، خربة الغزالة ، حمص ، إدلب ، قطنا ، قرق خان ، القنيطرة ، القطيفة ، معرة النعمان ، معبطلي ، منبج ، النبك ، عمر آغا ، الرقة ، الريحانية ، سلمية ، السويداء ، السويدية ، الزبداني ، يبرود .
(لبنان) : عكار ، عاليه ، أميون ، بعبدا ، بعقلين ، بعلبك ، البترون ، بشرّي ، بيت شباب ، بيت مري ، بيروت ، بحمدون ، بحنس ، بنت جبيل ، بسكنتا ، بكفيا ، برمانا ، الدامور ، دير القمر ، ظهور الشوير ، جزين ، جب جنين ، جبيل ، جونية ، اهدن ، أنفة ، غزير ، حمانا ، حاصبيا ، حصرون ، الهرمل ، قب الياس ، مشغرة ، مرجعيون ، النبطية ، راشيا ، رياق ، صيدا ، صوفر ، تبنين ، طرابلس ، ميناء طرابلس ، صور ، زحلة ، زغرتا .
(العلويون) : بانياس ، جبلة ، حفه ، القدموس ، القرداحة ، اللاذقية ، مصياف ، المشتى ، أرواد ، صافيتا ، طرطوس ، تل كلخ .
فمجموع المراكز ٤٥ في لبنان و ٤٠ في سورية و ١٢ في العلويين .

المصانع والقصور

تقاسيم المصانع وعظمتها :

إن قطراً كهذا القطر البديع ، تعاقب الحكمَ عليه الحثيون والمصريون والبابليون والأشوريون والفرس والفينيقيون والإسرائيليون والرومان واليونان والعرب والترك والتتر والشركس ، وأُعجب الفاتحون بخيراته ، واغتبطوا بالاستيلاء عليه ، لموقعه الممتاز بين الأقطار والقارات ، فجعلوه محط رحالهم ، ومجازاً إلى فتوحهم ، لا يستغرب منه إذا رأينا فيه مصانع تشهد لبانيها بسلامة الذوق ، وجودة الإبداع ، وعظمة الباني .

إن الشعوب التي أنشأت مصانع وادي موسى وجرش وعمّان ومأدبا وبعلبك وتدمر وأفامية ودمشق وحلب والقدس كانت ولا شك ذات معرفة بالهندسة ، لا تقل عن أهل هذا العصر بها ، لأن ما شادوه صارع الأيام وصرعها ، وبقيت منه هذه البقايا على كثرة ما تناولها من الهدم والتحريق ، بأيدي المخربين ، من الظالمين والمظلومين ، وسطا عليها من عوامل الطبيعة القاسية .

تنقسم مصانع الشام إلى قسمين : مدني وديني ، فالمدني كالقلاع والحصون والأبراج والمناور والمراصد والقصور والجسور والسكور والقنوات والمواني والطرق والدور والقبور والمستشفيات . والديني كالمعابد والبيع والأديار والكنائس والجوامع والمساجد والمدارس والرُّبُط والخانقاهات والملاجئ وما شاكلها .

مصانع الأمم القديمة :

ومن أقدم مصانع الشام ما وجد في قرية الحصن في عجلون من أنصاب

(Dolmens) يبلغ عددها المئتين على ما قال مالون ، وهي عبارة عن ثلاثة أحجار عادية ضخمة أحدها طويل منبسط ، يبلغ طوله ثلاثة أمتار في عرض مترين ، يركز أفقياً فوق حجرين آخرين مربعين مستطيلين ؛ ومنها ما يبلغ علوه ٨٠ س ومنها ضعف ذلك . وقد زعموا أنها كانت مذابح دينية وأنها هي المشارف التي تكرر ذكرها في الأسفار المقدسة . والرأي المرجح أنها كانت قبوراً ، ولا يعرف لها تاريخ أكيد . والعلماء يجعلون عهدها في الطور المعروف بطور الظران . وربما كانت أقدم عاديات الشام .

ومن أقدم مصانع الحثيين قلعتهم التي أنشأوها على الفرات في كركميش (جرابلس) فبقيت حسكة في حلق نينوى إلى نحو سنة ٧١٠ قبل الميلاد حتى استولى الأشوريون عليها . وبنو إسرائيل كالحثيين لم يتركوا في فلسطين منبتهم ومطلعهم سوى آثار ضئيلة . وأهم ما بقي من آثارهم ، معبدهم في القدس أو معبد سليمان الذي جمع إليه الصناع والمهندسين من صور بمساعدة الملك حيرام سنة ١٠١٣ قبل الميلاد ، وقد حرق هذا المعبد فرمم غير مرة على عهد ملوك يهوذا سنة ٥٨٨ قبل الميلاد ، ولما عاد اليهود بعد ثنتين وخمسين سنة من أسرهم في بابل جددوا المعبد على مثال الأول في الجملة ، وكانت دثرت محاسنه الأولى ، ثم وقع ترميمه في أدوار مختلفة ولم يُصب هذا المعبد بأذى على عهد السلوقيين خلفاء الإسكندر المقدوني في الشام ، ولا في زمن بومبيوس الروماني ، لأنه كان من عادة اليونان والرومان ولا سيما الرومان ، أن لا يقاتلوا الأمم التي يدوخونها على أربابها . وربما اقتبسوا ممن غلبوهم على أمرهم عباداتهم من غير نكير .

وسّع هيرودوس ملك اليهود معبد سليمان ، وانتهى على عهد نيرون ، وكان عمل فيه ألف كاهن وألوف من العملة دهراً طويلاً . وقد قيل: إن سليمان خزن من غنائمه لبناء معبده مئة ألف وزنة من الذهب ومليون وزنة من الفضة ، قُدرت بسكة زماننا بثمانمائة وتسعة وثمانين مليوناً ونصف مليون جنيه ، وذلك ما عدا الحديد والنحاس والخشب . فكمل بناؤه سنة ١٠٠٥ قبل الميلاد وكان فخر أورشليم ، وأجمل بناء في العالم . وقد شيد بجانب الهيكل الشرقي رواق من السواري أي العمد ، فأدار الملوك المتأخرون

هذا الرواق حول جميع البناء ، وبقي هيكل سليمان ٤٢٤ سنة إلى أن خربه ملك بابل . ويحيط بالهيكل الذي رمه هيرودوس في محل الحرم الشريف عدة دور ، منها دار الأمم ، وهي الدار الخارجية ، ثم دار النساء ، ثم دار إسرائيل ، ثم دار الكهنة ، ثم الهيكل ، وقد هدم الرومان هذا الهيكل سنة ٧٠م .

ولا يزال الباحثون منذ ثلاثة قرون ينقبون عن كل ما له علاقة بهذا المعبد ، وكان خاصاً بالخشب الثمين الذي جيء به من أرز لبنان وغيره ، مموهاً بالذهب والفضة ومحلىً بالعاج والأحجار الكريمة ، وفيه من الأواني الثمينة والمُدَى والأحواض وأدوات البيوت ، ما صحّ أن يعدّ خلاصة علم الفينيقيين بالصنائع النفيسة . والفينيقيون هم في الحقيقة البانون للهيكل .

هندسة الفينيقيين وآثارهم :

لم يشتهر الفينيقيون بالعناية بالبناء والهندسة عنايتهم بالربح والكسب وارتياد القاصية ، ومع هذا أعجب الغربيون لعهدنا بالمكاتب التجارية التي أقامها الفينيقيون في شواطئْ يونان وإيطاليا وصقلية وغاليا وايبريا وإفريقية . بيد أن هذا الشعب لم يخلف من آثار مدنيته أدنى ما خلفته الشعوب القديمة . وربما كان الباقي منها بل ما ثبت قيامه على عهد حضارتهم ، أقل مما خلفته تدمر والبتّراء . ولم يثبت أن بقي للفينيقيين معبد من معابدهم إلى عهدنا على كثرة ما بنوا منها كما يقول التاريخ .

أما آثار الفينيقيين المدنية كالحصون والقبور وغيرها ، فإن الباقي من أساس حصن صور الذي أعجز اقتحامه القدماء الفاتحين كسراغون بخت نصر والإسكندر ، لا يدل على كبير أمر ، وقد بنى الإسكندر بين البر والجزيرة فيها سدّه الغريب ، وكان بناء صور إلى عصر ابن بطوطة « ليس في الدنيا أعجب وأغرب شأناً منه » وقال ابن جبير : إنه يضرب المثل بحصانتها وذلك أنها راجعة إلى بابين ، أحدهما في البر والآخر في البحر ، وهو يحيط بها من جهة واحدة ، فالذي في البر يُفضى إليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة ، كلها في ستائر مشيدة محيطة بالباب ، أما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء ليس في المدن البحرية أعجب وضعاً منها ، يحيط

بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ، ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص . وكانت بيوت صور كبيوت طرابلس ذات طبقات ست وسبع وثمان على عهد الفينيقيين .

ولا يزال سور بانياس بين طرطوس واللاذقية قائماً ، ولا يعرف إذا كان من صنع الفينيقيين أو البلاسجيين ، لأنه أشبه بعمل البلاسجيين سكان إيطاليا ويونان القدماء . وهكذا يقال في أسوار بيروت وصيدا وجزيرة أرواد وعمريت ومعبد هذه على رأي (رنان) أقدم معبد بل يكاد يكون المعبد الوحيد الذي بقي من آثار العنصر السامي . أما قبور الفينيقيين فهي أهم ما اكتشفت في أرضهم ، وكلها تقريباً نقرت في الصخر كمثيلاتها في أرجاء يهوذا والعرب ، أي عبارة عن عقود كبرى جعلت فيها النواويس لأسرة برأسها . والقبور التي ظهرت في عمريت هي أهم ما عرف من نوعها وكذلك ما ظهر في جبيل وصيدا ولا سيما النواويس الأربعة التي وجدت في هذه المدينة ، ولا تزال محفوظة في متحف فروق .

بحث الأثريون في فلسطين عن المعاهد الدينية في الأكثر ، وامتدوا في حفرياتهم إلى أرض العرب للعثور على مدنية يعتدّ بها سبقت الرومان واليونان . وكل ما عثروا عليه تافه في الحقيقة . وقد تبين لهم أن البيوت كانت كقصور الملوك تحتوي على دائرتين : دائرة الرجال أو الثويّ وهو المكان المعدّ للضيف « السلاملك » ، ودائرة الحريم ، شأن قصور الشرق الإسلامي لهذا العهد . وما قصر هركان في عراق الأمير ، وحصون القدس ، وبرج أنطونينا ، إلا من بقايا الهندسة اليونانية الرومانية . وتقلّ في فلسطين وشمالي غربي ديار العرب القبور التي يرد عهدها إلى الزمن الذي يسبق العصر اليوناني . وقبور مدائن صالح التي نحتت في الصخر يستدل منها أنها مثال من أمثلة البناء الأشوري . وقد اختلفت الظنون في هذا الشأن ، والأثريون يوالون النبش ليكشفوا شيئاً يستدلون منه على مدنية أقدم أمة نزلت الأرض المقدسة .

عاديات الرومان :

أقيمت عدة أنصاب في الشام لملوك الرومان منها ما عثر عليه الأثريون .

ذكر وادنكتون كتابة وجدها في السويداء كأنها كتبت تحت نصب أقيم لأحد ملوك الرومان فيه « للملك اليوس قيصر أدريانوس انطونينوس بيوس العاهل » ، ووجدت كتابة في قرية أم الجمال في حوران كتب فيها « للعاهل القيصر مرقس اورليوس انطونينوس اغسطس قاهر الأرمن والبرتيين » . ولهذا القيصر كتابة أخرى في سهوة الخضر من جبل حوران ، وأخرى في الشهبة المسماة فيليبولي نسبة الى الملك فيلبس العربي ، ووجدت في السويداء أيضاً كتابة يونانية مؤذنة بإقامة أثر تكرمة للملك كومود ، أقامه له دوميتيوس بروكستر والي العربية ، ذكرى جلب الماء إلى المدينة وضواحيها سنة ١٨٧ ، وعثر في جنوبي اللاذقية على مقربة من عُدوة النهر الكبير على كتابة تدل على محطة عسكرية . وفي دير القلعة في لبنان على الصخر الذي في جانب البئر كتابة فيها « بسلامة مولانا القيصر لوستيوس سبتميوس ساويروس برتينكس اغسطس ، أقام هذا النصب بوبمبابوس اينجيوس نذراً للمشتري » .

يصعب الحكم على كل أثر بعينه ، ونسبة كل بناء إلى الأمة التي أقامته ، وكل واحدة منها تركت على الأغلب في هذا القطر أثراً مخلداً متلداً تفاخر به . فالطرق الرومانية التي أنشئت من القدس إلى أرض النبط جنوبي بحيرة لوط ومن شمالها ، وطريق مادبا إلى البتراء والعقبة حتى البحر الأحمر وطريق جرش وادي موسى ، والطريق المبلط شرقي صرخد الممتد إلى العراق ، وكان يسمى بالرصيف ، هي من الآثار المهمة كالمعسكر الروماني في أذرح وآثار قنوات وشهبة وسالة ودامة العليا ولبّن .

عاديات البتراء وجرش وعمّان :

عدت البتراء في الجنوب رصيفة لتدمر تباريها بضروب مرافقها ، ومنها الهياكل الجليلة ، والدور الفخمة ، والأندية والمجالس والقصور ، والحمامات والمسارح والمدافن والمسلات ، وقد رأى فيها « دومازفسكي » آثار الهندسة المصرية واليونانية والرومانية والشامية . ومعلوم أن أهل البتراء عرب من النبط شيدوها حوالي القرن السادس قبل الميلاد ، وارتقت على عهد الرومان بعد المسيح بقرنين الى أن زاحمتها تدمر في القرن الثالث . ومن أجمل ما في

وادي موسى اليوم خزنة فرعون وهي دار الحكم نقرت في الصخر وجعلت ثلاث قاعات وبهواً . وهذا القصر الفخم الذي يدعى خزنة فرعون كان في الغالب معبداً لايزيس ، أُنشئ على عهد الامبراطور ادريانوس سنة ١٣١ وفي واجهة هذا القصر رواق يتقدمه بضعة أعمدة كبرى وفوقها ثلاثة أعمدة أصغر منها ونقوش وتيجان ، وربما كان يصعد إلى العلية بلولب من الصخر بدليل ما يشاهد في الحائط من أثر الأدراج . وإذا دخلت هذا الرواق ترى على اليمين قاعة كبرى تلمع أحجارها وتتموج كأنها خرجت الآن من يد نقاشها . وفي الجهة اليسرى قاعة مثلها ، وفي الصدر القاعة الكبرى أو الردهة المدهشة . وكل هذه السواري والتيجان والقاعات والرواق محفور في الصخر أو في هذا الجبل قطعة واحدة فكأن الحجر كان بيد صانعي هذا الهيكل وغيره من الهياكل والنواويس والقصور كالطين يجعلون منه ما يشاءون . والذي يزيد في الدهشة أن الحجر أحمر في هذه الجبال أو من نوع الحجر الرملي ولكنه بمتانته كالصخر الأصم . ثم ترى فيه ذاك اللمعان ، فمن موجة حمراء إلى أخرى زرقاء ، إلى مثلها بيضاء إلى جانبها دكناء ، فسبحان من أنشأ هذا الصخر هنا منقطع النظير ، ورزق بانيه يداً صناعاً تتفنن في تقطيعه ونقره ، بما فاق به البناة في سائر عاديات الشام . فإن كانت قلعة بعلبك تنم عن ذوق سليم وعلم واسع بالنقش وجر الأثقال ، فإن هذه العاديات الأزلية تنادي بلسان حالها : هذه عظمة الديان إلى جانب تفنن الإنسان .

وفي هذا الجوار أقدم النواويس وأهمها وبعد ذلك يجيء قصر البنات وهو بناء من الحجر رصفت حجارته كما ترصف الأبنية الضخمة من قلاع وأبراج وأسوار ونحوها . والغالب أنه كان للمتأخرين شبه دار للحكومة وهو مما عمر قبل الإسلام . وهناك ولا سيما في خربة النصارى آثار بعض أديار يدل اسمها ورسمها أنها من عمل النصارى عندما كانت لهم حكومة هنا على عهد الرومان واليونان . وعلى مقربة من تلك الجبال الشوامخ والمنفرجات والأودية بعض نواويس وآثار ولكنها دون آثار البتراء في المكانة . وفي جبل الصبر ملعب أو صورة تمثل قتالاً بين سفن حربية .

ويقول بعض علماء الآثار : إن معظم القبور التي حفرت كانت على مثال

قبور الحِجر ، يرد عهدها إلى الحارث الرابع أحد ملوك البتراء أي ٩ و ٣٠ قبل المسيح وبعده . وليس في وادي موسى أعمدة من قبل الحكم الروماني عليها . وإن ما يشاهد من صوَر أبي الهول وايزيس ورؤوس الحملان يدل على أن هذا الأقليم تأثر بالمدنية المصرية . والمسلتان القائمتان في النجر تمثل ربي النبطيين اللات والعزى ، وكانت النجر مركز عبادة النبط قبل العهد اليوناني بستة قرون على الأقل ، وقد دخلت المدنية اليونانية البتراء على عهد البطالسة فاختلط العنصران المصري والشامي ، وظل القول الفصل فيها للمدنية اليونانية إلى عهد الحارث الرابع . وفي البتراء ٨٥١ مصنعاً من القبور والمعابد والمذابح .

وعدوا من مفاخر وادي موسى الملعب العظيم المنحوت في الصخر ، قطره ١١٧ قدماً وفيه ٣٣ صفاً من المجالس يسع من ٣٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ من المتفرجين والملعب الروماني في عمان (ربة عمون) أكبر الملاعب في الشام . وهو مركب من ثلاث مراتب جعلت المرتبة الأولى خمسة صفوف من المقاعد ، والمرتبة الوسطى أربعة عشر صفاً ، وللمرتبة الثالثة ستة وعشرون صفاً من المجالس . وهو يسع أربعة آلاف ناظر أيضاً . وفي أسفل الملعب حجرتان كبيرتان لسجن الأسود والنمورة والتماسيح .

ويرد تاريخ ارتقاء جرش إلى القرون الأولى للمسيح ، وتاريخ أبنيتها إلى أباطرة القرنين الأول والثاني ، وهي شاهدة بتأثيرات الطراز الروماني حتى في الأصقاع البعيدة ، وكانت جرش من جملة المدن المهمة من بين مدن العرب ، وعمدها الماثلة للعيان ومنها ما بلغ طوله ١٤ متراً وقطره خمسة أقدام ، وملاعبها وهياكلها وساحاتها وحماماتها تُذكر بما كان للرومان من مثلها في بعض الأرجاء المهمة التي تولوا الحكم عليها .

وصف شيخ الربوة خرائب جرش وعمان في القرن الثامن بقوله : « ذكروا أن بدمنة مدينتي عمان وجرش بالشام ملعبين ، فأما جرش فمنها تلال وجبال وحجارة منقولة ، وبعض بناء أبوابها قائم في الهواء نحو خمسين ذراعاً ، وبهذه الدمنة موضع كصورة نصف دائرة مقطوعة بحائط وذلك الحائط به مجلس للملك ، وأما النصف المستدير فإنه مدرّج ، درج بعضها فوق بعض ، وهي دوائر وكل دائرة فوقانية أوسع من السفلى ، وبين هذه الأدراج

الدائرة أبواب ومسالك ، وكل درجة وعليها مرتبة من الناس ، وكلهم ينظرون إلى الملك وهو ينظر إليهم كلهم لا يحجبون عنه ولا يحجب عنهم في ذلك المجلس وكأنما هو ليوم الحكم العام فقط ، وبالقرب من هذا الملعب أيضاً ملعب وفيه عمد طوال قائمات وفي كل منهن بكرة ، وهن مستديرات المراكز كصورة دائرة ، وكأنما كان على رؤوسها من الحجارة عتبات من عمود إلى عمود وفوق ذلك أبنية لأهلها وآثار شاهدة ، ولا يعلم في الشام من الآثار مثل هاتين المدينتين إلا مدينة بعلبك وباب البريد بدمشق اهـ » .

وصف المحدثين خرائب جرش :

تبدأ خرائب جرش من الجنوب بباب النصر المسمى باب عمان وهو بناء عرضه ٢٥,٣٠ م والشق الأوسط منه ٦,٤٧ على ١٢ متراً من العلو ، وله من كل جهة باب وهذا البناء أشبه بقوس النصر المنسوب لتراجان في مدينة رومية . ولذلك يظن أن البناء يرد عهده إلى القرن الثاني للميلاد . وفي غربي هذا الباب سطح واسع فيه محلان ، وفي الأسفل مسرح لتمثيل الحروب البحرية ، وله بحيرة طولها ١٥٥,٥٠ م وعرضها ٥٥ متراً ، وله أربعة سدود من جنوبها وعمقها ٤,٧٠ م ومقاعد للمتفرجين على طول المحل . وهذا الحوض متصل بقناة مع العين . ويفصل الحائط الشمالي المسرح بملعب كبير قطره ٩٠,٥٥ م لا تزال ترى فيه أربعة صفوف من الدرجات وعلى مقربة من الملعب بقايا مدفن كبير . وعلى بضع خطوات من الغرب بقايا معبد طوله ٣٠ متراً وعرضه ٣٠,٢٠ ، وكان للبناء المحيط به عمد منفردة أحد عشر عموداً من الشمال ومثلها من الجنوب ، وثمانية أعمدة من الشرق ومن الغرب . وكان للدهليز صفان من الأعمدة وله تيجان قورنتية وعرض الرتاج ٤,٧٠ م وكاد طول غرف المتفرجين التي ما زالت جدرانها الجنوبية سليمة إلى عشرة أمتار ٢٥ متراً وعرضها ١٥ . وقد فقدت تيجان القواعد المركبة (الركائز) المبنية من الصخر المحكم الوضع وقام في العالي طنف بسيط قليل البروز . ومجموع البناء حسن للغاية . وقام مسرح الجنوب المتصل بالجهة الغربية من هذا المعبد على سور المدينة . ولا يزال ٣٢ صفاً من المقاعد سليماً . ومعظم

قطر المسرح ٨٧,٧٦ م . وهناك ممشى على شكل نصف دائرة يتصل مع الأسفل بخمسة سلالم ومع الأعلى بتسعة ، وتقسم هذه الدرجات إلى قسمين وله أربعة دهاليز من جهة الجنوب .

ويمتد في الشمال الشرقي من المعبد والمسرح ميدان ممهد تحيط به عمد لطيفة، تؤلف نصف دائرة مفتحة نحو الجنوب الغربي. ولا تزال معظم السواري وعددها ٥٦ محفوظة بحالها ، وهي من الطراز اليوناني يتصل بعضها بالآخر من سطوح الأعمدة . وفي الشمال الشرقي من الميدان تبدأ سلسلة أعمدة مستقيمة الأضلاع تجتاز المدينة كلها وطولها ٨٠,٣ مترات وعرضها ١٢,٦٠ متراً والمسافة بين الأعمدة الموضوعة ثلاثة أمتار . ولم يبق من الـ ٥٢٠ عموداً سوى ٧١ عموداً قائمة إلى اليوم . أما الأخرى فقد تداعت بالزلازل أو هدمتها يد الإنسان في العهد الحديث ، وقد أصبح أكثر هذه الخرائب مقالع لأهل القرية يأخذون من أبنيتها الجميلة حجارة لبنائهم . وعلو هذه الأعمدة من ٦,٥٠ م إلى ٩ م يدخل في ذلك الأساس والتاج . أما العمد القائمة وسط الشارع فهي من الطرز القورنتي ، وتيجانها من أرقى ما صنع الصانعون . وما كان منها بالقرب من الميدان وعلى نحو الباب من الشمال فهو من الطراز اليوناني .

ويرى الناظر من جانبي الشارع بقايا صف آخر من الأعمدة ربما كانت مجازات بين الأعمدة على طول الدور . وهناك جسر يجتاز القناة على خمس حنايا وعرض الأوسط منها ١١,٤٠ س . وثم بقايا بناء عظيم منقوش كان يتخذ محكمة جُعل على شكل نصف دائرة ، نصف قطر دائرتها عشرة أمتار ولها فوارة . وعلى مقربة من هذا خرائب أروقة المعبد الكبير الضخمة العظيمة . وقد تهدم جزء من سطح أعلى الباب الأعظم وهو مجنح بفرج لنوافذ مثلثة الشكل منقوشة أجمل نقش . والنقوش السالمة التي تزين الواجهة الغربية هي من طراز رائق بديع . وهذه الأروقة تؤدي إلى معبد عظيم يدعى عادة معبد الشمس وهو في مستوٍ طوله ١٦٠,٦٥ م وعرضه ١٠٤,٨٥ م يحيط به ٢٦٠ عموداً . وطول المعبد ٢٦,٧٠ م وعرضه ٢٠ . ويتألف رواق المعبد من صفين من الأعمدة أحدهما من ست والآخر من أربع . وزيادة على ذلك عمود من كل جهة من الحواجز البارزة من المعبد . وفيه تسع سوارعلوها

١٣،٨٠ وعرض الرتاج خمسة أمتار وعرض المجالس ١١،٢٠ م وطولها ١٧،٨ . وفي جنوبي المعبد كنيسة،كاتدرائية ذات ثلاثة صحون . وفي الجنوب الغربي كنيسة أصغر منها . ويظهر أن كنيسة ثالثة في شرقي الأروقة كانت من جملة الأجزاء المتممة لمعبد الشمس . ومن هناك تنشعب شوارع أخرى وتتقاطع الطرق ، وكانت مزينة بتماثيل ونصب وعمد وسوار لا يزال بعضها أثراً شاهداً على العظمة الماضية .

أما ملعب الشمال الذي كان خاصاً على ما يظهر بقتال الحيوانات والصراع فكان له ١٧ صفاً من الأدراج ومجموع علوه ١٢ م وفي محيط الدائرة منها بين الصف الثامن والتاسع خمسة معابر أو مماشٍ ترى بين كل واحد منها كوة عظمى وثنتين أصغر حجماً على شكل الصدف . والحمامات العامة عبارة من مجموع غرف وعقود يطلق عليها اسم الخان . ومدخلها بناء سلم برمته من عوادي الأيام تعلوه قبة ومساحتة ١٦،٧٠ متراً مربعاً . وهناك سلم يوصل إلى محل الحمامات الحقيقي مؤلف من أرض مساحتها ٦٧،٧٠ م طولاً و ٣٠ عرضاً ولها جناح مصاقب لها من الجنوب طوله ٤٢ م وعرضه ١١،٧٠ م . وبالقرب من جامع القرية بناء آخر قديم كان حماماً أيضاً وعلى الشاطئ الشرقي من النهر تشاهد حيطان سور كنيسة رابعة طولها ٦٠ متراً وعرضها ٦٠،٣٦ م وحنية المحراب مزدانة بكوى على شكل صدف لم يبق من سواريها سوى تسع قواعد يونانية وبعض أسطوانات . وكان هذا المعبد في الأصل مدفناً للربة نيميزيس ويرد عهدها إلى الامبراطور تراجان .

عاديات تدمر :

ذكر بعض الأثريين أن مدينة تـدْمر بناها سليمان ليأمن على طريق التجارة ،وقد أصبحت في أوائل النصرانية إحدى المدينتين اللتين جمعتا بين تجارة أوربا وآسيا وأعني البتراء وتدمر .قال ياقوت : وأهل تدمر يزعمون أن ذلك البناء قبل سليمان بن داود عليهما السلام بأكثر مما بيننا وبين سليمان . ولكن الناس إذا رأوا بناء عجيباً جهلوا بانيه أضافوه إلى سليمان وإلى الجن . قلنا : وكان القدماء يعتقدون أن بعض مدن ساحل الشام بناها الآلهة قال المعري:

وقد كان أرباب الفصاحة كلما رأوا حسناً عدوه من صنعة الجن

وقال النابغة الذبياني :

إلا سليمان إذ قال الإله لـــه قم في البرية فاحددها عن الفَنَد

وخَيِّس الجن إني قد أمرتهمُ يبنون تدمر بالصّفاح والعَمَد

خربت آثار تدمر سنة ٢٧٣ م على يد اورليانوس الروماني لما قهر زينب ملكتها . ولما انتقض أهلها عليه عاد فافتتحها عنوة . وأعمل في أهلها السيف أياماً متوالية . ثم أمر فبعثرت الأبنية ، وقوضت الهياكل ، ودكت الأسوار ، وهدمت القلاع . فأصبحت تلك المدينة الزاهرة قاعاً صفصفاً وظلت على هذه الحال قرية حقيرة إلى عهد ديوكليتيانوس أيام استخدمها الرومان لرد غزوات البادية وغيرها .

وصف عاديات تدمر(*) :

وبعد فإن كل ما دونه مؤرخو العرب في تدمر وما وصفها به رحالتهم مختصر جداً لا يستفاد منه الفائدة العلمية اللازمة ويتعذر علينا من النصوص التي اتصلت بنا أن ندرك حقيقة حالة تدمر وعمرانها حين فتحها المسلمون . والمعروف أن تدمر لم تستعد مكانتها ولا بعضها منذ استيلاء اورليانوس عليها في سنة ٢٧٣ م . يوم دك معاقلها وهدم دورها ودرس قصورها فأخذت تدمر حينئذ بالانحطاط إلى أن وصلت إلى ما هي عليه اليوم .

إن اتصل بنا تاريخ هدم تلك المدينة فإنا نجهل ما انتاب البقية الباقية من عمرانها بعد ذلك العهد حتى منتصف القرن الثامن عشر . أيام نزلها في سنة ١٧٥١ المهندسان الإنكليزيان وانكس وَوود فرسما مخططاً لتلك الخرائب ونقلا إلى بلادهم جملة رُقم تدمرية ويونانية تمكن بفضلهما سوينتن وبرتليمي من قراءة حروفها وتفسير معانيها .

ومنذ ذاك العهد اشتهرت تدمر في الغرب ولا سيما عند علماء الآثار وغواتها فكثر شد الرحال إليها وزاد زوارها في السنوات الأخيرة خاصة وذلك بالنظر لسهولة المواصلات وتوفر أسباب الراحة فيها . وبالرغم مما انتاب

(*) كتب وصف تدمر الأمير جعفر الحسني .

تدمر من عوامل الهدم والتخريب فإن القسم القليل الذي سلم من كوارث الأيام وأحداث الدهر ينبئ بجمال عظمتها وجلال قدرها . فلا يتأتى لمن يقف وسط تلك الأطلال ويتأمل هذا الإتقان لا تأخذه حيرة في دهشة أو رعشة في وحشة لهذا الإبداع المعجب ودقة الصنعة وتناسب الجمال والعظمة . فكل جزء منها شاهد على سلامة ذوق مخططها ومهارة عمالها وصناعها . فقد جمعت بين الإبداع والإعجاز حتى ليتساءل المرء وهو في القرن العشرين إن كان هذا ثمرة جهود الإنسان أو عمل من صنع الجان .

تعد خرائب تدمر اليوم من أكبر خرائب الشام وأهمها وتنقسم بناياتها إلى ثلاثة أقسام : الهياكل والبلدة والمدافن . ولم يبق من الهياكل سوى الهيكل الكبير وهو هيكل بعل والهيكل الصغير وهو هيكل بعلشاميم . والأول هو أكبر بنايات تدمر وأهمها يقع إلى الجهة الشرقية من البلدة . وهو عبارة عن فناء واسع مربع الشكل يبلغ طول كل من أضلاعه ٢٣٥ متراً يحيط به جدار ذو نوافذ ارتفاعه نحو من ١٥ متراً ، ومدخله من الغرب . وهذا المدخل يؤدي إلى دهليز قام على عمد يبلغ ارتفاع كل منها ١٤ متراً ومنه تجتاز الواجهة الداخلية وتعتبر هذه من أبدع مصانع تدمر وأتقنها صنعاً . ويحيط بهذا الهيكل من داخل الجدار رواق كان قائماً على ٣٩٠ عموداً تهدم اليوم معظمه . وقد شيد في وسط هذا الفناء الهيكل الأصلي وطوله ٦٠ متراً وعرضه ٣١ متراً ونصف المتر . وأقدم كتابة وجدت داخل هذا الهيكل مؤرخة بسنة ١٧ م . ويرجح أن هذا الهيكل بني في أوائل العهد المسيحي .

والهيكل الثاني إلى شمالي البلدة ومدخله من الشرق وهو أصغر حجماً من الأول وأقل كلفة . ويكاد يكون مجموعه الخارجي سالماً ومع بساطته تجد إتقاناً في بنائه ودقة في نقوشه وقد تم بناؤه في النصف الأول من القرن الثاني للميلاد .

إن ما بقي من آثار البلدة هو أروع شيء في خرائب تدمر وأعظم منظراً . ومنها تلك الأروقة التي كانت تمتد من جانبي أهم شوارع البلدة فهي أبهج منظراً لعظمة تلك المدينة وأطول هذه الشوارع هو الذي يخترق البلدة من الشرق إلى الشمال ويقسمها إلى منطقتين وطوله ١٢٠٠ متر وعدد أعمدة كل

صف يبلغ ٣٧٥ عموداً ارتفاع كل منها ١٧ متراً وقد تهدم معظمها فلم يسلم منها سوى ١٥٠ عموداً . ويخترق هذا الشارع من منتصفه شارع آخر على شاكلته وعند ملتقاهما يؤلفان مصلباً وكان على مقربة منه تمثالا أذينة وزنوبيا . وفي منتصف كل عمود ركيزة قامت عليها تماثيل مشاهير حكامها والصالحين من رعيتها . ولم يزل مدخلها المدينة الشرقي قائماً وله منظر رائع ومرأى جميل . وما خلا ذلك من الأنقاض المتراكمة الباقية والأعمدة والأحجار المنحوتة مبعثر مشتت عرف بفضلها أصحاب الهندسة تخطيط أبنية المدينة وهندسة شوارعها وأزقتها .

إن قبور تدمر مبعثرة حول البلدة ومعظمها في الجهة الغربية في وادٍ يعرف بوادي القبور لكثرتها فيه . وهي على نوعين : منها ما هو قائم على شكل أبراج مربعة في ثلاث أو أربع طبقات منقسمة حجراً وفي جدرانها القبور . والنوع الثاني كهوف نقرت في الصخر على سفح الجبل وهي ذات إيوانين أو ثلاثة ، ومن القبور ما هو في الجدر ومنها ما هو على شكل النواويس ويختلف عدد القبور في كل مدفن بين العشرين والسبعين وهو ملك أسرة واحدة أو أكثر . وكان لأبناء الأسر في تدمر عناية خاصة بمدافنهم يتنافسون بإتقانها وزخرفتها ومنها ما هو أشبه بقصور منها بقبور . وكل هذه العناية لحرصهم على راحتهم في دار البقاء كما تنص على ذلك رُقمهم القبرية اهـ .

أقام الرومان بين دمشق وتدمر إلى الفرات اثنين وخمسين حصناً أو قلعة . يبعد كل منها عن الآخر ثلاث ساعات . ولا شك في أن الحرس الروماني كان في بعضها . وبنى الرومان عدة حصون على الطريق الممتد بين بصرى ودمشق ليأمنوا عيث البادية وطريقاً من صرخد إلى البصرة وطرقاً من حوران إلى البلقاء إلى عقبة أيلة وما إليها ، وكان ذلك في أيام عظمتهم . قال أحد علماء الهندسة من الفرنج : إن الرومان لما أصبحوا سادة الأرض وأمسى معهم جميع الشعوب بمثابة العبيد عدلوا وهم في أوج عزهم عن أعمال في العمران كان فيها عزهم ونجاحهم واستسلموا إلى الكسل وإضاعة الأوقات .

وبعد أن فتحت زينب أو زنوبيا سلطانة تدمر المشهورة القطر المصري عمرت الأبنية التي جلبت إليها الأمم من أقطار الأرض ولا سيما اليونان .

ولما جاء يوستنيانوس سنة(٥٢٧)جدد بناء الأخربة في تدمر وشيد أبنية أُخرى فيها وجعل لها سوراً . ثم سطت عليها الزلازل كثيراً . وما يرى اليوم من الأثر الضئيل الباقي من عادياتها شاهد على ما كان هناك من عمران ممتد الرواق . وما استخرج ولا يزال يستخرج من أرضها من التماثيل والأنصاب والشواهد يدل على فضل ذوق وحسن هندسة .

ومن كل أنواع الأنام مصور ... شباب وشمط يمرحون وشيب
ومجلس أُنس يفسح الطرف ملؤه ... قيـان تغني وسطه وشُروب
وصرعى وقتلى في قتال عساكر ... تحول حصون دونهم ودروب
فمن جانب أضحت تُصب مدامة ... ومن جانب أضحت تُشب حروب
خليطان هـذا للقراع معبس ... يصول وهـذا للسماع طروب
وقد حققوا التصوير حتى وجوههم ... يبين لنـا بِشر بها وقطوب
وكـل يُعـاني شغله غـير أنه ... على فمه دون الكلام رقيب
ملاعب فيها الملك رامٍ بطرفه ... وكل ابن دنيا إن نظرت لعوب
وعاشوا طويلاً ثم فرق شملهـم ... زمان أكول للأنام شروب
فلولا مكان الدين قـلّ لفقـدهم ... بكاء لنـا في إثرهم ونحيب
ملوك أقاموا ما أقاموا أعزة ... وقد شعبتهم بعد ذاك شَعوب
وخُيل للرائي ليذكر عهدهم ... خيال لعمري إن رأيت عجيب
خيال لهم يهدى إلى كل أُمة ... لقصد اعتبار إن رآه لبيب

عاديات بعلبك امس واليوم

إن بقايا هيكل الشمس أو المشتري وهيكل الزهرة وهيكل باخوس ودار المذبح أو البهو الكبير الماثلة إلى اليوم في قلعة بعلبك لأكبر دليل على ارتقاء فن الهندسة حتى في العصور التي سبقت الرومان واليونان . وقد عدت أحجار بعلبك ومنارة الإسكندرية (الإسكندرونة) من جلة عجائب الشام . فقد قال الهمداني في أحجار بعلبك : إن فيها حجراً على خمسة عشر ذراعاً أقل أو أكثر ارتفاعه في السماء عشرة أذرع في عرض خمسة عشر ذراعاً في طول خمسة وأربعين ذراعاً . هذا حجر واحد في حائط . وأما منارة الإسكندرية

فإنه يصعد إليها رجل على برذون حتى يبلغ أعلاها وهي مبنية على سركان من زجاج .

وفي بعلبك هيكلان كبيران طول أصغرهما ٢٢٥ قدماً وعرضه ١٢٠ قدماً وكان محاطاً بأعمدة كبيرة الحجم طول الواحد منها ٤٥ قدماً وطول هيكل الشمس ٣٢٤ قدماً وكان محاطاً بأربعة وخمسين عموداً يبلغ قطر الواحد منها ٧ أقدام وعلوه من قاعدته إلى قمته ٨٩ قدماً وقد بلغ طول بعض الحجارة المبني منها الهيكل ٦٤ قدماً وسمكه ١٢ . قالوا: وكانت هياكل بعلبك تضاهي هياكل اليونان بعظمة بنائها ولكنها دونها بالترتيب والزخرفة . ذكر ابن حوقل أن قلعة بعلبك الحصينة الجميلة من أجلّ مباني الأرض ، وإنما بنيت قلعة دمشق على مثالها ، وهيهات لا تعد من أمثالها ، أين قلعة دمشق من قلعة بعلبك وحجارتها تلك الجبال الثوابت ، وعمدها تلك الصخور النوابت .

قد يبعد الشيء من شيء يشابهه إن السماء نظير الماء في الزرق

قال شيخ الربوة: وبقلعة بعلبك بيت محكم من الحجر طوله خمسون ذراعاً وهو من كل جهة ثلاثون ذراعاً وسقفه حجر وفي وسط السقف نسر حجر فارش أجنحته . وفي أربع قرن السقف أربعة أصنام وأسماؤها ودّ وسواع ويغوث ويعوق . وبمقطع الحجارة حجر رابع للثلاثة التي بالقلعة متروك إلى وقتنا هذا وإلى ما يشاء الله مثالاً للناس . يعني أن من ههنا حملنا الأحجار الثلاثة المبنية بالقلعة — وهو الحجر المعروف اليوم بحجر الحبلى — وبالحصن أيضاً عمد طول كل عمود نحو عشرين ذراعاً وفي الأرض منها نحو أربعة أذرع ودوره نحو ذراعين وأكثر عددها نحو ستين عموداً وكان على رؤوسها عتبات وفوق العتبات البناء المحكم اه .

وإن آثار بعلبك بما فيها من العمد الضخمة ومنها من النوع المعروف بالمحبب (غرانيت) الذي جلب من السودان على ما يظهر تدل دلالة صريحة على أن كل هذا من صنع الرومان وبأيدي مئات الألوف من العملة المسخرين المستعبدين . وهكذا قامت جميع آثار الرومان بإرهاق الإنسان للإنسان . بيد أنهم خلفوا عاديات عظيمة أعلت بين الأمم القديمة ذكرهم ، وجعلتهم موضع الإعجاب على توالي الأحقاب .

ويصدق على قلعة بعلبك في الوصف ما قاله عبد اللطيف البغدادي في أهرام مصر: إنها صبرت على ممر الأزمان بل على ممرها صبر الزمان . فإنك إذا تبحرتها وجدت الأذهان الشريفة قد استهلكت فيها ، والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها ، والأنفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها لها ، والملكات الهندسية قد أخرجتها إلى الفعل مثلاً هي غاية إحكامها حتى إنها تكاد تحدث عن قومها وتخبر بجمالهم وتنطق عن علومهم وأذهانهم وتترجم عن سيرهم وأخبارهم . أو ما قاله في برابي مصر : فالحكاية عن عظمها وإتقان صنعتها وإحكام صورها وعجائب ما فيها من الأشكال والنقوش والتصاوير والخطوط مع إحكام البناء وجفاء الآلات والأحجار مما يفوت الحصر . ومن أجمل ما وصفت به خرائب بعلبك قول صديقنا خليل مطران من قصيدة :

خرب حارت البرية فيهــا	فتنة السامعين والنظــار
معجزات من البـناء كبار	لأناس ملء الزمان كبــار
ألبستها الشموس تفويف در	وعقيق عــلى رداء نضار
وتحلت مــن الليالي بشاما	ت كتنقيط عنبر في بهار
وسقاها الندى رشاش دموع	شربتها ظــوامئُ الأنــوار
زادها الشيب حرمة وجلالاً	توجتها بــه يــد الأعصار
رب شيب أتم حسناً وأولى	واهــن العزم صولة الجبار
معبد للأسرار قام ولكن	صنعه كان أعظم الأسرار
مثل القوم كل شيء عجيب	فيه تمثيل حكمة واقتــدار
صنعوا من جماده ثمراً يجـ	ـنى ولكن بالعقل والأبصار
وضروباً من كل زهر أنيق	لم تفتها نضارة الأزهــار
وشموساً مضيئــة وشعاعاً	باهرات لكنها من حجار
وطيـوراً ذواهبـاً آيبات	خالدات الغــدو والإبكـار
في جنان معلقات زواه	بصنوف النجــوم والأنوار
وأسوداً يخشى التحفز منها	ويروع السكوت كالتـزآر
عابسات الوجوه غير غضاب	باديات الأنياب غير ضواري

في عرانينها دخان مثار | وبألحاظها سيول شرار
تلك آياتهم وما برحت في | كل آن روائع الزوار
ضمها كلها بديع نظام | دقّ حتى كأنها في انتشار
في مقام للحسن يعبد بعد الـ | عقل فيه والعقل بعد الباري
منتهى ما يجاد رسماً وأبهى | ما تحج القلوب في الأنظار

أنطاكية وحمص وأفامية والبارة ودمشق :

هذا إجمال في المصانع الكبرى في هذه الديار وهندستها ، ومن أهم آثارها أنطاكية التي بناها انطيغنوس وأكمل زخرفها سلوقس سنة(٣٠٠)قبل الميلاد . وكان فيها من عجائب الهندسة اليونانية ما لم يكتب ليونان أن تعمل مثله في أرضها ، ولولا أن الزلازل تحيفتها في أدوار مختلفة لكانت اليوم من أهم ما يقصد للزيارة . وكانت أنطاكية عاصمة الشرق أيام اغسطس قيصر كما كانت رومية عاصمة الغرب . ومن يدخل أنطاكية ويذكر ما كان فيها من القصور والدور والمعابد والهياكل والحمامات والقنوات ودور التمثيل يبكي لبلد اتفقت الآفات السماوية والأرضية على تخريبه ، ولم يبق من عظمته التاريخية سوى بعض جدران قلعتها القديمة .

ومن جملة آثار الهندسة الرومانية أو اليونانية بحيرة قَدَس أو خزان حمص وقناة سلمية وجسر قنوات وآثار سَبسطية ومنها مصانع حلب ، وهي صورة تامة من نشوء الهندسة ، وقد غنيت هذه المدينة الأخيرة بالمصانع ذات الهندسة العسكرية والدينية والمدنية وما برح معظمها بحاله . ومن أهم ما في شمالي الشام ملعب أفامية (قلعة المضيق) وملعب دفنة وكان فيها معبد أبولون رب الشمس والنور والصنائع والآداب والطب عند قدماء اليونان ، ونصب فيها برياكسيس المهندس الآثيني تمثالاً للرب اشتهر بين العارفين بالصنائع الجميلة ، وهو قابض بيده على قيثارة ، وقد صورت صورته على نقود أنطاكية وفيها معبد ديان والزهرة وغيرهما من الأرباب .

وكانت مدينة أفامية على عهد السلاقسة خلفاء الإسكندر من المدن الكبرى بدليل ما ذكره الهمداني من أنه كان فيها ملعب يعد من البناء المذكور في

العالم . وكانت مستقراً للجيش الرومي . وفيها زرائب وإصطبلات تؤوي ٣٠٠ فيل و ٣٠٠ جاموس و ٣٠,٠٠٠ حصان ترعى في سهلها الخصيب وترد ماءها العذب النمير . وقد دك حصنها بومبيس وكان من أمنع الحصون . وفيها إلى اليوم آثار شارع يمتد من الباب الشمالي وعلى جانبيه سوارٍ وعمد مختلفة الأشكال والحجوم تبلغ نحو ١٨٠٠ سارية يردّ عهدها إلى أواخر حكم الرومان . ولا يزال كثير من الأرتجة والأبواب قائماً وهناك خرائب أخرى لم تعلم ماهيتها .

ومنها خرائب البارة في الشمال غربي العاصي . وخرائبها واسعة ومهمة وشوارعها العديدة وبيوتها « على رواية فان برشم » لا تزال محفوظة . منها بقايا خمس أو ست كنائس وبيع . وفي ضواحيها بيوت مهملة عملت من الحجر الصلد يكفي أن تسقف بالخشب حتى تسكن وهي خالية . وإن ما هنالك من مصانع ومعابد وبيع وقصور وكلها تقريباً من العهد المسيحي قد لا يخلو من نقوش ، ويرد عهدها على الأغلب إلى القرن الخامس والسادس ، وفي قلعتها من أحجار البناء ما يبلغ طوله المترين والثلاثة وعرضه ٧٥ س زبرت عليها حروف يونانية . وأغرب ما في عاديات هذه القرية أن خرائبها الواقعة على أربعمائة متر تقريباً ما زالت بحالها تذكر المرء بآثار بومبيه ومساحتها السطحية أربعة كيلومترات مما دل على عظم المدينة في القديم . وقد قام بين المحلتين قصر ذو طبقتين محفوظ في الجملة اسمه دير سوباط وفيه آثار ونواويس وأبواب أزلية . وقد وجد على أحد أبوابها كتابة يونانية معناها « ليحفظ المولى من ملكك ومخرجك الآن وفي العصور المقبلة آمين » وكانت هذه المدينة في سعة حلب كما يفهم من خططها .

ومن أهم الآثار القديمة بدمشق الشارع العظيم الذي كان يخرقها من الشرق إلى الغرب أي من الباب الشرقي إلى باب الجابية وطوله ١٦٠٠ متر وعلى جانبيه رواقان من العمد وهو اليوم مستور مردوم قامت عليه الدور والحوانيت . وكان مقسوماً إلى ثلاثة أقسام الوسط للدواب والعجلات والرصيفان بجانبه للذاهبين والجائين . والباب الشرقي اليوم على ما يرى هو أحد الرصيفين فقط بحيث يستدل من ذلك أن الشارع لم يكن عرضه أقل من خمسة وثلاثين

متراً . ومن العاديات القديمة في دمشق مدخل الكنيسة ولا سيما من الغرب وهي التي أصبحت في الإسلام الجامع الأموي .

حوران ولبنان وغيرهما :

ولا تزال خرائب بصرى قصبة حوران ، وأحصن مدن باشان ومعقل الرومان ، شاهدة بما كان في تلك المدينة من الفخامة والعظمة . وكان طولها داخل السور كما قال بورتر ميلاً وربع ميل وعرضها ميلاً ، ويحيط بالسور ربض كثير الباني ، ومحيطها خمسة أميال لها سور عالي الجدران ، وثيق البنيان ، وقلعة لا أحصن منها في عامة أرض الشام . ويقطع المدينة شارع كبير على طولها يمر في وسطها له بابان جميلان على طرفه وشوارع رحبة وفيها ما يفوق الوصف من غرائب الصناعة ، وبدائع البناء ، وأساليب النقش في الهياكل والكنائس والقبور والمذابح ، وركام الأنقاض وبيوت الأقدمين . وقوس نصر أقيم للقائد فيليبس الذي صار امبراطوراً وهو من أهالي بصرى . والمشهد نصف دائرة قطره ٢٧١ قدماً وهو مكشوف من الأعلى مثل كل المشاهد الرومانية . وفيها مشهدان وستة هياكل وعشر كنائس أو عشرة مساجد ، عدا القصور والحمامات والسبل والقنوات وأقواس النصر وغير ذلك من المباني الكثيرة وبعضها ما يصلح أن تزدان به أعظم عواصم أوربا الآن .

ولقد شوهد في معظم المدن التي بناها الرومان في هذه الديار وفي غيرها أنها متشابهة في مرافقها إلا قليلاً . ففي كل مدينة ساحة عامة (فوروم) وما يتبعها من المرافق ومعبد الكابتول أو معبد المشتري وجونون ومينرفا (ربة الحكمة والفنون والحرب) . وكانت في المدن الرومانية بمثابة البيع الكاتدرائية في مدن أوربا الحديثة . وفيها أسواق ذات نضائد من الحجر وفوارات ومقاسم ماء ذات قنوات لا تزال ترى إلى اليوم آثارها . ومراحيض عامة وخاصة . وأماكن للاستحمام فيها مغاطس باردة وحارة وبيوت للتعريق . وقاعات للرياضة والمحادثة وممشى للتنزه . وأفران وأقواس نصر وأبواب تغلق ليلاً ودور تمثيل لا يزال في أكثرها مصاطبها المدرّجة ومساكن خاصة .

ومن أهم مصانع الشام عاديات قنوات في جبل حوران وصفها بورثر بقوله : بلغنا أكمة تطل على قنوات فرأينا على اليسار وادياً عميقاً ، وعلى جانبه الغربي خرائب المدينة القديمة وسورها يتبع الشواهق مسافة ميل ثم ينعطف متعرجاً . فيكتنف أرضاً عرضها نصف ميل فيها القصور والهياكل والكنائس والمشاهد وما ماثلها من المباني الفخمة قائمة بعضها بإزاء بعض على نسق بديع يدهش الأبصار . ووراء السور في أسفل الوادي وعلى الجبال المحيطة به في القنن الشاهقة وبين حراج البلوط أعمدة رفيعة ، وأبراج مشيدة ، ومدافن عالية . واسمها عند اليونان قناتا وسماها العرب قنوات بلغت أوج مجدها على عهد الرومان ، وكانت من أعظم المدن شرقي الأردن . وفي عهد النصرانية تنصر أهلها وحولوا هياكلها كنائس لكنها خربت بعد الفتح الإسلامي وقتل سكانها أو هجروها فلم يُعن المسلمون بجعل كنائسها مساجد كما فعلوا في غيرها من مدن الشام .

ثم ذكر أنه لم ير في مدينة أُخرى من مدن فلسطين ما رآه في هذه المدينة وبينها تماثيل أسود وفهود وكلاب ، وفيها رأس عظيم للربة عشتاروت أمام هيكل صغير ، وأمام القصر ساحة فسيحة تحتها صهريج كبير سقفه معقود ، كانت المياه تجري إليه بقناة منحوتة في جانب الوادي ، فيجتمع فيه ما يكفي المدينة فصل الصيف . وغربي المدينة على ربع ميل منها هيكل جميل يحيط به رواق من العمد الكورنثية ، وهو قائم على أكمة صناعية وقد سقط أكثره وتصدعت الجدران ، وفيها برج مستدير وآثار سور . وفي بطن الوادي مماش مدرجة وفساقي منسقة وكراسي التماثيل وهيكل صغير وملعب نحتت مقاعده في الصخر . وفوق دكته كتابة يونانية كبيرة الحروف يقال فيها إن مرقص لوسياس بناه على نفقته ووهبه لأبناء وطنه .ويصعد من هذا الملعب بسلم منحوت في الصخر إلى البرج المستدير وهو ضخم الحجارة قديم البناء لم يبق منه إلا ما ارتفاعه عشرون قدماً وعلى مقربة منه بقايا قصر مبني بحجارة كبيرة منحوتة وأغلاق أبوابه وكواه من الحجر كلها وهي كثيرة النقش عليها أكاليل بارزة من الأزهار والأثمار .

ومن أهم الآثار في الشام جسر المعاملتين وجسر جبيل بين البلدة ومدافنها

القديمة ومنها قناتان تمتدان بين نهر الكلب وجونية.والثانية القناة الكبرى التي كانت تنقل مياه الجبل إلى بيروت وهي من عجائب الآثار القديمة . ومنها هيكل دير القلعة بالقرب من بيت مري في لبنان وهيكل أنقا عند منبع نهر إبراهيم وهيكل فقرا فوق مزرعة كفر ذبيان في سفح جبل صنين . وفي لبنان هياكل رومانية أخرى كهيكل زيزا وناوس في جهات أميون قرب طرابلس وتماثيل كثيرة مبعثرة . وفي البترون حصن منيع وملعب وفي بيروت مسرح، ومن قلاعهم قلعة صربا ويحمور . ومن أجمل حماماتهم حمام شهبة الذي يذكر بخرائبه الفخمة كما قال ري بحمامات كاراكالا في رومية . وكنيسة السويداء التي تشبه كنيسة القديس بولس في رومية . قال ولا شك أنها أجمل قطعة من هندسة روم القسطنطينية في جميع إقليم حوران .

الهندسة الشامية والكنائس والهياكل :

قال أحد علماء الآثار : إن في الشام الوسطى مجالاً واسعاً للأبحاث العلمية ودرس العاديات ، فإن فيها ما لا يحصى من الأبنية العادية كالهياكل الوثنية والكنائس المسيحية ودور الخاصة والأندية العمومية من أواخر القرن الأول قبل المسيح والقرن السابع للميلاد ، ولأكثرها كتابات تاريخية تزيل الريب في زمانها . وهذه الآثار تتوالى سنة بعد سنة حتى لو جعلت على سياق متواصل لما وجدت عشرة أعشار من السنين خالية من أثر أو آثار .

وقد عدّ ابن خرداذبة من عجائب البنيان ملعب فامية وتدمر وبعلبك ولدّ وباب جيرون قال والروم تقول : ما من بناء بالحجارة أبهى من كنيسة الرُّها (أورفة) ، ولا من بناء بالخشب أبهى من كنيسة منبج ، لأنها بطاقات من خشب العناب ، ولا بناء بالرخام أبهى من قسيان أنطاكية ، ولا بناء بطاقات الحجارة أبهى من كنيسة حمص . وبُيعة القسيان في أنطاكية هيكل طوله مائة خطوة وعرضه ثمانون وعليه كنيسة على أساطين وكان بدور الهيكل أروقة يجلس عليها القضاة للحكومة والطلبة للدرس ، وعلى أحد أبواب هذه الكنيسة فنجان للساعات يعمل ليلاً ونهاراً اثنتي عشرة ساعة ، وفي أعلاه خمس طبقات في الخامسة منها حمامات وبساتين ومناظر حسنة تخرّ منها

المياه ، وهناك كنائس كثيرة معمولة بالذهب والفضة والزجاج الملون والبلاط المجزع . وكنيسة حمص كما قال المسعودي من بناء هيلانة وهي إحدى عجائب العالم . وكان في مادبا من عمل البلقاء آثار مهمة اكتشفت مثل سوق طوله ١٤٠ متراً له عمد على الجانبين . ومن العجائب آثار عسقلان واشتهرت الشام بطرابيلها أي صوامعها . وفي كتاب لبنان أن من الآثار اليونانية البيزنطية في لبنان كنيسة مشنقة ، ومعبد ناوس فوق شبطين ، ومعبد كفر شليمان ، وكنيسة حدثون وكانت مبلطة بالفسيفساء تمثل رسوماً وتصاوير جميلة ، ومن الفسيفساء أمثلة جميلة في بعض الكنائس القديمة في لبنان كفسيفساء كنيسة القديس جاورجيوس في سرح ، وكنيسة كور القديمة ، وما وجد في النبي يونس من دائرة فيها كأس حولها طيور كالطاووس والحجل وبعض الحيوانات الرمزية تاريخها سنة ٥٥٤ م . وكان في بيروت عدة كنائس بيزنطية . ومن الكنائس المهمة كنيسة مريم في دمشق كانت ذات شأن قال ابن جبير في القرن السادس: إن لها عند الروم في دمشق شأناً عظيماً وليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها . وسنعرض للكلام على بقية الكنائس والأديار في الفصل الخاص بها من هذا السفر .

آثار العرب قبل الإسلام :

كان العرب قبل الإسلام يختلفون إلى الشام وكان النبط وهم عرب هم الذين أنشأوا آثار جرش والبتراء . والغسانيون واليهم تنسب آثار كثيرة في الشام الوسطى ومنها قصر النعمان بن المنذر في السويداء وفي حارب . وبنى جفنةُ أول ملوكها جلق والقريّة وعدة مصانع . وبنى ابنه عمرو دير حالي ودير أيوب ودير الدهناء . وبنى ثعلبة بن عمرو عقة وصرح الغدير في أطراف حوران مما يلي البلقاء . وبنى جبلة بن الحارث من ملوكهم القناطر وأذرح والقسطل . وبنى الحارث بن جبلة وكان مسكنه البلقاء الحفير في البلقاء ، ومصنعه بين دعجان وقصر أبير . وبنى المنذر بن الحارث صربا ورزقا قريباً من الغدير . وبنى جبلة بن الحارث قصر حارب . وبنى الأيهم ابن الحارث من الأديار دير ضخم ودير النبوة وسعف . وبنى عمرو بن

الحارث قصر الغضا وصفاة العجلات وقصر منار. وكان منزل جبلة بن النعمان بصفين وهو صاحب عين أباغ . وأصلح النعمان بن الحارث صهاريج الرصافة وكان بعض ملوك لخم خربها .

وحكم التنوخيون شمالي الشام قبل أن يجيئها جيوش العرب بقرون ولم نعرف للضجاعم والتنوخيين آثاراً تذكر . وآثار الصفا ولغتها المأخوذة من الحميرية العربية بخط سبأ وآثار بني سميدع العرب في السويداء من جملة الشواهد على ذلك . وأقدم أثر عثر عليه العلماء وكتب بالعربية كتابة عثر عليها في زبد للجنوب الشرقي من حلب ، وأخرى في حران جنوبي دمشق من أعمال اللجاة في حوران . الأولى مثلثة اللغات عربية وسريانية ويونانية يرتقي عهدها إلى سنة ٥١٢ ب.م والثانية بالعربية واليونانية تاريخها سنة ٥٦٨ ب.م بيد أن دوسو اكتشف كتابة عربية مكتوبة بالحرف النبطي في حرّة وادي السوط على مسافة كيلومتر من النمرة في حوران إلى جنوبها الشرقي وتاريخ هذه الكتابة سنة ٢٢٣ لبصرى الموافقة لسنة ٣٢٨ للمسيح فتكون هذه أقدم كتابة عربية . وفي الكتابة المذكورة تاريخ وفاة أحد ملوك عرب الشام واسمه امرؤ القيس بن عمرو ملك بني أسد . وزار أحد عمال القياصرة في بادية الشام هذه الكتابة وأولها : « تي نفس (هذا قبر) امرء القيس برْ (بن) عمرو ملك العرب كله ذو (الذي) أسر التاج وملك الأسدين ونزار وملوكهم الخ » . ونسب دوسو عدة أبنية في سيف البادية إلى الغسانيين .

ولقد أخطأ كلرمون غانو في قوله : ليست المدنية العربية إلا كلمة خداعة لا وجود لها أكثر من فظائع الفتح العربي ، وإن المدنية العربية آخر أنوار المدنية اليونانية والرومانية طفئت بأيدٍ خرقاء ولكنها محترمة وهي الإسلام . ليست الحضارة ثمرة جيل بذاته ولا هي مما يرتجل ارتجالاً كالإرث لا يكون ابن يومه بل هو عبارة عن مجموع إرثي من القوى الحية . هو كنز من التوفير أتت عليه مئات من السنين قد يستطيع أحد اللصوص أن يضع يده عليه ويبذّر فيه يوماً ، ولكن حياته بأسرها لا تكفي للإيجاد ، فقد احترمت هاته الأمة الحديثة النعمة ما وجدته من الإدارات والمعارف والفنون ، على حين لم يكن وراءها ماضٍ تعتز به ، واقتصرت أن تحول كل شيء إلى منفعتها ، وبلغ

بها الحال أيضاً أن جعلت لدى مسيس الحاجة امتيازات للقائمين على احتكار هذه الفضائل العقلية ، وهي امتيازات جادت بها ، ونار التعصب يحرقها ، فتساهلت معها تساهلاً دينياً عجيباً اه . نعم أخطأ في حكمه على العرب وهم ما خربوا العاديات ولكنهم لم يتوفروا على ترميمها بعد أن كان للعرب من البنيان قصر غمدان وكعبة نجران وقصر مأرب وقصر مارد وقصر شعوب والأبلق الفرد وقصر المشتى والقدين وغيرها من المصانع والقصور التي سنعرض لها في هذا البحث كيف يسلبهم كلرمون غانو إبداعهم المجمع عليه .

قصور العرب في الإسلام :

تخلى جمهور من الروم في دمشق عن دورهم في الفتح ولحقوا بهرقل فنزلها الفاتحون ، ثم أخذوا في كل بلد ينزلونه يرمّون ما عوِر من بنائه ، وربما بنوا بالمدراي باللبن والطين أولاً ، ثم عادوا إلى استعمال الحجر . فقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما بلغه أن سعداً وأصحابه بنوا بالمدر كتب : أكره لكم البنيان بالمدر فأما إذا فعلتم فعرضوا الحيطان ، وأطيلوا السمك ، وقاربوا بين الخشب . وقد كان لبعض الصحابة الكرام ممن فتحوا دمشق دور وقصور منتشرة في أنحاء المدينة مثل دار أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وفضالة بن عبيد والعباس بن مرداس وأبي العزيز الأزدي ووابصة بن معبد وطلحة بن عمرو وخالد بن أسيد والنعمان بن بشير الأنصاري وواثلة بن أسقع وهبار بن الأسود وعمرو بن العاص وأوس بن أوس ويزيد ابن نبيشة وعبد الله بن عامر إلى أمثالهم . ولا نعرف إلا مكان دار أبي عبيدة وكان في محلة حجر الذهب أي المحلة التي تعرف اليوم بالبيمارستان وكانت أجمل حيّ في دمشق .

وكان معاوية يقيم أحياناً في غوطة دمشق وينصب الأبنية والأروقة والفساطيط وزعم اليعقوبي أن معاوية كان أول من بنى وشيد البناء وسخر الناس في بنائه ولم يسخر أحد قبله . ولما بنى معاوية داره بدمشق المعروفة بالخضراء ، لقبة خضراء بناها عليها عرفت الدار بها ، وذلك قبلي الجامع الأموي . دخلها وفد الروم فقالوا : ما أحسن ما بناها للعصافير ، وفي رواية أما أعلاها

فللعصافير وأما أسفلها فللنار ، فهدمها وبناها بالحجر . والغالب أنها ظلت عامرة إلى القرن الخامس وفيها دار الإمارة . واحترقت سنة(٤٦١)وبادت على ما نقل البرزالي . وقرأ المقدسي في بعض الكتب أن ما أُنفق على الخضراء ثمانية عشر حمل بغل ذهب . ولما استخلف عبد الملك بن مروان طلب من خالد بن يزيد بن معاوية شراء الخضراء وهي دار الإمارة بدمشق فاشتراها بأربعين ألف دينار ، واشترى منه أربع ضياع بأربعة أجناد الشام اختارهن فاختار من فلسطين عَمَوَاس ، ومن الأردن قصر خالد ، ومن دمشق الأندر ، ومن حمص دير زكا .

وبنى الأمويون بعده بيوتاً لهم كانت بجوار الجامع ومنها دار عمر بن عبد العزيز مكان المدرسة السميساطية الآن ، ودار هشام مكان تربة نور الدين ، وقصر سليمان بن عبد الملك ، مكان سقاية جيرون ، ودار مسلمة ابن هشام بباب البريد . قال الذهبي : بنى سليمان بن عبد الملك دار السلطنة وعمل بها قبة صغرى عالية بدمشق بدرب محرز . وكان لعاتكة ابنة يزيد ابن معاوية قصر خارج باب الجابية بدمشق . وقال ابن عساكر : كانت دار هند بنت معاوية في درب القبلي . وقصر حجاج منسوب إلى الحجاج ابن عبد الملك بن مروان. وقال ابن شاكر : وكان قبله أيضاً معروفاً بالحجاجية ملكاً للحجاج بن يوسف الثقفي فلما ولد لعبد الملك بن مروان ابنه الحجاج المذكور وكانت أمه بنت محمد بن يوسف أخي الحجاج بن يوسف الثقفي سمته باسم عمها الحجاج فنحله الأرض المذكورة وبنى له القصر فعرف به ونسب إليه. وقال آخر : إن الحجاج بن يوسف وهب للحجاج بن عبد الملك داراً بدمشق تعرف بدار الحجاج . واسم قصر الحجاج ما زال يدور على الألسن إلى اليوم دون القصر الذي دثر .

وقد بنى الأمويون قصوراً لهم في الغوطة وكانوا يملكون جانباً عظيماً منها ولكن لم يظهر لها أثر ولا خبر . قال ابن حزم : وكانت دولة بني مروان على علاتها دولة عربية لم يتخذ ملوكها قاعدة لأنفسهم إنما كان سكناهم كل أمير منهم في داره وضيعته التي كانت له قبل الخلافة . ومن قصور الأمويين في حمص قصر خالد بن يزيد بن معاوية جدده في زمن العباسيين عامل تلك

المدينة الفضل بن قارن الطبري وتحصن به لما وثب به أهلها .

عناية الأمويين وتفننهم :

وفي أيام الوليد بن عبد الملك كانت الناس تتكلم في البنايات والعمائر لزيادة رغبته في البناء فبنت الناس المجالس الحسان ، وذلك لأن الخليفة كان يرغب في البنايات وإتقان المصانع ، وفي عهده دخلت دمشق في طور العواصم والناس على دين ملوكهم . قال أحد المؤرخين : وكان الوليد عند أهل الشام محبوباً لأنه صاحب عمارة وبناء ، عمر الضياع ووضع المنار في الطرقات ، وأعطى المجذّمين وأفردهم ، وقال : لا تسألوا وأخدم كل مقعد خادماً ، وأعطى كل ضرير قائداً ، وكتب إلى جميع البلاد بهدم المساجد والزيادة فيها ، وتسهيل الطرق وحفر الأنهار ، وأن تعمل البيمارستانات التي تعالج فيها المرضى ، وهو أول من فعل ذلك وهو أول من أجرى على القراء وقوام المساجد الأرزاق .

قال ابن أبي عيلة رحم الله الوليد ، وأين مثل الوليد ، افتتح الهند والأندلس وبنى مسجد دمشق ، وكان يعطيني قصاع الفضة أقسمها على قراء (فقراء) مسجد بيت المقدس . وعدّ المقدسي من أمصار المسلمين في الشام أو من المدن التي عمرها المسلمون وبعبارة أخرى الأمويون ثم العباسيون على قلة : أنطاكية ، بالس ، المعرتين ، منبج ، قنسرين ، سلمية ، تدمر ، اللاذقية ، جبلة ، جبيل ، انطرسوس ، بانياس ، اللجون ، جوسية ، حماة ، شيزر ، وادي بطنان ، داريا ، بانياس ، صيدا ، بيروت ، عرقة ، طرابلس ، الزبداني ، كامد ، عرجموش ، بيسان ، أذرعات ، قدس ، كابل ، عكا ، صور ، الفراذية ، بيت جبريل ، غزة ، عسقلان ، يافا ، أرسوف ، قيسارية ، نابلس ، أريحا ، عمان ، ديلة ، عينون ، مدين ، أذرح ، مآب ، معان .

الجامع الأموي والمسجد الأقصى :

ومن أهم الآثار التي تنم عن ذوق عربي في هذه الديار الجامع الأموي ، وقد جرى ترميمه في أوقات مختلفة والقليل الذي بقي من آثار نقش العرب

وتصويرهم يدل على ما كان هناك من ذوق سليم ، ويد صناع . وهندسة الجامع الأموي والمسجد الأقصى مقتبسة من الهندسة اليونانية وممزوجة بأشياء إسلامية .

بعث ملك الروم إلى الوليد كثيراً من البنائين والمقدّرين أي المهندسين مع ما بعث إليه من المفصص أي الفسيفساء والذهب قال المقدسي : إن الوليد جمع لبناء الجامع الأموي حُذّاق فارس والهند والمغرب والروم . وروى ابن شداد: أن الوليد اقتلع من كنيسة أنطاكية عمداً عجيبة من المرمر والرخام لمسجد دمشق حملت في البحر إلى ساحلها . ولما كان البناء من صنع بنائين مختلفين ساغ أن نقول : إنه جمع أجمل ما في الهند وفارس وآثينة ورومية . أما طرز البناء فالغالب أن بعض الجدر بقيت بحالها كما كانت يوم كونها بيعة أو معبداً للصائبة . ومساجد الشام ومصر مبنية على شكل الكنائس التي قال المؤرخ أوسابيوس : إنها ذات أفنية وأواوين وفساقي ومساكن للقسس .

ولقد بلغ من تفنن الوليد بزخرفة الجامع الأموي ونقشه وتصويره ما يعجب منه ولا يكاد يكون له نظير في هذه الديار فقد قال ابن كثير : إن أرض الجامع الأموي كانت مفصصة كلها وإن الرخام كان في جدرانه إلى قامات وفوق ذلك كرمة عظيمة من ذهب وفوقها الفصوص المذهبة والخضر والحمر والزرق والبيض وسقفه مقرنص بالذهب والسلاسل المعلقة فيه من ذهب وفضة . وقد أنفق فيه خراج الشام سنتين وفي رواية أربعمائة صندوق كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار . وكان خراج الشام على عهد بني أمية ألف ألف دينار ومائتي ألف دينار . وذكر بعضهم أن الوليد أخذ ربع أعطيات أهل دمشق تسع سنين وكانوا خمسة وأربعين ألفاً يستعين بها على عمارة جامع دمشق . قال المقدسي : والجامع جامع دمشق أحسن شيء للمسلمين اليوم ولا يعلم لهم مال مجتمع أكثر منه ومن أعجب شيء فيه تأليف الرخام المجزع كل شامة إلى أختها ، ولو أن رجلاً من أهل الحكمة اختلف إليه سنة لأفاد كل يوم صنعة .

دخل المأمون مرة جامع دمشق ومعه أخوه المعتصم ويحيى بن أكثم فازدادوا عجباً قال المأمون لهما : أي شيء يعجبكما من هذا المسجد فقال المعتصم :

ذهبه فإنا نضعه في قصورنا فلا تمضي عليه عشرون سنة حتى يحول ، وهذا بحاله مع طول الزمن ، كأن الصانع فرغ منه الآن . فقال المأمون : ما أعجبني هذا . فقال يحيى بن أكثم : الذي أعجب أمير المؤمنين تأليف زخارفه فإن فيه عقوداً ما يرى مثلها . فقال المأمون : كلا بل أعجبني أنه بني على غير مثال شوهد .

كاد المؤرخون والجغرافيون من العرب يجمعون على أن المسجد الأقصى أحسن من جامع دمشق . عمّر عبد الملك بن مروان سنة ٦٥ الحرم والقبة الكبرى التي فوق الصخرة على أسلوب جميل لم يسبق إليه . قال بعضهم : إن شكل قبه الصخرة مستعار من الهندسة البيزنطية ثم هدم الكنيسة التي كان شيدها يستنيانس وبنى موضعها المسجد الأقصى ، وتنوق في تنميقه وأكمل البناء سنة ٧٢ وقالوا : إن أساس المسجد الأقصى من عمل داود وهو على غاية الحسن والإحكام كما قال ياقوت مبني على الأعمدة الرخام الملونة والفسيفساء التي ليس في الدنيا أحسن منه لا جامع دمشق ولا غيره . وروى ابن العديم أن جامع حلب كان يضاهي جامع دمشق في الزخرفة والرخام والفسيفساء وأن سليمان بن عبد الملك هو الذي بناه وتأنق في بنائه ليضاهي به ما عمله أخوه الوليد في جامع دمشق . وكان سليمان بن عبد الملك يسكن الرملة قبل الخلافة عـمّرها وبنى مسجدها الجامع وخرّب له جارتها .

تاريخ الحرم القدسي :

شيد المسجد الأقصى وقبة الصخرة في مكان تل موريا ، وهي منزلة دينية سامية قدسها الوثنيون واليهود والمسيحيون والمسلمون ، وربما كانت بيدراً لأحد اليبوسيين سكان فلسطين القدماء ، وقد بنى فوقها داود بعد فتحه المدينة مذبحاً تقدم فيه القرابين . وأمر سليمان سنة (١٠١٣ ق.م) بإنشاء قصر له مكان المسجد الأقصى وهيكل فخم حيث قبة الصخرة . وقد دمره الكلدانيون سنة (٥٨٨ ق.م) وفي السنة العشرين قبل الميلاد شرع هيرودس الكبير بإقامة هيكل وبرج عال في المكان نفسه ولم يتمه . ودمره جنود الرومان سنة ٧٠ لما استولى طيطوس على بيت المقدس . وبنى الامبراطور ادريانوس سنة ١٣٠ م

مدينة ايلياء وأمر بتشييد زون كبير للمشتري إله الحرب اثنا عشري الشكل (Dodecastyle) فنصب فيه صنماً للمشتري وآخر لديوسقورس أو صنم التوأمين (كاستور وبلوكس) وأقام تمثالاً لنفسه بالقرب من الصخرة المباركة . وقضى الفرس على بيت المقدس لما اكتسحوها سنة (٦١٤) .

ولما وافى عمر بن الخطاب القدس ذهب تواً إلى مكان الحرم الشريف وأزال ما كان فيه من الأقذار ، ولما أفضت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان وحيل بينه وبين الحرمين الشريفين لقيام عبد الله بن الزبير خليفة في الحجاز أمر بإنشاء المسجد الأقصى وقبة الصخرة في بيت المقدس ورصد لذلك خراج مصر سبع سنين ففرغ في سنة (٧٢هـ) وكتب اسمه منقوشاً بالفسيفساء عند مدخل الصخرة من الباب الجنوبي « بنى هذه القبة عبد الملك ... أمير المؤمنين في سنة اثنتين وسبعين تقبل الله منه ورضي الله عنه آمين » أما الكتابة الأثرية فهي على المثمنات ١ : بسم الله الرحمن الرحيم . لا إله إلا الله وحده لا شريك له . محمد رسول الله صلى الله عليه . بنى هذه القبة المباركة . ٢ : عبد الله عبد [الله الإمام المأمو] ن أمير المؤمنين في سنة اثنتين وسبعين تقبل الله منه ورضي الله عنه آمين . والكلمات الثلاث الموضوعة ضمن قوسين هي بخط أصفر ونقش أغبر وهي كانت ولا شك [الملك بن مروا] وقد أبدلتها يد صناع . أما الذي تولى عمارة القبة سنة ٢١٦ هـ من قبل المأمون فهو صالح ابن يحيى ولكنهم نسوا أن يرفعوا التاريخ الأصلي لبناء القبة وهو سنة ٧٢ . وسقط شرقي المسجد وغربيه سنة ١٣٠ بالزلازل وكذلك في سنة ١٥٨ فجدد في سنة ١٦٩ في خلافة المهدي ، وقد أُنقص من طوله وزيد في عرضه ، وجدد عمارة قبة الصخرة في أيام المأمون (٢١٦) وزلزلت الأرض ثالثة (٤٠٧) فتهدمت قبة الصخرة وبعض الجدران ، فجددها الظاهر الفاطمي (٤١٣ هـ) وزيد فيه في زمن الفاطميين البناء المسمى بجامع النساء ، وكان في مسجد بيت المقدس ثلاث مقاصير للنساء طول كل مقصورة سبعون ذراعاً. ولما احتل الصليبيون بيت المقدس حولوا قبة الصخرة إلى كنيسة، والمسجد الأقصى إلى منزل لسكنى ملكهم. ولما استعاده صلاح الدين أعاد الحرم إلى ما كان عليه وأمر بترميم محراب الأقصى وكتب عليه بالفصوص المذهبة ما

نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بتجديد هذا المحراب المقدس، وعمارة المسجد الأقصى الذي هو على التقوى مؤسس، عبد الله ووليه يوسف بن أيوب أبو المظفر الملك الناصر صلاح الدنيا والدين عندما فتحه الله على يديه في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وهو يسأل الله إذاعة شكر هذه النعمة ، وإجزال حظه من المغفرة والرحمة » .

وفي سنة(٦٣٤)عمر في المسجد الملك المعظم عيسى . وفي سنة (٦٦٨)رمّ المسجد والصخرة الظاهر بيبرس . وفي سنة(٦٨٦)عمر فيه المنصور قلاوون ورم فيه كتبغا المنصور لاجين والناصر قلاوون في سلطنته الثالثة وفي أيامه عمر فيه أيضاً الأمير تنكز الناصري. ثم جدد الأشرف شعبان(٧٦٩)والظاهر برقوق (٧٨٩) والظاهر جقمق العلائي وفي سنة(٨٧٧)جدد فيه الأشرف أبو النصر . وفي أيام العثمانيين تمت في الحرم عدة عمارات منها ما جدده سليمان القانوني سنة(٩٦٩)ومنها ما جدد في سني ١٢٣٢و١٢٥٦ و ١٢٩١ وبعدها .

المسجد الأقصى اليوم :

هو أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، ووقع الحرم على مساحة مربعة طول الجهة الغربية منها ٤٩٠ متراً والشرقية ٤٧٤ متراً والشمالية ٣٢١ متراً والجنوبية ٢٨٣ متراً يحيط بها سور يختلف ارتفاعه بين ٣٠ متراً و ٤٠ . ويبلغ طول بعض الحجارة فيه خمسة أمتار طولاً في أربعة أمتار عرضاً . وحول السور من جهة الغرب والشمال أروقة فسيحة معقودة يتخللها بعض أبواب الحرم وهي ١٤ باباً . وقد قام جامع الصخرة الشريفة في فناء مربع مفروش بالبلاط النحيت طوله من القبلة إلى الشمال أكثر من عرضه من المشرق إلى المغرب وارتفاعه ثلاثة أمتار يصعد إليه بأدراج من الجهات الأربع ، وعقد على كل درج من أعلاه قناطر هيفاء دعمتها عمد من الرخام . والقبة على بناء فخم مثمن الشكل ، ذرع كل تثمينة منه ٢٩ ذراعاً وثلث ذراع (٢٠/٤٠م) . وقد كسي القسم السفلي من ظاهر بالرخام الأبيض المشجر والقاشاني البديع الذي يترقرق فيه ماء الألوان المتزاوجة ، من لازوردي صاف وأخضر قاتم وأبيض ناصع ، يعلو ذلك شبه افريز رسمت عليه آيٌ

القرآن . وضع هذا القاشاني في أيام سليمان القانوني سنة(٩٦٩)ﻫ وتحتوي كل تثمينة من البناء على سبع طاقات للتي لا باب فيها وعلى ست للتي لها باب . والطاقات المحاذية لأطراف التثمينات مسدودة كلها ، والأخرى مركب عليها الزجاج والشبابيك الحديد . وللجامع الصخرة أربعة أبواب مزدوجة داخلاً وخارجاً مربعة الشكل بعقود مقوسة ، وأمام الباب الأخير من الخارج رواق مفروش بالرخام عليه سقف مكسو بالقاشاني في وسطه قنطرة معقودة والسقف محمول على ثمانية أعمدة من الرخام مختلفات في النوع واللون، وللباب المذكور مصراعان ملبسان بالنحاس الأصفر المنقوش،عليها أقفال نفيسة متقنة الوضع .

ويبلغ دور البناء من الداخل ٥٣ متراً وهو مقسم إلى ثلاث دوائر يفصل بعضها عن بعض صفان مستديران من الأعمدة والأركان يتألف الأول منها من ثماني سوار مسدسة الأضلاع و ١٦ عموداً منها « أبيض وأزرق » عشرة و « أخضر مرسيني » ثلاثة و « شحم لحم » ثلاثة ، والصف الثاني مؤلف من أربع سوار مربعة الأضلاع واثني عشر عموداً منها سبعة « أخضر مرسيني » وخمسة « شحم لحم » . والسواري ملبسة بالرخام المشجر والملون البديع ، والأعمدة قديمة جداً وأكثر تيجانها تدل على أنها من الطراز الروماني أو البيزنطي القديم ويربط أعمدة الصف الأول بعضها ببعض وبالسواري بساتل ملبسة بالنحاس الأصفر المنقوش المذهب . وتحمل هذه الأعمدة مع جدار الجامع سقفاً مائلاً بعض الميل مدهوناً بأنواع الدهان قائماً على قناطر مرصعة بالفص المذهب متصلاً طرفه الأعلى بكرسي القبة . ويزين باطن القبة مجموعة لا نظير لها من الفصوص الملونة تمثل ٦٤ شكلاً من الزخارف على نحو ما كان يصنعه فنانو البيزنطيين ، وهي مركبة على سطح موشى بالذهب وفي كرسي القبة ست عشرة طاقة زجاج مذهبة يعلو كلاً منها طبقة من الجبس ، مقسمة عيوناً مغطاة بقطع الزجاج المختلفة الألوان والأشكال ، تنفذ منها أشعة الشمس صافية ، ملطفة بفضل ألواح الزجاج الخارجية والمشبكات المصنوعة من القاشاني ، وعلى هذه الطاقات نقوش تدل على أنها صنعت في زمن السلطان سليمان سنة (٩٤٥)ﻫ كما أن المرمر الذي يكسوها ركّب في زمن السلطان صلاح الدين وجدد في أيام سليمان القانوني .

والصخرة الشريفة قائمة على درابزين من خشب منقوش مدهون بأنواع الأصباغ طولها ١٧,٧٠ متراً وعرضها ١٣,٥٠ متراً ويبلغ ارتفاعها عن الأرض نحو ١,٢٥ متر إلى مترين ، وينزل إلى المغارة التي تحتها بإحدى عشرة درجة من جهة القبلة ، وعند باب المغارة قنطرة معقودة بالرخام العجيب على عمودين وبباطنها محرابان كل محراب على عمودي رخام لطيفين،وأمام المحراب الأيمن صُفّة تسمى مقام الخضر يواجهها عمود رخام قائم للسقف وآخر راقد،وفي الركن الشمالي منها صُفّة تسمى باب الخليل،وجميع باطن أرض الصخرة والمغارة مفروش بالرخام،وفي وسط المغارة بلاطة مستديرة ينبعث عنها إذا نقر عليها رنين تتجاوب أصداؤه مما يدل على خلو ما تحتها . وحول الدرابزين الخشب مصلى للنساء وهو محاط بالقضب الحديدية من جميع جهاته،وله أبواب أربعة لا يفتح منها عادة إلا الباب الغربي الموازي لباب النساء وهو من عمل الصليبيين إبان احتلالهم بيت المقدس .

صفة المسجد الأقصى :

يقع المسجد الأقصى جنوبي جامع الصخرة وطوله ٨٠ متراً وعرضه ٥٥ متراً عدا ما أُضيف إليه من الأبنية،وأول ما يقابلك من هذا المسجد عند مدخله من الجهة الشمالية رواق كبير أنشأه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق سنة (٦٣٤) هـ وجدد من بعده وهو مؤلف من سبع قناطر عقدت على ممشى ينتهي إلى سبعة أبواب ، كل باب يؤدي إلى كور من أكوار المسجد السبعة . وللمسجد عشرة أبواب والبناء قائم على خمسة وأربعين عموداً . والغالب أن هذه الأعمدة قديمة نقلت من أنقاض أبنية متنوعة أقدم عهداً من الحرم . وفوق الأعمدة قناطر يربط بعضها ببعض أخشاب ضخمة مستطيلة، وفوق القناطر صفان من الطاقات ويتألف باطن السقف من عوارض كلها من الخشب . وعدة ما في المسجد من السواري أربعون ، وهي ضخمة مربعة الشكل مبنية بالحجارة . وبأقصى الباب من جهة الجنوب قبة مرتفعة مزينة بالفصوص الملونة المذهبة . وهي مما رممه صلاح الدين (٥٨٤ هـ) كما رمّ أكبر جناحي المسجد ، والقبة والجناح على الغالب إنما صنعا في خلافة المهدي

بعد تهدم المسجد بفعل الزلازل ، وهي كقبة الصخرة من خشب مكسوة بصفائح الرصاص من ظاهرها وبالفص المذهب من باطنها ، ومجدد هذه التزيينات هو الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧٢٨) ه وهناك آيات قرآنية كتبت بخط كوفي على جانبي المحراب . والمحراب قائم على أعمدة لطاف من المرمر وبجانبه المنبر وهو من الخشب المرصع بالعاج والآبنوس عمل في عصر نور الدين زنكي ويقابل المنبر دكة المؤذنين وهي على عمد من رخام .

ومن داخل المسجد من جهة الغرب جامع النساء أو الجامع الأبيض ، وهو عبارة عن عشر قناطر على تسع سوار في غاية الإحكام بناه الفاطميون ، ومن جهة الشرق جامع عمر وهو معقود بالحجر والجير ، سمي بذلك لأنه بقية من الجامع الذي بناه عمر رضي الله عنه حين الفتح . وإلى جانب هذا البناء إيوان كبير معقود يسمى مقام عزير وبه باب يتوصل منه إلى جامع عمر ، وبجوار هذا الإيوان من الشمال إيوان لطيف به محراب يسمى محراب زكريا وهو بجوار الباب الشرقي . وفي صحن المسجد الأقصى شمالاً بركة مستديرة من رخام سورت بالقصب الحديدية يقال لها الكأس ، يأتيها الماء بأنابيب خاصة من عيون جارية بالقرب من برك المرجيع المسماة ببرك سليمان أهمها عين عطاب ووادي الآبار .

ومن الآثار المهمة في الحرم البناء السفلي المعقود بالحجر معروف عند الإفرنج بإصطبل سليمان وهو عبارة عن مهد عيسى ومحراب مريم والعقود الواسعة التي يقوم عليها المسجد الأقصى . وكذا البراق الشريف وهو في السور الغربي وجامع المغاربة والمدرسة النحوية المعظمية وفيها اليوم دار كتب المسجد الأقصى وهي من أبنية الملك المعظم (٦٠٤ ه) ومنبر القاضي برهان الدين بن جماعة ومحرابه . وقبة السلسلة وهي شرقي قبة الصخرة وعلى شكلها صنعت في أيام عبد الملك بن مروان . وقبة المعراج سنة (٥٩٧) ه . وسبيل قايتباي (٨٨٧ ه) وما يحيط بالحرم من المدارس القديمة . .

هذا حاضر المسجد الأقصى وما إليه وقد أثرت فيه عوامل الطبيعة كالمطر والشمس والثلج والأعاصير الشديدة فنقبت ما يكنها من صفائح الرصاص ، ونخرت ما قامت عليه من الأخشاب منذ زمن بعيد ، فبادر المجلس الإسلامي

الأعلى إلى الكشف عن البناء فتبين أنه يحتاج إلى مئة وخمسين ألف جنيه على أقل تعديل . وألفت لجنة لعمارته برئاسة المعماري كمال الدين واستصرخ الأمم الإسلامية لمعاونته فجمع زهاء ثمانين ألف جنيه ، وشرع حالاً بما كان احكم بناؤه من حجر منقوش أو مرمر مسنون أو خزف مصقول أو خشب منجور أو صفر مطلي بالفضة أو مكسو بالتبر ، أو فص مذهب مزين ملون مشجر مزهر مرصع موشى منمق ، ويوشك بفضل الله أن يعود إلى ما كان له من بهجة في الأعصار السالفة .

وصف المقدسي للمسجد الأقصى في القرن الرابع :

وصف المقدسي المسجد الأقصى فقال : هو على قرنة البلد الشرقي نحو القبلة أساسه من عمل داود ، طول الحجر عشرة أذرع وأقل ، منقوشة موجهة مؤلفة صلبة ، وقد بنى عليه عبد الملك بحجارة صغار حسان وكان أحسن من جامع دمشق ، لكن جاءت زلزلة في زمن بني العباس فطرحت المغطى إلا ما حول المحراب،فلما بلغ الخليفة خبره قيل له: لا يفي برده إلى ما كان بيت مال المسلمين ، فكتب إلى أمراء الأطراف وسائر القواد أن يبني كل واحد منهم رواقاً فبنوه أوثق وأغلظ صناعة مما كان ، وبقيت تلك القطعة شامة فيه وهي إلى حد أعمدة الرخام ، وما كان من الأساطين المشيدة فهو محدث ، وللمغطى ستة وعشرون باباً ، باب يقابل المحراب يسمى باب النحاس الأعظم مصفح بالصفر المذهب ، لا يفتح مصراعه إلا رجل شديد الباع قوي الذراع ، عن يمينه سبعة أبواب كبار في وسطها باب مصفح مذهب وعلى اليسار مثلهن ، ومن نحو الشرق أحد عشر باباً سواذج ، وعلى الخمسة عشر رواق على أعمدة رخام أحدثه عبد الله بن طاهر وعلى الصحن من الميمنة أروقة على أعمدة رخام وأساطين وعلى المؤخر أروقة آزاج من الحجارة وعلى وسط المغطى جمل عظيم خلف قبة حسنة والسقوف كلها إلا المؤخر ملبسة بشقاق الرصاص والمؤخر مرصوف بالفسيفساء الكبار والصحن كله مبلط وسطه دكة مثل مسجد يثرب يصعد إليها من الأربعة جوانب في مراق واسعة ، وفي الدكة أربع قباب : قبة السلسلة ، قبة المعراج ، قبة النبي صلى الله عليه

وسلم . وهذه الثلاث لطاف ملبسة بالرصاص على أعمدة رخام بلا حيطان وفي الوسط قبة الصخرة على بيت مثمن بأربعة أبواب كل باب يقابل مرقاة باب القبلي ، باب إسرافيل ، باب الصور ، باب النساء ، يفتتح إلى الغرب جميعها مذهبة في وجه كل واحد باب ظريف من خشب التنوب مداخل حسن ،أمرت بهن أمّ المقتدر بالله . وعلى كل باب صُفة مرخمة بالتنوبية تطبق على الصفرية من خارج . وعلى أبواب الصفاف أبواب أيضاً سواذج داخل البيت ثلاثة أروقة دائرة على أعمدة معجونة أجلّ من الرخام وأحسن لا نظير لها قد عقدت عليها أروقة لاطية ، داخلها رواق آخر مستدير على الصخرة ، لا مثمن على أعمدة معجونة بقناطر مدورة فوق هذه منطقة متعالية في الهواء فيها طيقان كبار ، والقبة من فوق المنطقة طولها عن القاعدة الكبرى مع السفود في الهواء مائة ذراع ، ترى من البعد فوقها سفود حسن طول قامة وبسطة . والقبة على عظمها ملبسة بالصفر المذهب ، وأرض البيت وحيطانه مع المنطقة من داخل وخارج على ما ذكرنا من جامع دمشق . والقبة ثلاث سافات: الأولى من ألواح مزوقة،والثانية على أعمدة الحديد قد شبكت لئلا تميلها الرياح،ثم الثالثة من خشب عليها الصفائح وفي وسطها طريق إلى عند السفود يصعدها الصناع لتفقدها ورمها ، فإذا بزغت عليها الشمس أشرقت القبة وتلألأت المنطقة ورأيت شيئاً عجيباً . وعلى الجملة لم أر في الإسلام ولا سمعت أن في الشرك مثل هذه القبة،ويدخل إلى المسجد من ثلاثة عشر موضعاً بعشرين باباً اهـ .

أصل الجامع الأموي :

كان الجامع الأموي على ما ذكر المؤرخون معبداً قبل الإسلام ، قال البيروني : إن من آثار الصابئة القبة التي فوق المحراب عند المقصورة ، وكان مصلاهم أيام كان اليونانيون والروم على دينهم ،ثم صار في أيدي اليهود فعملوه كنيستهم ثم تغلب عليها النصارى فصيروها بيعة إلى أن جاء الإسلام وأهله فاتخذوها مسجداً . وقال البرزالي : وبنى اليونان والكلدان هذا المعبد ،

وكانوا يصلون إلى جهة القطب الشمالي وكانت محاريبه تجاه الشمال وبابه يفتح إلى جهة القبلة خلف المحراب ، وهو باب حسن عن يمينه ويساره بابان صغيران بالنسبة إليه ، وكان غربي المعبد قصر منيف جداً تحمله هذه الأعمدة التي بباب البريد وغربيه قصر جيرون ، داران يكونان لمن يتملك دمشق قديماً فهو أقدم معبد .

وقال شيخ الربوة: إن له نحو أربعة آلاف سنة وهو معبد . ولما فتح المسلمون دمشق أخذوا من النصارى النصف الشرقي من هذه الكنيسة التي كانوا يسمونها كنيسة ماريوحنا ، وكان المسلمون والنصارى يدخلون من باب واحد وهو باب المعبد الأصلي في القبلة فينصرف النصارى إلى جهة الغرب والمسلمون إلى الشرق . وكان لا يستطيع أهل الإنجيل أن يجهروا في قراءته بكنائسهم ولا يضربوا بناقوسهم إجلالاً للصحابة . فلما أخذت أصواتهم ترفع في صلواتهم أحب الوليد أن يبعدهم عن المسلمين فعوضهم عنه أربع كنائس أخرى . وقيل: إنه بذل للنصارى فيه أربعين ألف دينار فلم يريدوا أن يأخذوها فأخذها كما قال ابن العميد . واحتاج الوليد إلى صناع كثيرة فوجه إليه ملك الروم بمائتي صانع .

وحكى الجاحظ في كتاب البلدان أنه كان مبنياً على الأعمدة الرخام طبقتين: الطبقة التحتانية أعمدة كبار ، والتي فوقها صغار ، في خلال ذلك صورة كل مدينة وشجرة في الدنيا بالفسيفساء الذهب والأخضر والأصفر ، وفي قبليه القبة المعروفة بقبة النسر ليس في دمشق شيء أعلى ولا أبهى منظراً منها ، ولها ثلاث منائر إحداها وهي الكبرى كانت ديدباناً للروم وأقرت على ما كانت عليه وصيرت منارة . وروى البرزالي أنه كان ابتداء عمارة جامع دمشق في أواخر سنة ست وثمانين وتكامل في عشر سنين . وكان الفراغ منه سنة ست وتسعين وفيها توفي بانيه الوليد بن عبد الملك وقد بقيت فيه بقايا من الزخرفة فكملها أخوه سليمان بن عبد الملك وجددت فيه أشياء أُخر ، فمن ذلك القبة الغربية التي في صحنه ويسميها الناس قبة عائشة ، وغالب ظني أنها بنيت في سنة ستين ومائة في أيام المهدي ، وأما القبة الشرقية التي في صحنه تجاه مشهد علي بن الحسين فعمرت في أيام المستنصر العبيدي في سنة خمس

وأربعمائة وكتب عليها اسمه واسم الأئمة الاثني عشر .

وذكر ابن جبير أن طول الجامع من الغرب إلى الشرق مائتا خطوة وهي ثلاثمائة ذراع وذرعه في السعة من القبلة إلى الجوف مائة خطوة وخمس وثلاثون خطوة وهي مائتا ذراع وبلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاث مستطيلة من المشرق إلى المغرب سعة كل بلاطة منها ثمان عشرة خطوة ، وقامت البلاطات على ثمانية وستين عموداً منها أربع وخمسون سارية ثمانية أرجل جصية تتخللها واثنتان مرخمة ملصقة معها بجدار الذي يلي الصخرة ، وأربعة أرجل مرخمة أبدع ترخيم مرصعة بفصوص من الرخام ملونة ، وقد نظمت خواتيم ، وصورت محاريب ، وأشكالاً غريبة ، قائمة في البلاط ويستدير بالصحن بلاط من ثلاث جهاته سعته عشر خطا ، وعدد قوائمه سبع وأربعون منها أربعة عشر رجلاً والباقي سوار . وسقف الجامع كله من خارج ألواح رصاص وأعظم ما فيه قبة الرصاص المتصلة بالمحراب وهي سامية في الهواء عظيمة الاستدارة ، وقد استقل بها هيكل عظيم هو عماد لها يتصل من المحراب إلى الصحن والقبة ، وقد أغصت الهواء فإذا استقبلتها رأيت مرأى هائلاً .

وذكر الباحثون من الفرنج أن طول الحرم الأصلي من الشرق إلى الغرب ١٣٠٠ قدم وعرضه من الشمال إلى الجنوب ١٠٠٠ فهو ربع مساحة دمشق كلها . وكان أمام جدرانه الأربعة من الداخل صف من الأعمدة على دائرة كشف علماء الآثار بعضها ، والجامع في وسط هذا الحرم قائم على أُسس الكنيسة التي كانت قبله ، وهي قائمة على أُسس الهيكل الذي كان قبلها أو على بعضها ، والجدار الغربي من الجامع قديم كله ، ما عدا باب البريد في وسطه فإنه من زمن العرب ، وفي الجدار الجنوبي أنواع البناء كلها ففيه جانب من البناء الشامي اليوناني ، وجانب من البناء المسيحي في عهد ثيودوسيوس واركاديوس من القرن الرابع والخامس للميلاد ، وجانب من البناء العربي من زمن الوليد في القرن الثامن ، وتجديدات أُخرى بعدما احترق في قرون متعددة .

وقال ابن حوقل: إن الوليد جعل أرض الجامع رخاماً مفروشاً وجعل وجه جدرانه رخاماً مجزعاً وأساطينه رخاماً موشى ومعاقد رؤوس أساطينه ذهباً

ومحرابه مذهب. الجملة مرصعاً بالجواهر ودور السقف كله ذهباً مكتوباً عليه كما يطوف بترابيع جدار المسجد،وإذا أرادوا غسل سقفه بثق الماء إليه فدار على رقعة المسجد بأجمعه حتى إذا فجر منه انبسط عنه وعن جميع الأركان بالسوية . وأبوابه الأربعة كانت أبواب الكنيسة فبقيت على حالها وفيه ثلاث مقاصير :مقصورة معاوية أحدثها سنة ٤٤ لما وثب عليه بعضهم ليقتله .كان في جدار الصحن القبلي من الجامع حجر مدور على ما روى القزويني شبه درقة منقطة بأبيض وأحمر بذل الفرنج أموالاً فلم يجابوا إليه . وقد كان عزم عمر بن عبد العزيز أن يعمد إلى ما في الجامع من الفسيفساء وهو النقش المفصص والرخام فيقلعه وينتزع السلاسل الذهبية ، وكانت ستمائة سلسلة ويجعل مكانها حبالاً وينزع غيرها من ضروب الزينة ويبيعها ويجعلها في بيت المال فأرجعه أهل دمشق عن فكره . وذكروا له ما قام به أهل الشام من بنائه على هذه الصورة .

ووصف ابن جبير قبة الرصاص في الجامع الأموي فقال : إنها من أعظم ما شاهده من مناظر الدنيا الغريبة وهياكلها الهائلة البنيان قال : إنها مستديرة كالكرة وظاهرها من خشب قد شد بأضلاع من الخشب الضخام مؤلفة بنطق من الحديد ينعطف كل ضلع عليها كالدائرة ، وتجتمع الأضلاع كلها في مركز دائرة من الخشب أعلاها . وداخل هذه القبة وهو مما يلي الجامع المكرم خواتيم من الخشب منتظم بعضها ببعض قد اتصل اتصالاً عجيباً ، وهي كلها مذهبة بأبدع صنعة من التذهيب مزخرفة التلوين ، بديعة القرنصة ، وفي الجدار حجارة يزن كل واحد منها قناطير مقنطرة ، لا تنقلها الفيلة فضلاً عن غيرها ، فالعجب كل العجب من تطليعها إلى ذلك الموضع المفرط السمو ، وكيف تمكنت القدرة البشرية لذلك ، فسبحان من ألهم عباده إلى هذه الصنائع العجيبة اهـ .

ولنابغة بني شيبان من قصيدة يصف فيها بدائع هذا الجامع في القرن الأول وهي في مدح الوليد بانيه :

قلعت بيعتـهم عن جوف مسجدنا   فصخرها عن جديد الأرض منسوف
كانت إذا قام أهل الدين فابتهلوا   باتت تجاوبنا فيهـا الأساقيف

أصوات عُجم إذا قاموا بقربتهم　　كما تصوّت في الصبح الخطاطيف

فاليوم فيه صلاة الحق ظاهرة　　وصادق من كتاب الله معروف

فيه الزبرجد والياقوت مؤتلق　　والكلس والذهب العقيان مرصوف

ترى تهاويلهم من نحو قبلتنا　　يلوح فيه من الألوان تفويف

يكاد يُعشي بصيرَ القوم زِبرجه　　حتى كأن سواد العين مطروف

وفضة تُعجب الرائين بهجتُها　　كريمها فوق أعلاهن معطوف

وقبة لا تكاد الطير تبلغها　　أعلى محاريبها بالساج مسقوف

لها مصابيح فيها الزيت من ذهب　　يضيء من نورها (لبنان) و (السيف)

فكل إقباله — والله زينه —　　مبطن برخام (الشام) محفوف

في سرة الأرض مشدود جوانبه　　وقد أحاط بها الأنهار والريف

فيه المثاني وآيات مفصلة　　فيهن من ربنا وعد وتخويف

ومن أجمل ما وصف به جامع دمشق قول ابن منقذ الكناني من قصيدة :

وكأن جامعها البديع بناؤه　　ملك يمير من المساجد جحفلا

ذو قبة رفعت فضاهت قلة　　ومنابر بنيت فحاكت معقلا

تبدو الأهلة في أعاليها كما　　يبدو الهلال تعالياً وتهللا

ويريك سقفاً بالرصاص مدثراً　　يعلو جداراً بالرخام مزملا

قد ألّف الأقوام بين شكوله　　فغدا الرخام بذاته متشكلا

لم يرض تجليلاً بجص فانبرى　　بالفص يعلو والنضار مجللا

يغشى سوام اللحظ في أرجائه　　من عسجد أرضاً ومن فص خلا

فإذا تذر الشمس منه تخاله　　يلقاً تألق أو حريقاً مشعلا

فكأنما محرابه من سندس　　أو لؤلؤ وزمرد قد فصلا

وتخال طاقات الزجاج إذا بدت　　منه للحظك عبقرياً مسدلا

تبدو القباب بصحنه لك مثلما　　تبدو العرائس بالحليّ لتجتلى

وعلت به فوّارة من فضة　　سالت فظنوها معيناً سلسلا

وببابه حركات ساعات إذا　　فتحت لها باب تراجع مقفلا

ويريك باريها وكل قد رمى　　من فيه يقذفه يصيب سجنجلا

وظل الجامع بحاله بهجة النظار والسفار ، ومفخر دمشق على غابر الأعصار ،

والملوك حتى من العباسيين يرمّون فيه إلى أن التهمه الحريق الأول سنة(٤٦١هـ) فذهبت محاسنه ، وذلك في حرب المصريين المغاربة أي الفاطميين مع العراقيين فأحرقوا داراً مجاورة للجامع فتعلقت النيران به فدثرت محاسنه، وتشوه منظره واحترقت سقوفه المبطنة بالذهب وفصوصه ، وسقطت القبة كما قال الذهبي فأعيدت إلى ما كانت ، واحترق ثانية سنة ٧٤٠ وكان الأصل فيه كما قال ابن مفلح من النصارى بدمشق ، واشتهر ذلك عنهم ، وكتب عليهم محضر به ، ونقضت مأذنة عيسى وجددت من أموالهم لكونهم اتهموا بحريقها بإقرار بعضهم . وهذا الحريق عم جميع الجامع وما حوله من الأسواق . وفي سنة (٧٥٣) كان ثالث حريق وذلك أنه وقع حريق عند باب جيرون فاتصل بالباب بالنحاس الأصفر فنزعوه وكسروا خشبه وكان من نحاس دمشق ومعاملها . وكان في سنة (٧٩٥) حريق سوق الدهستان وسوق الورافين والساعات ونصف المعزية من شرقي الجامع ، ثم أُعيد إلى ما كان عليه . ورابع حريق كان في سنة (٨٠٣) عند حضور تيمور وحرقت خزانة المصاحف والكتب فأعيد سنة (٨٠٥) إلى قريب ما كان عليه وخامس حريق كان سنة (٨٨٤) .

وأُصيب بالزلازل مرات وتعطلت جوانبه وتداعت بعض سقوفه ومنها زلزلة سنة (٥٩٧) فرمي بعض المنارة الشرقية وسقط ١٦ شرفة وتشققت قبة النسر وآخرها زلزال سنة (١١٧٣) فخربت قبة النسر والرواق الشمالي وأُعيد بناؤهما من قابل . حتى إذا كانت سنة (١٣١٠) سرت النار إلى جزوع سقوفه فالتهمتها في أقل من ثلاث ساعات فدثر آخر ما بقي من آثاره ورياشه ، وحرق فيه مصحف كبير بالخط الكوفي كان جيء به من مسجد عتيق في بصرى ، وكان الناس يقولون إنه المصحف العثماني ، وجمعت أموال من إعانات وغيرها فنجز القسم الشرقي في سنة (١٣١٧) وفي سنة (١٣٢٠) نجز القسم الغربي وظل العملة في بنائه الذي أُرجع إلى ما كان عليه بالجملة عشر سنين وصرف عليه ستون ألف ليرة عثمانية ذهب عدا من تطوعوا للعمل فيه بلا أجر . ولم يبق من محاسن الجامع القديمة إلا جدرانه وبعض كتابات من عهد السلجوقيين والأيوبيين والمماليك على بعض سواريه. وفي دار الآثار بدمشق أيضاً حجران كتبا بالخط الكوفي بعمارة قسم من الجامع ، في القرن الخامس وصورتهما :

الأول — (بسم الله الرحمن الرحيم) : شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم إن الدين عند الله الإسلام . أمر بعمارة هذه القبة والمقصورة والسقف والطاقات والأركان في خلافة الدولة العباسية أيام الإمام المقتدي بأمر الله أمير المؤمنين ، وفي دولة السلطان المعظم شاهنشاه الأعظم سيد ملوك الأمم أبي الفتح ملك شاه بن محمد وأيام أخيه الملك الأجل المؤيد المنصور تاج الدولة وسراج الملة شرف الأمة أبي سعيد تتش ابن ملك الإسلام ناصر أمير المؤمنين وفي أيام وزارة الشيخ الأجل نظام الملك أتابك أبي علي الحسن بن علي الوزير الأجل السيد فخر المعالي ناصح الدولة عميد الحضرتين أبو نصر أحمد بن الفضل من خالص ماله ابتغاء ثواب الله عز وجل في شهور خمس وسبعين وأربعمائة .

الثاني — (بسم الله الرحمن الرحيم) : لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً. أمر بعمل هذه المقصورة وترخيم الأركان في خلافة الدولة العباسية أيام المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله أمير المؤمنين وفي دولة السلطان المعظم شاهنشاه الأعظم سيد ملوك الأمم مولى العرب والعجم أبي الفتح ملكشاه بن محمد بن داود أمين أمير المؤمنين وأيام أخيه الملك الأجل تاج الدولة وسراج الملة وشرف الأمة أبي سعيد تتش بن ملك الإسلام ناصر أمير المؤمنين الوزير الأجل السيد فخر المعالي ناصح الدولة عميد الحضرتين أبو النصر أحمد بن الفضل من خالص ماله ابتغاء ثواب الله عز وجل في شهور سنة خمس وسبعين وأربعمائة » اهـ .

قصور الأمويين ومصايفهم ومشاتيهم :

وصف يزيد بن المهلب دار ولي عهد سليمان بن عبد الملك بدمشق فقال : دخلتها فإذا هي دار مجصصة حيطانها وسقوفها ، وفيها وصفاء ووصائف عليهم ثياب صفر وحلي الذهب ، ثم أُدخلت داراً أُخرى فإذا حيطانها وسقوفها خضر ، وإذا وصفاؤها ووصيفاتها عليهم ثياب خضر وحلي الزمرد ، وإن ولي العهد قاعد على سرير معه امرأته . ووصف حماد الراوية دار هشام بن

عبد الملك في دمشق فقال : إنها دار قوراء مفروشة بالرخام ، وهو في مجلس مفروش بالرخام ، وبين كل رخامتين قضيب من ذهب ، وحيطانه كذلك ، وهشام جالس على طنفسة حمراء ، وعليه ثياب حمر من الخز ، وقد تضمخ بالمسك والعنبر ، وبين يديه مسك مفتوت في أواني ذهب ، يقلبه بين يديه فتفوح رائحته ، وفي المجلس جاريتان لم ير مثلهما قط اه . والله أعلم أكان ذلك حقيقة أم خيالاً .

وقد ادعت ميس بل أنه لولا حوادث القرن السابع أي لولا دخول العرب الفاتحين لبلغ الشاميون طريقة في هندسة الأبنية خاصة بهم مستقلة عن غيرهم ، وإن امتزج بها شيء من هندسة الأمم الأخرى ، فردّ عليها لامنس بأن هذه المدينة مدينة دمشق لم تمسِ عاصمة كبرى إلا في عهد بني أُمية وبهمتهم . قلنا : ولو لم يُعفِّ بنو العباس آثار بني أُمية في الشام لرأينا فيه أحسن صورة تامة من صور بنائهم . وكان منه ما هو في المدن ومنه ما هو في البادية أو ما يقرب منها . لأن الأمويين كانوا على الأغلب يتحامون نزول دمشق لرطوبتها وحمياتها ، فمنهم من نزل قصر الموقر أو المقور وقصر المشتّى والزيزاء والفُدَين والأزرق والأغدف والبخراء والأبيض والقسطل والرصافة والزيتونة والجابية وحُوّارين والصّنّبرة ودابق وبطنان حبيب وأُبايِر في البلقاء وشمالي الشام وشرقها . وحصن الموقر بالبلقاء على ساعتين من عمان قرب قصر المشتّى الواقع على ساعتين من مادبا سكنه يزيد بن عبد الملك وكان رممه فجعله من القصور الجميلة . واستقر الوليد بن يزيد والعباس بن الوليد في القسطل في البلقاء . والوليد في الزيزاء وقصر الأزرق . وابتنى عبد الملك الأبنية حول قصر الموقر وكان له في البرية عدة قصور . وقصر عمرا على قصر المشتّى على سبعين كيلو متراً من جهة الشرق وهو في وسط البادية . اكتشف قصر عمرا الأثري موسيل سنة ١٨٩٨ وهو قصر أُموي يجمع بين مزايا الصروح الملكية والحصون ، وهو على الشاطئ الشمالي من البحر الميت وكان على ما يظهر حماماً حفظت فيه كما قال هرزفلد نقوش عجيبة بحالها لم يحفظ مثلها في صقع آخر من أصقاع الشام ، تمثل مشاهد الحمامات وألعاباً رياضية كالجريد وصيوداً لأنواع الطيور وقنصاً في البحر ولوحات تمثل الصناعات وصوراً

رمزية تمثل أدوار الحياة في البادية والتاريخ والفلسفة والشعر ، وخليفة جالساً على العرش وأعداء الإسلام ورسوم منطقة البروج ورجالاً ونساء وأشجاراً وحيوانات في كؤوس وفرش ، وشجيرات وعساليج الكرمة والدفلى والنخيل وثماراً وطيوراً من أطيار البادية وامرأة عريانة محلاة باللؤلؤ . وكلها تدل على أنها من هندسة الروم والشاميين والفرس . ووجد فيه اسم : « قيصر ، رذريق ، كسرى ، النجاشي » مكتوباً بالعربية والرومية . وإجماع الأثريين على القول إن هذا القصر من عمل الوليد الأول بين سنتي ٧١٢ و ٧١٥ ميلادية . وكذلك قصر المشتى وهو على اثني عشر ميلاً شرقي عمان وعلى ساعة من شرقي القسطل في خربة الموقر وهو قصر عظيم يشبه الحصون المنيعة يحيط به سور مربع الشكل تبلغ جوانبه نحو ١٥٠ متراً وفي زواياه أربعة بروج مستديرة ولكل من جوانبه الثلاثة الشرقي والغربي والشمالي بروج يشرف منها اثنان على جهتي باب البناء وهما كثيرا الأضلاع . ويقسم البناء إلى ثلاث مربعات مستطيلة أوسعها الأوسط فيه أبنية القصر القديمة وطول القصر خمسون متراً في عرض سبعين ويشتمل على حجرة واسعة يليها أربعة منازل . والأبنية كلها مشيدة بالآجر ما عدا طبقتها السفلى القائم عليها البناء فهي مبنية بالأحجار البيضاء . وفي ساحة القصر قطع ضخمة من الرخام الأخضر لم تنحت بعد . وكان وجه البناء الخارجي مزيناً بأبدع النقوش ، وهي تمثل جفنة محكمة الصنع ذات أغصان وفروع تمتد على طول البناء تتخللها طيور وحيوانات ليست معروفة كالأسود المجنحة والعنقاء تمرح وتنقر العنب أو تشرب من الكؤوس . اقتطع هذه الصور علماء من الألمان بأمر عبد الحميد الثاني وهي اليوم في متحف برلين . والرأي الشائع أنها من صنع الغسانيين . وفي تلك الأرجاء نحو أربعين خربة لم يكشفها علماء الآثار حتى الآن .

وبنى هشام حصن المثقب على يد حسان بن ماهون الأنطاكي وحوله خندقاً وحصن بوقا من أعمال أنطاكية . وكان هشام ينزل في الزيتونة في بادية الشام فلما عمر الرصافة انتقل إليها فكانت منزله إلى أن مات . وكان يزيد يقيم في حُوّارين وتدمر ، وابنه خالد يسكن في قصر الفدين في البلقاء . ومن الدور الكبيرة بدمشق دار خالد بن عبد الله بن يزيد أبو الهيثم البجلي القسري من

أهل دمشق كان أميراً على مكة وولي إمرة العراقين وكانت داره بقنطرة سنان بباب توماء .

وبعض هذه القصور لا تزال أُسسه ماثلة للعيان مثل قصر الموقر والمشتى لم ينسفها العباسيون كما نسفوا آثار المدن ونقضوا سور دمشق يوم فتحوها حجراً حجراً ، وأخربوا أيضاً قصور الأمويين في حلب مثل قصر سليمان ابن عبد الملك بالحاضر ، وقصر مسلمة بن عبد الملك بالناعورة بحلب ، ومنازل هشام بن عبد الملك في القطيفة من جبل سنير ، وقصري هشام في الرصافة ، وأبقوا في الغالب على قصر خُناصرة من أرض الأخصّ لعمر بن عبد العزيز احترموه ولم يبقوا على غير قبره من قبور بني أُمية . وفي الأغاني أن المأمون طاف على قصور بني أُمية وتتبع آثارهم فدخل صحناً من صحونهم فإذا هو مفروش بالرخام الأخضر كله . والظاهر من كلام المقدسي ان آثار بني أُمية كانت موجودة في القرن الرابع خلافاً لما هو المعروف من أن العباسيين أتوا عليها كلها . والغالب أن بعض الأبنية لم تعور كثيراً ورمّت فاطلق عليها أسمها الأصلي ونسبت إلى بانيها الأول .

قصور خلت من ساكنيها فما بها	سوى الأدم تمشي حول واقفة الدُّمى
تجيب بها الهام الصدى ولطالما	أجاب القيانُ الطائر المترنما
كأن لم يكن فيها أنيس ولا التقى	بها الوفد جمعاً والخميس عرمرما

عمل العباسيين :

قال الجاحظ : من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم وأن يميتوا ذكر أعدائهم ، فقد هدموا بذلك السبب المدن وأكثر الحصون ، كذلك كانوا أيام العجم وأيام الجاهلية ، وعلى ذلك هم في الإسلام ، كما هدم عثمان صومعة غمدان وكما هدم الآطام (الحصون) التي كانت بالمدينة ، وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر ، وكما هدم أصحابنا (يعني العباسيين) بناء مدن الشامات (الشام) اه .

أما بنو العباس فلم تبق الأيام من آثارهم مصنعاً يعتدّ به في الشام لنحكم على عظمتهم ، وكان من أهمها قناة قرية مَنين التي جرّها المأمون إلى معسكره

بدير مران في جبل قاسيون . وهذا عمل مهمّ مما بلغنا خبره لأن الطريق من منين إلى قاسيون يحتوي على أودية وشعاب ونجاد كثيرة ذكر ذلك ابن عساكر. وقد بني للمتوكل العباسي قصر بين داريا ودمشق فلم يعثر له على أثر . قال ابن كثير : إن المتوكل لما جاء دمشق عازماً على الإقامة بها سنة أربع وأربعين ومائتين أمر ببناء القصور بها وهي التي بطريق داريا . ومن ذلك يفهم أنها كانت موجودة إلى زمن ابن كثير . وفي سنة (٢٦٢ هـ) بنى الأمير النعمان داراً عظيمة في بيروت وحصن سور المدينة وقلعتها . أما المتغلبة على الملك في زمن العباسيين مثل الفاطميين والطولونيين والحمدانيين والسلجوقيين فإننا لا نعرف عن آثارهم كبير أمر أيضاً ولا سيما بنو طولون وبنو عبيد فإنهم آثروا أن يجعلوا مصانعهم في مصر مقر ملكهم . كما آثر العباسيون أن يجعلوها في العراق وخراسان . ومما بناه ختكين والي دمشق للحاكم بأمر الله جسر الحديد تحت القلعة قلعة دمشق على نهر بردى ، وسخر الناس لأجل عمله وأخذ أموالهم .

ذكر ابن عساكر أن حمزة بن الحسن المعروف بفخر الدولة قاضي دمشق من قبل الفاطميين جدد في دمشق مساجد ومنابر وقنوات وأجرى الفوّارة التي في جيرون . وذكر أنه وجد في تذكرته سبعة آلاف دينار صدقة في كل سنة وهو الذي أنشأ القيسارية المعروفة بالفخرية توفي سنة ٤٣٤ . وكان لشمس الدين بن المقدم من كبار الدولتين النورية والصلاحية (٥٨٤) دار كبيرة بدمشق إلى جانب المدرسة المقدمية ثم صارت لصاحب حماة ثم صارت لقرا سنقر المنصوري ثم للسلطان الملك الناصر وله تربة ومسجد وخان . وكان الملك الأمجد صاحب بعلبك يقيم بداره التي داخل باب النصر بدمشق المعروفة بدار السعادة وهي التي ينزلها النواب ولعلها دار المشيرية التي حرقت في العهد الأخير ودار السعادة هذه أكملت عمارتها سنة (٤٠٨ هـ) بعد إلزام النائب أهل البلد بعمارتها ، ومرمة ما يحتاج السكنى فيها وتحول إليها فسكنها .

آثار عربية محلية ميناء عكا :

وقد نشأت في القرن الرابع وما بعده في الشام حركة مباركة في العمران قام بها مهندسون من العرب انتهى إلينا قليل من أعمالهم مثل أبي بكر البناء

المهندس الذي ابتنى ميناء عكا لابن طولون . قال المقدسي : ولم تكن عكا على هذه الحصانة حتى زارها ابن طولون ، وقد كان رأى صور ومنعتها واستدارة الحائط على ميناها ، فأحب أن يتخذ لعكا مثل ذلك المينا ، فجمع صناع الكورة وعرض عليهم ذلك ، فقيل لا يهتدي أحد إلى البناء في الماء في هذا الزمان، ثم ذكر له جدنا أبو بكر البناء ، وقيل : إن كان عند أحد علم هذا فعنده ، فكتب إلى صاحبه على بيت المقدس حتى أنهضه إليه ، فلما صار إليه وذكر له ذلك قال : هذا أمر هين عليّ بفلق الجميز الغليظة ، فصفها على وجه الماء بقدر الحصن البري ، وخيط بعضها ببعض ، وجعل لها باباً على الغرب عظيماً ، ثم بنى عليها بالحجارة والشيد ، وجعل كلما بنى خمسة دوامس ربطها بأعمدة غلاظ ليشتد البناء ، وجعلت الفلق كلما ثقلت نزلت حتى إذا علم أنها قد جلست على الرمل تركها حولاً كاملاً حتى أخذت قرارها ، ثم عاد فبنى من حيث ترك ، وكلما بلغ البناء إلى الحائط القديم داخله فيه وخيطه به ، ثم جعل على الباب قنطرة ، فالمراكب في كل ليلة تدخل الميناء وتجر السلسلة مثل صور . قال المقدسي : وميناء صور وعكا من العجائب . وقال ابن إياس من أهل القرن العاشر : إن في صور قنطرة ليس في الدنيا أعظم منها وهي على قوس واحدة مثل قنطرة طليطلة بالأندلس إلا أنها دون قنطرة صور . وبنى أحمد بن طولون قلعة يافا ولم يكن لها قلعة من قبل .

وذكر المؤرخون أن جعفر بن فلاح لما فتح دمشق للفاطميين سنة (٣٥٨) نزل بظاهر سور دمشق فوق نهر يزيد وأقام أصحابه هناك الأسواق والمساكن وصارت شبه المدينة ، واتخذ لنفسه قصراً عجيباً من الحجارة ، وجعله عظيماً شاهقاً في الهواء غريب البناء . وهذه صورة ما وجد على جسر ثورا مكتوباً على حجر بالخط الكوفي على ما حققه استاذنا الشيخ طاهر الجزائري : أمر بعمارة الجسر المبارك مولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه تاج الأمراء ... جيوش ... شرف الملك عمدة الإمام سيف الإسلام معز الدولة وعضدها وأطال الله بقاءه في ربيع الأول سنة (٤٥٦) .

وهب صاحب حلب محمود بن نصر لابن أبي حصينة المعري الأديب (٤٥٧) مكاناً بحلب تجاه حمام الواساني فجعله داراً وزخرفها فلما تم بناؤها

نقش على دائرة الدرابزين فيها :

دار بنيناها وعشنا بهـا   في دعـة من آل مرداس
قوم محوا بؤسي ولم يتركوا   عليّ في الأيام من بـاس
قل لبني الدنيا ألا هكـذا   فليحسن الناس إلى الناس

ولما تكامل البناء عمل دعوة حضرها الأمير محمود بن نصر فلما رأى حسن الدار وقرأ الأبيات المتقدمة قال : يا أبا الفتح كم صرفت على بناء الدار قال : يا مولانا هذا الرجل تولى عمارتها ولا أدري كم صرف عليها . فسأل المعمار فقال : غرّم عليها ألفا دينار مصرية فأمر بإحضار ألفي دينار وثوب أطلس وعمامة مذهبة وحصان بطوق ذهب وسرفسار ذهب فسلمها إلى ابن أبي حصينة وقال له :

قل لبني الدنيا ألا هكـذا   فليحسن الناس إلى النـاس

وفي الروضتين أن صلاح الدين يوسف كان يزور القاضي الفاضل ليستضيء برأيه فيما يريد فعله في جوسق (قصر) ابن الفراش بالشرف الأعلى في بستانه ، حتى إن الصفي بن القابض لما تولى خزانة دمشق لصلاح الدين بنى له داراً مطلة على الشرف بالقلعة وأنفق عليها أموالاً كثيرة وبالغ في تحبيرها وتحسينها وظن أنها تقع من السلطان بمكان فما أعارها طرفاً ولا استحسنها ، وكانت من جملة ذنوبه عند السلطان التي أوجبت عزله عن الديوان وقال : ما يصنع بالدار من يتوقع الموت ، وما خُلقنا إلا للعبادة والسعي للسعادة ، وما جئنا لنقيم ، وما نروم أن لا نريم .

القصر الأبلق :

ومن المصانع التي كانت بدمشق القصر الأبلق في الميدان القبلي ، وهو قصر عظيم مبني من أسفله إلى أعلاه بالحجر الأسود والأصفر ، بتأليف غريب وإحكام عجيب ، بناه الظاهر بيبرس البندقداري وعلى مثاله بنى الناصر محمد ابن قلاوون القصر الأبلق بقلعة الجبل بمصر . قال ابن فضل الله : وأمام هذا القصر أي أبلق دمشق دركاه[1] يدخل منها إلى دهليز القصر وهو دهليز

(١) : الدركاه البيت المستطيل أمام الدار يرتفق به .

فسيح يشتمل على قاعات ملوكية مفروشة بالرخام الملون البديع الحسن ، المؤزر بالرخام ، المفصل بالصدف والفص المذهب إلى سجف السقف ، وبالدار الكبرى به إيوانان متقابلان تطل شبابيك شرقيهما على الميدان الأخضر وغربيهما على شاطئ وادٍ أخضر يجري فيه نهر ، وله رفارف عالية تناغي السحب ، تشرف من جهاتها الأربع على جميع المدينة والغوطة . قال شيخ الربوة : سمي بالقصر الأبلق لكونه مبنياً بالحجارة البيض والحجارة السود . وقد بقي هذا القصر عامراً إلى عهد العثمانيين رآه ابن طولون الصالحي المتوفى سنة ٩٥٣ وقرأ تاريخه ٦٦٨ وقال : إن على أسكفته ضرباً من رخام أبيض وسطه مكتوب عمل إبراهيم بن غنائم المهندس . وقد قال العارفون : إن التكية السليمانية قامت على أنقاض ذاك القصر . وذكر ابن تغري بردي أن الأبلق ما زال عامراً تنزله الملوك إلى أن هدمه تيمورلنك في سنة ثلاث وثمانمائة عند حريق دمشق وخرابها .

وبنى علم الدين قيطر المعروف بتعاسيف للملك المظفر في حماة أبراجاً وطاحوناً على العاصي وعمل له كرة من الخشب مدهونة رسم فيها جميع الكواكب المرصودة وعاونه في عملها المهندس القاضي جمال الدين بن واصل .

المعاهد الدينية والمدنية في العهدين النوري والصلاحي :

ولما قويت حركة العمران في عهد الدولتين النورية والصلاحية بدمشق وحلب والقدس وحماة وطرابلس وبعلبك وغيرها وأخذوا ينشئون فيها المدارس والجوامع والرُّبُط والمستشفيات والقلاع والجسور ، كان منها ما هو مثال الهندسة العربية مثل واجهة بناء المدرسة العادلية التي شرع ببنائها نور الدين ولم يتمها ، ولما ولي العادل أزال ما بناه نور الدين وبناها كما قال صاحب الروضتين هذا البناء المحكم الذي لا نظير له في بنيان المدارس . ومن البدائع واجهة مدخل المستشفى القيمري في صالحية دمشق ، وهندسة مدرسة الصهيبية في حلب ، وكذلك المدرسة التي كانت بجوار الشهباء وصفها ابن جبير قال : ومن أظرف ما يلحظ فيها أن جدارها القبلي مفتح كله بيوتاً وغرفاً وله طيقان يتصل بعضها ببعض ، وقد امتد بطول الجدار عريش كرم مثمر عنباً ،

فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدلياً أمامها ، فيمدّ الساكن فيها يده ويجتنيه متكئاً دون كلفة ولا مشقة. وقد قيل : إن منارة جامع حلب المثال الوحيد من الهندسة الإسلامية .

ولقد بنى الملك الأشرف بن العادل بدمشق قصوراً ومتنزهات حسنة . وكانت عمارة اللاذقية في الحروب الصليبية من أحسن الأبنية وأكثرها زخرفة مملوءة بالرخام على اختلاف أنواعه كما قال ابن الأثير ، فخرب المسلمون كثيراً منها ونقلوا رخامها إلى دمشق وغيرها ، وخربوا البيع التي قد غرم على كل واحدة منها الأموال الجليلة المقدار . ولما تسلمها تقي الدين عمر حصن قلعتها ، وكان عظيم الهمة في تحصين القلاع والغرامة الوافرة عليها كما فعل بقلعة حماة . وبنى الناصر صلاح الدين من أسرة صلاح الدين يوسف قصراً في قرية القابون بدمشق «لم ير الراؤون مثله» وعَمّر الشرف الأعلى في دمشق بقصور العظماء .

عمران دمشق في القرون الوسطى :

وبعد أن كانت دمشق في القرن السادس أكثر مدن الأرض سكاناً كما قال ابن جبير وكانت في القرن الثامن كما قال ابن تغري بردي أجمل مدينة في العالم بل أغنى مدينة ، أحرق تيمورلنك بعض أحيائها ومدارسها وغرّمها ملايين من الدنانير ، وحمل معه المهندسين والبنائين والنقاشين ، في جملة من حمل من أرباب الصنائع إلى سمرقند ، كما فعل السلطان سليم في مصر لما فتحها في الربع الأول من القرن العاشر ، فحمل إلى القسطنطينية كل صاحب صنعة وعمل نافع وجردها من بدائعها وصناعاتها النفيسة .

وكان في دمشق في القرن التاسع مائة حمام أفردها ابن عبد الهادي في رسالة كما كان في عصره ألف جامع ومسجد في دمشق وضاحيتها وناهيك ببلدة فيها هذا القدر من آثار العمران . ولا غرو بعد هذا إن قال فينا أبو الفضل ابن منقذ الكناني يوم كان لنا القدح المعلى في العمائر :

وإذا مررت على المنازل معرضاً ... عنها قضى لك حسنها أن تقبلا
إن كنت لا تستطيع أن تتمثل الـ ... ـفردوس فانظرها تكن متمثلا
وإذا عنان اللحظ أطلقه الفتى ... لم يلق الا جنة أو جدولا

أو روضـة أو غيضة أو قبـة   أو بركة أو ربوة أو هيكلا
أو وادياً أو نـاديـاً أو ملعبـاً   أو مـذنبـاً أو مجدلا أو موئلا
أو شارعاً يزهو بربع قد غدا   فيه الرخام مجزّعـاً ومفصلا

دور الخاصة :

ومن قصور حلب في القرن الثالث دار واليها زكا الأعور ودار حاجبه فيروز ودار سيما الطويل ودار كورة الخراساني ومنها قصر السلطنة بدمشق . وذكر ابن عساكر أن محمد بن عمرو بن حوى السكسكي كان في إقليم من أقاليم غوطة دمشق يعرف ببيت لهيا بينها وبين دمشق نحو ميل وكان له في هذا الأقليم عدة قصور مبنية بالحجارة وخشب الصنوبر والعرعر في كل قصر منها بستان ونهر يسقيه ، وكان كل جليل يقدم من الحضرة (بغداد) أو من مصر يريدها ينزل عنده وفي قصوره ، وكان ذلك في القرن الثالث . ومن قصور الشام قصر عبد الملك بن صالح في مدينة منبج وكان بناه لنفسه وأنشأ بستاناً إلى جانبه . قال ابن الجوزي : هدم أهل دمشق قصر السلطنة في القرن الخامس ودرسوه وكان عظيماً يسع ألوفاً من الناس . وقصر بِطياس في حلب المذكور في شعر البحتري كان عامراً إلى عهد ابن العديم في القرن السادس وكان عامراً إلى عهده برج من الحصن الذي كان بناه مسلمة بالناعورة وكان بنى فيها قصراً بالحجر الأسود الصلد . .

وقد خربت محلة الفراديس المعروفة اليوم بمحلة العمارة في فتنة القرامطة سنة (٣٦٣) وكان فيها على رواية ابن القلانسي من البنيان الرفيع في الحسن والبهاء ما لم ير مثله وهو أحسن مكان كان بظاهر دمشق . وقال ابن شاكر : إن اللؤلؤتين كانتا منظرتين ظاهر دمشق مما يلي باب الحديد غرباً وكانتا من أعجب البناء . أحرقهما المصريون لما حاصروا دمشق . واللؤلؤتان الصغيرة والكبيرة هما اليوم حدائق في أرض باب السريجة بينها وبين قرية كفرسوسة . وقنطرة سنجة التي قال فيها ابن حوقل : ليس في الإسلام قنطرة أحسن منها ويقال : إنها من العجائب وسنجة بالقرب من منبج . وقال ابن القلانسي : من اقتراحات شمس الملوك صاحب دمشق الدالة على قوة عزيمته ، ومضاء

همته ، ومستحسن ابتدائه ، ما أحدثه من البابين المستجدين خارج باب الحديد من القلعة بدمشق الأوسط منها ، وباب جسر الخندق الشرقي منها وهو الثالث لها ، أُنشئ ذلك في سنة (٥٢٧) مع دار المسرة بالقلعة والحمام المحدثة على صيغة اخترعها ، وبنية اقترحها ، وصفة آثرها ، فجاءت في نهاية الحسن والطيبة ، والتقويم والاعتدال .

واشتهرت في القرن الخامس دار ابن عقيل صاحب صور (٤٦٥) دخلها أُسامة بن منقذ فرآها وقد تهدمت وتغير زخرفها فكتب على لوح من رخام هذه الأبيات :

احـذر مـن الدنيـا ولا   تغتر بالعمـر القصيرِ
وانظر إلى آثار مـن   صرعتـه منـا بالغـرور
عمروا وشادوا ما ترا   ه من المنازل والقصور
وتحولوا من بعـد سكـ   ناها إلى سكنى القبور

وذكر سبط ابن الجوزي أن أُسامة الحلبي بنى داراً بدمشق بأنقاض بيوت الناس فخربت على يد أيوب بن الكامل محمد في سنة (٦٤٧) ، وكان أُسامة قد غرّم عليها أموالاً عظيمة وأخذ أراضي الناس والآلات بدون الطفيف ، وصح فيه القول القائل : الحجر المغصوب في البناء أساس الخراب . وكانت هذه الدار سبب هلاك أُسامة .

تجديد المدن الصغيرة :

من المدن ما نبه ذكره بعد خموله في عهد الدولة الأتابكية والأيوبية مثل حماة فلم يكن لها في القديم نباهة ذكر ، وكان الصيت لحمص دونها ، فلما آلت إلى ملك بني أيوب مصروها بالأبنية العظيمة والقصور الفائقة ، والمساكن الفاخرة ، وفي جوامعها أثر من آثار الصنائع في القرون الوسطى وما قبلها . ومنها ما قام على أنقاض الكاتدرائية القديمة ، ومنها ما حرق وخرب واستعيض عنه مكان آخر ، مثل طرابلس ففي سنة (٦٨٨) فتحت طرابلس وأُخرب سورها وكان من الأسوار العظيمة . وأمر السلطان بتجديد مدينة على مثل طرابلس فبنيت ثم سكنها الناس . ومثل ذلك يقال في غزة فقد قال الظاهري :

إن فيها من الجوامع والمدارس والعمارات الحسنة ما يورث العجب وتسمى دهليز الملك . وكان سور عسقلان عظيم البناء بحيث كان عرضه في مواضع تسع أذرع . وفي مواضع عشر أذرع . وقال ابن فضل الله في بعلبك : إنها مختصرة من دمشق في كمال محاسنها ، وحسن بنائها وترتيبها ، بها المساجد والمدارس والربط والخوانق والزوايا والبيمارستان والأسواق الحسنة . وقال آخر : وبقلعة بعلبك من عمارة من نزل بها من الملوك الأيوبية آثار ملوكية جليلة . وكان على منبج سور بالحجارة المهندسة حصينة جداً . ومن هذه المدن ما أصبح الآن كالقرى مثل المعرة معرة النعمان التي ترى إلى اليوم مسافة ما بين أبوابها ساعة على السائر ، ومثل قيسارية التي قال فيها المقدسي : ليس على بحر الروم بلد أجل ولا أكثر خيرات منها . مر أحدهم سنة أربعين وستمائة بقيسارية فوجد على حائط منها مكتوباً هذه الأبيات :

هذه بلدة قضى الله يـا صا ... ح عليهـا كما ترى بالخراب
فقف العيس وقفةوابك من كا ... ن بها من شيوخها والشباب
واعتبر إن دخلت يوماً إليها ... فهي كانت منـازل الأحباب

وأزهرت طرابلس على عهد اسندمر الذي بنى القلعة وحماماً وسوقاً وأنشأ فيها مجاري المياه الغريبة في تقسيمها إلى جميع طبقات الدور ليأمن ساكنوها من الحمى في الطبقات الأرضية ، وقد عمر فيها سنة (٧٠٩) حماماً عظيماً أجمع من رأوه أنه ما عمر مثله في البلدان ، وعمر قيسارية وطاحوناً وأنشأ لمماليكه بها مساكن حسنة البناء تجري المياه إليها بالقنوات ، ومنها ما يطلع إلى أعلاها وتجري في طباقها ، وعمر بعض القلعة وأقام أبراجاً وهذه القلعة مجاورة لدار السلطنة بطرابلس — قاله النويري

قال الأسدي في سنة أربع وعشرين وثمانمائة عمر ابن بشارة مدينة صور وجعل لها أسواقاً ونقل إليها خلقاً وحصنها ، قال بعضهم : إنها مدينة السواحل بالشام وقال ابن السمعاني : وكان بها جماعة من العلماء .

القلاع والحصون وقلعة حلب ودمشق :

في الشام كثير من القلاع من بناء القرن الخامس والسادس والذي بعده

مثل قلعة صرخد قال ابن تغري بردي في حوادث سنة (٤٦٦) وفيها بنى حسان ابن مسمار الكلبي قلعة صرخد . وكتب على بابها أمر بعمارة هذا الحصن المبارك الأمير الأجل مقدم العرب عز الدين فخر الدولة عدة أمير المؤمنين يعني المستنصر صاحب مصر . وذكر عليها اسمه ونسبه . ومثل قلعة حلب وإن كان تاريخها يُردّ إلى أبعد من هذا القرن والمهم من أبنيتها بدأ في عهد الإسلام .

وقلعة حلب أفخم ما في الديار الحلبية من القلاع بنيت وسط المدينة على أكمة ربما كانت صناعية ، ويحيط بها خندق عظيم كان القدماء يملأونه ماء ليتعذر الوصول إليها إلا من مدخلها ، وهذا من أحسن ما يتصور العقل ، ويقال : إن حلب القديمة كانت كلها مبنية في هذه القلعة ، تعاورتها الأيدي بالبناء في قرون مختلفة وظلت مسكونة إلى سنة (١٨٢٢ م) أيام خربت بالزلازل . يسير الداخل إلى القلعة على جسر بديع أُقيم فوق الخندق ، فيبلغ برجاً خارجاً جعل في واجهته أنواع من نوافذ الحديد البديع ، قيل : إنه من عهد الظاهر غازي ، لما وجد في مدخله من كتابة تاريخها سنة (٦٠٥) مع بعض الآيات الكريمة . وفي دهليز القلعة المتعرج عدة كتابات ونقوش بارزة على الحجر منها صورة نمرين على يمين الباب ويساره من أجمل ما زبرت أيدي النقاشين على الصخور . فإذا دخل المرء من الباب وجد ساحة وآثار عدة شوارع وركاماً من الأنقاض ، بعضها أنقاض جامع ومأذنة ، وأُخرى أنقاض أروقة ، وأُخرى محال لرصد العدو ، وفي الوسط صهريج كبير ينزل إليه بمئة وخمس وعشرين درجة ، وكان بها دير للنصارى ويقال : إن في أساسها ثمانية آلاف عمود . تعاورها الملوك في الإسلام بالبناء والترميم . ومنهم الظاهر غازي الذي بنى على بابها برجين لم يبن مثلهما قط وجعل لها ثلاثة أبواب حديد . وكان كثير من ملوك حلب يسكنونها . وذكر الغزي أن في قلعة حلب آثار عدة مساجد وأنه كان فيها عشرة مساجد . قال الخالدي شاعر سيف الدولة في وصف هذه القلعة :

وخرقاء قد قامت على من يرومها ... بمرقبها العالي وجانبها الصعب
يجر عليها الجو صيب غمامه ... ويلبسها عقداً بأنجمه الشهب
إذا ما سرى برق بدت من خلاله ... كما لاحت العذراء من خلل الحجب

فكم من جنود قد أماتت بغصة وذي سطوات قد أبانت على عقب

ومثل هذا يقال في قلعة دمشق التي سميت (الأسد الرابض) وهي من بناء تاج الدولة تتش سنة (٤٧١ هـ) جعل بها دار إمارة وسكنها، ثم زاد الملوك بعده فيها وسكنها كثير منهم . وكانت دار الإمارة قبله تسمى « القصر » بناها العباسيون بعد أن دكوا الخضراء وقصور الأمويين ، فخرب القصر في بعض فتن الفاطميين . وفي سنة (٦٩١) كمل بناء الطارمة وما عندها من الدور والقبة الزرقاء في قلعة دمشق ، فجاءت في غاية الحسن والكمال والارتفاع ، وأُنشئ فيها قاعة اسمها قاعة الذهب وفرغ من جميع ذلك في سبعة أشهر . طولها من الشرق إلى الغرب ٣٣٠ وعرضها من الشمال إلى الجنوب ١٧٠ خطوة . وقد خربت في أدوار كثيرة ثم أُعيد بناؤها .

ومن القلاع المهمة قلعة بصرى بنيت على مثال قلعة دمشق . وهي أقدم من الإسلام جدد فيها من استولوا عليها بعد في أدوار مختلفة ، دع القلاع والحصون الكثيرة في الشمال والجنوب مثل شقيف ارنون وشقيف تيرون وهونين وتبنين وكوكب وعجلون وقاقون والصبيبة والصلت والهارونية وبيت لاها وحصن أبي قبيس وصافيتا وعريمة ولوقا وتل باشر وعكار وحارم وصهيون وبغراس ودربساك ودركوش واسفونا وبسرفوت وبلاطُنُس وحصن الأكراد وشيزر والمنيطرة والشغر وبكاس وارسوف وبيت جبرين وحبرون وأرتاح والأثارب وبارين وبارة وإعزاز وصرفند وعدلون وبرج الرصاص وحصن الإسكندرونة والتينات وحلبا وعرقا وبُرزية وخناصرة وقسطون وتل اعدى وحصن الحبيس والقدموس ومصيات والكهف والعليقة والخوابي وغيرها من القلاع المعروفة بقلاع الدعوة أي الدعوة الباطنية أو الإسماعيلية . هذا إلى قلاع المدن المشهورة مثل قلعة طرابلس وقلعة حماة وحمص وعكا والكرك والشوبك وصرخد وأذرح وصفد وشميميس . ومعظمها تناطح السحاب بعلوها ، وتشبه الجبال بمتانتها .

بدأ منذ القرن الخامس الغرام ببناء القلاع والحصون لأن المدينة أو الموقع الحربي إذا خليا من حصن يسهل على العدو كل حين أن يجتاحهما . ومن كتاب فاضلي في وصف حصن بيت الأحزان : « وقد عرض حائطه إلى أن زاد على عشرة أذرع وقطعت له عظام الحجارة كل فص منها من سبع أذرع

إلى ما فوقها وما دونها ، وعدتها تزيد على عشرين ألف حجر ، لا يستقر الحجر في مكانه ، ولا يستقل في بنيانه إلا بأربعة دنانير فما فوقها ، وفيما بين الحائطين حشو من الحجارة الصم ، المرغم بها أنوف الجبال الشم ، وقد جعلت سقيته بالكلس ، وأحاطت قبضته بالحجر مازجه بمثل جسمه ، وصاحبه بأوثق وأصلب من جرمه ، وأوعز إلى خصمه من الحديد بأن لا يتعرض لهدمه » .

مثال التخريب في الحصون والبيع :

وكثيراً ما كان ساسة هذه الديار يخربون الأسوار والحصون لغرض من الأغراض، كما خرب عبد الله بن طاهر سنة (٢٠٩) سورمعرة النعمان ومعظم الحصون الصغار . مثل حصن الكفر وحصن حناك وحصن كيسوم وغير ذلك . وكما خرب سلاطين الشام منذ استولى عليها الأتابك زنكي إلى أواخر عهد المماليك الحصون التي استولوا عليها أو التي كانوا بنوها لئلا يعود أعداؤهم فيستولوا عليها . وقد ألف جمهور الناس أن ينقضوا البنيان القديم ويعمروا به بناءهم الحديث . ولهذا أمثلة كثيرة في تاريخ العمران في هذه الديار . فقد ذكر العماد الكاتب أن اللاذقية لما استخلصت من أيدي الصليبيين وقع من عدة من الأمراء الزحام على الرخام ، ونقلوا منه أحمالاً إلى منازلهم بالشام « فشوهوا وجوه الأماكن ومحوا سنا المحاسن » وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة نفيسة قديمة بأجزاء الأجزاع مرصعة ، وبألوان الرخام مجزعة ، وأجناس تصاويرها متنوعة ، ولما دخلها الناس أخرجوا رخامها ، وشوهوا أعلامها .

ولما أرادوا في أواخر القرن الماضي بناء رصيف على طول نهر ذمشق من صدر الباز إلى داخل مدينة دمشق حملوا إليه من ضخام الأحجار التي كانت في قلعتها . وربما هدم بمثل هذا العامل ما كان في أكثر مدن الشام من دور الضيافة التي ابتدعها عمر بن عبد العزيز . وقصر الفقراء الذي بناه نور الدين في ربوة دمشق . ودار العدل التي بناها نور الدين في دمشق وهي أول واحدة من نوعها بناها لكشف الظلامات . وبنى نور الدين جسر كامد اللوز في سهل البقاع ، كما جدد كثيراً من الجسور والخانات وقنوات السبل

في أعمال دمشق وغيرها . ولأهل الخير في كل عصر أياد بيضاء في إقامة الخانات والفنادق بين البلدان ومنها خان بناه علي بن ذي النون الإسعردي الدمشقي بقرب الكسوة أول مرحلة للحج الشامي . وما كان في قمم الجبال من المناور التي كانت توقد فيها النيران للإعلام بحركات العدو في الليل وما كان شيد من أبراج حمام الزاجل لنقل الأخبار في النهار . ومن ذلك دمنة القبتين الماثلتين في قنة جبل قاسيون وكان فيه مرصد فلكي بناه المأمون فدثر في جملة ما دثر . واسم القبتين قبة السيار وقبة النصر . وقبة النصر بناها برقوق على سوار قيل : إنه وجد موضعها ذهباً كثيراً مدفوناً . ومما اشتهر جسر منبج اتخذ في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه للصوائف ويقال : بل كان له رسم قديم .

قلاع الصليبيين وكنائسهم :

دخلت الشام في القرون الوسطى هندسة جديدة عسكرية ، وهي هندسة الصليبيين للقلاع والحصون والدور والكنائس ، ولا سيما في طرابلس وبيروت وعكا . واهتم الصليبيون ببناء القلاع والكنائس في الأقاليم التي احتلوها ولا سيما في طرابلس وصور وأنطاكية وعكا والقدس حتى قال بعض الباحثين : إذا استثنينا الدور الروماني فإنه لم يأت على الشام زمن توفرت الهمم فيه على البناء مثل عهد الصليبيين . فإن كل مستعمرة تجارية في الموانى البحرية كانت تحاول أن يكون لها على الأقل كنيسة وخانات وحمامات . ثم القلاع التي غصّ بها القطر وهي أحسن نموذج للهندسة الحربية في القرون الوسطى . قال فان برشم : إن على طرابلس صبغة المدن الإيطالية أثرت فيها منذ الحروب الصليبية ، كما أثرت هندسة المدن الإيطالية الكبرى في جميع الموانى البحرية في الشام . وكان للطراز الإيطالي التقدم على غيره لأن الطليان أهل البندقية وبيزة وجنوة وطسقانا كانوا أسبق أمم الغرب إلى الاختلاط بسكان الشام للقرب وللعلاقة الدينية بين رومية ونصارى الشرق العربي قبل الحروب الصليبية. وكان عدد الصليبيين من جمهوريات إيطاليا أكثر من غيرهم من الأمم . قال فان برشم : لما كانت سواحل الشام محط رحال الصليبيين ، ونقطة حركاتهم

الحربية ، تشبعت أبنيتها بالروح الإيطالي ، خصوصاً لأن الطليان كانوا إذ ذاك أكثر عدداً في هذه الحملات من العنصر الفرنسي . ومن هذه المدن ما دثر مثل طرطوس وصيدا وصور وقيسارية وعسقلان ، ومنها ما هو باقٍ مثل أنطاكية وبيروت واللاذقية وعكا . وفي مدينة طرابلس من بين المدن كلها يتحلى الروح الإيطالي الباقي من القرون الوسطى في أبنيتها وهندستها . ولا تزال قلعة الحصن أو حصن الأكراد والكرك كما يدعوها فرسان الصليبيين محفوظة منذ عهد الصليبيين على ما هي عليه ، وهي آية في باب الهندسة العسكرية ناطقة بلسان حالها بأن الصليبيين نزلوا الأرض المقدسة . ومن هندسة الصليبيين جامع خليل الرحمن وجامع بيروت وطرطوس الكبير وأرواد وصور وصيدا ودير البلمند قرب طرابلس وكنيسة مار يوحنا في جبيل وكنيسة مار شربل في معاد وكنيسة أنفة هذا إلى غير ذلك من البيع في شمالي لبنان وجوار البترون وقد بنوا نحو خمسين قلعة وحصناً في الكُور التي احتلوها .

قال رنان : الظاهر أن البنايات المربعة الشكل الضخمة الحجم هي من عمل الطليان وفرسان الهيكليين ، وأن البنايات ذات البرج المدور هي من صنع الفرنسيين وفرسان الاسبتاليين ، وكثيراً ما كان تأثير هندسة اليونان البيزنطيين لقلاعهم . وكان القطر غاصاً بها – يعدل ذوق الإفرنج الخاص في هذا المعنى . قال : وفي طرطوس قامت أهم هذه الآثار واستدل بما فيها أن منزل الصليبيين في الشام لم يكن منزل قُلعة ، بل وطدوا أنفسهم على احتلالها احتلالاً دائماً ، وإن في طرطوس بيعة هي أجمل مصنع من المصانع التي بنيت على الطراز الغوتي في هذه الديار .

هندسة البيوت وبيوت دمشق وحلب :

لم يبلغنا أن في القطر دوراً يرد تاريخها إلى ألف سنة حتى نعرف حق المعرفة كيف كانت هندسة المساكن كما بقيت مثلاً بعض دور قنوات في جبل حوران محفوظة على الصورة التي كانت عليها بنوافذها وأبوابها الحجرية . وكما ادعى القرماني أن في اللجاة من البنيان ما يعجز عن وصفه اللسان ، وكل دورها من الصخر المستحدث ليس في الدار خشبة واحدة بل كلها حجارة

سوداء منحوتة تنوف على مائتي ألف دار (كذا) كل دار منفردة عن الأخرى لا يلاصقها جدر أُخرى ، وكل دار فيها حوش وبئر وله باب من حجر إذا أُغلق ووضع خلفه حصاة لا يمكن فتحه أبداً من الخارج . ولكننا على مثل اليقين من أن طرز البناء في دمشق هو كما كان منذ بضعة قرون بل منذ دخول العرب الفاتحين وقبلهم بعصور ، وأن هذا الطراز في بناء بيوت دمشق خلاصة أُسلوب قديم ارتقى مع الزمن حتى بلغ ما بلغ في القرون الأخيرة ومنه مثال حي من المدارس والرُّبُط وغيرها في دمشق .

قال أحد المهندسين المعاصرين: إن التشابه مؤثر بين هندسة دار قديمة ودار عربية ، فقد كانت الدور تشاد ولا تجعل لها نافذة على الشارع ، ويكتفى بطيقان للتهوية ، ولها فناء داخلي تحف به غرف ومخادع وفي وسط الفناء أو الصحن فوارة أو حوض ماء . لا جرم أن المسلمين قد أخذوا عن الرومان هذا الطراز في البناء الذي ينطبق مع هذا على مناخ البحر المتوسط ، ولا نزال نجد فيه مثالاً في الأندلس حيث يسمى الفناء الداخلي باسم « باتيو » أو الفناء المبلط .

وكانت دمشق تعتمد في أبنيتها على الحجر غالباً . وزاد الاعتماد على الخشب والطين في الأدوار الأخيرة . قال المقدسي : إن منازل دمشق ضيقة وأزقتها غامة ، وأكثر أسواقها مغطاة ، ولهم سوق على طول البلد مكشوف ، لا ترى أحسن من حماماتها ، ولا أعجب من فواراتها . هذا في القرن الرابع للهجرة . وقال ابن جبير في القرن السادس : إن أكثر أبنيتها بالقصب والطين . وقال ابن فضل الله في الثامن : إن غالب بناء دمشق بالحجر ودورها أصغر مقادير من دور مصر ، لكنها أكثر زخرفة منها ، وإن كان الرخام بها أقل ، وإنما هو أحسن أنواعاً . قال : وعناية أهل دمشق بالمباني كثيرة ولهم في بساتينهم منها ما تفوق به وتحسن بأوضاعه ، وإن كانت حلب أجل بناء لعنايتهم بالحجر ، فدمشق أزين وأكثر رونقاً لتحكم الماء على مدينتها ، وتسليطه على جميع نواحيها ، ويستعمل في عمارتها خشب الحور بدلاً من خشب النخل ، إلا أنه لا يغشى بالبياض ويكتفى بحسن ظاهره ، وأشرف دورها ما قرب ، وأجل حاضرتها ما هو في جانبها اهـ .

قلنا : وهذا ينافي ما كان يراه العرب في تخير أماكن بيوتهم فقد كانوا اصطلحوا على أن الأطراف منازل الأشراف قال البحتري :

عجب الناس لاعتزالي وفي الأط ـراف تُلفى منازل الأشراف

نماذج من آثار الشراكسة والعثمانيين :

ولذلك كنت ترى في سفح جبل الصالحية والربوة والشرف الأعلى الشمالي والشرف الأدنى الجنوبي من ظاهر دمشق قصوراً أنيقة ينزلها القضاة والحكام وكبار أرباب الأملاك والأشراف ، ولكنها دثرت بالفتن المتواترة ولم تقو على عوادي الأيام حتى نحكم على ما عمله الدمشقيون وأُسلوبهم في هندسة مصانعهم على العهد الإسلامي الأوسط . وقد خربت هذه كلها في عهد العثمانيين ويقول كاتب جلبي : إنه كان في المرجة بدمشق قصور عالية مشهورة في الآفاق لا يتأتى إيفاؤها حقها من الوصف لا سيما أبنية البرامكة وآثارهم فإنها لم تزل باقية إلى هذا العهد (القرن الحادي عشر) وروى الظاهري أن دمشق تشتمل على سور محكم وقلعة محكمة وبها طارمة مشرفة على المدينة بها تخت الملك مغطى لا يكشف إلا إذا جلس السلطان عليه وقال أيضاً : إن ما في الميدان الأخضر في دمشق من القصور الحسنة عجيبة من العجائب وهذا في القرن العاشر .

وقد أنشأ العثمانيون بعض خانات في طريق الشام إلى الروم وفي طريق الشام إلى الحجاز وبعض قلاع أو أبراج ومنها برج قلعة طرابلس فقد كتب على أحد جدرها بعد البسملة « رسم الشريف العالي السلطاني الملكي المظفري سلطان سليمان شاه ابن السلطان سليم شاه لا زالت أوامره الشريفة مطاعة في الأمراء بأن يجدد هذا البرج المبارك ليكون حصناً منيعاً على الدوام وكان الفراغ من عمارته في شهر شعبان المبارك سنة (٩٢٧) » وفي سنة (٩٦٧) أمر السلطان سليمان بتعمير قلاع بطريق الحاج الشامي وتعيين صنجق لكل قلعة واحدة بالقطرانة وثانية بمعان إلى ما وراء ذلك من أرض الشام ، فعمرت ودام الانتفاع بها زمناً طويلاً .

ومن آثار العثمانيين في دمشق التكيتان السليمانية والسليمية والجامعان

السنانية والدرويشية . بنوها على الأسلوب التركي البيزنطي ولهم مثل ذلك في حلب ومنها المدرستان البديعتان مدرسة الخسروية والمدرسة العثمانية . قال سوبرنهيم الأثري : إن عدداً عظيماً من مصانع حلب يرد إلى زمن المماليك والعثمانيين وما عدا الجوامع الكثيرة مثل جامع الأطروش وألطون بغا والطواشي ومناراتها المختلفة الهندسة — وبفضلها تذكّر حلب بصورة القاهرة في هذا المعنى — فإن حلب قد احتفظت بالمستشفى الجميل الذي بناه ارغون سنة (٧٥٥) وبكثير من المخازن والخانات والحمامات والدور والسلسبيلات . وفي هذا المستشفى أفاريز ونقوش من أجمل ما نقش النقاشون ، تزينه فتجعله بهجة للناظرين . ومدينة حلب غنية بمصانعها الجيدة الهندسة ومنها العسكري والديني والمدني وكلها بما زبر عليها من الكتابات مادة واسعة لمن يريد أن يتصور أصول الهندسة لا في حلب فقط بل في شمالي الشام اه . ومن أجمل آثار الهندسة في حلب محراب مدرسة الفردوس التي بنتها ضيفة خاتون التي ملكت حلب ست سنين . ولو كتب البقاء للقصر الذي بناه بقرية بطياس من عمالة حلب صالح بن علي العباسي وقصر الدارين الذي بناه عبد الملك بن صالح خارج باب أنطاكية وقصر مرتضى الدولة أحد موالي بني حمدان وقصر سيف الدولة ابن حمدان الذي بناه بالحلمة من ضواحي حلب وتناهى في حسنه وعمل له أسواراً ، وقد أحرقه الروم في إحدى غزواتهم فلم يعمر بعد ذلك ، أو قصر آخر من قصور الحمدانيين — لو كتبت الأقدار ذلك لساغ لنا أن نحكم حكماً صحيحاً على هندسة دور الشهباء في القديم . والغالب أن هذا الطراز المعروف اليوم منها منقول كما هو الحال في دمشق عن الطراز القديم .

هندسة الجسور :

وفي سنة (٦٩٢) كان الفراغ من بناء جسر نهر الكلب الذي شرع ببنائه سيف الدين أرقطاي ، وكان بناؤه بعد خراب الجسر الذي أقامه انطونيوس الحليم الذي تملك على رومية بعد المسيح بمائة وأربعين سنة . وهو الذي قطع الصخور وبنى البرج ومشى في الطريق الذي على شاطئ البحر الموصل إلى مدينة بيروت ، كما هو مكتوب على الصخر قبالة الجسر القديم مما يلي قبليه

على هذه الصورة : الأمير ادوار قيصر ماركوس اورليوس أنطونيوس الحليم السعيد اغسطس كبير الجرمانيين الحبر الأعظم قطع الجبال المشتملة على نهر ليقا ونهج الطريق مهلاً ولقبه بالطريق الأنطونياني . ولقب هذا النهر بالكلب لكونه بعدما أصلحه أنطونيوس الملك نصب به قائمة (نصباً) من حجر كبير على صورة الكلب وقيده بسلسلة حديد في الصخر وجعلوا قدامه نقيراً لأجل الطعام .

لما أراد نائب الشام في أواخر النصف الأول من القرن الثامن عمارة جسر الدامور الجاري بين صيدا وبيروت ، ندبوا لذلك مهندساً خبيراً بالأعمال الساحلية يقال له أبو بكر بن البصيص البعلبكي وهو الذي عمر جسر نهر الكلب وله غير ذلك من الأعمال الثقال ببلاد طرابلس فعمله على صورة متينة . وعمر الأمير بشير الشهابي بإيعاز من والي صيدا جسراً على نهر الدامور أيضاً فجمع أهل الصناعة إليه فكانوا أكثر من مائة وخمسين رجلاً فأتمه في شهرين وغرّم عليه نحو مائة ألف درهم . وكذلك جسر الظاهر برقوق الذي بناه على نهر الأردن (الشريعة) وطوله مئة وعشرون ذراعاً وعرضه عشرون . وقالت فيه السيدة عائشة الباعونية الدمشقية :

بنى سلطاننا برقوق جسراً ... بأمر والأنام له مطيعه
مجازٌ في الحقيقة للبرايا ... وأمرٌ بالمرور على الشريعه

وعمر قاضي دمشق سنة (٩٣٢) سوقاً تجاه باب جيرون بدمشق فبنى أقواساً يجملون فيها قباب مبنية بالآجر ، إذ رآه أحكم في البناء لأنه لا يحتاج إلى طين ويؤمن من حرقه . وجدد سور قلعة حلب السلطان سليمان في شهر المحرم سنة ثمان وعشرين وتسعمائة وكتب ذلك بالعربية .

القاعات والقصور المعتبرة :

من القاعات في دمشق وحلب ما يرجع تاريخه إلى القرن التاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر ومنها نعرف كيف كانت هندسة القوم في تلك العصور . فمنها القاعة المشهورة بباب جيرون وباب السلسلة أنشأها الأمير محمد بن منجك الذي عمر العمارات الفائقة بدمشق فإنه تأنق في عمارتها

بالقاشاني والرخام وعمر القصر المعروف به في الوادي الأخضر (١٠١١) وذكر الخياري أنه كان في القرن الحادي عشر في المرجة بدمشق قصر مقابل القصر المنجكي قصر الباشا محمد بن الناشف وغير ذلك من العمارات والقصور الفائقة . وكان في الصالحية محل يقال له القصر عمّره أبو البقاء الصفوري المتوفى سنة (١٠٣٥) وكان يقال له صاحب القصر وكان من أحسن المتنزهات وفيه يقول الأمير المنجكي من قصيدة :

أقسمت بالبيت العتيق وما حوت بطحاؤه من حجره وحجونه
ما ضمت الدنيا كقصرك منزلاً كلا ولا سمحت بمثل قطينه

ومنها عمارات ابن الفريخ أمير البقاع (١٠٠٢) وكانت له دار عظيمة خارج دمشق قبلي دار السعادة قال المحبي : لم يرسم مثلها ، جعل بابها بالرخام الأبيض والحجر الأحمر المعدني ، ونقل لها الرخام من الساحل والحجارة من البقاع واستعمل فيها العملة بالسخرة . وفي سنة ١٠٣٤ بنى الأمير منذر التنوخي سرايا عظيمة في قرية عبيه في لبنان وبقي أربعين سنة لم يكملها لزيادة اتساعها وكان البناؤون من اسلامبول ولعلها هي المعروفة بدار الأمير سيف الدين ولا تزال موجودة وقد كتب على باب دارها :

قسماً بمن ضمت أباطح مكة ومنى وزمزم والكتاب المنزل
ما شدتها طمع الخلود وإنما هي جنة الدنيا لأهل المنزل

وأمر الوزير أحمد باشا الكوبرلي الذي ولي دمشق سنة (١٠٧١) بعمارة قاعة معظمة داخل دار الإمارة بدمشق فبنيت كما قال المحبي على أسلوب عجيب ووضع غريب . وقال المؤرخون : إن الأمير بشير الشهابي كان كالأمير فخر الدين المعني يحب البذخ والرفاهية وتنظيم إصطبلاته وبيطرته حتى أصبح مضرب الأمثال في ذلك ، وعمر في بيت الدين قصراً ملوكياً وجلب إليه الماء في ساقية طولها ثلاثة فراسخ . قال بعض المؤرخين : جر الأمير بشير بواسطة رجل دمشقي قناة ماء من ينبوع القاعة بجانب نهر الصفا إلى منزله في بيت الدين من بعد ثلاث ساعات وغرّم على ذلك زهاء مائتي ألف درهم وكانت جميع أهل الأقاليم تحضر في كل سنة يومين تعمل في هذه القناة بغير أجرة اكراماً له . ومدة العمل اثنان وعشرون شهراً .

والمهندسون في سراي بيت الدين إيطاليون والبناؤون دمشقيون وحلبيون وأتراك من الاستانة ، وهي على الطرز التركي الممتزج بالطراز الإيطالي ، أنشأها الأمير بشير عمر الكبير (١٨١٠) وانتهت سنة (١٨١٥) وعلى جوانب هذا القصر أربعة جواسق بديعة وله مدخل فخم يبلغ علوه نحو ١٥ متراً كله بني بضروب الرخام الوطني الغالي الثمن والأجنبي الفاخر ، مزين بنقوش ملونة ، وتمثل أشكالاً هندسية ونباتات وتصاوير شتى ، ولهذا المدخل أفاريز لطيفة الصنع تطيف به على شكل الأقواس ، وفوقه شُرَف بتقاطيع جميلة ، وللمدخل رتاج عظيم ذو مصراعين ، وفي داخل القصر ديوان كبير واسع يعرف بقاعة العمود ، لعمود من الرخام المجزع في وسطه ، كان مفروشاً بالفسيفساء والرخام وهو ملك الحكومة منذ سنة (١٨٦٠)م ولم يبرح عامراً تتعهده بالإصلاح . ومن الأبنية التي اشتهرت قاعة حسين بن قرنق في صالحية دمشق عمرت سنة (١٠٧٧) وكان يضرب بها المثل وهي على الأرجح في رأس العقبة مكان دار بني الشريف دثرت في القرن الماضي . وكان ابن قرنق صدر دمشق وعمر الأماكن البهية من جملتها قصره وقاعته .

ومن الدور القديمة في حلب وهو مما بني في القرن العاشر دار جان بلاط ابن عربو وهي ملك آل إبراهيم باشا ذكر في أعلام النبلاء أن صدر إيوانها مبلط بالقاشاني على اختلاف أنواعه وألوانه على أشكال هندسية وأوضاع بديعة أحكمت فيه الصنعة أيما إحكام قال : إن رؤيتها تذكرك إيوان كسرى وعظمته . وذكر المحبي أن الوزير حسين باشا صاري أحد ولاة دمشق المتوفى (١٠٩٤) عمر القصر المعروف به في طرف الشرف بالميدان الأخضر من دمشق وكان مكانه يعرف بالخاتونية وتأنق في وضعه وغرس فيه أنواع الأشجار من كل صنف وعزّ عليه بدمشق بعض أنواع الفاكهة فجلبه من أماكن بعيدة .

ومن محاسن دمشق الداران اللتان عمرهما في القنوات الأمير منصور الشهابي أمير وادي التيم وابن عمه الأمير علي وذلك على أسلوب متقن محكم وزخرفاهما بأنواع الزخارف والنقوش وجلبا إليهما الرخام من إقليمهما . قال المحبي : ولعمري إنهما أبدعا ونوعا وأجادا في صنعهما .

وذكر المؤرخون أن الأمير فخر الدين المعني جلب مهندسين من الغرب

ولعلهم من إيطاليا ليضعوا له خطط قصوره في بيروت وصيدا وذكروا أيضاً أنه بنى عدة بنايات وقلاعاً وحصوناً كثيرة ، ولما حدث اختلاف بينه وبين بيت سيفا وأتى بنو سيفا أصحاب طرابلس فأحرقوا ونهبوا الشوف قيل إنه اقسم هكذا : وحق زمزم والنبي المختار لأعمرك يا دير بحجر عكار . وهكذا لما فاز على بني سيفا وحاصر قلعة الحصن وأخذها وهدمها ، جعل الجمال بالألوف تحمل الحجارة من قلعة عكار إلى دير القمر ، وبنى جميع الدور القديمة في دير القمر ، ووزع في جدرانها من حجارة عكار ، وهي الحجارة الصفراء الموجودة في الخراج ، وفي جميع بنايات بيت معن القديمة وهي باقية إلى الآن .

قصور القرن الثاني عشر والثالث عشر :

ومن أمثلة البناء الجميل دار أسعد باشا العظم في جوار جامع بني أُمية بدمشق شرع بإنشائها (١١٦٣) وانتهت (١١٧٤) قيل : إن ما أُنفق عليها أربعمائة كيس ، كل كيس بخمسمائة قرش . وهذا أجور العملة ، وأما الخشب والبلاط والتراب وغيره فكله من أملاكه وبساتينه عدا من سخرهم للبناء من الناس . وكان عدد العملة ثمانمائة . قال ابن بدير : إن بانيها جد في العمارة ليلاً ونهاراً وأحضر لها ١٢ ألف عمود خشب ، عدا ما أهداه إياه أعيان البلد . وأوعز إلى الأطراف أن لا يباع القصرمل إلا إليه ، وشغل غالب بنائي البلدة ونجاريها ونقاشيها ، وجلب البلاط من أكثر دور المدينة ، وحيثما وجد بلاطاً ورخاماً وأعمدة وفساقي يبعث بمن يقتلعها ويعطي القليل في ثمنها . وكان على مقربة من مقبرة البرامكة فوق نهر بانياس قصر يقال له قصر الزهرائية مطل على المرجة الخضراء انهدم فأخذ أنقاضه ، وأخذ انقاض طاحون كانت على نهر بانياس في وادي كيوان ونقل من بصرى أحجاراً وعمداً من الرخام ، وأخذ من مدرسة الملك الناصر في الصالحية عمداً غلاظاً وهدم سوق الزنوطية فوق حارة العمارة ، وكان كله عقداً بالأحجار ففكه وأخذ أحجاره ، كما نقل أحجاراً من جامع يلبغا . وأينما سمع ببلاط لطيف أو عمد حسنة يأتي بها شراء وبلا شراء ويشغل العملة بكراء وبلا كراء . قيل : إن داخل هذه

الدار أماكن عديدة لا تشبه الواحدة الأخرى ، وجميعها عمل بماء الفضة والذهب واللازورد والبلاط والرخام العظيم . ونقل بعض السائحين أن ليس مثلها في ملك بني عثمان حتى ولا سراي الملك المعظم . وهذه الدار بما حوت من الفناء والقاعات والردهات والأبهاء والفساقي والفوّارات والحمام من ألطف ما هندس المهندسون في ذاك القرن وكذلك يقال في قصره في حماة وهو على مثال داره في دمشق على صورة مصغرة . والنقوش وأنواع الزينة فيها فارسية . فاستدل من ذلك أن النقاشين كانوا فرساً أو تأثروا بالأسلوب الفارسي . ومن أجمل ما فيه صورة حماة في القرن الثاني عشر تبين منها أنها كانت عامرة أكثر من اليوم على ما يظهر . ودار أسعد باشا العظم في دمشق اشترتها فرنسا ورمتها وجعلتها معهداً للدراسات الإسلامية (حزيران ١٩٢٢) وقد حرقت قاعتها في ثورة سنة (١٣٤٤ ه) . ودار أسعد باشا في حماة اشترتها جمعية وجعلتها مدرسة وهي عامرة أيضاً . ومن أجمل الآثار في دمشق أيضاً خان أسعد باشا العظم وواجهته ورتاجه «بوابتة» وقد عمر هذا الباشا جسر الكسوة من الرأس إلى الرأس وعرّضه . ومن أعظم بيوت حلب القديمة سراي الجلبي كانت كل غرفة منها تضاهي داراً عظيمة استخرج منها مؤخراً خان وعدة دور . ومن أعظم خانات حلب خان الكمرك القديم المعروف بخان محمد باشا الشهيد طوله مائة ذراع في مثلها .

ومن أجمل آثار ذاك القرن جامع الجزار في عكا وداره في البهجة على مقربة منها نسج فيها على مثال الهندسة المصرية في ذاك القرن . ومن البيوت الجميلة قصور بني جنبلاط في المختارة في لبنان وفي الهلالية قرب صيدا وقصر بني شهاب في حاصبيا وسرايهم في راشيا . فإن هذه القصور مثال من تفنن أعيان ذاك الزمان في تنجيد بيوتهم وحسن هندستها . وكانوا يبنون كما قيل بناء الجبابرة وينقشون نقش الصياغ .

وإنا إذا تأملنا الأبنية التي قامت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر للهجرة في مدن الشام نراها طرزاً طليانياً في الأكثر قد لا ينطبق مع روح القطر ومصطلحه في إشادة البيوت منذ القرون الأولى . وقد انتشر هذا الطراز في مدينة بيروت ولبنان أولاً ثم امتد إلى طرابلس ويافا وحيفا والقدس ودمشق

وحلب وحمص وغيرها من المدن . وما دور بني سرسق في بيروت وصوفر ودور بني بسترس والتويني وغيرها في بيروت والدور المعلقة في مدينة طرابلس ودور الجميلية والعزيزية في حلب ومصايف لبنان في عالية وصوفر وبحمدون وبكفيا وشوير وغيرها وبعض الدور المحدثة في دمشق إلا مثال منها . ومن أهم أبنية الشام المحدثة دير الكازانوفا في الناصرة ، ودير الألمان ودير الروس في القدس ، ومدرسة اليسوعيين والجامعة الأميركية وقصر الصنوبر في بيروت. ومحطة السكة الحجازية في دمشق ، ومحطة سكة بغداد في حلب ، وغير ذلك من القصور الخاصة والفنادق والمدارس والملاجئ والمياتم والمستشفيات في القدس وطبرية وبيروت ولبنان وغيرها . ومن أهم دور القرن الماضي في دمشق دار القوتلي وشامية وعنبر وشمعايا واستانبولي والحلبوني . ومن الدور الحديثة قصر الإمارة الجديد في عمان سموه قصر رغدان . ويسرع البلى إلى ما كان بناؤه منها من الخشب والطين أو بعضها منهما على الأغلب . وأكثر دمشق كانت كذلك ظاهرها تنبو عنه العين والزخرف في داخلها قال البحتري :

وتأملت أن تظـــل ركـــابي بين لبنان طُلَّعـــاً والسنير
مشرفات على دمشق وقد أعـ ـرض منها بياض تلك القصور

ومع أن المقالع قريبة من دمشق وفيها ضروب الحجر الجميل من أبيض ومائل إلى الصفرة أو الحمرة ، فإن القوم يستسهلون أو يسترخصون البناء بالخشب واللبن أو الحجر الأسود البركاني فيبنون به كما يبني أهل حمص بل أهل كل بلد كانت الحرار السوداء قريبة منهم . وأجمل الحجر الحجر الرملي في بيروت وحجر حلب . ولم يزل بناء بيت المقدس — كما قال القاضي الفاضل — من الرخام الذي يطرد ماؤه ، ولا ينطرد لألاؤه ، قد لطف الحديد في تجزيعه ، وتفنن في توسيعه ، إلى أن صار الحديد الذي فيه بأس شديد ، كالذهب الذي فيه نعيم عتيد ، فما ترى إلا مقاعد كالرياض لها من بياض الترخيم رقراق ، كالأشجار لها من النبت أوراق . وإن بعض القاعات إذا كتب لها البقاء فلأنها بنيت بالحجر الصلب وتعاورتها أيدي العقلاء فرمتها يوم احتاجت إلى الترميم بطارئ طرأ عليها .

أسباب الخراب والعلة في قلة قصور الأفراد :

قلّت في الشام قصور الأفراد من التجار والصناع والزراع كما تشاهد في الغرب مثلاً ، لأن السكان كانوا يفنون في كبرائهم فلم يكن شأن من مظاهر النعمة والغبطة مدة قرون لغير أرباب الدولة أو من كان يعد من جملتهم وكان سائر الناس يحاذرون أن تنشأ لهم شهرة في الثروة ، والثروة تتجلى في الدار والفرش والدابة واللباس ، فيتظاهرون بالفقر لينجوا من مخالب العمال وفسدت الأذواق في البناء وحسن الذوق تبع للحضارة في الأمة ، فاذا تأخرت حضارتها كان الذوق من أول ما يفسد فيها . ولذا كان الناس يخربون العامر ويبنون بأنقاضه . وكم أدركنا وأدرك آباؤنا وأجدادنا من أثر بديع سطت عليه يد خرقاء لنسل حجارته . وكم من كتابة تاريخية عفي أثرها جهلاً وغباوةً . اجتاز القاضي أبو يعلى المعري ببلدة شياث ظاهر معرة النعمان والناس ينقضون بنيانها ليعمروا به موضعاً آخر فقال :

مررت برسم في شياث فراعني ... به زَجل الأحجار تحت المعاول
تناولها عبل الذراع كأنما ... رمى الدهر فيما بينهم حرب وائل
أتتلفها شلّت يمينك خلّها ... لمعتبر أو زائـر أو مسائل
منازل قوم حدثتنا حديثهم ... ولم أر أحلى من حديث المنازل

والعلة العظمى في نزول الدمار ببيوت الأفراد أنها أسرع عرضة للتبدل أكثر من المصانع العامة بالخراب والانتقال من يد إلى يد بالإرث والتقسيم ويتحيفها ما يتحيف المصانع من زلزال وتخريب بأيدي الفاتحين والغزاة. قال بنيامين في رحلته : وقد أصاب حماة هزة أرضية منذ عهد قريب (٥٥٢ هـ) اهلكت خمسة عشر ألفاً من سكانها في يوم واحد فلم يبق منها إلا سبعون نفساً . وقال أبو الفداء في هول هذا الزلزال : ويكفي أن معلم كتاب كان بمدينة حماة فارق المكتب وجاءت الزلزلة فسقط المكتب على الصبيان جميعهم قال المعلم فلم يحضر أحد يسأل عن صبي كان له هناك .

وزلزلت الأرض سنة (٥٩٧) فهدمت مدينة نابلس فلم يبق فيها جدار قائم ومات تحت الردم ثلاثون ألفاً وهدمت عكا وصور وجميع قلاع الساحل

وامتدت إلى دمشق فهدمت أكثر الكلاسة والبيمارستان النوري وتهدمت بانياس وهونين وتبنين . وخرج قوم من بعلبك يجنون الريباس من جبل لبنان فالتقى عليهم الجبلان فماتوا بأسرهم وتهدمت قلعة بعلبك مع عظم حجارتها ووثيق عمارتها وامتدت إلى حمص وحماة وحلب والنواحي وأحصى من هلك في هذه السنة على سبيل التقريب فكان ألف ألف إنسان ومئة ألف إنسان قاله في ذيل الروضتين ، ولم يكن زلزال سنة (٥٦٥) أقل من هذا فقد أخربت دمشق وبعلبك وحمص وحماة وشيزر وبعرين وحلب وتهدمت أسوارها وقلاعها وسقطت الدور على أهلها وهلك منهم ما يخرج عن الحد وأتى الخراب على حلب فأتى على سورها وجوامعها .

الاحتفاظ بالعاديات والمصانع :

وبعد فقد علمنا بما مرّ بنا أن الشام وافر المصانع أبقت فيه كل أمة وكل جيل أثراً من غناها وعظمتها ، وأن الخراب يتحيف أكثر هذه العاديات لأن حب الاحتفاظ بالقديم قد ضعف فينا . ونرى الشام لا يحتفظ بآثاره وينميها إلا يوم تنشأ فيه إدارة للعاديات يكون سلطانها نافذاً على الكبير والصغير كما فعلت مصر منذ أمد ، فاحتفظت بالبقية الباقية من أعمال الغابرين ، وخدمت أحباب الآثار وغلاة الهندسة من المحدثين . ولا يبحث عن العاديات إلا إذا توفر للباحثين العلم بالآثار على أحدث الطرق العلمية ، حتى إذا استخرج شيء منها يضنّ به فلا يصدره إلى القاصية بل يحفظ في دور الآثار تراث الأجداد . وأهم من هذا وذاك أن يتربى في الأمة الذوق في الجمال ، وينتشر العلم بالصنائع النفيسة حتى بين الأطفال ، ويعرف كل وطني معنى هذه التذكارات المطبوعة بطابع الأجداد ، المنبعثة من أرجائها ريح فضائلهم ، المشبعة بأنوار نبوغهم ، الصادرة من فيض قرائحهم وعبقريتهم ، وعندئذ يصبح الشام كله متحفاً نفيساً دونه أجمل المتاحف ، وأفخم بيت يجمع المفاخر والمآثر .

انتهى الجزء الخامس من خطط الشام

ويليه الجزء السادس وأوله التاريخ المدني — البيع والكنائس والديرة



الجزء الخامس من خطط الشام

تم طبع هذا الجزء على مطابع دار القلم بيروت ص. ب ٦٦٦٤